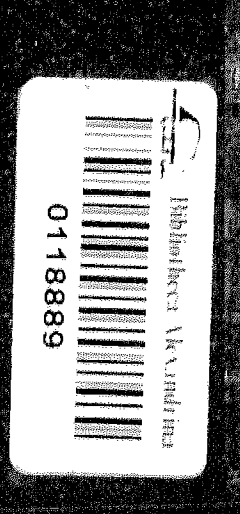

Bibliotheca Alexandrina
0118889







حسيب الحلوي
ماجستير في الآداب

الأدب الفرنسي في عصره الذهبي

مجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ، ولنشأة الأدب الكلاسيكي فيه وتطوره ، ولحياة أدبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم ، مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم .

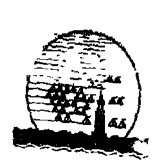
الجزء الثاني







حسيب الحلوي
ماجستير في الآداب



الأدب الفرنسي
في
عصره الذهبي

مجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ، ولنشأة الأدب الكلاسيكي فيه وتطوره ، ولحياة أدبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم ، مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم .

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٩٥٦

مقدمة الطبعة الثانية

نقدم بين يدي القراء الكرام الطبعة الثانية من كتاب «الادب الفرنسي في عصره الذهبي»؛ وقد استجبنا لرغبة الكثيرين من اصدقائنا فجعلناه في اجزاء ثلاثة ليسهل تداوله في ايديهم واملنا ان تحقق هذه الطبعة الهدف الذي رسمناه والنفع الذي رمينا اليه والله سبحانه ولي التوفيق

المؤلف

الدور الثاني

دور التفتح والازدهار

١٦٦١ - ١٦٩٠

استعرضنا لك في الدور الاول من القرن السابع عشر حالة فرنسا السياسية والاجتماعية ، فرأيتها تنعم بالأمن والاستقرار حيناً ، وتعاني الخوف والفوضى حيناً آخر ورأيت امورها تؤول اخيراً الى وزيرين كبيرين قبضا بيد من حديد على شئون الحكم ، وخضدا شوكة العدو في الداخل والخارج ، وكسبا لفرنسا حروبا كثيرة ومكنا لنفوذها في الدول المجاورة . ورأيت الشعب مع هذا كله يشكو ويئن ويصخب ويثور ، فقد اثقلت الحرب كاهله واذوت نضارته ، ثم جاءت سياسة مازاران المالية السيئة واطماعه الكثيرة ، فتلاحمت على الأمة الكروب ، وطبّق البؤس الآفاق ، وشري الشر بين البرلمان والحكومة واندلعت نيران ثورة لاهبة ازعجت الملك الصغير لويس الرابع عشر عن قصره وكادت تعصف بعرشه . فلما كبر لويس لم تكن سياسة وزيره خافية عليه ، ولكنه لم يشأ ان يأخذ فوق يده ، فوكل اليه امور الدولة حتى وافته منيته عام ١٦٦١ فمات وهو ريّان الفؤاد من اطماع الدنيا . بعد ان وسع في حدود فرنسا واقام الأمن والسلام في ربوعها (١) .

كان الملك الشاب يفكر في نفسه ويروز قواه لتسلم الحكم . ولكن احداً لم يسبق الى وهمه ان في امكان هذا الفتى اليافع الذي ربي بعيداً عن شئون الدولة ان يحمل على عاتقه اثقالها ويدير بنفسه امورها . بيد ان لويس ما كاد يحزم امره حتى اعلن وزراءه برغبته في ان يتسلم مقاليد الحكم ، ثم استمر اربعة وخمسين عاماً يأمر وينهى ويدير دفة البلاد في ارادة وجد وحزم (٢) ؛ كان يخشى ان يغلبه على امره وزير فيأفل نجمه كما افل نجم ابيه بجانب ريشليو ؛ وكان نفور الشعب من مازاران يحمله منذ حداثته على التفكير . يقول

(١) راجع ص ١٤-١٦ من هذا الكتاب ثم مادة Mazarin من L.U.
(٢) مادة Louis XIV من L.U.

في مذكراته : « كان اسم الملوك الكسالى وأمناء القصر وحده يؤلمني ان يُذكر في حضرتي وانا ما زلت فتى حدثاً . . . لقد عزمت خصوصاً على الا أدع احداً غيري يقوم بواجبات الملك مادمت احمل لقبه . غير انني اردت ان يساهم في انجاز اوامري عدة اشخاص حتى اجمع سلطاتهم كلها في يدي . . . منذ ذلك الحين فرضت على نفسي ان اعمل كل يوم مرتين بانتظام ، وفي كل مرة ساعتين او ثلاثاً ، مع مختلف الاشخاص ؛ دع عنك الساعات التي كنت أقضيها وحيداً ، والوقت الذي كنت اوليه الشئون الخاصة اذا عرضت (١) . »

كان رأس ما عني به الملك الجديد تنظيم وزارة المال ؛ وقد كان على علم بسوء الادارة والتبذير اللذين عرف بهما وزير المال « فوكيه (٢) » ، فعزله وأغرمه مالا كثيراً ؛ ونصب مكانه رجلا مصلحاً هو كولبير ؛ ثم التفت الى مرافق الدولة يثمرها وينميهـا : شجع الزراعة والصناعة والتجارة والاعمال الحرة ؛ ونظم البحرية والجيش ، لأنه كان يريد ان يوقع الاحترام والهيبة في قلوب جيرانه كما أوقعها في قلوب رعاياه : فهلل النـاس للاصلاح وتباشروا بالعهد الجديد (٣)

وكان لويس الرابع عشر يعتبر نفسه ممثل الله على الارض ، وكان في الحق الدولة كلها . الجميع انحنوا امامه وانقادوا لأرادته : الأشراف ورجال الدين والبرلمان والشعب . لم يبق للاشراف وامراء الاقطاع تلك البسطة في النفوذ ، وتجمع السلطان والاجلال كلها في شخص الملك . فقد كان لويس الرابع عشر يحب ان يستأثر بكل شيء ، ويكون الباعث على كل عمل ؛ ولعلهم من اجل هذا كانوا يلقبونه « بالملك الشمس (٤) » فقد كان مصدر الاشعاع في كل ما يتصل بحياة الفرنسيين العامة وآمالهم . وكانت فكرة الاستبداد مؤتلفة في خاطره مع فكرة التنظيم ؛ فالملك يستبد ليكون مركز الدائرة تنبعث منها الاقطار في تناسق واطراد ، وقد قاده كلفه بالحكم المطلق الى ألا يتسامح مع من لا يرى رأيه في الدين ولا يصدر عن عقيدته ، فرفض عهدة «نانت» واضطر عدداً كبيراً من البروتستانت الى الهجرة ؛ واضطهد الجانسنيين وهدم ديرهم . وخاض لويس الرابع عشر حروبا طوالاً حالف التوفيق معظمها ، واظهره للامم المجاورة ملكا عظيما واسع النفوذ (٥) .

(١) Le siècle de Louis XIV ; v : I ; P : 24 (٢) Fouquet
(٣) Le siècle de Louis XIV, v : 2, P : 6 ثم مادة Louis XIV في L.U.
(٤) Le roi Soleil راجع كلمة Soleil في L.U. (٥) مادة Louis XIV في L.U. ثم Malet 267–268

وفي عهده اضافت فرنسا الى مجدها السياسي امجاد حضارة عزيزة المثال . لقد مثلت ، كما يقول « تين » ، الدور الذي مثلته ايطاليا في القرن السادس عشر ، فكانت موئل الاناقة والظرافة والافكار الدقيقة والذوق السليم (١) . لقد علمنا كيف نشأت هذه الحضارة وكيف آتت اكلها الطيب قبل ١٦٦٠ ، وفي عهد ريشيليو ومازاران ، ورأينا الصالات الأدبية قد اصبحت مباءة الحياة العقلية والفنية حين ذاك . فلما اضطلع لويس الرابع عشر بالحكم تبدّلت الامور ، واصبح القصر الملكي هو مركز السيادة الادبية والاشعاع الفكري في البلاد ، واليه يختلف الشعراء والناثرون والفنانون ليزاحموا طبقة النبلاء . واصبح العمل لتدعيم المجد الملكي هو الواجب الاول على كل فرنسي شريف . لم يكتف الملك بتركيز الثقافة والفن في شخصه ، بل كان الدافع الاول لتوحيدها وتنظيمها . كان هو ووزيره كولبير يحبان الوحدة والنظام في كل شيء : في الآداب والفنون كما في الادارة والسياسة . ان مبادئ المدرسة الاتباعية اصبحت الآن بفضل الملك ووزيره قوانين صارمة يحرص الادباء على مراعاتها ، وتوطد الهيآت العلمية نفوذها : المجمع العلمي الذي اسسه ريشليو ، واكاديمية النحت والتصوير التي اسسها مازاران يعملان على اشاعة الوحدة والنظام الى جانب مجامع العلوم والهندسة والنقش والموسيقا . كل اولئك كان يعمل على توطيد الاحترام للمبادئ الاتباعية وتمكين سلطانها في العقول (١) . وتفتحت اكمام الادب عن نفائس الازهار ، حتى ليعتبر المحققون حكم لويس الرابع عشر الفعلي عصرَ الآداب الفرنسية الذهبي ، عصر الروائع الاتباعية التي كانت موضع اعجاب الناس من فرنسيين واجانب ، والتي اصبحت نماذج لا يحتذي الادباء غيرها خلال قرن كامل (٢) . كانت فرنسا ، كما يقول المؤرخ الانجليزي الكبير : ماكولي Macauly ، تصدر قوانينها الادبية الى العالم اجمع . وأخص ما يمتاز به الانتاج الادبي على تنوعه هو تمكن اربابه في الآداب القديمة وشدة احترامهم للقدامى واعتبارهم ما خلفوه من الآثار الادبية روائع لا تجارى . ثم انهم كانوا جميعاً يؤمنون بفضل التنظيم والتنسيق ، كما كانوا يوجهون التفاتاً خاصاً الى وضوح الاسلوب وبساطته . وانك لتجد عندهم جميعاً غريزة السمو والنبل ، فالكاتب - شاعراً كان ام ناثراً - يحترم نفسه ويحترم قارئه ، فلا يسفّ ، ولا يتبذل ، بل يحتفظ

(١) Malet 267—268

(٢) مادة Louis XIV في L.U. ثم Malet 268—270

بوقاره وجلاله احتفاظاً قلما وقعت على نظير له في آداب العالم . العظمة والنبل والجلالة هي شارات الملكية التي تركت طابعها على آداب العصر . فقد كان تأثير لويس الرابع عشر بليغاً على رجال البيان في ايامه : كان مرهف الذوق ، كلفاً بالمتع العقلية الشريفة ، تأثلت فيه طباع الكرم فبالغ في تشجيع الادباء وتقريبهم . وكثيراً ما اهدى اليهم والطفهم [1]، بل ان منهم لمَن وظف له راتباً وافاض عليه من اكباره . كثيرون منهم استقبلهم في قصره على قدم المساواة مع النبلاء ، وآخرون كانوا من خاصة اصحابه . لم يصحّ انه آكل ذات يوم الشاعر العظيم موليير ، ولكن من المؤكد أنه وافق على ان يرأس حفلة تعميد لابنه وهو شرف اكبر ، وأنه تدخل فأمر بتمثيل مسرحية له حظر اخراجها البرلمان . وقد كان للرعاية الملكية الكريمة التي حظي بها العلماء والمفكرون وحاكة الشعر نصيب كبير في رفع مستواهم المادي والمعنوي ، تلك الرعاية التي غمرهم بها وأشهدها الناس في ظروف متعددة [2] . وكانت الروائع الادبية تؤلف مجموعة كاملة متناغمة ، فما من نوع اغفله ادباء هذا الدور تقريباً : وفي طليعتهم نجد اربعة شعراء عظام لا يمكن ان نفصلهم عن بعضهم اذ كانت تجمعهم صداقة وثيقة العرى ، وهم : بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين . الاولان باريسيان ، والآخران طرأ ا على العاصمة من الاقاليم [3] ؛ كلهم قـرّبه الملك واجازه ، عدا لافونتين ، فقد كانت سيرة هذا الشاعر تحول دون تقريبة ، ولكنه لم يخل في شيخوخته من رعاية كبير أطاب عطاءه وأجمل معونته [3] . والى جانب هؤلاء الاربعة نجد ثلةً من النوابغ ، منهم من تقدم قليلا ومنهم من تأخر قليلاً ، نذكر منهم : بوسيه ، فينيلون ، فليشيه في الخطابة ؛ ولا برويار ولاروشفوكو في الادب الاخلاقي ؛ وسان سيمون ورتز في التاريخ ؛ وبوسان ولولوران ولوبرون وبرّو ومونسار وجيراردون وبيجه في الفنون [4] . احتضن لويس الرابع عشر هؤلاء الشعراء والفنانين على غير طريقة الملوك الذين انما يفعلون ذلك استدراراً للمدح وتوطيداً للسلطان ، فقد كانت للرجل حاسة فنية رائعة تحفزه الى تقريبهم وتشجيعهم . وقد فاض سيبه حتى شمل عدداً كبيراً من الاجانب ، فيهم الاديب والعالم ورجل الفن وأمر فقدمت اليه قائمة تحتوي ستين اسماً فاز بعض اصحابها بالجوائز السنية وفاز الآخرون بالرواتب ، كل حسب منزلته وكفايته[5]

---

(١) برّهم (٢) المصدر الاخير (٣) Le siècle de Louis XIV v 2. P : 47
(٤) راجع L.U. مادة Louis XIV (٥) مقدرته .

واحتياجه ؛ كم كان هؤلاء النوابغ الاعلام يدهشون حين تفاجئهم رسائل القصر ترجوهم ان يتقبلوا يد الملك الخضراء الذي لم تشأ المقادير ان يكون آمرهم ، وتتحفهم بالمال والالطاف (١) ! وعلى الجملة فاذا كان لنا ان نخلص من سيرة هذا العاهل الكبير الى مغزى ، فانما نخلص الى ان باستطاعة الملوك والرؤساء ان يفعلوا كثيراً في سبيل العلوم والفنون ، اذا صادفت من قلوبهم هوى ، وما عليهم إلا ان يريدوا ويفعلوا ؛ واذا كان لنا ان نعلق برأي على ازدهار الآداب في القرن العظيم فانما نلفت انظار القارئ الى اثر الرعاية التي يلقاها رجال الفكر في شحذ قرائحهم وحفز هممهم .

بوالو BOILEAU

احد اعلام الادب في فرنسا ، بل في اوروبا كلها . وهو نموذج كامل للأديب الذي لا يعيش الا لفنّه ورسالته ، فحياته بسيطة رتيبة ، حياة عزب لازمَ بيته اكثر وقته ، ولم يغادر مدينته الا في القليل النادر .

ولد في باريس عام ١٦٣٦ من اسرة بورجوازية يشتغل بعض افرادها بالتجارة والقضاء ، وفقد امه وهو ابن عامين ؛ وقد اعده ابوه لخدمة الكنيسة ، ثم عدل به الى دراسة القانون ؛ ولكنه كان يميل الى القريض ، وقد انشأ بعض بواكيره في السابعة عشرة من عمره ، فلما وافت المنية اباه ١٦٥٧ ورث عنه شيئاً من المال اتاح له ان يتوفر على هواياته الادبية . فكان هذا الفتى اليافع يعيش من دخله الموروث بعقل وتدبير عجيبين كان موفراً لا عن بخل ، ولكن ليضمن لنفسه حياة ادبية على النحو الذي يحب ، فيصون وجهه عن مسألة الاغنياء ومحاسبة الناشرين والكتبيين . وإلا فقد كان الرجل اصفى معدناً وأرق طبعاً من أن يبخل ، وهو الذي اراد ان يتنازل ذات يوم عن مرتبه للشيخ كورني ليصلح من سوء حاله ، واشترى مكتبة احد المحامين المشهورين ليقيله من عسرته ، ورضي منه ان يتركها في حوزته مدى الحياة !

Le siècle de Louis XIV, v 2, P : 11–12 (١)



بوالو

ما لبثت اواصر الصداقة ان توثقت بين شاعرنا وموليير وراسين ولافونتين، كوكبة من النوابغ احاطتهم الاجيال المتأخرة بهالة من الاجلال والقداسة ، ولكنهم كانوا حين ذاك رفقة احراراً مرحين عابثين ، يجتمعون في حانة او غابة او منزل ، ليشربوا او يطربوا او يتناشدوا القصيد . وفي تلك الاثناء كان بوالو يكتب «اهاجيه (١) » فتذيع في الآفاق ، فيتطلع الناس لرؤيته ويتجاذب الأعيان زيارته لهم ويتهادونه في حفلاتهم ومآدبهم ؛ وهو لا يأنس اليهم وكثيراً ما كان يتحاماهم . غير انه لم يستطع ان يتوارى عن عين الملك الذي عرف بفهمه وسلامة ذوقه . وقد مدح لويس الرابع عشر كما جرت العادة آنذاك ، ولكنه حافظ على استقلال رأيه وكامل صراحته في موضوع اختصاصه : فلم يتنازل عن فكرة ولا تزعزع عن رأي في الأدب لكائن من كان ، ولا للملك نفسه . وتنتهي الفترة الاولى من حياته الأدبية عام ١٦٦٩ ، فرغ فيها من كتابة اهاجيه ، وتصدى المتشاعرين فأخزاهم ، وللشعراء العظام فاشاد بذكرهم ونافح عنهم . وتمتد الفترة الثانية الى عام ١٧٧٧ ، كتب فيها « الرسائل المنظومة (٣) » و « منصة الخطابة (٤) » ومنظومته الجليلة « فن الشعر (٥) » . كان بوالو يقضي ايامه مع اصدقائه الشعراء في منزل حباه به الملك ، وكان يتردد على القصر بين حين وآخر . وقد خصص له راتب حسن ، ثم انتدب ليكون مع صديقه راسين « مؤرخ الملك » ؛ ولكننا لا نعرف شيئاً عن مذكراتهما التي بادت في حريق . اما آثاره في الفترة الأخيرة فهي تؤلف بمجموعها دفاعاً عن نظريته التي بسطها في اشعاره السابقة وتنتصر للقدماء في المعركة التي نشبت في الدور الاخير من القرن السابع عشر بين « انصار القديم وانصار الحديث » .

لم يكن المجمع العلمي ، قد فكر بمد فيه ؛ اذ كان اكثر اعضائه من السخفاء الذين اعتادوا ان يشغلوا المكان الاول في حياتهم ، فاذا ماتوا انطفأ ذكرهم كأن لم يكونوا ؛ وكان بوالو قد سخف هؤلاء « الخالدين » باهاجيه الخالدة ، فكانوا حربا عليه كما كانوا حربا على كورني ولافونتين واكثر النابهين في ذلك العصر ؛ حتى تدخل الملك وفرضه عليهم فاصبح احد اعضاء المجمع ، ولكن ذلك لم يتم الا عام ١٦٨٤ ، اي بعد ظهور « فن الشعر » باحد عشر عاماً !

---

(١) Les satires (٢) Les Epitres (٣) Le Lutrin

(٤) L'Art Poétique

وفي سنة ١٦٩٦ توفي راسين ، فاعتزل الشاعر القصر والناس ، ولازم بيتـــه ، يستقبل فيه اصحابه وبعض المعجبين به ، ويدعوهم الى مائدته : كان مـولعاً بالشهي من الاطعمة وبالخمور المعتقة والعشراء الاخيار . واصطلحت عليه الاوجـاع ، فكنت تراه مقطباً حيناً راضياً احياناً . واتهم بالميل الى الجانسنيين لما كدته الجزويت ؛ ولكنـــه في الواقع لم تربطه بالاولين الا بعض الصداقات الخصوصية ، ولم يكن يفهـم شيئاً من تلك الخصومة الدينية بين الطرفين ، بل كانت في رأيه معركة كلام باطلة : لم يكن وجود الله عنده حقيقة دينية بقدر ما هو حقيقة عقلية وضرورة منطقية ، فهو الى ديكارت اقرب منه الى الفرق الدينية على كل حال .

وتوفي بوالو عام ١٧١١ آخر الشعراء الذين في طبقته ؛ ومشى بجثمانه موكب فخم جليل « واذن ، فقد كان لهـــذا الرجل الذي لم يعف احداً من لذعاته ، كثـــير من الاصدقاء ! » هكذا صاح عابر سبيل لما رأى الموكب يسير [1] ! !

ادبه : — لا شك ان بوالو فنان عظيم ، ولكنه لم يكن شاعراً عظيما . كل ما أثر عنه لا ينم عن عاطفة فياضة ولا عن خيال وثاب ولا عن الهـام . غير انه كان على حظ وافر من حواس الفنان ومقدرته على الأداء : تلفت نظره ظواهر الاشياء ، فيستحضرها امامك بنصها وفصها ؛ ولكنه لا يغوص الى ماوراءها ولا يحاول ان يستنطقها ؛ فآثاره صور واقعية لما تقع عليه العين ويدخل في نطاق التجاريب من الاشياء . انهـــا احاسيس بورجوازي من باريس ، عرف مدينته معرفة جيدة منذ طراوة عوده ، بشوارعها وقصورها ومعابدها وازياثها وسكانها ، فلا تفوته منها كبيرة ولا صغيرة . من هـــذه الانطباعات والملاحظات صاغ الرجل بعض الاهاجي وشطراً كبيراً من « منصة الخطابة » هنـا تجد بوالو الحق ، بوالو الفنان المبدع ، الذي يروعك بصدق تصويره وقوة تعبيره ، واحيـاناً بجافي صراحته . أفشعر هذا ؟ نعم ، اذا قبلنا ان تتسع حـدود الشعر للواقعية الخالصة . غير انه لاجدال في ان هذا فن عظيم ، بكل ما فيه من احترام عميق للنموذج ، ومن امانة في الصب والصياغة . كان بوالو ينظم في ثقة ويسر ، ولكنه كان لا يرتضي غير القوافي الغنية الرصينة المعبرة . وقد أوتي سمعاً مرهفاً يهـتز لنبرات الاوزان ونأمات الالفاظ .

---

(١) رجعنا في هذا الموجز عن حياة بوالو الى : مادة : Boileau في L U. والى Le Lutrin et l'Art Poétique P : 4 والى L.T. 240—242 والى Des granges 115

وعلى الجملة ، فقد كان بوالو فناناً ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولكن مادة شعره قريبة ، وميدان قريحته ضيّق . وانما كان عظيماً بجمال صياغته وصدق تصويره (١) .

منصّة الخطابة Le Lutrin : -- هي قصيدة من « الشعر الحماسي الهازل (٢) » تقع في ستة اناشيد ، ظهرت الاربع الاولى منها ١٦٧٣ ، وظهرت الاثنتان الاخريان ١٦٨٣ . وقد استوحى الشاعر موضوعها من معركة حقيقية جرت في احدى الكنائس بين رجلين من رجال الدين ، وهما الخازن والمرتّل ، بسبب منصة الخطابة التي كانت تنتصب في وجه الجوقة فتشوّه منظرها ؛ فلما ترامى نبأ هذه المعركة الى بوالو صمّم على ان يتخذ منه دعابة فنية سارّة ، وان ينهج في دعابته منهجاً جديداً . فقد كانت طريقة السخرية قبل ذلك ان يعمد الكاتب الى الابطال العظام فينسب اليهم بعض الحماقات والسخائف ، وان يتناول موضوعه هذا باسلوب مهلهل لا يناسب جلال الموضوع . فلما جاء بوالو اراد ان يختار اشخاصه من الصعاليك واوشاب الناس ، وان يهزأ بهم بان يضع على السنتهم عبارات جادة نبيلة تدور على اعمال تافهة مضحكة . هذا الاختلال والتباين بين الاشخاص الخاملين والمعرض الضخم الذي تبرز فيه خصوماتهم الحقيرة ، وفّق الشاعر في التعبير عنه كل التوفيق . وفي هذه القصيدة نجد اكثر الاشعار التي خلفها بوالو سهولة وانسجاماً وقوة تعبير (٣) :

في الانشودة الاولى تريد « الفتنة » ان تعكّر صفو الكنيسة ، فيقرر اشياع الخازن ان يعيدوا ليلاً منصة الخطابة الكبيرة امام منصبة المرتل . وفي الانشودة الثانية نجد ثلاثة محاربين شجعان قد انتدبوا لهذا العمل : الحلاق ، وخادم الكنيسة ، ومصفف الشعر المستعار الذي انتزعته من ذراعي زوجته يمضي في مهمته . عندئذ تطير « الفتنة » وقد دارت فرحها في رسل صيحات الانتصار والسرور . ولكن « الليل » في الانشودة الثالثة قد عزم على ان يعترض سبيل هؤلاء المتآمرين الذين كانوا يسرعون الخطو الى ما نذروا انفسهم له . فاذا دخلوا مخزن الامتعة المقدسة وامسكوا بالمنصة ، رأيتهم فريسة الذعر من صيحات بوم يطفىء عليهم النور ويدعهم في حيرة ويضطرهم الى الفرار . بيد ان الفتنة تتقمص جسم احد رجال الكنيسة وتقدم اليهم وتحفزهم على الثبات . فيرجعون ادراجهم ويحملون المنصة ويثبتونها امام منصبة المرتل . فاذا كانت

Héroi—comique (٢)　　L T. 245—246 (١)

Boileau : Préface : P : 1—7 (٣)

الانشودة الرابعة رأيت المرتل يستيقظ من حلم مخيف . فلما اقبـــل الفجر ، رأيته ينهض من فراشه ، ويتجه الى مكانه في الكنيسة ليتحقّق من وجود المنصة الضخمة امامه . انه ليتميز غيظاً ويتحرّق للانتقام ، ويبادر الى اعضاء المجمع الكنسي فيوقظهم ، ويغريهم بحفلة غداء فخمة بالاجتماع والتشاور ، ثم بالحكم على المنصة بالتحطيم . واذ بلغ الخبر الخازن في الانشودة الخامسة ، جمع حزبه وذهب بهم الى قصر العدالة ليستشيروا « الحصام » الذي يتنبأ لهم بالنصر بعد معارك طويلة . اما الكهنة فقد اسرعوا بدورهم الى القصر ؛ فاصطدموا بجماعة الخـازن ، فنشبت بين الفريقين معركة ؛ بدأت على الدرج ، وانتقلت الى حانوت كتبي ؛ فاصبحت الأسفار (١) الثقيلة قذائف يتراشق بها المتحاربون. وانجلت المعركة عن هزيمة المرتل واشياعه ، فجاء بنفسه يطلب الصفح وهـو جاث امام الخازن . بيد ان« الرحمة » جاءت تشتكي الى تيميس ؛ آلهة العدالة ، من سيآت « الفتنة» . فاكرمت العدالة وفادتها واحسنت مواساتها وارسلتهـا الى الفاضل « آريست » الذي تمكن من فضّ الخلاف . ها هو ذا المرتل يحمل بنفسه المنصة ويضعها امام الجوقة ، فيبادر الخـازن ، ونفسه تفيض أريحية وعفواً ، فيرفعهـا من تلقاء نفسه ويريح المرتل منها .

فن الشعر L'Art poétique : — نشر بوالو منظومته العظيمة هذه عام ١٦٧٤ ، بعد ان أمضى في نظمها خمس سنوات . وهي تقع في الف ومئة وعشرة ابيات . ولكنه بدأ يقرأ على اصحابه بعض مقاطعها قبل ذلك بعامين . وقد رجاه الملك نفسه ان يقرأ عليه بعض فصولها وأبدى بها كل الاعجاب . ولم يكد هـذا الاثر القيم يذاع خبره حتى أثار احتجاج الخصوم والضحايا ، وراحوا يسعون جاهدين عند الملك لئلا يأذن بطبعه . ولكن الوزير كولبير ألحّ بدوره على سيده بوجوب نشر الكتاب فأذن . واستمر سلطان بوالو على ادباء الغرب جيلين كاملين ، فلما اعلن الابتداعيون مذهبهم الادبي في القرن التاسع عشر ، اخـذ نفوذه يقل يوماً بعد يوم ؛ بيد ان عدداً كبيراً من تعاليمه لا يزال معمولاً به الى يومنا هذا ، والكتاب كله اثر خالد على كل حال (٢)

اما الذين سخر منهم الشاعر الناقد فهم شعراء الصنعة والبهرج ، وشعراء الارتجال المهملون ، وادباء الصالات المتأنقون ، وكل الذين يعوزهم في نظمهم الفنّ والصدق . واما شعراؤه المفضّلون فهم الذين اثبت التاريخ فيما بعد علوّ كعبهم واصالة شعرهم : هم موليير

(١) الكتب (٢) Boileau : Préface P : 57

وراسين ولافونتين ؛ وكل من كان يرمي الي الصدق والفن . وعبثاً حاول خصوم الشاعر ان يكيلوا له بصاعه ، فانه لم يكن يجيبهم ابداً ، بل كان يسير في طريقه مطمئن النفس ثابتَ القدم ، لا يتهاون في نقد ، ولكنه كان يعفّ عن خصوصيات خصومه ، ويكتفي بتجريح آثارهم ؛ وفيما هو يرميهم بحرابه ويدمغهم بسخرياته التي اصبحت فيما بعد ذكريات لا تفارق اشخاصهم ، كان يعرض مبادئ الفن الادبي ، ويلخص نظرات المذهب الاتباعي (١) .

اسلاف بوالو : — عرف القرن السادس عشر بحوثاً كثيرة في النقد الادبي ، كلها تحذو حذو ارسطو وهوراس . غير اننا لا نستطيع ان نجزم ان بوالو قد احاط علماً بها جميعاً . وكل ما نستطيع ان نؤكده هو ان المبادئ التي تصدّى للدفاع عنها قد سبق لغيره ان عرضها (٢) . بيد ان الاقبال العظيم على منظومته « فن الشعر » اظهر صاحبها بمظهر السابق المبتكر ؛ على حين ان نظرات الشاعر عندما بدأ بتحبير اهاجيه الاولى عام ١٦٦٠ وعندما نشر منظومته بعد ذلك باربعة عشر عاما ، كانت قد استوفت حظها من الشرح عند كتاب الدور الاول واصبحت معروفة مكرورة . فالاعداء الذين خاصمهم كانوا يلفظون آخر انفاسهم ومازاد هو على ان اجهز عليهم . كذلك كان ادب التهريج والاناقة المصطنعة والبهرج الكاذب قد ولى الادبار . وليس في الآراء العظيمة التي عرضها بوالو الا آراء قليلة لم يسبق اليها (٣) ، حتى لنرى اننا نستطيع ان نضرب الصفح عن كثير منها بعد ان أفضنا في عرضها في بحثنا عن مبادئ الاتباعيين ، كما فعل العلامة فان تيجم في كتابه « موجز تاريخ النظريات الادبية الكبرى في فرنسا » .

فبوالو يحمل على الحذلقة والغثاثة والاغراب ويدعو الى العقل والطبيعة والاقلال واختيار الوقت المناسب للكتابة وبذل الجهد والتحلي بالفضيلة الصحيحة والاخلاص الفني الذي لا تسيره غاية نفعية ، ويؤكد اهمية الموهبة الطبيعية قبل كل شيء . وفي اثناء ذلك يسرد تاريخ الشعر الفرنسي من «فيّون» الى « ماليرب » ، ويبحث في بعض فنون الادب وخصوصاً في « الاهاجي (٤) » وفي تاريخ المأساة عند اليونان والفرنسيين ، وفي الملحمة والملهاة ؛ ويتوجه آخر الامر بثناء نحو الملك الذي يقرّب اليه الشعراء ويرعاهم (٥) .

واذن فما هو سرّ عظمة الرجل بمنظومته هذه ، ولماذا تجاوز بوالو الناقدُ بوالو

---

(١) L.T. 246– 247 (٢) Boileau, Préface : P : 57
(٣) Van Tieghem : 63 (٤) Les satires (٥) Des granges 126

الشاعر والفنان ؛ سر ذلك ان بوالو كان أقدر نقاد عصره على ضبط النفس وتوخي القصد والعزوف عن المهاترات والامساك عما سوى انتاج خصومه والترفع عن مس اشخاصهم ؛ لقد كان ، بموجز القول ، اديباً يتذوق لا عدواً يتشفى .

ولبوالو الفضل في لم شعث النظرية الاتباعية وتنخيلها وصبها في ابيات محكمة واجراء كثير من معانيها مجرى الامثال الرائعة التي يستقر اثرها في النفس ؛ فهو لسان الاتباعيين المعبر Porte-parole والمنظومة لمجلتهم المشرعة .

واروع ما يروعك في « فن الشعر » تلك النظرة السامية الى مكانة الاديب ، وقد أرصد لتجليتها الانشودة الرابعة كاملة . اقرأ هذه الانشودة فستجد العقل الراشد الاصيل يعانق الضمير الصافي النبيل . انه ليحترم نفسه ومهنته وفنه ؛ ويريد الاديب ان يفرض احترامه على الناس عن ثقة وجدارة وخلق متين ، فلا غيرة ولا تآمر ولا وضاعة ولا تعبد للمال ، ولخير له ان يكتب لوجه الفن من ان ينتظر على ما يكتب الاجر . ثم صفاء الطبع ، وحب الجمال حباً خالصاً يدعوك ان تفضل النقد العنيف النافع على الثناء الغبي التافه . واخيراً كن طيباً وأحب الخير واعمل الخير . انه لا يدعي ان ذلك يغرس فيك الموهبة الادبية ، ولكنه يؤكد لك ان فقدان الاخلاق الكريمة يذهب بجدة آثارك ويطمس محاسنها . ولعل بوالو في نظرته هذه نسيج وحده عمقاً وقوة . وهو بهذه النظرة يسير بنا صعداً الى ايام افلاطون وكتاب الجمهورية الذي لا يقبل ان يضع حداً فاصلاً بين الموهبة والفضيلة . ولعل اجمل بيت نظمه بوالو هو قوله :

« يفوح الشعر دوماً بخساسة القلب (١) »

نماذج من شعره

حقوق الناقد : — في « السخرية » التاسعة يتناول بوالو في وضوح تام حقوق النقد : ينبغي للمؤلف حين يعرض نفسه على الجمهور ان يتوقع اللوم والثناء على حد سواء . وانه ليتساءل ، ما بال النظارة يؤذَن لهم فيصفرون ؛ ولسواد الناس فينثرون احكامهم كما يشاءون ، ثم يُحظرَ على الناقد ان يدلي برأيه عن اثر مطبوع ؛ بيد أن « الكاتب » وحده هو الذي يجب ان يتعرض للتجريح ؛ اما « الرجل » فيجب ان يكون بمعزل عن غمزات النقاد ولمزاتهم ؛ وبذلك تكون مهمة الناقد شريفة وضرورية :

(١) فن الشعر ، الانشودة الرابعة ١١٠ . رجعنا في هذا التحليل الى الفصل الذي كتبه الاستاذ Faguet عن بوالو

في القصر يستطيع الاحمق النبيل انى شاء
ان يدلي برأيه الاخرق غير متردد ولا خائف :
فيفضل شويعراً هزيلا على شاعر كبير (١) ،
ويعدل بهرج ذلك نضار هذا .
يستطيع كويتب في خمسة عشر فلساً ان يستهين بغضب الجمهور ؛
فينحدر الى ارض المسرح ويهاجم احدى روايات كورني الخائبة (١) .
بل يهاجم من اجل هذه الرواية ، «ائه ك ، ذ . كلها .
ما من خادم لكاتب ، ولا من ناس
إلا يحمل على يديه ميزاناً يزن به ثمرات القرائح .
فما تكاد تتفتح المطبعة عن شاعر ،
حتى يصبح أسيراً لمقتنيه ايا كان :
لقد اختار بملء ارادته ان يتعرّض لاهواء الناس ،
ولم يبق للذود عنه الا كتاباته .
ومها يجثُ في « مقدمته » خاضعاً ذليلاً
بين يدي القارئ فيوسعه املالاً ،
فانه لن يفوز بنجح يذكر عند ذاك الحاكم الغضوب ،
الذي ينظر في دعواه من غير هوادة ولا لين .
ثم أكون انا وحدي غير قادر على ان اقول شيئاً !
لهم ان يكونوا سخفاء ، وليس لي ان اضحك !
ليت شعري ما الذي اجترحته ابياتي من أذى ،
حتى اقامت عليّ غضاب المؤلفين وأقعدتهم ؟
ما كنت لانشر مثالبهم ، بل أتحت لهم ان يظهروا ؟
ولولا هذه الاشعار التي عرّفت بهم ،
لرأيت النسيان يعفّي على مواهبهم .
من اين لرجل لولا انا ان يعلم ان « كوتان » قد وَعظ ؟
فما الانتقاد الا مَنْقَبَةٌ للغبي ومنبهة عليه .

(١) جرى هنا بعض التصرف في اختصار الاسماء

انه ظلال تضفي على اللوحة بهاءًا .
هذا الى انني حين اؤنبهم لا اقول الا بما اعلم .
وما من احد لامني الا وهو يرى فيهم رأيي .
واذ يقول احدهم : « انه لفي ضلال ؛ فما باله يذكر الاسماء ؟
أفيهاجم شابلان ؛ آه ! انه لمن خير الناس !
وبحسبه ان بلزاك أفاض عليه حر الثناء .
ما اجدره ان يستمع لنصحي فلا ينظم ابداً .
لقد سكت عن النظم : فلماذا يسكت عن النثر[1] ؟ »
هذا ما يقولون ، فهل قلت انا شيئاً آخر ؟
أفتراني حين فندت كتاباته بلاذع اسلوبي
قد نفثت في حياته سماً زعافا ؟
ان شيطان شعري حين ينتضي سنانه عليه لطيب رصين ،
فهو يعلم كيف يميز الشاعر من الرجل الشريف[2] .
فليسطروا ما عنده من شرف وايمان ؛
وليثنوا على كرم عشرته وطيب سريرته ؛
وليكن وديعاً ملاطفاً خيّراً مخلصاً :
انهم ليريدون هذا ، وانني لارتضيه ؛ وقد رضت نفسي على السكوت .
بيد ان تقديم كتاباته نماذج للاحتذاء ،
وان يفوز بخير المكافآت من بين المتحذلقين السخفاء[3] ،
وان يرفع ملكاً على عرش المؤلفين ،
ان هذا كله ليغلي مراجل غيظي ، ويحفزني على ان اكتب .
فاذا لم يسمح لي أن ابث الورق ما في صدري ،
فلأحفرن الارض ولأنطقن شجيرات القصب ،
بعضو جديد ، كما فعل ذلك الحلاق ، فلتصيحن :

---

(١) يريد بوالو ان يقصر سخريته على شعر شابلان دون نثره (٢) اي إنه يعرف كيف يقصر النقد على الشعر (٣) كلف الوزير كولبير « شابلان » ان يعد له قائمة بالرواتب تمنح للادباء فوضع اسمه في رأس القائمة ، وكان راتبه يربى على «٨٠٠٠» ليرة

« ميداس ، الملك ميداس ، له أذنا حمار [1] »
واخيراً فبأي سوء قصدته ؟ أأكون بما كتبته
قد حجَّرت عروقه وجمدت خاطره ؟
حين يباع الكتاب في القصر ويُنشد ،
فيحكم كل بعينيه عليه ،
ويختار له الكتبي [2] اشرف مكان عنده ،
أفيستطيع إعراض ناقد ان يهتك حرمته ؟
عبثاً تآمر وزيرٌ ذات يوم على « السيد » :
فقد كان لباريس كلها عينا رودريك ازاء شيمين .
وعبثاً اجمعت الاكاديمية رأيها لخفضها :
فان الجمهور الثائر أبى إلا اعجاباً بها .
في وسع النقد الفني بجدته وطرافته ،
ان يزكّي وحده السار بالنافع ،
وان يصفّي القصيد باشعة الذوق السليم ،
فيكشف عن العقول دياجير الظلام المقيم .
هو وحده حين يزدري الظلم والكبرياء ،
يدهم الرذيلة في مخبئها ويُقضّ مضاجعها ،
ويا طالما انبرى غير متردد ولا هياب ،
يثأر بكلمة طيبة للعقل من تجنيّات البلداء .
وقديماً كان ليليوس يشد ازر لوسيل [3] في ايطاليا
فيوفّي المتشاعرين امثال « كوتان » ما يستحقون ،

(١) في الاساطير ان الملك ميداس فضل صوت بان على صوت ابولون ، فانتقم هذا لنفسه بان منحه اذني حمار . وكان حلاق الملك قد احس بذلك ، على شديد تكتم سيده ، ولم يستطع ان يلزم الصمت ، فحفر الارض واودعها سره ؛ فنبتت في ذلك المكان شجيرات القصب ، وجعلت تذيع سر الحلاق ، كلما حركتها الريح ،

(٢) كذلك تصرفنا هنا قليلا لنفي القارئ من اسم الكتبي ولنيسر له فهم النص .

(٣) ليليوس : قنصل روما ١٤٠ ق م ولوسيل شاعر لاتيني .

وكان هوراس ينثر لدعاته جهد قواه ،
فيتفكه بالقرائين من شعراء الرومان .
هو النقد نهج لي الطريق الذي يجب ان اسير فيه ،
وألهمني وانا ابن خمس عشرة أن أقلو الكتاب البليد ،
ولقد حسرت مطلبته على هذا الجبل الشهير ،
فثبت خطاي وعلمني حسن المسير ،
فانا لاحله ، بموجز القول ، قد نذرت نفسي .

فائدة الاعداء : Sur l'utilité des ennemies : -- هي احدى « الرسائل المنظومة » ، حاكتها براعة بوالو عام ١٦٧٧ ليواسي بها صديقه راسين في المؤامرة المحكمة التي اعدها خصومه وانتهت باخفاق مأساته العظيمة « الفيدر » ولكنها ما لبثت بعد ذلك ان هزمت مأساة اخرى بهذا الاسم لشويعر اسمه « برادون » شجعه المتآمرون وقدموه . هذه المنظومة هي رائعة بوالو : عقل ، ونقد وعاطفة واندفاع ، بل ان كل فضائل الشاعر المتناثرة هنا وهناك قد لمت شعثها وتمثلت في هذه القطعة :

ما أمهرك يا راسين حين يشد أزرك التمثيل ،
أن تحرك عواطف المتفرج وان تملك اعجابه ؟
أبداً لم تستطع إفيجيني وقد سيقت الى المذبح ،
ان تستدر دموعَ اليونان مجتمعين ،
بمثل ما ذرفت العيون للمشهد الناجح
حين قامت « لا شاموسليه » بذلك الدور امامنا (١) .
ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تظن ان آثارك العليمة
اذا جذبت اليها القلوب كلها ، فقد فازت بالاصوات كلها .
فما يكاد عبقري يحظى بوحي أبولون ،
فيهتدي الى طريق مجهول بعيد عن طريق العامة ،

---

(١) ايفجيني Iphigénie احدى مآسي راسين العظيمة ، اقتبسها من مأساة بهذا الاسم لاوريبيد اليوناني ، وفيها ان اليونان ساقوا الفتاة ايفيجيني الى المذبح ليقدموها ضحية الى الآلهة ، لترسل عليهم الرياح المواتية ويعود الاسطول . اما «لاشاموسليه La Champmeslé» فممثلة مشهورة عاشت (١٦٤٤ - ١٦٩٨) م

حتى تحاك المؤامرات وتنشب الدسائس عليه في مئة مكان .
ان منافسيه الموتورين ليتعصبون من حوله ،
وان انواره الساطعة لتبهر الانظار ،
فتثير عليه حسد الاصدقاء انفسهم .
الموت وحده في هذه الحياة الدنيا اذا استردّه ،
استطاع ان يهدّئ عليه الطغيان والحسد :
فتوزنُ آثاره كلها بميزان الذوق السليم ،
وتنال اشعاره نصيبها المعقول من التعظيم .
قبل ان تفلح الرجاء فتعطى قطعة من الارض
تضم الى الابد رفات موليير في لحد (١) ،
كانت آلاف من نفثاته التي اصبحت اليوم حديث المعجبين ،
تلفظها اذواق الحمقى على مشهد منا اجمعين ،
وكان الجهل والضلال ، كلتا جاد بالملاهي ،
ياتيان في زي مركيز او في ثوب كونتيس ،
ليعيبا اجمل الروائع ، ويسخرا من انفس المقاطع .
فارس كان يريد المشهد احكم وارق ،
وشريف يخرج مغضباً والفصل الثاني يدق .
هذا مناصر غيور للاتقياء المزيّفين ،
يرى له (١) الحرق جزاء ما سطرت أنامله .
والآخر مركيز ثائر قد ناصبه العداء ،
يريد ان يثأر للقصر المهان في المسرح .
ولكن ما كادت المنية بسهم فاجع من يديها ،
تمحو اسمه من عداد الاحياء وتسترده اليها ،
حتى بادروا يعترفون بنفاسة الهامه المتواري .
الملهاة الظريفة قد ووريت معه الثرى ،

---

(١) لموليير . هاجم موليير في رواية «طرطوف» المنافقين والمتجرين بالتقوى ، فامتنع رجال الدين عن قبول جثمانه اول الامر في مقابر المسيحيين . « المعرب »

فمبثاً ترجو الحياة بعد هذه الضربة القاضية ،
ولن يقدّر لها يوماً ان تنتصب على قدميها .
هكذا كان مصير المسرح الضاحك بين ظهرانينا .
فانت الذي ، باعتلائك مسرح المآسي ،
تحذو مثالَ صوفوكليس (١) ، وتنفرد دون كثير من العقول ،
بقدرتك على التماس العزاء لباريس عن شيخوخة كورني (٢) ،
ما اجدرك ان تنزع عن ذهولك للغيرة الثائرة ،
تلحق باسمك صدأها المسموم تارة ،
وتطاردك ببهتانها تارةً أخرى .
بهذا وبغيره ، ان السماء التي تسددُ خطانا
لتتألق يا راسين بعميق حكمتها .
ان النبوغ ليغفو في هدأة التواني ،
بيد ان الحسّاد لا يحفزون عبقرياً ،
الا صعد الى ذروة فنه وحلق.
فما ارادوا له الوهن الا نما وارتفع :
« فسنا » مدينة بوجودها لما رهق « السيد » من جور ؛
ولعلَّ ريشتك تدين لمفنّدي « اندروماك»
بانبل النفثات التي اودعتها « بريتانيكوس (٣) » .
وانا الذي لم يذع لي هنا من المجد المبين ،
ما تقذّى به عيون الحسَدة الكامدين ،
غير طبع حرٍّ وعقلٍ غير منقاد ،
اجديا عليّ منذ طراوة عودي اعداءً نافعين ،
اراني مديناً لبغضهم ، والحرّ من يعترف ،

(١) صوفوكليس ، شاعر يونانٌ اشتهر بآسيه في القرن الخامس قبل الميلاد . كان راسين يقفو أثر «اوريبيدوس» ولكنه بلغ في الكمال مرتبة صوفوكليس . (٢) كان كورني قد اعتزل المسرح لثلاث سنين خلت (١٦٧٤) (٣) اندروماك وبريتانيكوس : مأساتان لراسين

لا للثناء الباهت الباطل تغمرني به فرنسا .
ان سخائمهم التي تتحرق للانصباب علي ،
لتمنعني ان انثر الكلمَ من غير روية ولا تهذيب ،
فما تخاطر براعتي بلفظ الا بعد ان افكر
بالعين الشائنة تحدجني بها جماعتهم .
اعرف كيف انهض من كبوتي بارشادهم
وكيف استغل ما كر اضغانهم .
فما تكاد نقيصة تشعرهم باخمالي ،
حتى اعرف كيف اجيبهم بابلالي .
وكلما فكروا ان يصموني بالاجرام
فكرت ان ازداد فضيلة لأضمن الانتقام .
فلتكن لك بي اسوة ، فاذا ما اراد خفضك
جماعةٌ من طغام (١) الكتاب المأفونين ،
فانتفع من حقدهم ومن ذوقهم العقيم ،
واضحك من ضجيجهم العابر ومن صياحهم القاصر .
فماذا عسى ان تضر اشعارك جهالتهم الباطلة ؟
ان مهبط الالهام الفرنسي قد تشرف بقريحتك ،
فهو يستطيع ان يثبّتك امام هذه الدسائس
وان يستثير لمساعدتك المستقبل المنصف .
ومن ذا يرى ذلك الألم الفاضل
تعانيه « فيدر » غادرة داعرة على الرغم منها ،
فيثير اعجابه هذا العمل الفذ النبيل ،
ثم لا يبارك على الفور عصراً سعيداً
اصبح ذائع الصيت بسامي رعايتك
وشهد ولادة هذه الاعاجيب الفخمة تحت اناملك ؟

---

(١) الطغام : اوغاد الناس

ومع ذلك فأترك هنا بعض اللوام يرغون ويزبدون ،
فلقد طالما أثار حفيظتهم عذوبة اشعارك .
ما يهم اشعارنا ان تنال من « بران » اعجابه ؛
وان يبادر مؤلف « جونا » اليها بقراءته ؛
وان تسحر شاعر « سانلي » البليد ؛
او المترجم الجاف للفرنسي « آميو » ؛
اذا كانت قوافيها تنشد في جلال
فيستطيبها الشعب ، والعظاء ، والاقاليم ؛
اذا كان في مكنتها ان تنال استحسان اقوى الملوك ،
وكان « كوندي » يأذن ان تلقى في حضرته بعض الاحيان ؛
وكان « انجيان » منها متأثراً ؛ وكان « كولبير » و « فيفون »
و « لاروشفوكو » و « مارسياك » و « بومبون » ؛
وألف آخرون استطيع في هذا المقام ان اعدهم ،
اذا كانوا جميعاً يرضيهم لطيف معانيها ويحرك شعورهم ؟
وعسى الله ان يتوج العمل فيضم « مونتوزيه » صوته الى صوتهم !
الى مثل هؤلاء القراء انما اقدم اشعاري ؛
اما تلك الكتلة الجافية من العقول الخفاف ،
ومن المعجبين الغيارى بالتآليف العجاف ،
فعليهم ان يذهبوا غير بعيد من دار التهريج
من دون ان يبحثوا في الشعر عن ايقاع او تجويد ،
الى حيث يعجبون بعلم صاحبهم « برادون »(١) .

شذور من كتاب « فن الشعر » : — من النشيد الاول (٢) :

عبثاً يفكر الشاعر المتهوّر على جبل القرائح

(١) رجعنا في هاتين القصيدتين وشرحهما الى : Des Granges 116 - 124
(٢) نذكر الى جانب كل بيت رقمه في الانشودة ،

ان يعتلي القمة من فن القريض : ٢
فان هو لم يشعر بالهام السماء الخفيّ ٣
وان كان نجمه حين الولادة لم يجبله على الشعر ٤
فهو من ضيق موهبته دائماً في أسر ٥

• • •

القافية عبد رقيق ليس له الا ان يطيع . ٣٠
فاذا ما جهد المرء بديًّا في نشدانها ٣١
مرن الذهن في يسر على الوصول اليها ؛ ٣٢
فهي تنحني للعقل من غير ما عناء ، ٣٣
وما كانت لتعوقه ، بل تمدّه بالعون والثراء . ٣٤
أحبّوا العقل اذن : ولتستمد منه من الدوام ٣٧
تآليفكم الوضاءة والقوة والانسجام ٣٨

• • •

كل شيء يجب ان يعتمد على الذوق السليم : ٤٥
بيد ان السبيل اليه كثير المزالق محفوف بالمخاطر . ٤٦
ما ان تكاد تنحرف عنه حتى يدهمك الغرق . ٤٧
والعقل حين يجري لا ينبغي له ان يعدّد الطرق . ٤٨

• • •

من المؤلفين احياناً من يطغى غرضه ويتحكّم ٤٩
فما يغادر موضوعاً الا استنفده فما فيه متنسّم . ٥٠
فان صادف قصراً وصف لي واجهته ، ٥١
ثم سار بي فيه من رصيف الى رصيف ؛ ٥٢
فهنا يبرز درج ؛ وُيطلّ هناك ممرّ ؛ ٥٣
والى جانبه شرفة تحيط بها قضبان الذهب . ٥٤
انه ليعدّ من السقوف الدوائر المستديرة والمتطاولة ؛ ٥٥
« إنّ هذه إلا اكاليل ، وما هي الا نقوش . » ٥٦
اني لاغفل عشرين ورقة حتى اصل الى نهايته ، ٥٧

وما اكاد انجو بنفسي من وصف حديقته . ٥٨
تجنبوا إكثار هؤلاء المؤلفين الجديب ، ٥٩
ولا تحمّلوا انفسكم عناء تفصيل غير مصيب . ٦٠
كل حشو او تطويل فهو تافه كريه ، ٦١
يلفظه في الحال كل عقل شبيع (١) . ٦٢
ان من لا يعرف الايجاز لأجهل الناس بالكتابة (٢) . ٦٣

• • •

يا طالما ساق الخوف من شرّ الى شرّ اكبر : ٦٤
هذا بيت ليّن خنث ، فأنت تردّه الى يبس وعر ؛ ٦٥
وقد اتجنّب الاسهاب ، فأقع في الغموض . ٦٦

• • •

أتريد ان تحظى بحب الجمهور واكباره ؟ ٦٩
اذن فخالف بين المعاني وشقّق في الاساليب . ٧٠
ان اسلوباً رتيباً متساوي النهج ٧١
لا يجديه البريق في اعيننا ، ولا بد ان ينيمنا . ٧٢

• • •

اياً كان ما تكتب فاحترس من الابتذال : ٧٩
ان اغزر الشعر معنى وانبله فكرة ١١١
لن يرضي العقل اذا آلم الاذن . ١١٢

• • •

واخيراً جاء « ماليرب » ، فكان الاول في فرنسا ١٣١
حين نبه الاحساس في الشعر الى صحة الايقاع ، ١٣٢
وارشد الى سلطان الكلمة تجيء في مكانها المناسب ، ١٣٣
واخضع القريحة لقوانين الواجب . ١٣٤
واذ هذب هذا الكاتب الحكيم حواشي اللغة ١٣٥

---

(١) رجل شبيع العقل : وافره ـ عن القاموس المحيط ، مادة شبع .

(٢) يقول فولتير : سرّ الاملال ان تقول كل شيء .

فقد تخلّصت عن كل ما يثقل على الاذن المهذبة ؛ ١٣٦
وتهيّب البيتُ ان يماظل (١) الآخر . ١٣٧
الكل اعترفوا بتعاليمه ؛ وهذا القائد الأمين ، ١٣٨
ما زال الى يومنا نموذجاً للكاتبين . ١٣٩
سيروا اذن على آثاره ؛ أحبوا نقاوة لفظه ، ١٤٠
واقتدوا بجودة رصفه وجلاء اغراضه . ١٤١
اذا تأخرت معاني شعركم على الافهام ، ١٤٢
شغِل فكري عنها في الحال وأمضّه الابهام . ١٤٣

• • •

هناك بعض الاذهان ذوات الافكار المظلمة ١٤٧
تحوّم حولها دائماً سحابة ثخينة مُعتِمة ؛
ولا يستطيع نهار العقل ان ينفذ اليها .
قبل ان تكتب تعلم اذن ان تفكر .
فحسب ما تكون الفكرة عندنا غامضة او واضحة
تجري وراءها العبارة طيّعة او جامحة .
ان ما نجيد ادراكه نجيد عنه الابانة ١٥٣
وتنثال الالفاظ موضحة في يسر واستكانة . ١٥٤

• • •

عبثاً تحاول ان تستميلني بالنغم الشجيّ ، ١٥٧
ونسجُك مهلهل وأسلوبُك غير نقي . ١٥٨
فلولا اللغة لكان اكثر المؤلفين إلماماً ، ١٦١
في كل حين ، ومهما اجتهد ، كاتباً هدّاماً . ١٦٢

• • •

اعمل في اوقات الفراغ ، اياً كان الداعي والاقتضاء ، ١٦٣
ولا تلق بالاً قط للسرعة الحمقاء : ١٦٤
فالريشة العجلى اذ تثب من بيت الى بيت ١٦٥

---

(١) من تماظلت الجرادتان : اذا ركبت احداهما الأخرى .

أدلُّ على غباء الكاتب منها على ذكائه . ١٦٦
افضلُ ساقية تجري في وناء وفتور ١٦٧
فوق رملٍ نديٍّ في سهل فوّاح بالعطور ، ١٦٨
على سيل جارف يسير صخّابا ، ١٦٩
فوق ارضٍ حميئةٍ ، قد امتلأ حصىً وترابا . ١٧٠
اسرعوا في أناة ، ومن غير ان تفقدوا الشجاعة ١٧١
اعيدوا النظر فيما تكتبون مراراً على ضوء الصناعة : ١٧٢
أصقلوه بلا انقطاع واعيدوا صقاله ١٧٣
أضيفوا حيناً واحذفوا احياناً . ١٧٤

• • •

قليل في كتاب تزدحم فيه الأخطاء ١٧٥
أن تلتمع بين حين وآخر بوارقُ الذكاء . ١٧٦
لا بد ان يكون كل شيء في مكانٍ لائق ؛ ١٧٧
فالأول يجارى الوسط والآخر . ١٧٨
لتجهّز كل مقطوعة بفن محكم دقيق ، ١٧٩
فلا يكون من اجزائها غير كلٍّ واحد وثيق . ١٨٠
لا ينبغي للحديث ان يبتعد عن الموضوع ١٨١
ليلتمس من بعيد كلمة ذات بهاء . ١٨٢

• • •

اتخشى على اشعارك ملامـــة الجمهور ؟ ١٨٣
اذن ليكن لك من نفسك ناقد غيور . ١٨٤
فالجهالة في كل حين بنفسها جد فخور . ! ١٨٥
التمس لشعرك اصدقاء في نقدك سراع ؛ ١٨٦
وليكونوا أمناء مخلصين لما يخطّ منك اليراع ، ١٨٧
وليكونوا على هفواتك جميعاً خصماء اشداء . ١٨٨
إنزع في حضرتهم عن زهو المؤلفين ، ١٨٩
ولكن لا يلبَسَنّ (١) عليك الاصدقاء بالمداجين (٢) . ١٩٠

(١) لا يختلطنّ عليك (٢) المرائين .

ذاك الذي تظنه يهتف لك لهو ساخرٌ منك مخاتل . ١٩١
أحببْ ان يتوجهوا اليك بالقول النصيح ؛ واقلْ اللغو والمديح . ١٩٢

. . .

ما اسرع المرائي صياحاً وإعجابا : ١٩٣
لا يسمع بيتاً الا امتلأ ذهولاً واستغرابا . ١٩٤
لا يثقل على اذنه لفظ ، فالكل جميل الهي ، ١٩٥
يلطم برجله الارض فرحاً ، ويذرف دمع الحنان ؛ ١٩٦
ويغمرك حيثما كان بالاماديح الحسان . ١٩٧

. . .

الصديق الحكيم شديد لا يعرف الكلال . ١٩٩
ابداً على زلاتك لا يتركك هادئ البال . ٢٠٠
لا يغفر لك يوماً مواضع أنت فيها متهاون ، ٢٠١
ويردّ الى المكان الملائم كل شعر غير متوازن ، ٢٠٢
يهذّب حواشي الالفاظ وينفي عنها التكلف . ٢٠٣
العبارة هنا تؤذيه ، والمعنى هناك لا يرضيه . ٢٠٤
تركيبك فيما يظهر يرينُ عليه من الغموض غشاء . ٢٠٥
فالتعبير هنا متجاذب (١) ينقصه بعض الجلاء . ٢٠٦
بمثل هذا يحدثك كل صديق صدوق . ٢٠٧

. . .

غير ان الناظم العربيد في الكثير الغالب ، ٢٠٨
يظن انه مسئول عن حماية شعره من كل ثالب ، ٢٠٩
فهو ينبري للدفاع عنه اولاً فأولا . ٢١٠
فان قلت له ان العبارة في هذا البيت لا تهتدي . ٢١١
اجابك في الحال : على هذا البيت يا سيدي ٢١٢
ارجو منك الصفح . فان قلت هذه كلمة باردة ، ٢١٣

---

(١) اي متردد بين معنيين ، لا يعرف الفكر ايهما يختار

أفضلُ حذفها ، ادّعى أنها كلمة جميلة شاردة ! ٢١٤
او قلت هذا التركيب لا يعجبني ، قال انه موضع اعجاب الناس . ٢١٥
ومع ذلك فهو يوهمك انه يحب النقد ويكبره ، ٢١٩
وان لك على شعره سلطاناً قاهراً بأسره . ٢٢٠
غير ان هذا الكلام الجميل يرطّبُ به خاطرك ٢٢١
ما هو الا فخ أريب لتعير السمع شاعرَك . ٢٢٢
انه تاركك في الحال مرتضياً قريحته ؛ ٢٢٣
فلتمسْ في مكان آخر غبياً يكون خدعته (١) ؛ ٢٢٤
وانه على الارجح واجده : فمصرُنا ببلداء المعجبين ٢٢٥
خصيب خصبه باغبياء المؤلفين ، ٢٢٦
فالى جانب اولئك الذين تقدمهم المدن والاقاليم ٢٢٧
تجد طائفة في كنف الدوق واخرى في رعاية الأمير . ٢٢٨
كلُ مؤلف بارد بليد بين رجال القصر الأكرمين (٢) ٢٢٩
لا بد ان يصادف بين حين وآخر شيعة مناصرين . ٢٣٠
ولأخلصَ من مقالي الى سهم في الهجاء أقول : ٢٣١
لا يعدم الغبي أغبى منه يحظى عنده بحسن القبول . ٢٣٢

وهاك بيتين من الانشودة الثانية :

بيد انك ان اردت ان تجيد التعبير عن هذه الاهواء
فقليل ان تكون شاعراً ، ولا بد ان تكون عاشقاً (٣).

ومن الانشودة الثالثة :

لم أرَ للواقع احياناً من الحق مشابهاً .
ليس للاعجوبة الخرقاء في عيني جمال :
لا يثير العقل الا ما جرى في الاعتقاد (٤) .

ومن الانشودة الرابعة

كان في فلورنسا قديماً يعيش طبيب

(١) الخدعة : من يخدعه الناس كثيراً (٢) لا وجود لهذه الكلمة في الاصل (٣) الانشودة الثانية ، البيتان ٤٣ ـ ٤٤ وهما يبينان اهمية الصدق في الشعور . (٤) الابيات : ٤٨ ـ ٥٠

عارفٌ بالهذر ، فيما يقولون ، وقاتل أريب ،
استطاع وحده ان يردّ الجمهور طويلاً الى الشقاء :
فهناك ابنٌ يتيم يطالب بأبيه ،
وهنا اخ مسموم أسال دمعَ أخيه .
احدهما مات منزوفاً (١) ، والآخر بعقار السنى (٢) مخطوفاً .
فالزكام لدى مرآه يتحول الى ذات الجنب .
والصداع بفضله لا يلبث ان يصير جنوناً .
واخيراً ترك المدينة مشيعاً باللعنات .
هلك اصدقاؤه الكثر ولم يبق غير صديق واحد ،
فقاده الى داره الأنيقة البنيان :
لقد كان راهباً غنياً ، مولَّهاً بهندسة البناء .
وفي الحال ظهر الطبيب كأنما ولد في احضان هذا الفن ،
وأنشأ يتحدث عن المباني كما يتحدث أشهر المهندسين :
هذه صالة تشاد فلا ترضيه واجهتها ؛
وذلك دهليز مظلم يختار له مكاناً آخر ،
وهو يحبذ لو أدير الدرج على غير هذا النحو .
وقد اقتنع الصديق بوجهة نظره ، واستدعى معماره .
فأقبل الرجل ، وأصغى ، واعترف بأخطائه .
واخيراً فلا نطيل عليك المقال عن تلك الاعجوبة المضحكة ،
ان صاحبنا القاتل قد عدل عن فنه القاسي .
فمن الآن اذ ترك الطبابة التي تحوم حولها الظنون ،
تراه والمسطرة والزاوية بين يديه ،
قد تحول من طبيب شرير الى مهندس مفيد .
ان أمثولة هذا الرجل لقدوة حسنة لنا .
اجدر بك ان تكون بناء ، اذا كانت هذه موهبتك ،

---

(١) فاقداً دمه (٢) السنى : نبات طبي .

او صانعاً محترماً في احدى الحرف النافعة ، ٢٧
من ان تكون كاتباً عادياً او شاعراً رديا . ٢٨
ان في الفنون الأخرى لدرجات متفاوتات ، ٢٩
ولا يضير المرء أن يكون في الصفوف الثانية ؛ ٣٠
غير انه في فن النظم والكتابة الخطير ، ٣١
ما من درجة بين المتوسط والحقير . ٣٢
ان وصفت الكاتب بفتور النفس فقد وصفته بالغثاثة . ٣٣
المجنون في الأقل يهز اعطافنا ضحكا وسروراً ؛ ٣٧
والكاتب البارد لا يوسعنا إلا سأماً وفتوراً . ٣٨

• • •

أصغ الى كل انسان ، مستشيراً دائباً ، ٤٩
فقد يفتق عليك الاحمق رأياً صائباً . ٥٠
ومع ذلك ، أيا كان الشعر الذي يلهمك ابولون ، ٥١
فلا تبادر في الحال الى قراءته في كل مكان . ٥٢
احترز ان تقلد ذلك الناظم الصَّرَعة ، ٥٣
يدنو من كل من يلقاه بالتحية ، ٥٤
فيتلو عليه سخائفه بالنغمة الشجية ، ٥٥
ويطارد باشعاره كل عابر سبيل . ٥٦
ما من معبد مقدس ترعى حرمته الملائك ٥٧
بعاصم لك يوماً من بنات افكاره . ٥٨

• • •

لقد سلف عليك أن أحبّ الانتقاد ، ٥٩
وصحّح على حكم العقل وكن سهل المقاد . ٦٠
ولكن اياك ان تذعن حالما يتوجه اليك غبي بالملام . ٦١
ان نصحه لمخوف ؛ وإن حملت قوله محمل اليقين ، ٦٩
فما نجوت من تهلكة إلا لتصبح في الغارقين . ٧٠

• • •

انتخب ناصحاً راسخ القدم مأمون النقيبة ، ٧١
العقل يسدد خطاه والمعرفة تنير سبيله ، ٧٢
ينقّب قلمه المكين عن الهفوات في الحال ، ٧٣
ويكشف مواضع الوهن في تضاعيف المقال . ٧٤
هو وحده يهتك ظلمات شكوكك المضحكة ، ٧٥
ويزيح الوساوس عن ذهنك الخائف . ٧٦
هو الذي يبين لك بأي حماسة ناجحة ، ٧٧
حين يسير الفكر الوثاب احيانا في مجراه ، ٧٨
يحرجه ضيقُ الفن ، فيخرج على مرسوم القواعد ، ٧٩
كما يعلمك ان تتجاوز حدود الفن نفسه .
بيد أن هذا الناقد الكامل نادر الوجود :
هذا يجيد حوك القريض وتعوزه صحة الأحكام .
وذاك أقام لنفسه شهرة في نظم الكلام ،
وهو لا يميز « فرجيل من « لوكان » (١) . ٨٤
ايها المؤلفون ، أعيروا تعاليمي أسماعكم . ٨٥
أتريدون ان تحببوا الى الناس ابكار معانيكم ؟ ٨٦
اذن فلتُضف على الدوام قريحتكم الولود ٨٧
لطيف الفكاهة الى كل درس مفيد . ٨٨
القارئ اللبيب يتجنب العبث في تسليه ، ٨٩
ويريد ان يعود عليه بالربح كل وقت يمضيه . ٩٠

* * *

حين تصورون النفوس والعادات في تآليفكم ، ٩١
عليكم ألا تعرضوا ابداً إلا نبيل تصاويركم . ٩٢

---

(١) فرجيل : Virgile هو كبير شعراء اللاتين ، وناظم « الانياذة » ٧٠ ـ ١٩ ق م — ولوكان Lucain شاعر لاتيني ، دخل بلاط نيرون وهو في مقتبل عمره ، وصادقه ؛ ثم تآمر عليه ، فاكتشف امره ، وأكره على قطع شراينه : ٣٩ ـ ٦٥ ق م .

لا استطيع ان أوقّر هؤلاء الكتاب المفسدين ، ٩٣
الذين اولوا الشرف ظهورهم مقبوحين ، ٩٤
واختانوا الفضيلة على اوراق اثيمة ، ٩٥
فزينوا لقرائهم الرذيلة وحببوا اليهم الجريمة . ٩٦

* * *

بيد اني لست من اولئك العقول الـكارية ، ٩٧
قد ابعدت الحب عن كل مؤلف عفيف ، ٩٨
وارادت ان تحرّم على المسرح كل زينة خصيبة ، ٩٩
واعتبرت سمّاً زعافاً امثال رودريك وشيمين (١) . ١٠٠
أحبوا الفضيلة اذاً ، غذوا بها نفوسكم . ١٠٨
عبثاً يحتلى الفكر بنبيل الحماسة : ١٠٩
فالشعر يزخم دوماً بما في القلب من خساسة . ١١٠

* * *

تجنبوا بخاصة تجنبوا ذلك الحسد الدنيء ، ١١١
فهو في العقول الجافية جنون ماكر وبيء . ١١٢
ما كان للكاتب العظيم أن يصلى بنار الحسد ؛ ١١٣
فهو شعار الغباوة والمهانة الى الأبد . ١١٤
هذا المنافس العبوس للكفاية الألمعية ، ١١٥
يأتمر بها على الدوام عند ذوي الرتب السنية (٢) ، ١١٦
ويجهد من غير طائل ان ينتصب على قدميه ، ١١٧
ويريد ان يضعها كيما تكون قريباً اليه . ١١٨
لا ينبغي لنا ان ننحدر أبداً الى هذه المكائد الوضيعة ؛ ١١٩
ولنول ظهورنا شرفاً هذه الصغائر اليه ذريعة . ١٢٠

* * *

---

(١) يعرض بوالو هنا بمتزمتي الجانسنيين ، وكان على ميله اليهم لا يجاريهم في وساوسهم الادبية .
(٢) لعل بوالو يعرض هنا بالذين سعوا لئلا ينشر « فن الشعر » .

لا يكونن القريض على المدى شاغلك ،
فارع عهد الاصدقاء ، وكن رجل صدق ووفاء :
قليل ان تكون لطيفاً مستظرَفاً في كتاب ،
فأعلم كيف تعيش وكيف تدير الخطاب .

* * *

اعمل للمثل الأعلى ، فلا ينبغي للربح الزائل
ان يكون يوماً هدفاً يسعى اليه الكاتب الكامل [١] .
أعلم ان للفكر النبيل ، من غير عار ولا آثام ،
أن يفيد من عمله ربحاً حلالا على الدوام ؛
غير انني لا أجيز لهؤلاء الكتاب النبغاء ،
أن ينبذوا المجد ويلحفوا في طلب الثراء [٢] .



(١) يقول لويس بن الشاعر راسين ان بوالو أكد له أن أحداً من الكتبيين لم يدفع له قط ثمن أي من كتبه . (١) يعرض هنا بكورنيي ، وكان يشد الربح ليعول اسرة كبيرة .

راسين RACINE
١٦٣٩ - ١٦٩٩

اعتزل كورني المسرح غضبان أسفاً لاخفاق روايته « برتاريت » (١) ١٦٥٢ ، فخلفه على زعامة المأساة اخوه توماس والشاعر « كينو » (٢) . وكلا الرجلين لم يوفقا الى انتاج سري يعوض المسرح مما خسره بعد أفول نجم كورني . أما توماس فهو من اولئك الأدهان المتوسطة التي تخوض في كل فن ، ولا تتفوق في فن . انسحب على اذيال اخيه ، فأخذ يردد في تمثيلياته نغمة السياسة والواجب والحب الشريف ، وصاغ الحِكَم الكثيرة ، في اسلوب ركيك لفظه ، وتهوشت معانيه ، وظهر اثر التقليد فيه . وأما كينو فقد كان يميل في بداية امره الى التكلف ويسوق الحوادث على غير الطبيعة ، حتى سخر منه بوالو وناصبه العداء . ثم استقام له بعض التمثيليات الغنائية ؛ ولكنه لم يكد يرى تألق نجم راسين ، حتى ربأ بنفسه ان يضع غثاءه الى جانب روائع الشاعر العظيم ، وانقطع عن كتابة المآسي (٣) .

• • •

ولد جان راسين في مدينة « فرته ميلون (٤) » قرب باريس ، عام ١٦٣٩ ، من اسرة متوسطة الحال ؛ وفقد ابويه وهو طفل ، فتولته جدته ، ثم ما لبثت ان دخلت الدير ، وعهدت بتربيته الى جماعة الجانسنيين في « بور رويال » ، فلم يدخروا جهداً في تثقيفه وغرس مبادئهم في نفسه ، وعنوا بخاصة بتمكينه من الآداب اليونانية وأشربوه حبها (٥) . ولما بلغ التاسعة عشرة قصد الى باريس ، وهناك تحرر من قيوده واتصل بالمجان ، وتوطدت اواصر الصداقة بينه وبين الشاعر لافونتين ، ونظم بعض الاشعار . وقد أعجب الأديب « شابلان » بقصيدة نظمها راسين بمناسبة زواج الملك ، ثم اتبعها بأخرى يهنئه فيها بابلاله ، وبثالثة نالت استحسان « بوالو » وكسبته صداقته . ان تشجيع « شابلان » كان يعد امراً ذا بال في ذلك الحين ، لنفوذه الكبير في القصر . ورقي خبر الشاعر الى الملك فأجازه ووالى عليه النعم . بيد أن المنزلة السامية لم يكن

(١) Pertharite (٢) Quinault (٣) Lanson 535 - 537 ثم مادة Quinault في L.U. (٤) Ferté-Milon (٥) Mauriac 1—17



RACINE راسين

يتوصّل اليها آنذاك بعيداً عن المسرح ، فهو الآن يروّض نفسه على كتابة المأساة ، ويخالط الفنانين والممثلين . . . وتسامع به جماعة بور رويال ، وهم من عرفتَ بالورع والتشدّد فهالهم الامر وتعاونوا مع اسرته على ارساله الى احد اخواله من رجال الدين في مقاطعة « لانغادوك » ، وكان قد وعد ان يلتمس للفتى عملاً ويمنحه بعض المال . هناك عكف الشاعر على المطالعة والنظم والكتابة الى اصدقائه الباريسيين . ولما طال به الانتظار ولم يجد العمل والمال اللذين وُعد بهما ، قفل راجعاً الى باريس ، وقد رست قدمه في الأدب وتفتحت شاعريته (١) . انه الآن وليّ امره ، إذ لم يبق من اسرته غير عمة ناسكة في « بور رويال » كانت لا تني تناشده ان يهجر مجونه ويؤوب الى الله . عاد الى لافونتين، ذلك الشاعر الشارد الذي كان يكبره بتسع عشرة سنة ، ولكنه كان في سذاجـــة الطفل تغالبت عليه الشهوات فاستسلم لها ورضي بها ؛ وعاد الى بوالو ، ذلك النـاقد المعروف بنصاحة الرأي وطيب السريرة ، وهو الوحيد الذي رضي راسين ان يجعله منه بمنزلة الاستاذ الموجّه ، لانه آنس فيه الصديقَ المعجب الحاضر الذهن المتشدّد في الحق . ثم عرف موليير الذي مثّل له اولى مآسيه « لاتيبائيد » (٢) . لقـــد حطّمت غريزته الحبيسة آخر قيودها . هؤلاء هم اصحابه ؛ معهم كان يغدو الى كبريات الحانات كالخروف الابيض (٣) وصليب اللورين (٤) . انه ليرى الرفقـــة الاحرار ، ويتذوق اللذات ويسترسل في الأهواء ، وعلى الجملة فقد كان يحيا الحياة التي سيصورها (٥) . ولما اخرج مسرحية « الاسكندر » انقطع آخر أمل لاساتذته في استصلاحه ، وكتب احدهم أن واضعي القصص والتمثيليات ينفثون السمّ في نفوس المؤمنين ، وانهم كلما حرصوا على ان يغطّوا بنقاب من الفضيلة الأهواءَ الأثيمة التي يصفون ، زادوا في خطورتها وقدرتها على افساد النفوس البريئة . ورأى راسين انه هو المعنيّ بهذا الـكلام ، فكتب رسالة لاذعة صبّ فيها مكنون حقده على هؤلاء السادة الذين أولوه الجميل : « تستطيع يا سيدي ان تستعمل عبارات ارقّ من قولك اني انفث السمّ ، واني من قوم أشرار بين المسيحيين. أفتراك تظن انك واجد من يثق بما تقول ؟ كلا ، كلا ، فالناس لم يألفوا ان يصدّقوك في سهولة . . . هيه يا سيدي ، بحسبك ان توزع الدرجات في الآخـــرة ، واياك ان

(١) المصدر السابق 47 .38 ,28 ثم Lanson 538—539 (٢) La Thébaïde
مثلث ٢٠ حزيران ١٦٦٤ (٣) Le Mouton Blanc
(٤) La Croix de Lorraine (٥) Lanson 539—540 ، Mauriac 52

تقرّر المثوبة في هذه الدنيا . » وكان راسين يريد ان يتابع رسائله اللاذعة ، ولكن بوالو ، بوالو الطيب ، يتدخل ويحول بـــين الشاعر ورغبته ، ويقول له انك تهاجم اشرف من عرف الناس . سيندم راسين فيما بعد على ما فرط منه أمرّ الندم ، فقد صرّح في أعقاب ايامه ان رسالته هذه كانت أظهر ما في حياته من عار (١) ! لعله ان يكون على بعض الحق في ردّه ، اذ لم يكن في اتجاه الخطر الذي يتوهمون ، وليس من المعقول ان يسلك الناس كلهم الطريق الذي يسلكون ؛ ولكن في استطاعة الشاعر ان يتأدب مع قوم أسلفوا اليه يداً وان يجادلهم بالمعروف ، وألا ينسى الدوافع النبيلة التي اثارت شكوكهم ومخاوفهم ، بل كان عليـــه ان يذكر ان عبقريته هي من غرس يدهم ومن محصول جهدهم الى حدّ كبير .

نستطيع ان نتبين الآن صفات شاعرنا البـارزة : شعور في منتهى الرّهَف ؛ وفكرٌ لاذع ، وانانية في نزق ، وحمية عارمة ، مازالت في عنفوانها حتى قدّر لها ان تعود الى حظيرة الدين ، فطامَن من حدتها ، وألزمها جانب الاعتدال (٢) . لعلك تستغرب هذا التناقض بين راسين الوديع في مآسيه وراسين اللاذع الكاوي في موقفه من خصومه ؛ بيد ان هذه حال الانسان في الغالب ، يكون فيه من الثورة والنزق بقدر مافيه من الهدوء ولين الجانب (٣) .

اما صداقته لموليير فلم تكن وثيقة ولا طويلة ؛ وذلك ان فرقة موليير لم تكن تجيد تمثيل المآسي ، فما كادت هـــذه الفرقة تمثل « الاسكندر » حتى أوجس الشاعر خيفة واحس فتور الجمهور . على ان الرواية قرئت قبيل ذلك على طائفـــة من علية القوم ، فيهم الاديب الكبير لاروشفوكو والكاتبتين اللامعتين : مادام لافاييت ومدام دوسيفنيه فأصغوا اليها في حماسة بالغة ! ان قصور مسرح موليير في هـذا الميدان معروف لا يحتـاج الى دليل ، كل الممثلين ، ما عدا الآنسة دي بارك (٤) كانوا لا يحسنون الادوار الجدية التي تدور حولها مآسي راسين . هذا فن حذقته فرقة أخرى كانت تمثل في قصر بورجوني (٥) ، وكان بينها وبين فريق موليير في القصر الملكي (٦) منـافسة شديدة . فما كان من الشاعر الناشيء الا ان سحب روايته ووضعهـا بين يدي الفريق

---

(١) Mauriac 65—70 (٢) L.T. 275 (٣) Mauriac

(٤) Mlle Du Parc (٥) L'hotel de Bourgogne

(٦) Le Palais Royal

الحميم ، شارياً بموليير وصداقته عرض الحائط (١) ! موليير الشاعر الزميل الذي فتح له ذراعيه مرحباً ومثل له اولى رواياته ، موليير الذي غرس فيه اصول الفن الصحيح ولفته الى مافي البساطة وتصوير العواطف الانسانية من روعة وسداد ، موليير الذي كان يقضي معه اويقات لهوه وصفائه . لقد يسوغ عمله هذا طبيعة الاديب الذي يعدوه (٢) الاخلاص لفنه عن كل ما سواه ، ولكنه تجاوز ذلك الى انه اغرى بعدئذ المثلة دي پارك بترك موليير والانضمام الى الفرقة الاخرى ، وهو لا يجهل مكانها من فرقة صديقه ومن قلب صديقه (٣) !

هل احب راسين هذه المثلة ؟ ينفي ابنه لويس ذلك ، ويزعم ان ما يسود مسرح ابيه من رقة لا سبيل الى ردّه الى ما كان يضطرب في نفسه من اهواء (٤) . غير ان الثقاة على أن الشاعر احبّ ، وصوّر جانباً من حبه في مآسيه . أحبّ دي پارك هذه ، ولكنها ما لبثت ان ماتت ، وهي على فراش الولادة (٥) . وأحب بعدها المثلة الشهيرة « لاشاموسلي (٦) » ، ولعله احب غيرهما كثيرات . ويجمع مؤرخو الأدب على ان « مزاج راسين مفعم بالهوى . » ولا عجب في ذلك ، فقد كان الشاعر في اوج مجده ، يتمتع بالشباب والوسامة والذكاء ، في بلاط مزدحم بالظرفاء والمجبين (٧) . ومهما دار الأمر فعاطفة الحب بمختلف انواعها ودرجاتها هي أبرز ما في مسرح راسين ؛ فهو شاعر الحب الاول غير مدافع بين شعراء الاتباعيين .

وفي عام ١٦٦٧ اخرج الشاعر مأساته الخالدة « أندروماك » . يقول الناقد الكبير جول لوميتر (٨) : « ان اندروماك والسيد هما اكبر حدث في تاريخ المسرح الفرنسي ، فاندروماك هي المدخل الى مأساة الواقع السيكولوجي والهوى الغلاب (٩) . » ويقول الاستاذان لانسون وتيفرو : « لاندروماك في تاريخ الادب اهمية « السيد » ، فقد استعاضت عن كفاح الارادة بدراسة القلق العاطفي ، او بتعبير أصح ؛ انها رغبت عن تمثيل الابطال الذين يتجاوزون باعمالهم حدود المعقول ، الى تمثيل الانسان الذي فيه مشابه مما فينا من تناقض وضعف (١٠) . » والحق ان اندروماك هي فتح عظيم في الادب الفرنسي ؛ وقد

---

(١) Mauriac 55 (٢) عداه عن الأمر : صرفه عنه وشغله
(٣) Mauriac 57-58 (٤) Mauriac 75 (٥) مادة Du Parc في
L.U. ثم Mauriac 87 (٦) مادة La Champmeslé في L.U.
(٧) Mauriac 78—79 (٨) Jules Lemaître (٩) L.F.U. v : II, 18
(١٠) L.T. 276

بلغت من الفهم العميق للنفس الانسانية ، ومن التصوير الدقيق لمشاعرها واهوائها ، منزعاً بعيداً لا يدانيها فيه غير القليل من آثار الفحول . لا نملك حين نشاهد اندروماك وما تلاها من مآسي راسين الا ان نعترف بان الشاعر لا يكدّ العقل ولا يذهب مع الخيال ، وإن هي إلا اهواء النفس وآمالها ومخاوفها ينهل منها الشاعر ويعلّ . وهذا هو الجانب الأهم في ادب راسين على ما نرى . فقد حول الانظارَ سلفهُ العظيم كورني الى ميدان النفس الرحيب ، وجعل تصوير العواطف والطباع همّ الاديب الاول . فلما جاء راسين وجد الطريق قاصدةً (١) فسلكها وفاق صاحبه في العدو في حلبتها ؛ فانك ربما وجدت في مسرح كورني شيئاً من جدل لا تدعو اليه الحال ، وربما لمحت عنده بعض المعاني العقلية التي تنساق مع الخيال ، وربما كد الذهن واختلق المعاني . اما راسين فمعانيه تغرف من بحر الواقع النفسي وتعزف عن الاستنباط الذهني الزائف . ان عظمة الاديب رهينة بما في انتاجه من روح الصدق ، يستوي في ذلك الشاعر الغنائي والكاتب المسرحي وغيرهما من حمَلة الاقلام . وليس معنى الصدق ان يتجنب الاديب الحديث المفترى والخبر الكذّاب ، فهذا مطلب هين وتحصيل حاصل ؛ ولكن معناه الجري مع الطبع والأخذ من واقع النفس والحياة . وعلى هذا فاننا لا نطمئن كثيراً لذلك الشاعر الذي يلوّح لنا بمقدرته على اختراع المعاني ، لأن كلمة الاختراع تحمل في ثناياها معنى الكذب والتلفيق ، ولأن اللعب بالمعاني لا يختلف كثيراً عن اللعب بالألفاظ . انما يحوز اعجابنا ذلك الشاعر الذي يغوص في بحر الحياة الزاخر ويعمق في دراسة القلب الانساني فيعرضها لنا في أمانة وصدق . وهذا ما نجده في ادب راسين . كل كلمة ينبس بها اشخاصه هي تعبير أمين عما يدور في اذهانهم من خواطر وفي قلوبهم من مشاعر ؛ وكل خاطرة تسنح وشعور يستجدّ هما خطوة تسير بالعمل الروائي الى نهايته الطبيعية . ما أقل ما ينساق الشاعر وراء معنى يلتمع في خاطره ثم لا يكون له نصيب من تفكير البطل ومن احساسه ؛ وما أكثر ما تجد ، بالمقابل ، ابطال كورني يندفعون في تفنيد منطقي وجدل عقلي وحكم براقة هي بتفكير الشاعر اشبه وبنفسيته ألصق ؛ ولا سيما اولئك الفتياتِ العاشقات ، فما اغرب ما يبدو لك من خصب تفكيرهن ومن إيغالهن بالمناظرة والجدال !

نحن الآن في « ابيريا » ، وهي بلاد يقع اكثرها اليوم في جمهورية البانيا ، وكانت

(١) قريبة سهلة

في الماضي البعيد احدى ممالك اليونان المستقلة ، وفي بلاط « بيروس » ، وقد انقضت تلك الحرب الضروس التي استمرت عشر سنين بين « طروادة » واليونان . وطرواة هذه مملكة كانت على الشاطىء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وكان يحكمها الملك « بريام » . وقد نشبت الحرب على اثر اختطاف « هيلين » ، امرأة « مينيلاس » ، ملك « اسبارطة » ، اختطفها « باريس » ، ثاني ابناء بريام ، فهب اليونان جميعاً غاضبين ، وأصلوا طروادة حرباً شعواء ، كان « آشيل » ، ابو بيروس ، بطلها الاول . وفي السنة العاشرة من هذه الحرب استطاع آشيل هذا ان يقتل « هكتور » ، اخا باريس ، وكبير القواد في مدينة طروادة ؛ ثم امر فأوثق من رجليه وجُرّ وطيف به ثلاثاً حول المدينة . غير ان باريس أنفذ الى آشيل سهماً مسموماً فأرداه ، وانتقم بيروس لابيه ، فقتل بريام ، واخذ « اندروماك » زوجة هكتور اسيرة . ولما عاد الى بلاده ، أسس دولة ابيريا واصبح ملكاً عليها . هذه الحوادث خلدها هومير في ملحمتيه ، الالياذة والاوديسا ، وخلدها فرجيل في الانيادة ، واستمد منها الشاعر اليوناني اوريبيدوس احدى مآسيه (١) ، ومن هؤلاء جميعاً استمدّ راسين قصته الخالدة (٢) ، بعد ان صرف النظر عما يلابس موضوعه من اساطير ، واحتفظ بالناحيه الانسانية من الموضوع فقط .

قلت نحن الآن في بلاط « بيروس » الذي كانت اندروماك وابنها « استياناكس » حظه من الغنائم . لقد شغفته الاسيرة حباً ؛ فجعل يؤخر زواجه من « هرميون » ابنة هيلين ومينيلاس ملكي اسبارطة ، وكانت هرميون هذه قدمت الى قصره وهي تنتظر ان تزف الى خطيبها بفارغ الصبر . لم يكن ملوك اليونان يعلمون ان « استياناكس » مايزال حياً . فلما بلغهم ذلك كبر عليهم الامر وخافوا ان يتركوا هذا الطفل على قيد الحياة فيشب على بغضهم وينتقم لابيه وقومه منهم ، فاجتمعوا يديرون الرأي ، ثم أوفدوا « اورست » ابن عم هرميون الى بيروس ، ليراوده عن أسيره ، وليبلغه سخط القوم ويحذره مغبة الرفض . فاذا كان الفصل الاول رأينا اورست فرحاً بلقاء صديقه الوفي « بيلاد » بعد فرقة طويلة ، آملاً ان يكون ذلك بداية حظ باسم طالما عبس له ،

---

(١) راجع المواد التالية في موسوعة لاروس للقرن العشرين «La rousse du xxème siècle»:
Pâris, Hector, Priam, Pyrrhus, Achille, Epire, Troie
Enéide, Andromaque, Hermione, Ménelas

(٢) مقدمة رواية Andromaque 15 -17

ورأيناه يكاشف صديقه بان حبّه لابنة عمه هرميون هـو الذي حمله على ان يسفر بين اليونان والملك بيروس ؛ فاذا لامه « بيلاد » على انه كان يكتمه هذا الحب ويضلله عنـه ، اجاب انه كان يضلل نفسه كذلك ، فقد آله ألا تلتفت هرميون لاحزانه وان تبذل نفسها بسخاء الملك ابيريا ؛ فثار ثأره وقرر ان يجازيها على إهوانها أمره بالنسيان ، وخيل اليه ان البغض هـو الذي يهيّجه ويخمد جذوة الحنـان في نفسه . فلما قدم الى بلاد اليونان ورأى امراءها في حيرة وقلق ظن ان الحرب والمجد سيشغلانه عما عداهما ، وان الحب مفارقه الى غير عودة ! وهكذا قاده الحظ الى الفخ الذي فر منه . رأى القوم ساخطين : أينسى بيروس نبل محتده فيربي في قصره عدواً لليونان خدعتهم امه عنه ؟ أيهجر خطيبته هرميون ليرتمي على قدمي أسيرته ؟ ان ملك اسبارطة وملكتها ليتميزان غيظاً لهذا التأخير لموعد الزواج لا يفتأ بيرّوس يعدّ من اسبابه ؛ وانهما ليخشيان ان يئول الأمر الى زواجه من اندروماك وردّه ابنتهما اليها ؛ ولعلّ هـــذا هو الذي يثير الفتنة ويحمل على الثورة ، لا حياة الطفل ولا مستقبل اليونان ، ! فلما سمع اورست ما تلاقيه هرميون من فتور واعراض فرح ، وظن انها فرحة الشماتة بالفتاة الـتي تولّت عنه ؛ بيد انه ما لبث ان تبين مكان الفتاة من نفسه ، وان جذوة حبه ما تبرح تومض تحت الرماد ، وانه عاجز ابداً عن ان يطفئها ! من اجل هذا سعى لدى هؤلاء الامراء لينتخبوه سفيراً لهم في بلاط بيرّوس يبلغه رسالتهم . على انه لا يكتم صاحبه ان سعادته تقتضيه ان يعود بالاميرة الحبيبة ، وان امر الصبي وامه لا يعنيـه في كثير ولا قليل ، مهما يكن غضب القوم وحراجة الظروف . فما هـــو رأي الصديق بيلاد في الأمر ، بعد ان علم علم القوم واطلع على دخلة صاحبه ؟ لا يستطيع بيلاد ان يؤكد امراً أو يشير برأي ، فقد يستبقي الملك خطيبته وقد يسرّحها سراحاً غـــير جميل . كل شيء يتوقف على مشيئة الارملة الفاتنة وتصرّفها . ذلك بان اندروماك وفية كل الوفاء لزوجها الراحل مقيمة على حبه ، لا تريد ان تستبدل به رجلاً آخر مهما يكن من جلالة قدره ، فكيف ترضى بابن قاتله عوضاً منه ؟ عبثاً يحاول بيروس ان يروضها على حبه او ان يحملها على قبوله زوجاً لها ، فما يجدي معها وعد ولا وعيد . فاذا استيأس منهـا رأيته يعود الى هرميون ليجدّد العهد لها وليذرف الدمع في حضرتها ! هكذا كان بيروس قـد اضاع قياد نفسه واصبح فريسة الألم والتردد الذي هو آية الضعف فينا ، والذي جعله راسين احدى الصفات البارزة في اشخاصه ؛ كما جعل كورني الارادة الماضية اولى صفات ابطاله.

فكم من مرة آلى بيروس على نفسه ليعرضنّ عن الاسيرة النافر ثم عاد اليها وهو اكثر حباً وأضيع لباً ! اما هرميون لهائمة بحب بيروس خطيبها وأمير احلامها العذاب ، والأميرة المدللة التي لم تكن تدري ما الخيبة وما الألم ، حتى احبت ومنيت بالهجران ! اما هرميون هذه فما زالت تحتفظ امام بيروس بعزتها وتعاليها ، ولكنها تبكي في الخفاء ادبار حظها وضيعة أملها . هذا ما عرفه بيلاد ؛ والرأي عنده ان نجاح اورست في تحقيق رغبته منوط بالشدة التي يعرض فيها قضية اليونان ؛ فكلما ألحف في طلب الصبي وهوّل بغضب القوم ، زاد حرص بيروس على حبيبته الناشزة ، وازداد قدرة على اثارة مخاوفها وردها من نفارها . واقتنع السفير العاشق برأي صاحبه ، فلما قابل الملك بسط له عتب القوم وسخطهم ، وناشده ان ينزل عند رغبتهم ، وآذنه إن لم يفعل بالحرب ووخامة العاقبة فاذا بالملك يزيده الوعيد حرصاً على اسيره ، واذا بالحب يطغى في نفسه على كل واجب ، فلا يذكر في ساعته هذه روابط الدم وسالف الامجاد ، ويعلن استعداده لأن يجعل من مملكته طروادة ثانية اذا ركب القوم رأسهم وأوجفوا في غيهم .

واقبلت اندروماك على الملك ، بعدان صرف السفير من حضرته وخلا لنفسه . أكانت تبحث عنه ؟ أمن حقه ان يغذو هذا الامل الجميل في نفسه ؟ كلا ! انما هي قادمة لزيارة ابنها ، فقد أذن لها ان تلقاه مرة في اليوم . انه الذخر الوحيد من هكتور ومن طرادة ، فهي ذاهبة تبكي ساعة معه ، فانها لم تطبع بعد على جبينه قبلة النهار ! يا للزوجة الوفاء ويا للام الحنان ! انها لا تلهج الا بذكر هكتور وابن هكتور ! قال الملك وقد آذاه أنه لم يستطع ان يشغل من قلب هذه السيدة مكاناً على كثرة ما بذل ومنّى : أخشى يا سيدتي ان تزيدك اليونان بكاء وتسهيداً ، فقد ارسلوا اليّ يطلبون القضاء على صغيرك . فانتفضت الام مذعورة تسأله : أفيقدم على فعلة شنعاء كهذه ؟ اذن فهي تفقد كل شيء ، ولا تفقد شيئاً إلا بيده ! لقد نجح بيروس في استثارة المرأة وتوجيه اهتمامها اليه . عندئذ جعل يخفف من حدتها ويهدئ من روعها . انه لن ينزل على حكم هذه الرغبة اللجوج . لن يسلمهم الطفل ولو اعدوا له سفينهم وخيلهم ورجلهم . سيدفع عنه الاذى حتى يلفظ نفسه الاخير . هذه خطته التي رسمها لن يحول عنها ولن يزول . ولكن ما تراها صانعة لأجله وهو يخوض لجج الاخطار في سبيلها ؟ اتبخل عليه بنظرة وادعة او كلمة مشجعة . الا يكفيه عداوة اليونان وإظلام الدنيا حتى يكافح كذلك قساوة المرأة التي يحب ؟ أليس من حقه وهو يحارب من اجلها الا تجعله في زمرة اعدائها ؟ فلما أتاها من جميع اقطارها وسد

عليها مسالك الحقيقة ، عمدت الى الخيـــال العقلي تستعين به على الاجابة كما قـد يفعل ابطال كورني :

مولاي ، ماذا تصنع ، وما عسى ان يقول اليونان ؟
أيجوز لمثل قلبك الكبير ان يتخذ موقف الجبان !
أيطيب لك ان يفسر القوم عزمتك النبيلة الصادقة
على انها حماسة من نفس مغرضة عاشقة ؟
أيكون لك ان تأمل من اندروماك ان تطارحك الغرام ،
وهي الاسيرة ، المستثقلة نفسها ، الحزينة على الدوام ؟
اي سحر أنت واجده لعينين شاردتين محزونتين
كنت قضيت عليهما ألا تبرحا دهرهما مستعبرتين ؟
كلا ، كلا ، إن احترام بؤس العدوّ وتفريج همه
واستنقاذ التعساء المكدودين ، واعادة الطفل الى امه
وقتال مئة شعب لاجله وقد انتفخت اوداجهم شرا
من دون ان تسألني ان ادفع من قلبي على سلامته أجرا ،
وجعله ، ولو كان ذلك رغماً مني ، في حرز أمين ،
مولاي ، تلك هي الواجبات الجديرة بامثالك الاكرمين .

نحن لا نؤمن بان النظم هو الاسلوب المفضل في المسرح ، ولكننا مع ذلك لا نرى بأساً ان نقدم بين يديك نحواً قريباًمنه لنطلعك جهد المستطاع على اساليب الشعر الفرنسي والشعراء المترجمين . ويستمر الحوار بين بيروس واسيرته : يصور لها ما يحدق بابنهـا من اخطار ، اذا هي نفرت وتولت ، وما ينتظره من امجاد ، اذا انصاعت ولانت ؛ وهي هي ، لا تلهج الا بذكر هكتور ، حتى ضاق ذرعاً باباٰتها فتولى عنها مغضبا مهدداً .

ها نحن اولاء في الفصل الثاني . وامامنا هرميون تتحدث الى وصيفتهـا في امر اورست . لقد نزلت على رأيها فاذنت له ان يزورها ؛ غير انها لم تكن ترغب كثيراً في هذه الزيارة . وتعجب الوصيفة من ان سيدتها تكره لقاء الامير العاشق ، وهي التي طالما تمنت عودته وأكبرت حبه ووفاءه . ولكن هرميون تخشى ان يعلم هـــذا الامير الذي استهان بحبه ما تقاسيه في قصر بيروس من صدود وإهوان ، فيشمت بحالهـا ويجرح كبرياءها . وتردّ الوصيفة بان بيروس اساء معاملتها ، ولكم باحت لها ببغضه ، فما عليهـا

الا ان توليه هجراً بهجر . فتعود هرميون لتؤكد بغضها ، ولكن ياله من بغض عجيب ، انه الحب بعينه وبأجلى معانيه :

لقد احببته حباً عظيما فلا استطيع الا ان أبغضه .

ان أشد ما تضيق به نفس هذه الأميرة ان صاحبتها غريبة عن نفسية العشاق ، تفهم ظاهر كلامهم وتعجز عن النفاذ الى حقيقته ، فهي تفهم البغض بغضاً والاعراض اعراضاً ، وهي تنصح باتخاذ موقف حازم ، نصيحة من لم يعرف من امر الحب شيئاً :

هرميون : لماذا تريدين يا قاسية ان تقلقي بالي ؟
اما انني لاخشى ان اعرف حقيقة حالي . . .
تريدين ان اهرب منه ؟ حسن ! فليس من عائق
هيا ، لنعزف كل العزوف عن غنم غير لا ئق ؛
على أسيرته ان تبسط سلطانها عليه ؛
لنهرب . . ولكن اذ رأى الجاحد واجبه وعاد اليه !
اذا قدر للوفاء ان يجد في قلبه من مكان !
اذا ارتمى على قدمي وجعل يطلب مني الأمان !
اذا استطعت ايها الحب ان تعيده الى الطاعة !
اذا اراد . . غير ان الجاحد لا يوليني غير فظاعة .
فلنبق على كل حال لنعكر مافي حياتها من صفاء ؛
ولنجد لذة في ان نكون عليها نغصاً وبلاء ؛
او لنحمله على ان ينكث عهداً جد مهيب ،
فنصوره في نظر اليونان كالجاني الكذوب .
لقد سبق ان استثرت على الصبي حفائظهم
واريد كذلك ان يصبوا على الوالدة سخائمهم .
لنعد اليها آلاماً جعلتها توسعنا عذابا ؛
لتحمل اليه الهلاك ، او ليسقها كاس المنون شرابا .

ارأيت الى هذا الحب الناقم الحائر يملأ جوانح الفتاة ويجعلها نهب القلق والألم والغيرة والتحامل ؟ ارأيت كيف أننا لم نبعد كثيراً حينما عزونا غضب اليونان الي حرص ابويها على تحقيق رغبتها عند بيروس ، لا الى تخاوفهم من الصبي الأسير ؟ فهذه هرميون

تصرح بانها هي التي اثارت الفتنة وستثيرها ما وجدت الى ذلك من سبيل . ان هرميون شخصية بغيضة في مسرح راسين ، ولكنها على كل حال نابضة بالحياة ، وهي نموذج صادق للعاشقة الغيرى الجموح .

ثم يدخل اورست فتستقبله هرميون استقبالا حسناً . انها لا تجهل المهمة الخطيرة التي قدم من اجلها ، وتعرف حبه وتريد ان تستغله لفائدتها ! فهي لا تحرج ان تفضي اليه بهمها ، وهي تمهد له السبيل للتحدث عن هواه حين تسأله ألا يزال في نفسه بقية من عطف عليها ام تراه لا يفكر في غير الامانة التي حمله ملوك اليونان . كلا ، انه الحب الاعمى يقود خطاه اليها كلما اقسم ان يهجرها وألا يفكر فيها ؛ ويندفع السفير العاشق في شكوى حزينة يصور فيها وجده وتباريحه ويؤكد ولاءه . واذن فالفتاة ما أخطأ حزرها والرجل هائم بحبها . بل ان هيامه كان ابعد مما تنتظر ! ما الى هذا كله قصدت ، وانها لتخشى ان يتهاون بواجبه عند بيروس فلا يستحثه على تعجيل زواجه بها ؛ فهي تلفته الى هذا الواجب وتحمله على التفكير في اولئك الملوك الذين وضعوا ثقتهم فيه ووكلوا امرهم اليه ، فيجيبها اورست بانه فرغ من ذلك منذ تلقى جواب الملك بالرفض الجازم ؛ فهو لا يرى تهاوناً في شيء اذا حدثها الآن عن حبه وقرر معها مصيره . واذن فبيروس سادر في غيه ، ماض في عمايته . هذا ما يتيسر له وجه الفتاة ويرفض له صبرها . ألا فليعلم اورست انها لم تأت الى هذه البلاد الا نزولا عند رغبة ابيها واستجابة لصوت الواجب ، وانها كانت تفتقد اورست وتتمنى رؤيته ! لا بل انها تعود الى حديث كرهها للملك الذي جاوز حقوقه وخاس بعهوده . غير ان اورست اقدر على فهم الفتاة من وصيفتها ، فليس أفهم للعاشق من العاشق ؛ ولكم كان يتمنى ان يحظى ببعض هذا الكره الذي فاز به كله بيروس ! فما بغضاء العاشق الا آية من آيات حبه وجهد يائس لتوطيد سلطانه . فاذا جعلت هرميون تؤكد نقمتها على الملك وتتمني على اليونان ان ينكلوا به ويقوضوا دعائم ملكه ، سألها اورست عما يحملها اذن على البقاء في هذه البلاد رهينة عند سيدها ، فما كان جوابها الا ان قالت :

ولكن يا سيدي اذا اقترن اثناء ذلك باندروماك ؟

ألم أقل لك انها تحب بيروس حباً لا ينبغي ان يخدعك عند خوضها في حديث الواجب ولا تأكيدها كرهه وتمنيها الاذى له ؟

ونعود بك الى بيروس بعد ان تركناه يغادر اندروماك مغيظاً مغضباً . لقد روّى في الأمر فوجد انه يبذل معروفه ويتنكر لقومه في سبيل امرأة ناكرة للجميل ، فاستشعر الندامة وقرر العدول عن هذه الخطة الجائرة . فاذا التقى اورست اعتذر اليه عن موقفه الاول الجافي ، واعترف له بغضب قومه العدل ، وأكد له انه لن ينشب بينه وبينهم حرباً مهما كانت الاسباب ، لا بل انه سيتناهى في ارضائهم اذ سيحتفل من غد بزواجه من هرميون ، وسينوب السفير عن أبيها وعن اليونان كلهم في هذا الاحتفال فلما خرج اورست من حضرته توجه اليه استاذه « فونيكس » بالثناء ، واعلن انه اذ ينتصر على هواه انما ينتصر مرة ثانية على طروادة . فيجيب بيروس بانه يرى ان نصره يبتدئ منذ اليوم ، منذ أن نضى عنه تردده واخذ يستمتع بمجده . كان يظن ان حنانها على وحيدها يردهـا اليه طائعة مستسلمة ؛ حنان مَنْ ؟ حنان اندروماك ، اذ يكفي اطلاق الضمير حتى يفهـم انها هي المعنية وهي الشاغل . لقد رأيت يا فونيكس كيف نعمت في ذراعي (١) ، ولم تقابل حسن صنيعي بغير تردادها لاسم هكتور . عبثاً اكدتُ حمايتي لأبنها ، فكانت لا تلتفت الي ولا تنبس بكلمة شكر ! . . . ان في عمله لحزماً وان في لهجته لصرامة . ولكن ماباله لا يشغل نفسه الا بحديث اندروماك ؟ ان استاذه يريد ان ينحو في غير هـذا الحديث ، ولكن بيروس لا يصغي الى استاذه ولا يريد ان يدع ذكر اندروماك : ما الذي يطمعها فيّ ، ويجعلها تنتظرني ان ارتمي ابداً على قدميها ؟ لأرينها كيف يكون الخوف والهوان . فلئن كانت ارملة هكتور ، فانني ابن آشيل . ان بغضاء نامية لتفصل بيروس عن اندروماك . ولكن استاذه غير راض عن تعلقه بذكر هذه السيدة . وهو ينصحه ان يخوض في غير حديثها ؛ عليه ان يعود الى هرميون وان ينسى بين يديها حتى احقاده . فيقول بيروس : أتظن انها لن تغار من زواجي من هرميون ؟ فيستغرب الاستاذ ان تشغل اندروماك ابداً فكره ؛ فاذا بالملك يصارحه بان هنالك اشياء كثيرة لا تسر اندروماك لم يفاتحها بعد بها ، ويعلن رغبته في الذهاب اليها ليُظهرها على كل ما في نفسه من عداء ، ورغب الى فونيكس ان يرافقه ليشهد بنفسه تلميذه يتهن محاسنها . فيقول فونيكس : بل ستذهب يا سيدي لترتمي على قدميها ، ولتشجعها ، بما تظهر لها من غرام ، على التمادي في احتقارك . انت عاشق وكفى !

---

(١) في كنفي

لعلك اخذت تتبين مذهب الشاعر في فهم النفس الانسانية : «خلق الانسان من ضعف ، ولو لا رحمة الله ما زكا من أحد . هـــذا بيروس ، وهو من علمت بأساً وشجاعة ، يضعف وتزل قدمه امام سيدة ! أبلى في الحرب خير بلاء فتبه ذكره ووطد ملكه ؛ ولكنه وقف مكتوف اليدين امام اغراء الحسن ونزوات الفؤاد . فاز في الجهاد الأصغر وخاب في الجهاد الأكبر . هذه عقيدة « الجانسنيين » الذين ربي الشاعر عندهم في « پور رويال » وكنا حدثناك عنها في موضـــوع « الدعوة الى الاصلاح (١) » واذن فقد كان تأثير هذه الطائفة في راسين امكن واوغل مما خيل اليه ؛ بل هؤلاء ابطاله كلهم فريسة الأهواء تعصف بهم في كل مهب فلا ينجو منهم الا من تداركته العناية . ما اشبههم بابطال الحياة الذين يسرحون حولنا ويمرحون ! هذا ما نعنيه بصدق التصوير الذي أربى على الغاية في هذه الرواية . ولقد اعجب الناس في القرن السابع عشر بمذهب راسين هذا في تصوير الانسان ايما اعجاب . وليس ذلك ان ابطال سلفه كورني خيال لا ظل له من الواقع ، ولكن لأن ابطال راسين هم اكثر عدداً وأقرب الى المألوف ، ولأن « الاستسلام للعاطفة أشيع بين الناس من الاعتصام بالارادة (٢) . »

وشيء آخر نرجو ان تلفت اليه عند راسين : وهو أنه لا يكتفي بتصوير الطباع على نحو ما يفعل كورني ، بل يريد ان يختـار منها على الخصوص الأهواء ، وعلى الأخص الازمات النفسية الحادة ؛ والحق أن النفس لا تهتك ستارها ، والقصة لا تفضي الى نهايتها في اربع وعشرين ساعة ، ما لم يكن هناك باعث قوي يهز النفس هزاً ، ويحملها على ان تتحلل من قيودها (٣) .

• • •

خرج اورست من حضرة الملك مغيظاً ثائراً . واذن فقد استجاب بيروس دعوة اليونان وسيبني من غده بهرميون ! وسيشرف السفير بان يجعله شاهد الزفاف وبان يتقبل من يده العروس ! كلا لن يمضي اورست في البلاهة الى هـــذا المقدار . وليختطفن صاحبته ، قبل ان يقضى امر هـــذا الزواج البغيض ، وليظاهرنه صديقه پيلاد على ذلك . اما هرميون فقد بلغها ما صحت عليه عزيمة الملك فاستبشرت وتهللت . انها تأبى ان تعزو عمله الى غـــير الحب . أفيخشى وعيد اليونان الذين ظلوا عاجزين امام طروادة عشر سنين حتى جاء ابوه فأمكنهم منها وجذ دابرها ؛ وأقبلت اندروماك تلتمس

(١) ص ٢٩   (٢) L.T. 286   (٣) L.T. 284

وساطتها عند بيروس ليحفظ عليها طفلها . ان منظر هـــذه الارملة لينغّص على الفتاة افراحها فتهم بالخروج . مهلاً يا سيدتي ، فانا لم آتك لاستنزلك عن قلب تشوقه محاسنك. ان يداً عاتية قاسية حطمت القلب الذي أحببته : غير انه بقي لي ابن ، وستعلمين ذات يوم الى أين يبلغ حبنا لأبنائنا ؛ ولكنك لن تعلمي ، كما آمل ، ذلك الخوف القـاتل الذي يعصف بنا عندما يكون هذا الولد هو الشيء الوحيد الذي نستمتع ببقائه في حوزتنا والذي يُراد ان ينتزع منا . لقد كانت امك ذات يوم اسيرة في وطني (١) ، فلما اشتدت نقمة الطرواديين عليها كنت أندب زوجي ليبّرّها ويتعاهدها في الحـــين بعد الحين ، ويردّ عنها جرائر الدهر الخئون ؛ حـــتى اذ مات وجدت به (٢) وجداً عظيماً يشهد باحسانه اليها . فانت اليوم قادرة يا سيدتي على ان تتوسطي لدى بيروس لتُسدي اليّ مثل ذلك الجميل . فتجيب هرميون بجفائها المعهود بانها تؤثر السكوت ما دام ابوها هو الذي يتكلم ويثير نقمة بيروس . ولا تنسى ان تتهكم بهـــا ، فتذكر سلطان اندروماك على بيروس وانها اولى منها باستعطافه !

أكانت نصيحة هرميون هذه محض تهكم ؟ كلا ، ففي استطاعة اندروماك حقاً ان تترضّى الملك متى شاءت ؟ نظرة منها قد تبدد احلام الفتاة وتخزي اليونان جميعاً ! ان تهكم هرميون ولؤمها لجديران ان يحملا اندروماك على ان تفكر في الالتجاء الى آخر سهم في كنانتها ، فتلبي نداء الملك ، وتحفظ ابن هكتور . ولكنها مع هذا كله لا تلجأ الى ذلك ولا تفكر فيه ، فذكرى هكتور ماثلة امامهـــا ابداً تهوّن عليها من عذابها البئيس . كذلك يكون الوفاء . انها لترفض تاجاً وتزهد في مَلك وتعرّض ابنها ونفسها لهلاك محقق وتنغص عن اهانة هرميون إرعاءً لذكرى الزوج الراحل واكـراماً . ولقد رأت بيروس يمثّل امام استاذه دور الغاضب المنتقم ويهم بتسليم وحيدهـــا الى الاعداء ، فما وهنت ولا استكانت ، ثم رأته يصرف استاذه ليظهر بوجهه الحقيقي محباً مدنفاً ، يعدها ان يكون جارها من عدوها ، ويمنّيها عودةَ الملك اليها ، فما رضيت ولا لانت . ألا ترى في موقف هــذه الارملة بطولة رائعة تضاهي بطولة الفرسان في مسرح كورني ، وإن اختلفت عنهم في النوع والاتجاه ؟ غير ان اندروماك قد وفّت الزوجية حقها ، وقـــد تنقلب فضيلتها اجراماً اذا بالغت فيها ، بل ان هكتور نفسه ليحملها على

---

(١) هيلانة ، ملكة اسبارطة التي اختطفها احد ابناء بريام ملك طروادة فنشبت من اجلها الحرب

(٢) حزنت عليه



اندروماك : — مولاي ، انظر الحال التي أصرتني اليها

اللين لو قدر له ان يعيش . هذا ما قالته وصيفتها . وان اندروماك لتذكر الآن وصاة زوجها اليها قبل ان يخرج للقاء حتفه : ايتها الزوجة الحبيبة ، انا اجهل مصيري في هذه المعركة ؛ غير أنني تركت لك هذا الطفل عربوناً لوفائي ، فان أهلك فرجائي وطيد ان يرائي فيك . أفتراها تأذن ان يراق دم هذا الطفل العزيز فيقضى على ما تبقى من دماء السلالة الزكية ؟ كلا ! لن تأذن . فلتسر الملك ولتفض اليه بقرارها الاخـــير . ستتزوجه . كذلك يقضي واجب الوفاء للزوج الراحل . وهلمي يا سيفيز (اسم الوصيفة) الى لقاء الطفل العزيز . يا فرحة سيفيز بما صحت عليه عزيمـــة السيدة . ولكن فيم العجل ؟ في ميسور الام ان تلتقي بعـــد الآن طفلها متى تشاء وان تطبع على جبينه ما تشتهي من قبلات حرار . كلا يا سيفيز ! هذا آخر عهد الام بابنها ؟ انها لم ترض الزواج من بيروس الا لتضمن بهذا الرباط المقدس حياة طفلها ومستقبله ، ولكنها لن تعيش لحظة بعد ان توقيع وثيقة الزواج . ستنتحر . والا فهي مسيئة الى ذكرى هكتور ، مهما كانت الاسباب .

ونمي الخبر الى هرميون فهالها وأطار صوابهـا ؛ هرميون ، الفتاة الغيور ، التي كان ذكر اندروماك وحده يهزها ، والتي كانت لا تحتمل من غير يأس ان يلقي بيروس على اسيرته نظرة عطف واحترام امامها ، ها هي ذي الآن تجد خطيبها ينتزع منها التـاج ليضعه على رأس اندروماك وهـــو يربط مصيرها بمصيره ! واذن فبيروس يلتذ عذابها واحتقارها ! لقد نزفت عبرتها واستسلمت الى وجوم راعب محير . انه الهدوء الذي يسبق العـاصفة . فلتوجه في طلب اورست اذن . وجاء المسكين يهذي بحبه ويؤكد اخلاصه . كلا ، لا سبيل الى الثقة به ما لم ينتقم لها . لن ترضى ان يؤخر موعد هذا الانتقام ساعة واحدة . فليقتل الملك ، فليقتله من ساعته وقبل ان ترى في أمره رأياً آخر ، فيفقد فرصة ثمينة للفوز بحبها ؛ ولا ينبغي له ان ينظر في عمله هذا الى مركزه كسفير ولا الى ما ينتظره القوم على يديه من عمل خطير . وإلا ، فقد تعفو هرميون عن الملك اذا قدر له ان يعيش وقـــد تصفيه حبها ، على الرغم من خيانته واهانته . فليبادر اورست فرصته هـــذه قبل فواتها ، وان صاحبته لتكره ان يجادلها في شيء ، وتنعى عليه وناة همته ، وتنذره ، اذا رفض ، ان تنوب هي عنه في قتل غريمها ثم في قتل نفسها . حين ذاك يغلب اورست على امره ويستجيب لرغبة فتاته : سيقتل الملك .

فاذا خلت هرميون الى وصيفتها ساورتها رغبة جديدة : انهـا تتمنى ان تنتقم هي

لنفسها من عدوها واذا شئت فمن حبيبها ، وان تبالغ في تعذيبه فتحرمه النظر الى حبيبته وهو يجود بآخر انفاسه ! فاذا لم تتحقق هذه الرغبة ، فلا اقلّ من ان ترسل وصيفتها لتنهي الى اورست امرها أنْ لا يفوتنك ان تُفهم الملك انه ضحية هرميون الحاقدة ، لا ضحية الدولة الغاضبة . وبدون ذلك ، اذا لم يعرف ان هرميون هي التي تآمرت لقتله ، لا يكون للانتقام معنى ولا فائدة .

وجاء بيروس ، على غير انتظار ، يعرض موقفه على هرميون . هذه اول مرة يلتقيان فيها على المسرح . انه لا ينكر ما في عمله من حنث ونُكوص ، ولا يريد ان يحتج بان ابويهما هما اللذان ربطا بينهما من غير ان يرجعا الى رأيهما . لا يريد ان يحتج بذلك ، بعد ان اعلن قبوله للأمر الواقع ، وأذن للفتاة ان تقدّم الى القصر . اقد عمل ما في وسعه واكثر مما في وسعه حينما كبت عاطفة الحب للأسيرة في قلبه ، وصمم على ان يستمسك بعهده ويرفع اميرة اسبارطة على العرش . غير أن سلطان الحب غالبٌ لا راغم . وهو لا يأذن لنا ان نصغي الى حكمة العقل ولا الى نداء الواجب او تبكيت الضمير . ولكن هرميون تأبى ان ترى في عمل بيروس غير الكيد لها والائتمار بها ، ولا تعزوه الى غير اللؤم والخيانة . لقد أحبته ، وازدرت في سبيله رغبات الأمراء الذين تباروا في ارضائها وتفانوا في حبها . جاءت اليه بنفسها ، ومازالت تصبّر النفس(١) في قصره ؛ متغاضية عن خياناته ، متجاهلة برَمَ القوم في وطنها وخجلهم من عفوها عنه وبرّها له : لقد احببتُك على ما فيك من تلون ونكول ، فكيف اذا حملت الود وحفظت العهود ؟ لا بل اني لأشك ، ايها الجاحد ، في أني لا احبك ، حتى في هذه الساعة التي جئت فيها تنذرني بلقاء الموت الأكيد . ولكن يا سيدي هذا آخر رجاء مني اليك : أخّر موعد الزفاف يوماً واحداً لعلك تملك من غد قياد نفسك ... ألا تحير جواباً ؟ يا خائن ، اري انك تعد اللحظات التي تضيعها معي . ان قلبك لا يطيق صبراً على غير حديث الطروادية . نفسك تناجيها وعيناك تبحثان عنها . لن استبقيك في حضرتي ، طرْ اليها ، اذهب واحمل اليها ذلك القلب الذي رغب عني ؛ اذهب ، بادر ، ولكن الحذار الحذار من هرميون !

أرأيت كيف أذهلها اليأس عن امرها ، فباحت او كادت بسرّها ؟ وأعجبُ من ذلك ان بيروس قدسّها عنها ولم يفطن لمقصدها ؛ والأعجب من هذا او ذاك ان استاذه

(١) تحبسها

نبهه الى ذلك وحذره منـــه فلم يُلق اليه بالاً . انه مشغول باندروماك ، سهوان عن كل ما عداها !

وتنطلق الوصيفة في اثر اورست لتنقل اليه رغبة سيدتها ، فتخلو هرميون الى نفسها وتتساءل عما فعلت وعما يجب ان تفعل . ما هذا الألم الذي ينتابها ؟ آه ! أتراها عاجزة عن ان تتبين حقيقة حالها ؟ أهي عاشقة ام مبغضة ؟ تلك هي المسألة ، كما يقول شيخ الشعراء . باي نظرة طارفة ملول سرّحها ؟ لم يُبْدِ عليها حسرة اشفاق ولو كانت مصطنعة ! ومع ذلك فهي ما زالت تأسى عليه ؛ مازال قلبها ، قلبها الخوّار يميل اليه ! انها لترتجف لمجرد الفكرة في تلك الضربة التي تهدّد حياته ! انها لترحمه وهي على أهبة ان تثأر منه ! كلاّ ، ليكن قرار السخط حاسماً : فليمت ، لانه لن يعيش من اجلها . وليمض اورست في انتقامه ، فاذا تردد ، اذا نظر الى ماضي بيروس والى اياديه واياديء ابيه على اليونان ، اذا خاف وخز الضمير أو سوء المنقلب ، كان خوّاناً اثيماً !

واقبل اورست يزفّ اليها البشرى : ان الملك يلفظ الآن آخر انفاسه . وكأن هرميون تريد ان تتأكد من عمله فتسأل : هل مات ؟ فيندفع في سردٍ طويل يفصّل فيه تتويج اندروماك ، وغضب اليونان ، ومقتل بيروس ؛ وهرميون لاهية بذهولها عنه ، مطرقة لا تقول شيئاً ، فلما ذكر ما فعله حرسه اليونان انتصاراً لأميرتهم ، سألته : ماذا فعلوا ؟ كأنها لم تعِ ما قال . فراح يؤكد لها انه هو الذي اثار حماستهم وإن ابتدروه الى فعلتهم ، وانهم لولاه ما كانوا ليضربوا وانه لولاها ما كان ليفعل شيئاً . وهنا يرتفع راسين الى قمة الفنّ التمثيلي ، ويبلغ من فهم النفس الانسانية المرتبة التي تتخاذل دونها الاقلام ، اذ تنفجر هرميون غيظاً ولعنة على ذلك الذي ظن انه سيملأ عينها وسيملك قلبها بجليل صنعه :

« هرميون : صه يا خائن ! لا تنسب قتل نسيبك الملك الا اليك . اذهب وفاخر

اليونان بحنقك ، اذهب ؛ اني لانكره ، انت تثير مَقتي . ايها البربري ،
ماذا جنيت ؟ في اي ثورة جموحٍ وقفت مجرى هــذه الحياة الرائعة !
هل استطعتم ايها القساة قتله هــــذا النهار دون ان تتمرّد دماؤكم كلهـا
لأجله ؟ بل تكلم : من جعل مصيره طوع يديك ؟ لماذا يُقتل ؟ ما عمل ؟
باي حق ؟ من قال لك ؟

اورست : يا للآلهة ! كيف ؟ ألم تأمريني ، بنفسك ، هنا ، منذ هنيهة ؟ ان قتله ؟

هرميون : آه ! اكان عليك ان تطيع عاشقة بلهاء ؟ اما كان اولى بك ان تقرأ باطن افكاري ؟ ألم ترَ في ثورات نفسي ان قلبي يكذب فمي في كل اللحظات ؟ . . من جاء بك الى محالٍّ هربنا منك اليها ؟ تلك هي ثمرة حبك البغيضة ... والا لكنت متعت عيني بوجوده ، ولكان قاسمني بعض همومه ، ولعله يحبني ؛ او يظهر لي الحب في الاقل . وداعاً . تستطيع ان ترحل . سأبقى في « ابيريا » ، عدلت عن اليونان ، عن اسبارطة ، عن مُلكها ، عن اسرتي كلها ، ويكفيني ، ايها الخائن ، انها أنبتت مسخاً على مثالك . »

يا للنكبة الدهياء ! واذن فلم أقدم اورست على جريمته النكر هذه ؟ لقد اغتال ملكاً يحبه ويُقدّره ؛ وهتك عزة الامارة وجاوز حقوق السفارة ، ولم يرع حرمة المعبد الذي اقترف جريمته فيه . وكل ذلك في سبيل جاحدة غضوب ، لا يرضيها منه إقدام ولا احجام . وجاء « پيلاد » ، الصديق الوفي يحث خطا اورست للهرب ؛ فقد تأهب الشعب للانتقام لمليكه ؛ بأمر من اندروماك التي اصبحت ملكة مطاعة والتي تأبى الا ان توفي زوجها الجديد حقّه من الرعاية . غير ان اورست لا يصبر على فراق هرميون وهي عليه غاضبة ، ويريد ان يلحق بها ليترضاها . فلما عرف من صاحبه انتحارها يأساً من الحياة بعد مَهْلَك حبيبها الملك ، غامت عيناه ، ثم أغمضتا عن عالم الواقع لئلا تتفتحا على غير عالم الخيال ، عالمٍ تجري فيه الدماء وتفحّ الافاعي ويزدحم الأبالسة ، ولا يمّحي فيه طيف هرميون وپيروس : لقد جُنّ ؛ وغادر القصر في رعاية صديقه وتبِعه .

هكذا استطاع الشاعر ان يستخلص من الاساطير اليونانية القديمة مأساة عظيمة تصور طرفاً من الحياة الانسانية الدارجة . انها قصة ارملة اضطرت الى الزواج من عدوها لتضمن حياة وحيدها ؛ وفتاة سخرت عاشقها لينتقم لها من معشوقها وهاجرها . أليس هذا شبيهاً بما يجري في الحياة المألوفة في كل زمان (١) ؟ كذلك الحال في كل مآسي راسين . فهو يختار مواضيعه من الاساطير والتاريخ ، ولكنه يتجاوز عما فيها من خيالات واعاجيب ، ولا يلمح منها الا الجانب المألوف ، مما لا يسمو الى مراتب البطولة ، ولا يخرج عن مستوى القدرة الانسانية (٢) .

(١) Andromaque : 8 (٢) Lanson 544

والرواية ، على ما قد يلوح لك من تعقيدها ، بسيطة؛ بمعنى انها لا تعتمد الا على عواطف اشخاصهـــا او اهوائهم ، من دون ان تلجأ ابداً الى الحوادث والمؤثرات الخارجية . كل ما تراه من تطور وتدرج في العمل الروائي ينبثق من اصطراع الأهواء وتفاعلها (١) . فهناك اربعة اشخاص يملئون المأساة : اورست ، هرميون ، پيروس ، اندروماك . اورست يحب هرميون وهي لا تبادله العاطفة ؛ وهرميون تحب پيروس وهو لا يبادلها العاطفة ، وپيروس يحب اندروماك الـتي لا تبادله العاطفة . فما هي الحوادث التي تقوم عليها هـذه المأساة ؟ انهـا لا تعدو هذا الاضطراب والتردد في نفوس هؤلاء الأربعة التعساء (٢) . فاندروماك وفية لزوجها ، ولكنها قلقة على مستقبل طفلها ؛ فهي تارة تعلل پيروس بالأمل واخرى ترده ، وهو يبتعد عن هرميون في حاله الاول ويتقرب منها في حاله الثاني . وهرميون بدورها تعرض عن اورست وتصده مادام الملك يغذو آمالها ، وتدعو اورست اليها وتحاسنه ، مادام الملك لا يلتفت اليها (٣) ... ليس هناك طوارئ ولا مفاجآت ولا حوادث مادية ، وانما هي النفس ، ولا شيء غير النفس : تلك هي اعجوبة الفن التمثيلي (٤) . هذه البساطة الأخاذة في حبكة القصة هي احـدى نواحي التجديد البارزة في ادب راسين : فعقدة القصة اوحبكتها ، ليس لها عند راسين اهمية في ذاتها ، وهي امر ثانوي بالاضافة الى تصوير المشاعر والاهواء ، وهذا ما نراه كذلك عند موليير زعيم الملهاة . لقـــد لاحظ ذلك الناقد سانت امرافرن (٥) فقال : « كانوا في الماضي يأخذون موضوعاً هاماً فيدخلون فيـــه شخصية ما ، اما اليوم فانهم يجعلون هذه الشخصية اساساً يبنون عليه الموضوع . » واحياناً يصرف راسين النظر عن الحبكة تماماً ، ويكتفي بتصوير العواطف والاهواء في موقف من مواقف الحياة ، كما في اندروماك ولا سيما في برنيس . وهـــذا شبيه جداً بما في ملهاة « كاره البشر » لموليير (٦) ؛ وبما في مأساة « هملت » العظيمة لشيكسبير . وادا وجدنا بعض الحوادث في هذه المأساة الخالدة ، فمما لا جدال فيه ان صفات بطلها هي ابرز ما فيها وهي الـــتي تحدّد مصيره (٧) . مثل هذه البساطة قد تستحيل على شاعر مثل كورني ، يصور الارادة ، التي لا تظهر للعيان ، الا اذا كثرت الحوادث واعترضت المشاكل بلا انقطـاع . اما العواطف والاهواء ، فمشاكلها كامنة فيها . هنالك قوة خفية تقلب نفوس الابطال في

(١) Andromaque, 8 (٢) P : 82-83 (٣) L.F.U. 18
(٤) Andromaque 82 (٥) Saint-Evremond (٦) L.T. 283-284
(٧) Literature and Life 107—108

مسرح راسين رأساً على عقب ، فهم بين ثورة وقلق دائمين . وكثيراً ما يبلغ بهم الحال انهم لا يفكرون في غير ان يَقتلوا او يُقتلوا . وهـــذا ما يجدر ان ينظر اليه بعين الاعتبار اولئك الذين اطنبوا في «رقة» راسين كثيراً : ان دماثة اسلوبه وسلاسته ينبغي ألا تصرفانا عن شدته وعنفوانه اللذين تبينهما جلياً في سيرته وفي مسرحه ، واللذين بهما عُرف بين معاصريه . يقول احد النقاد : « لعل ابرز مافي مسرح راسين هـو صفة الاجرام غير ان اشخاصه ليسوا ابطالا ولا اشراراً : انهم اشقياء تدفع بهم الأهـواء الى اعمال شؤم ودناءة . انهم لينساقون في الاجرام كما يمكن للرجل الشريف ان يتورط فيه ، وقد اظهر الشاعر كيف يكون ذلك . . . ولا شك انه عنـدما صور الاضطراب البالغ لهؤلاء البؤساء ظهر هو نفسه على جانب من القساوة (١) . »

في مثل هذه الحال أنى للقواعد الصارمة التي فرضها الاتباعيون ان تضايق راسين او تحيد به عن الطبيعة ؟ لقد نضجت هذه القواعد في عهده ودُمثت (٢) حتى تمثلت في خاطره على نحو يرضى النقاد ولا يبتعد عن مطالب الفن ، لا بل استطاع هـــذا الشاعر العظيم ان يذلّل مبادئ السلف ويكيّفها بحيث اصبحت اداة طيعة لتأييدفنه وتمهيدالسبيل امامه ليبلغ ذروته وكماله : لقد وضع نصب عينيه ان يصور لنا معركة القوى المعنـوية في النفس الانسانية لدى اشتدادها وثورتها ، فوجد ان خيرطريقة لذلك ان يتناول موضوعه وهو في مرحلته الأخيرة ، فيختار نقطة الابتداء قريباً جداً من نقطة الانتهـاء ؛ بحيث يكون طبيعياً جداً ان ينحصر العمل الروائي ومكانه وزمانه في دائرة ضيقة ، لا تتجاوز المدى الذي رسمه نظريو هذه المدرسة . يقول ناقد فكه : « ان العمـل في مسرح راسين لا يتطلب اربعة وعشرين يوماً ولا اربعاً وعشرين ساعة ، لانه ليس في الزمان ، بل في قلب الانسان (٣) . » اما كورني فاذا رأيناه برماً ثائراً على قواعد الاتباعيين هذه فلانهـا لا تناسب طبيعة المواضيع التي اختارها ، مواضيع الارادة والبطولة التي تحتاج الى تزاحم الحوادث وانفساح الزمان والمكان ، ولأن كورني لم يجد الوقت الكافي ليتبين ما عساه يفيد من هذه القواعد ، وكيف يختار مواضيعه على وفقها .

لعلك ان تتساءل الآن : لماذا صادفت اندروماك حفاوة الجمهور البالغة حينذاك ، ولم

---

(١) L.T. 284—285 ثم L.F U. 18 (٢) سُهلت ، لُينت

(٣) Faguet 322

يكن نصيب « كاره البشر » لموليير الا نجاحاً فاتراً ، مع ان الروايتين تنضحان من مورد واحد وتعتمدان على عمق التحليل لا على كثرة الحوادث ؟ الجواب على ذلك ان هذه المشاعر المتوفزة والازمات العاطفية المستجدة لا يقف راسين عند تصورها ، بل انه ليدفع بها دائماً الى العمل ، ولا يعرض منها الا القدر الكافي ليحزم البطل امره على شيء ويخطو بالرواية الى الامام ؛ كل عاطفة او شعور يحتوي طاقة من الفعالية تقترب بالبطل من العمل الحاسم وتؤدي به الى النتيجة المنتظرة . فمآسي راسين تحاذر الاسترسال في المعاني الشعرية وفي التحاليل النفسية لذاتها ، لتتوجه بها الى العمل ، بل الى مفاجآت مسرحية متصلة(١) لا تقوم على الأحداث الخارجية ، ولكن على تفاعل العواطف وتطورها . .

• • •

مثلت اندروماك في السابع عشر من تشرين الثاني « نوفامبر » ١٦٦٧ فلقيت حفاوة بالغة تذكرنا بذلك النجاح البارع الذي قوبلت به « السيد » منذ ثلاثين عاماً . وتعد اندروماك الى يومنا هذا من اروج المآسي وأحبها الى الجمهور ، فقد احصي لها ما بين عامي ١٦٨٠ – ١٩٣٢ الفاً وعشرين مرة عرضت فيها بدار التمثيل الفرنسية الشهيرة « بالكوميدي فرنسيز (٢) . »

لقد بدأ المثقفون يوازنون بين الشاعرين العظيمين . وكان ذلك منذ أن اخرج راسين مأساة « الاسكندر » . ذلك ان كورني اخرج في هذا العام مأساة تدعى « آجيزيلا (٣) » لم تلق النجاح المأمول . يقول الاستاذ « جولي (٤) » الذي تولى نشر مؤلفات كورني : « هذه المأساة ظهرت بعد الاسكندر بخمسة اشهر . ان الانقلاب الذي حدث في نفسية الجمهور وعواطفه ، وانحياز العدد الاكبر الى جانب الشاعر الناشىء ، يبدأ ان عهداً جديداً ظهر فيه نوع من المأساه غير معروف ، نوع يطغى فيه الحب على الأهواء الاخرى (٥) . » لقد انقضى ذلك العهد الذي كان كورني صورة صادقة عنه ، عهد الحروب المتتابعة والثورات الرابية ، التي كنا حدثناك عنها في موضوع نشوء الآداب الاجتماعية ، وظهر جيل جديد يكره القتال ولا يفكر في غير الحب واللذات (٦) ؛ فليس غريباً ان يحظى انتاج راسين عند الجمهور ويطغى على ادب سلفه

---

(١) L.T. 284 (٢) Faguet 299 م Andromaque 5-6
(٣) Agésilas (٤) Joly (٥) L.F.U. 17 (٦) L.T. 276

الذي دالت دولته وولت ايامه . لقد لمس بعض شعراء ذلك العصر ما طرأ على عواطف معاصريهم وعلى عقلياتهم من تحوّل ، فحاول بعضهم ، مثل توماس ، اخي كورني ، وكينو (١) ، ان ينظموا المآسي العاطفية ، ولكنهم لم يكتب لهم التوفيق (٢) . اما كورني فقد نضبت عبقريته مع الشيخوخة ولم يبشّر بجديد . لا بل انه اخذ ينحدر عن تلك القمة العالية التي بلغها في الشطر الاول من حياته . ان مؤرخي الادب لا ينكرون فضله العظيم في تصوير تلك النماذج الرومانية الكاملة بنبلها وشجاعتها وقوة ارادتها وانقيادها للواجب ، كلا ، ولا ينكرون عليه روعة تفكيره وجلال تعبيره وشدة اسره ؛ غير أنهم لمسوا ذلك الفارق البعيد بين انتاجه المبكر وانتاجه الاخير ؛ كما لمسوا ما في مذهب منافسه الناشئ من فهم اكبر لأهواء القلوب وطبائع البشر ، ومن واقعية اصدق في تصوير الحياة ، الى معان اكثر تساوقاً ، وأسلوب أرق حوكاً واسلس ديباجة . يقول فولتير « تفوّق راسين كثيراً على اليونان وعلى كورني في تفهم الأهواء ، وبلغ من حلاوة الشعر وجمال اللفظ غاية الغايات (٣) . » على ان كورني لم يخل من محازبين أشداء انتصروا له وحملوا على منافسه . فلما اخرج راسين رائعته الجديدة « اندروماك » ولاقت هذا النجاح العظيم في القصر وخارج القصر ، أصبح منافساً خطيراً وخلا الميدان للرجلين يجولان فيه ويصولان . ثم انقسم انصار كورني الى فريقين : فريق خفف من غلّوه واعترف لراسين بالشاعرية ورسوخ القدم ، على ان يكون في المرتبة الثانية بعد صاحبه ؛ وفريق آلمهم فوز الشاعر وأوغر صدورهم فأبوا ان يعترفوا له بالفضل ووجهوا اليه لاذع النقد . كان الأسد المكتهل يدير المعركة من وراء الستار ، لأنه لم يرض ان يزاحمه احد ويتبوأ دونه امارة الشعر ؛ فكان ينظر الى زميله باحتقار ، ولا يرضيه ما في مسرحه من رقة ونعومة ، وينكر عليه كل موهبة في كتابة المآسي وينصح له ان يعالج نوعاً آخر . وقد جمع الأديب « سوبليني (٤) » طائفة من المآخذ التي أحصيت على راسين وسلكها في ملهاة ذات ثلاثة فصول دعاها « بالخصومة الحمقاء (٥) » ، اكثرها مفترى او سخيف (٦) . اما راسين ، فالحق انه لم يحبب سلفه قط ؛ وكان يتحدث وهو في العشرين من عمره عن

---

(١) Quinault (٢) L.F.U. 17 (٣) Le Siècle de Louis XIV, 2, P: 44

(٤) Subligny ولد ١٦٣٦ وتوفي ١٦٦٩ (٥) La Folle Querelle

(٦) L F.U. 19, Mauriac 84, 86, Andromaque 5—6

معاظلته وتهويله وتعقيده (١) ، كما اخذ عليه تلك العصمة التي تخرج احياناً بأبطاله عن انسانيتهم (٢) . ومن الطريف حقاً ان يقارن المرء بين موقف كورني وموقف بوالو من شعراء عصرهما: فسوف نرى كورني حقوداً محاسداً يناصب موليير العداء ، وها نحن اولاء نراه يضيق صدراً بفوز راسين ويؤلب عليه جمهور الادباء ، ولا ينظر في عمله هذا الا الى الناحية الشخصية الضيقة . وعرفنا بوالو سمحاً كريماً ، يطرب للأثر الجميل ويشجعه ، ويقدر النوابغ من زملائه ويناصرهم . عرفنا كيف مدّ يد المعونة الى كورني وبذل وساطته لردّ راتبه اليه ، وكيف أيدّ صديقه موليير وكان له في جهاده الفني خير نصير . اما موقفه من راسين فلعله انبل واروع : كان له استاذاً واخاً وصديقاً يجرّد قلمه للدفاع عنه بأبلغ الشعر (٣) . لا تظنن راسين لم يكن يحفل بهذا النقد الجائر الكثير الذي كان يوجه اليه ، فان مقدماته اللاذعة التي تنزّ بالمرارة والألم لترينا ان هؤلاء الخصوم ما اضاعوا جهدهم في استثارته وايجاعه . على ان تحامل انصار المدرسة القديمة وجورها ما كانا ليثنيا شاعرنا عن طريقه . ها هو ذا في قمة المجد ، يتمتع بالشباب والنصر والحب ، ويعيش في مرح وفراغ بال . ثم اخرج ملهاة اسمها « المترافعون » عام ١٦٦٨ ، على أثر دعوى عرضت له في القضاء ، وقد حذا فيها حذو اريستوفان ، كبير كتاب الملاهي عند اليونان ، في ملهاة « الزنابير (٤) » ، وفي مقدمتها لم ينس ان يعرّض بموليير ويتهمه برداءة الاسلوب والتبذل والاسفاف ، فكأنه يريد ان يبذّه في ميدانه . والحق ان راسين الذي لم يؤثر عنه غير ملهاته هذه اجاد تسديد التهكم فيها وأفاض من روح الفكاهة العذبة ، في اسلوب رشيق يخفق بالحركة والحياة . غير ان هذه الملهاة لم يكتب لها النجاح في باريس بادئ الأمر ، ولولا انها صادفت بعدئذ من الملك وحاشيته حسن القبول لمنيت بالاحفاق الذريع : ذلك ان جلالته سرّها كثيراً ان تشهد في هـــذه اللوحات الفنية حقيقةَ ما يجري في محاكم البلاد : من شهود الزور ، وقضاة الغيّ ، وأحكام الطيش والجور ، فضحكت لهذه الصور المحكمة ملء شدقيها ، وضحك معها رجال البلاط ، وأنقذت الرواية ؛ (٥) والعجيب ان موليير نفسه اغضى عن اساءة صديقه الشاعر الناشئ وانحاز الى جانبه وصرّح في شهامة الرجل الكريم « بان الذين يسخرون من هذه الملهاة جديرون بسخر الناس (٥) . » كان موليير يكبر صاحبه

(١) المصدر الاخير (٢) Lanson : 436 (٣) راجع قصيدته : فائدة الاعداء ص ١٣٠
(٤) Les Guêpes (٥) Faguet 299 Mauriac 89 -90 L.F.U. 19
ثم مادة Plaideurs في L U.

بسبع عشرة سنة ، وكان ينظر اليه نظرة الاستاذ الرفيق بتلميذه ، الصفوح عن اساءته. اجل كان منه بمنزلة الاستاذ الصديق ، فهو الذي علمه حب الحقيقة ، وزيّن له تصوير الطبائع والاخلاق التي لا تختلف كثيراً باختلاف العصور ، ولا سيما الأهواء الخالدة على الزمان (١) .

غير ان الشاعر كان يتطلع حين ذاك الى نصر اكبر : فقد جعل اعداؤه يزعمون بعد ذلك الدويّ العظيم الذي احدثته « اندروماك » أن راسين يجيد في الحقيقة تصوير الحب ، ولكنه لا يجيد شيئاً سواه . فهو الآن يبحث عن موضوع يأتي فيه الحب بالدرجة الثانية ، وتطغى فيه الأهواء الجافية : من تآمر وظمأ الى السلطان ورغبة في دنيء اللذات (٢) ... انه يريد ان يتحدّى كورني كذلك في منطقة نفوذه ، اذا وفّى هذا التعبير . لقد وجد هذا الموضوعَ عند « تاسيت (٣) ، أعبس مَنْ كتب التاريخ القديم ، وفي عهد « نيرون » ، أظلم عهود الرومان (٤) ، واليك موضوع مأساته الجديدة : « بريتانيكوس (٥) » :

احبّ « بريتانيكوس » ، اخو نيرون لأبيه ، فتاة تدعى : « جيني » ، وأظلّتها « آجريبين » ، ام نيرون ، بحمايتها ، مع ما تعلم من حب ابنها للفتاة ، كيداً له لأنه اهمل امرها ، بعد ان بذلت ما بذلت لتحول دون ان يصل اخوه الى الحكم ، ورفعته مكانه على العرش ، فأخلف ظنها واستأثر بالسلطة من دونها . غير ان نيرون لا يتردد في قتل اخيه ومنافسه ليزيحه عن طريقه ، غير عابئ بشفاعة استاذه وتحذيره ، فدعاه الى مأدبة قدّم اليه فيها طعاماً مسموماً فمات ، ولكن الفتاة هربت ونذرت نفسها للعبادة .

تعتبر هذه المأساة احدى الروائع العظيمة في المسرح الفرنسي ، قال عنها فولتير إنها تمثيلية العارفين (٦) ، وقال الاستاذ فاجيه انها احدى خمس روائع أوست عرفها تأريخ المأساة ؛ ومع هذا فانها لم تلق ترحيباً يذكر حينما مثلت لاول مرة ، في اواخر عام ١٦٦٩ . ذلك ان كورني وانصاره كانوا قد أحكموا المؤامرة على الرواية الجديدة . هاهم اولاء قد تركوا مكانهم التقليدي من المسرح وانتثروا هنا وهناك ليعكروا جوّ الصالة وليوجّهوا عواطف الجمهور الى غير ما يشتهي الممثلون . اما انصار الشاعر فلم

«١» Faguet 307—308 «٢» 300—301 «٣» تاست Tacite في كتابه : Annales «٤» Faguet 300 - 301 «٥» Britannicus
«٦» مادة Britannicus في L.U.

يحضُر منهم غير بوالو الذي اعجبته هذه المأساة ايما اعجاب ، ولكنه لم يستطع ان يصدّ عنها تيار العداء الجارف . وزاد الأمرَ سوءاً ان جمهور المتفرجين قل عددهم كثيراً لأنهم شغلوا ذلك اليوم بحادث إعدام المركيز دي كوربوّيه . بيد ان الملك في هـذه المرّة كذلك لا يلبث ان ينحاز الى جانب الشاعر فترجح كفته ويعود اقبال الجمهور على روايته (١) ، وتنجلي المعركة عن نصر عظيم له . ويريد راسين ان ينتقم من الشاعر المغرض كورني في مقدمة الرواية ؛ ولكن بوالو ، بوالو العظيم يثنيه ، فيكتب مقدمة اخرى يكتفي فيها بالموازنة بين مذهبه ومذهب منافسه ، وفيها يقول : « ماذا يجب ان نفعل لنرضي قضاةً جدّ مصعّبين ؟ الأمر سهل اذا رضينا ان نُخلّ بما يقضي به الذوق السليم . يكفي ان نبتعد عن الطبيعة الى الشذوذ . فعوضاً من عمل روائيّ بسيط ، غير مثقل بحوادث كثيرة ، على نحو ما ينبغي لعمل يجري في يوم واحد ، وعوضاً من ان نتدرّج به الى غايته غيرَ مدعوم الا باهتمام الابطال وعواطفهم واهوائهم ، فلنملأ هـذا العمل بعديد من الحوادث التي قد لا يتسع لها شهر بكامله ، ومن الألاعيب المسرحية الكثيرة التي تدهش الجمهور بقدر ما تحيد عن الامكانية ، وبعدد لا نهاية له من التعابير الفخمة الجوفاء نحمل بها الممثلين على ان يقولوا خلاف ما يجب ان يقولوا (٢) . »

انجلت المعركة عن نصر مبين لراسين اذاً ، لكن الشاعران بقيا في الساحة يتحفزان لعراك جديد ، وفي اعينهما احمرار وفي ملامحهما شرّ . لقد اتيحت لهما الفرصة مرة اخرى ليتلاقيا ويتناجزا ، ولكن لقاءهما هذه المرة كان المباراة الفاصلة الحقّ : ذلك ان السيدة هنريت دانجلوتير ، امرأة اخي لويس الرابع عشر ، الأميرة التي كانت تعضد الحركة الادبية حين ذاك ، والتي سبق ان اهداها راسين رواية « اندروماك (٣) » ، ارادت ان تُنزل الرجلين الى الحلبة من غير علمها لترى لمن يكون السبق ، فاختارت لهما موضوعاً واحداً يدور على وداع تيتوس ، امبراطور روما ، لحبيبته برنيس ، ملكة فلسطين ، ذلك الوداع الذي فرضته عليه واجبات الملك ، فانقاد لها ، على ما في قلبه من بالغ الحب ولوعة الفراق . وكانت هذه الأميرة تبغي من وراء ذلك ، الى جانب التمتع بمنظر الفارسين يستبقان ؛ ان تخلّد ذكرى ذلك الهوى اليائس بينها وبين الملك الشاب . أوشك ذلك الهوى ان يؤدّي الى أسوإ العواقب لولا ان العاشقين أصغيا لصوت الواجب

(١) Mauriac 90 L.F.U. v : II, 19 – 20 Faguet 300—301

(٢) Mauriac 90 - 91 (٣) Andromaque : 11

كذلك ، فحفظا للاسرة المالكة هيبتها وأمنها. فان آنست شبهاً بين قصة هذين المحبين وبطلي قصة راسين فلان الأميرة حين ندبته الى هذا الموضوع أذنت له ، بل زينت له ان يستوحي علاقتها بالملك ، وعلاقة سيدة اخرى احبها من قبل وحالت ظروف الملك وواجبات الدولة دون زواجه منها هي : ماري منسيني ، بنت اخي الوزير مازاران (١) . هـذا الشبه يظهر لنا حينما نقارن بين عمق العاطفة وصدقها عند الأمير الروماني ، كما في المأساة ، وعنـد الأمير الفرنسي ، وبين هالتي شعر ونبل شملت حبها ، وبين طريقتي إسلاسها للواجب ، وأخيراً بين مسحتي كآبة تخيم على قصتيها ، كآبة اشاعها في «برنيس» ألم الفراق ، وفي قصر لويس الرابع عشر وفاة تلك الاميرة الجميلة وهي في ربيع الحياة ، قبـل ان يفرغ الشاعر من روايته ببضعة اشهر (٢) !

عاد الشاعر في رواية « برنيس » اذا الى موضوعه المحبب اليه ، الى تصوير المشاعر المترفة الرقيقة التي تعكس لنا صوراً من حياته ومن حياة الطبقة العليا في باريس وفرساي آنذاك . أية ريشة صناع هذه التي عرضت لنا أرق العواطف وأسماها ، وأية شاعرية سمحة بارعة سكبت فيها من أنسها وظرفها ، واي طبع دافق ولفظ مسلسل عذب !

فرغ الامبراطور تيتوس من اقامة الحداد على ابيه ، فشاع في القصر أن لم يبق الآن ما يمنع من تحقيق رغبته الاثيرة ، وهي الزواج من برنيس ، ملكة فلسطين ، التي بادلها الحب خمس سنين ، والتي تعيش في قصره سعيدة متهللة لاقتراب موعد الزفاف . بيـد ان روما لم تأذن قط لأباطرتها ان يقترنوا بملكات اجنبيات . ذلك أسوأ ما يكيدونه لهـا . فتيتوس يفكر الآن بما آلت اليه الحال بعد ارتقائه العرش : لقد اصبح ملكاً لوطنـه ، فيجب ان يعيش لروما وللامبراطورية . انه لا يجهل ما سيعانيه لفراق الملكة الحبيبـة ، ولكنه لن يخلف الوطن وعده ولن يقصر عن عمـل الاسلاف . لقد عزم على ان يرد برنيس الى بلادها . وتلقت برنيس الخبر بدمع سريب وحسره خانقة ؛ ولكنها رضيت آخر الأمر ان تلبي رغبة الملك ، فوعدت ان ترحل ، وان تعيش ، على شرط ألا يفاتحها

---

(١) L.F.U. v II 20 ثم Portraits littéraires 118—119 ثم Mauriac 92-93 ثم مادتا Marie Mancini, Henriette d'Angleterre في L.U. ثم Bérénice 5

(٢) اعطانا فولتير ومدام دولافييت صورة جيـدة عن حب لويس الرابع عشر للسيدتين راجع : Portraits littéraires من : 118 - 120

بعد اليوم أنتيوكوس ، ملك سورية ، وصديق الطرفين ، يحبه الذي باح لها به بعـــد كتمان طويل .

سبق ان علمنا مذهب راسين في البساطة ، وهو في برنيس يبلغ ولا شك ذروته وكماله . فالعقدة الروائية لا وجود لها هنا على الاطلاق . ليس في هذه المأساة حـوادث ولا مفاجآت ، وانما هي تصوير لحالة نفسية ، تصطرع فيها العواطف بما يملأ خمسة فصول حتى تبلغ الرواية نهايتها المعقولة . حتى الحـوادث الفاجعة نراه يصرف النظر عنهـــا : « لا ضرورة البتة لان يكون في المأساة موتى ودماء : يكفي ان يكون موضوعها عظيما ، وممثلوها افذاذاً ، وان تثار فيها الاهواء ، وأن يكون على كل شيء طابع الكآبة الجليلة التي عليها تقوم كل لذة في المأساة (١) . » واذ كان مثله الاعلى في التمثيلية اطّراح الحبكة والحوادث فقد وافق هذا الموضوع هواه ، وراح يبين في المقدمة مزايا المواضيع البسيطة اذ يقول : « هنالك من يخيل اليه ان هذه البساطة هي علامة العجز والضحولة ، ولا يخطر لهم أن مردّ الابداع كله الى عمل شيء من لا شيء ، وأن هذا العدد الضخم من الحوادث كان دائماً ملاذ الشعراء الذين لا يجدون في عبقريتهم الغزارة والقوة الكافيتين ليـجذبوا نظارتهم مدى خمسة فصول بعمل بسيط تدعمه شدة الاهواء وجمال العواطف واناقـــة التعبير (٢) . » فاذا كانت « برنيس » أحب آثار راسين اليه (٣) ، فلانهـــا اقرب في موضوعها الى نفسه ، ولأنها ادلّ في طريقتها على فنه . من اجل ذلك نقلناها اليك كاملة وحرصنا على المحافظة على اسلوبها جهد المستطاع ، بما فيه من دقة وبساطة وجلال وأناقة. اما نجاح الرواية فقد كان عظيما جداً ، بل انه كان من القوة بحيث كمّ افواه الحساد ، على حد تعبير الاستاذ فاجيه (٤) ، اذ استطاع راسين ، كما يقول الناقد الكبـير سانت بوف أن يستخلص من موضوع في هذه البساطة تمثيلية ذات اهمية دائمة . ويقول فولتير : مامن مرة اجتمع فيها لهذه المأساة ممثل وممثلة جديران بدور تيتوس وبرنيس إلا عاود الجمهـور هتافه ودموعه (٥) . ولمس الشاعر هذا النجاح الباهر ، فكتب في مقدمته : « لا استطيع ان اعتقد ان الجمهور يلومني على اخراج مأساة تشرّفت بدمعه الغزير ، وكان يتابع عرضها في المرة الثلاثين بتلك الحماسة التي ابداها حين عرضت امامه اول مرة (٦) . » على اننـــا

Bérénice : 8 (١)   8—9 (٢)   Portraits littéraire 114 (٣)

Faguet 300—301 (٤)   Portraits littéraires 116 (٥)

Bérénice 9 (٦)

لا ندهش لهذا الفوز يكلل جبين الشاعر، فالرواية ، الى جانب ما فيها من روعة التحليل وسحر الشعر ، تجاري ذوق ذلك العصر الذي كان يـؤثر البساطة على كل شيء ، كما حدثناك في بحث : « نشوء الآداب الاجتماعية (١) » ، ثم إنها كانت صدى لحياة تلك الطبقة الراقية في فرنسا آن ذاك ، وعلى رأسها الملك الشاب ، الذي كان قصره مسرحاً للظرف والاناقة ، والذي اشتهر بعلاقاته الغرامية مع عدد من النساء كهنريت دانجلوتير وماري منسيني ، ولافاليار ، والسيدة مونتسبان . والسيدة دي مانتونون (٢) .

اما كورني فانه لم ينته من مأساته «تيت وبرنيس (٣) » الا بعد صاحبه بثمانية ايام. لا نجد في هذه التمثيلية ما نجده في تمثيلية راسين من رشاقة وجري مع الطبع ونفاذ الى اغوار النفس ؛ بل نجد حبكة بعيدة عن المألوف وحوادث معقدة وعدداً اكثر من الابطال . لذلك كان استقبال الجمهور لها فاتراً وكان نصر راسين على صاحبه حاسماً ، وراح احد النقاد يقول (٤) : « لقد نسي السيد كورني مهنته ، فانا لا اجده مطلقاً في هذه الرواية . » واتيحت الفرصة لراسين ليتشفى من غريمه فكتب في المقدمة يقول غامزاً من قناته : «لا شيء في المأساة يؤثر في القلب الا ما وافق الحق . واي حق في ان يجري في نهار واحد عدد من الأحداث قد تضيق عنه بضعة اسابيع ؟ (٥) » .

• • •

غير أننا بعد ان عبّرنا عن كبير اعجابنا بمأساة راسين هذه ، وبينا حفاوة الجماهير بها على مرّ العصور ، وعرضنا لاسباب هذه الحفاوة ، نحب ان نعود فنتبين قيمتها من الناحية المسرحية الخالصة . أحق أن المثل الاعلى للتمثيلية يستدعي صرف النظر عن الحركة والحوادث للمحافظة جهد الامكان على وحدتي الزمان والمكان كما يقول راسين ؟ أإذا استطاعت مأساة راسين هذه ان تهز القلوب وتسترق الاسماع ساعتين كاملتين على خشبة المسرح بما فيها من معنى سريّ ولفظ حرّ وغوص عجيب الى اعمـاق النفس ، أفيكون معنى ذلك خلوّها من المآخذ المسرحية قاطبة ؟ أليس عمود الفن التمثيلي تلك الحركة التي تشيع الحياة في موضوع الرواية وتمتع النظارة بلذة اخرى الى جانب اللذة

---

(١) ص ٦٥-٦٧ (٢) راجع L.U. مواد Henriette d'Angleterre Mme de Montespan, La Vallière, Marie Mancini Mme de Maintenon (٣) Tite et Bérénice (٤) Bérénice 5
L.F.U. 21 Mauriac 92–93 (٥) Bérénice 8

الشعرية ، لذة المناظر التمثيلية التي تكاد تكون مفقودة في هذه الروايه ؟ دعنا من اصحاب النقاد في القرن السابع عشر ولننظر الى هذه المأساة بعين الناقد الحديث ، أفلا يستوقفنا تلك القيود التي فرضتها وحدتا الزمان والمكان ، وهذا التحرج الشديد للمحافظة على وحدة الموضوع بحيث يفقد الحوار طبيعته وتتحكم فيه فكرة واحدة ، فكرة الزواج ؟ الا ترى معي ان هذه الاحاديث المطولة التي يتبادلها اشخاص « برنيس » تكاد تطغى عليها روح الشعر وتخرج بها عن الحوار التمثيلي بكل ما فيه من حرارة وسرعة وايجاز وتنويع ؟ هذه مآخذ سبق ان ذكرناها على المسرحية الاتباعية على العموم ، وهي في « برنيس » ولا شك أقوى وأوضح . ولقد كانت برنيس وستبقى أثراً فنياً كتب له الخلود ، ولكن خلودها بما لراسين من شاعريته عالية ، اما النواحي المسرحية فانها لم تأخذ حظها من العناية كما رأيت .

. . .

وفي عام ١٦٧٢ اخرج الشاعر « بيازيد (١) » التي اقتبسها من التاريخ العثماني . وفيها نرى الوزير حكمت يمثل الطموح ، والسلطانة روكسان تمثل الحب والغيرة . كان راسين حين ذاك يرقي ذروة المجد بخطا حثيثة . في عام ١٦٧٣ دخل الاكادمية ، وفي عام ١٦٧٤ عين أميناً على خزائن مدينة : مولان ، وهو منصب يسلك صاحبه في طبقة النبلاء . اما منزلته عند الملك والامير كوندي الكبير والوزير الاول كولبير وسيدة القصر الاولى مونتسبان فقد كانت وطيدة الاركان (٢) .

ثم اخرج « متريدات (٣) ١٦٧٣ » و « افيجيني(٤) » ١٦٧٤ التي مثلت امام الملك لدى عودته من احدى حملاته الظافرة ، في احتفال فخم مهيب . وقد حاول اعداء راسين ان يلفتوا نظر الجمهور عن هذه المأساة العظيمة ، فأوعزوا الى شاعرين مغمورين هما : كورا ، ولوكليرك (٥) ان ينظما تمثيلية بهذا الموضوع ولكن هذه التمثيلية منيت بفشل ذريع ؛ ولا يذكرها تاريخ الادب الا بتلك المقطوعة الساخرة التي علق بها راسين على فشلها اذ صور الرجلين يتنازعان الرواية في حماسة بالغة ، فيدعي كل منهما انها من وضعه ، وهما يجهلان ما ستمنى به إخفاق، حتى اذا ظهرت على المسرح وانفض الناس من حولها وسخروا منها ، جعل كل منهما ينسبها الى صاحبه (٦) ؛

(١) Bajazet (٢) L.F.U. 21, Mauriac 99 (٣) Mithridate
(٤) Iphigénie (٥) Coras, Leclerc (٦) Mauriac 100
Faguet 304, L.F.U. 21—22

لزم راسين الصمت بعدئذ أكثر من عامين ، نظم خلالهما « فيدر (١) » ، أعمق واجمل مأساة عرفها تاريخ الادب الفرنسي على الاطلاق . انه هو هو ، ذلك الشاعر الذي يعطي المرأة الصدارة ، ويغلّب الهوى على العقل ، ويُبرز في مسرحه الخوف والحيرة ، ويقيم اركان فنه على الغوص الى اسرار النفس ، ويستغني بتفاعل العواطف عن تراكم الحوادث ، ويستخرج الاعمال المنيفة من النفوس الضعيفة ؛ غـــير انه في هـــذه المأساة أبعد غوصاً وادقّ عرضاً ، وأعنى باللون التاريخي ، الى شاعرية اسمى ، وديباجة أحكم . ثم انه لا يبتعد هنا عن موضوع الحب المفضّل لديه ، ولكنه ، على عادته في كل مرة ، يختار نوعاً من الحب جديداً ، كما نبّه الاستاذ لانسون ، بحيث ترى في مسرحه للحب انواعاً عـــديدة ، تختلف وفقاً للأمزجة والعقول والظروف والأعمار (٢) . انه يختار لبطلته الجديدة من الصفات ما يجعلها جديرة ان تثير فينا الرحمة والخوف ، كما يقضي مذهب ارسطو (٣) . فالرواية في الأساس تصوير رائع لشخصية امرأة امتزجت فيها عناصر الخير بعناصر الشر ، فأحبت حباً عنيفاً استذلّ نفسها وأبطل ارادتها وطغى على غريزة الخجل في نفسها ، ثم جاءتها الغيرة تأكل قلبها وتزيد في آلامها وتدفع بها الى الجريمة ، ولكنها في الوقت نفسه تكره الاثم ، ولا تقترفه إلا مرغمة ، وتحس بتأنيب الضمير ، وتخشى حساب العالم الآخر . انها لترى بلحظ الغيب ما اعدّ لها من عقاب ، ولا تنساق في طريق الاثم الا لأن ارادتها لا حول لها ولا طول . ومازال الضمير يوسمها وخزاً حتى تتوب وتأبى الا ان تعترف قبل ان تلفظ النفس الأخير بكل مخازيها (٤) :

احبت « فيدر » ، امرأة « تيزيه » ، ملك اثينا ، ابنَ زوجهــا « هيبوليت » ، وباحت لمربيتها بحبها الآثم . وكان زوجها قد ابتعد عن عاصمته منذ ستة اشهر وانقطعت اخباره . ثم جاء خبر بموته ، فجعلت المربية تؤكد لها ان حبها اصبح مشروعاً ؛ فاذا هي تسعى الى لقاء معشوقها لتوصّيه بصغارها ، ثم اذا هي تهذي امامه بهواها ، فلا تلقى منه غير الصدود والانكار ، ولا يزيدها الا ألماً بما يجرح من كبريائها بهذا الاعراض . وفي اثناء ذلك يعلنون عودة الملك : تلك مفاجأة طبيعية ؛ غير انها لم تكن في الحساب ! ان العاشقة لتخشى ان يهتك فتاها الستر فتريد ان تعتصم بالموت ؛ ولكن مربيتها ارادتها

---

(١) Phèdre نقلناها كاملة اليك (٢) Lanson 547 -548 (٣) راجع مقدمة Phèdre لراسين (٤) Phèdre 9 L.T. 281

على البقاء ، وعزمت عليها ان ترفع الأمر الى زوجها وان تحمل الاثم على « هيبوليت » ، حفاظاً على شرفها . فتغضب « فيدر » وتحتج ، ثم تفقد ارادتها وتستسلم . فاذا جاء زوجها ، تولت المربية مهمة الاتهام ، وزعمت ان الفتى يكنّ منذ عهد طويل حباً آثماً لامرأة ابيه ، وجعلت تستعدي الملك على ابنه العاق ، وتعزو سمي سيدتها في الماضي لنفيه الى ما كاشفها به من حب . فيغضب الملك ويكفهرّ وجهه ويأمر بولده فينفى . اما فيدر ، فالحق انها كانت حرية ان تضع حداً لوخز الضمير ، وتحول بين صاحبتها ومكرها السيء ، لولا انها علمت وهي على وشك ان تفعل ذلك بأن « هيبوليت » انما اولاها صدوداً لأنه يحب ابنة عمه « آريسي » ، فجاءتها الغيرة ضغثاً على إبالة (١) ، وعجزت عن تحمل هذه المفاجأة الاخرى ، وتركت المربية تفتري ما تشاء . بيد أنها لم تكن تتوقع لغريمها اكثر من نقمة الاب وألم النفي ، فلما جاءها الخبر بمقتله حين جمحت به الخيل في طريقه الى منفاه ، أخذت تنوء باوزارها ، وتعجز عن تبكيت ضميرها ، وضاقت ذرعاً بالحياة ، فتناولت السم ، ووقفت امام زوجها تعترف بالجريمة وتجود بالنفس الأخير !

أرأيت الى ضعف الانسان وقلة حيلته امام ارادة القدر كيف ابرزتها هذه الريشة العبقرية المبدعة ؟ لقد تفتح قلب المسكينة لحب لم تكن ترغب فيه وعملت جاهدة على تحاميه ، حتى اذا عجزت أعدّت نفسها للموت شريفة مرتاحة الضمير ، ولكن القدر وضع في طريقها هذه المربية التي مازالت بها حتى استنزلتها عن سرها ، ثم أوهمها بموت زوجها ، وساق اليها المربية مرة ثانية لتدفعها الى لقاء الفتى والافضاء اليه بهواها ، ثم قلب لها ظهر المجنّ فأعاد الملك الى وطنه ، ثم جعلها مرة ثالثة تحت تأثير هـذه المربية الحمقاء تهوّل عليها الاثم وتحذرها مغبّة الفضيحة ، ثم فاجأها بمنافسة خطيرة لتكتوي بنار الحب والغيرة معاً ، حتى اذا نوت الشر أو اذا شئت اندفعت اليه ورسمت له في ذهنها حدّاً معيناً ، أبى القدر ان يقف عند هـــذا الحدّ ، فتطوّر النفي الى فاجعة بل الى فواجع ذهبت بارواح رجل وامرأتين !! هذه الظروف المخففة هي الـتي اعتمد عليها الشاعر لاثارة الرحمة في نفوسنا كما يقضي مبدأ ارسطو ، غير ان الى جانبها عوامل اخرى نفسية بلغ راسين في تصويرها كذلك غاية الغايات : فالحب الذي يملأ الجوانح ويقضّ المضاجع :

---

(١) بليةً على بلية

ذويت ، وجف عودي على جمر الهوى ودموعه ..
في عينيك الغناء لتحقق أملي الدفين ،
لو انها استطاعتا ان تلقيا علي نظرة عابرة ..

والحيرة والاستسلام لمشيئة القضاء :

ماذا اقول ؟ هذا الاعتراف الذي جئت أبوح به اليك ،
هذا الاعتراف المهين ، أيبدو إراديا لعينيك ؟

والغيرة الكاوية اللاهبة التي تذهب بالصواب :

هيبوليت يحب ، لقد برح عني الخفاء .
هذا العدو النابي الذي عجزت عن تذليله ،
والذي كان الاحترام يغيظه والشكوى تضجره ،
لقد خضع واستأنس واعترف بآسر :
إذ وجدت « آريسي (١) » طريقاً الى قلبه ..
آه ! يا للآلام الشداد لم أكابد مثلها أبدا !
فلأي عذاب جديد استمهلتني الايام !
كل ما عانيته من مخاوف وآلام ولذع ضميز ،
واهانة نالني بها رفضه بشر كبير ،
لم يكن إلا بداءة واهنة لما يرهقني من عذاب .

والكفاح العنيف لتجنب الآثام ، واخيراً ذلك الندم القاتل والخوف الماثل من عقاب الآخرة ، كل اولئك يثير فينا شعور الرحمة على هذه المرأة البائسة واهتماماً بأمرها قد يتجاوزان ، كما لاحظ الناقد لاهارب (٢) ، ما نكنه من رحمة وما نظهره من اهتمام لهيبوليت نفسه ، مع انها هي الجانية وانه هو الضحية .

ويرى النقاد ان هناك نسباً قريباً بين هذه الصورة الحية المؤثرة التي قدمها الشاعر لشخصية « الفيدر » ، في مدافعتها الهوى ، ونفارها من الاثم ، ثم في اندحارها امام غرائز النفس العاتية وارادة القدر الماضية ، وفي هذا الندم يرمض نفسها بالألم — وبين مذهب الجانسنيين الذين ربي الشاعر في أحضانهم في « پور رويال » ، ثم خرج على تعاليمهم ، وها هو ذا يمهد السبيل للعودة الى حظيرتهم . فهذا المذهب يقول بأن الصالح

(٢) ابنة عم هيبوليت وحبيبته

(٢) La Harpe : راجع Phèdre : 77

لن تكتب له النجاة ما لم تتداركه رحمة الله (١) ، واننا لا نشاء إلا أن يشاء الله . نحن احرار ، كذلك نشعر ونخال ، ومع ذلك ، فكثيراً ما نرانا نفعـــل ما لا نحب ، ونريد مرغمين (٢) ! وقد تحدث بوالو عن « الألم الفاضل » عند فيدر ، وقال عنها شاتوبريان انها « زوجة مسيحية » مع ان راسين قد اختار موضوعه من عصور اليونان الموغلة في القدم والوثنية ، ومن اجل ذلك رحب بها نساك بوريال وتفاءلوا منهـــا بعودة الشاعر العظيم الى صفوفهم (٣) . على ان راسين قد صرّح في المقدمة بمـا وضع نصب عينيـه من هدف اخلاقي للرواية ، وعبر عن امله ان يوفق بذلك بين فن المأساة « وطائفة من الناس امتازوا بتقواهم ، » هذا الى ان المكاتبة لم تنقطع ابداً بينه وبين عمته في بوريال : « وهي التي اختارها الله ، على حد تعبير راسين ، لتنتشله من ضلاله . » وهنا كذلك يقوم بوالو بدوره الطيب ، فيحمل المأساة الى « أرنولد » ، استاذ راسين ، فيقرأها الرجل الزاهد ويتهلل وجهه ، ويعلن انه لا يجد فيها ما يعيبه على الشاعر ؛ وعلى اثر ذلك اصطحب بوالو صديقه راسين اليه ؛ وتعانق الاستاذ وتلميذه وعادت الميـــاه الى مجاريها بين الشـاعر ورجال بور رويال (٤) .

اما العمل الروائي فقد رأينا راسين يعدّل فيه من فكرة البساطة المتطرفـة ليسبغ عليه الحركة والحياة : اذ جعل في هذه المأساة ارادة المربية الى جانب ارادة البـــطلة ، تؤثّر عليهاوتوجهها وتحمل معها كِبْرَ (٥) عملها ؛ وأشاع موت الملك ثم فاجأ بخبر أوبته كما انه فاجأ البطلة بغرام هيبوليت ليثير غيرتها ؛ ثم رسم للفتى هذه النهاية الرهيبة ليدفع بالندم في قلبهـا الى غايته .

ومن عجب ان الأديب « سوبليني (٦) » اخذ على راسين تعقيده حبكة هذه المأساة وذلك ان دلّ على شيء فانما يدل على مدى تأثر الادباء بآراء راسين في البساطة ، حتى انهم اخذوا عليه خروجه قليلا على احد مبادئه (٧) . ثم هـو يدل على اننا لم نركب الشطط حين لاحظنا ضعف الروح المسرحيـــة في برنيس وقصور حبكتهـا عن ان تملأ

---

(١) L.T. 281 (٢) من كلام سانت بوف : 78—77 : Fèdre
(٣) Phèdre : 9 (٤) L.F.U. 22 (٥) إثم (٦) Sublígny عاش :
١٦٣٦-١٦٩٦ وهو الذي كتب «الخصومة الحمقاء» في نقد اندروماك . (٧) L F.U. 21

تمثيلية ذات خمسة فصول ، ولذلك رأينـا راسين يعدل شيئاً عن طريقته ، ولا يغتر بمـا صادفه من نجاح .

* * *

على اننا نبخس راسين كثيراً من حقه اذا وقفنا في مأساته هذه ، بل في جميـع آثاره ، عند النواحي التمثيلية ، ولم ننظر الا الى الحقيقة النفسية في تصاويره ، والى مافيها من روعة المطابقة لما في الحياة (١) . ان جانباً كبيراً من عبقرية الرجل يعـود الى تلك الشاعرية الملهمة التي تطالعنا خلال مآسيه . فهـو انما يختار اشخاصه في الأغلب من الاجواء التاريخية البعيدة الغامضة ، ليفسح المجال للشعر والخيال (٢) . وقـد يبدو لأول وهلة ان التراجيديا ، كما في مفهوم راسين ، تستطيع ان تستغني عن التاريخ ، وذلك لعزوفها عن كل شذوذ واقترابها من الحياة الدارجة . غير ان هذا الاعتبار نفسه هو الذي يظهر ضرورة الاعتماد على التاريخ ؛ وإلا ، فان هذا التقارب الوثيق بين اشخاصه وبيننا جدير ان يحرمهم كثيراً من الجمال والسحر اللذين يضفيها عليهم الماضي ، فراسين يتحرى في التاريخ ان يغمر واقعيته بعفاتن الشعر . وما كذلك كورني الذي يلجأ الى التاريخ ليبين امكانية الحوادث فقط . وعلى ذلك فراسين لا يهمه دقة الخبر ووثاقته ؛ ان غرضه الاول ان يرسم لنا الغرائز والاهواء الخالدة ، فكثيراً ما كان يحوّر الحوادث التاريخية، اذا وجد ضرورة ذلك او فائدته ، على ألا يخرج بعمله هذا على متعارف الناس او يناقض الفكـرة العامة التي نكونها عن الموضوع . انما يتناول الرجل مواضيعه من التاريخ لسبب أوجـه من تثبيت الوقائع ، الا وهو الشعر . ذلك بان الموضوع لا يوافق هـواه الا اذا كان الى جانب العمل المسرحي فيه وحي شعري . ان الحقيقة المباشرة قد لا تكون من تلقاء نفسها شعرية ، ولكنها تكون كذلك اذا تقادمت عليها العصور . كذلك كان اتجـاه كتـاب المآسي اليونان قبـله ، فقـد كانوا يتناولون موضوعاتهم من خرافاتهم الممعنـة في القدم (٣) . ومن الطريف ان نذكر ان راسين كان على وعي تام لما يفعـل ، كما تدل على ذلك مقدمته لبيازيد ؛ واذا كان قد اختار موضوع بيازيد هذا من تاريخ قريب « فـلان بعد البلاد العثمانية يعوّض من دنوّ الزمان (٤) . » هذا البعد لا يقتصر على المكان فحسب

---

(١) Lanson 550 (٢) Faguet 338 (٣) L.T. 286 -287
(٤) مقدمة بيازيد : Bajazet

بل يتعداه الى الامزجة والتقاليد والعادات ، انه البعد ما بين الامة الفرنسية والأمـــة العثمانية في القرن السابع عشر ! من اجل هـــذا كان للاساطـــير حظ كبير من عنايته ، وازداد بها شغفاً كلا امعنت في القدم : فالتاريخ يهيئ له مادة المسرحية ، اما الاساطير فهي تغمرها بالاصباغ والاجواء الشعرية (١) . ومن اجل هـذا رأينا راسين يلتمس موضوعاته عند الشعراء ، كأورپيدوس وهومير وفرجيل ، ومنهم اقتبس اندروماك وإيفيجيني وفيدر ؛ او عند مؤرخين ادباء ، كتاسيت ، اعظم مصور للعصور القديمة ، ومنه اقتبس بريتانيكوس ، ثم بلوتارك ، مؤلف السير الروائـع الذي كان شيكسـبير كذلك ينشد عنده شعر العواطف ، ومنه اقتبس راسين روايته ميتريدات ؛ واخيراً التوراة ومنها اقتبس روايتي إستير وأتالي . اما كورني ، فهو على خلاف ذلك قد اختار موضوعاته من مؤرخين لا قيمة ادبية لهم ، وذلك لانه لا يريد منهم ان يكونوا اكثر من مؤرخين ، اعني اكثر من ضمانات لصحة الاخبار . ومع ان ابطال راسين يخفق قـــلبهم بالعواطف والاهواء الانسانية الخالدة ، فانهم ليسوا في نظره نماذج عامة من البشر ، بل هم يناجون خياله ، فيعكف على استحضارهم كما صورهم التاريخ ، ولذلك كانوا اكثر فردية من ابطال كورني الذي لم يكن يعنى بغير نحتهم وفاق فكرته . فأندروماك تبدو عند راسين كما صورها هومير وفرجيل ، واورست (٢) يبدو كما صوره أسخيلوس وأورپيدوس ؛ وبريتانيكوس هي لوحة قوية لروما القيصرية كما رسمت ظلالها المعتمة ريشة تاسيت . وميتريدات هو الشيخ العاشق والطاغية الاسيوي كما اوحت به قريحة بلوتارك . وحول ايفيجيني تراه يستلذ ان يستحضر اليونان كما عاشوا في خيال هومير . والشعر في فيدر أروع وأفتن . ومن الصعب ان نورد هنا كل الابيات التي تخلق حول هذه الدراسة القاسية للهوى جواً خرافياً يغمر البطلة بموكب من الاعاجيب او الاساطير الراعبة ويوحي ايحاء قادراً بتـــلك العصور الميثولوجيه (٣) ، ولكن فيما يلي بعض ذلك (٤) . فاصغ الى فيدر تخاطب الشمس :

أيهذي النبيلة الساطعة التي ابدعت اسرة حزينة ،
انت التي كانت امي تجترئ فتفخر بانها ابنتك ،
ايتها الشمس ، لقد جئت اراك للمرة الأخيرة .

---

(١) Faguet : 336 (٢) احد ابطال رواية اندروماك (٣) الخرافية
(٤) L.T. 287–288 Phédre. 12

وحين تعاني آلام الحب وتذكر ماعانته امها واختها قبلها :

بالبغضاء فينوس ! يا لغضبتها النكداء !

في اي حيرة وغم قذف الحب بأمي . . !

أريان ، يا اختاه ، اي حب آذاك

فقضيت نحبك حيث تُركت على الساحل . . !

كل ما في الكتاب المقدس من شعر نراه في رجاء « إستير » وكل ما فيه من قـــوة وحدة نراه في رواية أتالي . لنفكر في بطل هذه المأساة ، الكاهن جواد ، ولنتبين تلك الشاعرية الفذة وذلك الفن العجاب اللذين قدّما لذلك الجيل من العقليين والجدليين في القرن السابع عشر نبياً ، بكل ما في الكلمة من معنى ، يستلهم ويرسم المستقبـل صوراً أو رؤىً ممتعة (١) ! انك لتجد عند راسين شعر العاطفة وشعر الخيـال وشعر الاسلوب : فعلى لسان هؤلاء العشاق المدنفين تنطلق العواطف شجية مؤثرة رائعة النبرات ، تسبح في بحرٍ من الاخيلة الجميلة يغترفها الشاعر من التاريخ القديم والخرافة القديمـة (٢) . ونوع آخر من الخيال نجده عند راسين : ان المعاني لا تتمثل لهذا الشاعر الكبير عارية عاطلة، بل انها تتفتح في خاطره صوراً توسع في حدودها وتذهب بخيال السامع كل مـذهب . لقد كان هم كورني ان يولد الافـكار وينضّد الحجج فلم يُعن بالخيال ؛ وعني راسين به ، يقرب معانيه ويحملها الى قلب السامع ، من غير تزيّد ولا إغراب . إصغ الى كورني يعدد مآثر احد ابطاله باسلوبه المجرد :

عندما تتغلبُ على ميناتور في جزيرة كريت

وعندما ستجازي ديماست وباريفات . . .

واصغ الى راسين يعددها محملة على اجنحة الخيال :

فالكواسر مخنّقة ، وقطاع الطرق مجازون . . .

وعملاق إبيدور قد تبعثرت عظامه ،

وكريت جملت تدخن بدم ميناتور ٣ . . .

اما شعر الاسلوب فيتجلى في هذه البساطة الاخاذة في التعبـــير : ابداً لا يصوغ راسين معانيه حكماً وامثالاً على نحو ما يصنع كورني ؛ وانمـا هي الفـاظ تؤثر بصدقها

---

(١) L.T. 288 (٢) Phèdre 10 (٣) L.T. 289

وجريها مع المعاني هبوطاً وصعوداً ، فاللفظ الشريف للمعنى الشريف ، واللفظ العادي للمعنى العادي (١) . وهو في الحالين يحرص على صفاء اللغة وتناغم الألفاظ ومرونة التراكيب . فهنالك موسيقا شعرية تلهب الحواس وتوقظ الخيال بصورة نادرة المثال . هذه الموسيقا احاط راسين بجميع اسرارها (٢) ، فما تلمح في القاظه من نبوٍ او نشاز . ليس من فنٍ يبدو اكثر منه بساطة ، ولكنك اذا تأملته جيداً رأيت وراء هذه البساطة فناً متداخلاً مركباً ، يجمع بين لغة موسيقية واضحة ، ونفاذ الى اغوار النفس السحيقة ، وشاعرية منقطعة النظير (٣) .

مثلت « الفيدر » لأول مرة في باريس ، على مسرح « بورجوني (٤) » في اليوم الاول من عام ١٦٧٧ ، وقامت « لاشاموسلي » ، الممثلة الشهيرة ، بدور « فيدر » فيها . وبعد ذلك بيومين ، مثل مسرح « جينيجو (٥) » - وهو الذي ضم فرقة موليير بعد وفاته وفرقة « ماريه (٦) » - مأساةً اخرى بعنوان « فيدر » ، نظمها في ذلك الحين شويس غفل (٧) ، لا يذكره تاريخ الادب الا بهذه المناسبة ، ويدعى « پرادون » ، بايعاز من دوقة « بويون » واخيها دوق « نيفير » وجماعة من اعداء راسين . لقد اخفق هؤلاء الاعداء في اسقاط « ايفيجيني » ، فهاهم اولاء يعيدون الكرة لاسقاط « الفيدر » . واحس الشاعر انه الآن امام مؤامرة محكمة ، وان حوله قوماً غدْراً يبيتون له الشر ، فسعى لدى الملك ليمنع تمثيل الرواية المنافسة ، ولكنه لم يفلح ، واستأجرت الدوقة واخوها المقاعد الامامية من داري التمثيل في الدورات الست الأولى ، وبذلا في ذلك مالاً كثيراً ، بحيث استطاعا ان يصرفا انظار الجمهور بضعة ايام عن مأساة راسين ، وان يضمنا لپرادون بعض النجاح ، اذ عرضت روايته عشرين مرة حينئذ ، ولكنها ما لبثت بعد ذلك ان توارت عن الانظار . اما مأساة راسين ، فان اقبال الجمهور عليها لم يزل ولم يفترْ الى اليوم ، اذ أحصي لها في دار التمثيل الشهيرة بالكوميدي فرانسيز ١٢٣٨ عرضاً ما بين عامي ١٦٨٠ - ١٩٣٢ . وقد تقارض انصار الشاعر وخصومه اهاجي كثيرة ، وهدد الدوق راسين وصديقه بوالو بالصفع ، وكاد الأمر يتفاقم لولا تدخل الأمير كوندي الكبير واعلانه « أنه سيجازي على كل اهانة توجه الى الشاعرين

(١) L.T. 289 (٢) Fhèdre 9—10 (٣) L.T. 289
(٤) Bourgogne (٥) Guénégaud (٦) Marais
(٧) لا يرجى خيره ولا يخشى شره .

كما لو انها كانت موجهة اليه . » وبذلك انطوت صفحة ذلك الخلاف (١). بيد أن راسين رَهِقَه غم كبير لما قوبل به من جفاء . هذا الى ان ذكريات بور رويال كانت تعاوده منذ اخذ يخط الاسطر الاولى من « فيدر » كما رأيت . ورأيت ان اساتذته لم يضق صدرهم به ولم تَنْغَل نياتهم عليه واستبشروا بروايته هذه خيراً . ان ايمان الشباب الاول ليستيقظ في نفسه من جديد ؛ لقد ازورّ عن المسرح اخيراً وانقطع عن كتابة المآسي التي كان انما يعيش لأجلها . صرف وجهه عن الفن وهو املك ما يكون له ، فلم تنل عبقريته يوماً حُبسة ، وما أمسك عنه قول : تضحية لم يسمع بمثلها احد في تاريخ الآداب. لقد تَنسّك ورغب عن المجتمع الصاخب وعاد الى احضان اساتذته الأكرمين ؛ بعد ان تطاول عليهم وبسط لسانه فيهم . وَحفِيَ رجال بور رويال بالشاعر العظيم ، ونصحوه بالزواج ؛ فاقترن بفتاة عادية ساذجة يقول المؤرخون انها لم تقرأ مآسيه ، ورزق منها صبيين وخمس بنات ، توفّر على تربيتهم بجد وتفان . ولم يمض كثير على زواجه حتى عينه الملك مع بوالو كاتبين لتاريخه . فاعتبر راسين « اختيار صاحب الجلالة له عناية الـهية شغلته بعمله هذا تماماً عن القريض . » أما ما كتبه الشاعران من تاريخ الملك فقد علمت حين قرأت حياة بوالو ان النار اتت عليه ولم تبق منه الا قليلا (٢) . ان اعتزال راسين للمسرح احدث فتوراً كبيراً في الحياة الأدبية حين ذاك . مات موليير عام ١٦٧٣ ، وقدّم كورني آخر تمثيلياته ١٦٧٤ ، وهذا راسين يغادر المسرح ١٦٧٧ ؛ فخيم الصمت وبلغ من فتور الانتاج الادبي ان لويس الرابع عشر رأى ان يجمع في واحد مسرحَيْ بورجوني وجينيجو (وهذا الاخير كان قد تشكّل بدوره من فريقي موليير وماريه) . ومن اجتماع هذه الفرق الثلاث عام ١٦٨٠ يتكون مسرح الكوميدي فرانسيز الذائع الصيت . وفي عام ١٦٨٤ توفي كورني ، فانتخب اخوه توماس مكانه في المجمع العلمي الفرنسي وكان راسين في طليعة المرحبين به . لقد محا الزمن والموت والمجد المشترك ما كان بين راسين والشاعرين من عداوة قديمة . ووقف راسين في حفلة استقبال توماس يذكر بيير كورني العظيم ويثني عليه : « عندما يتخطى اصحاب العقول العظيمة الحدودَ المشتركة ويمتازون ويخلدون بآثار روائع كآثار اخيك ، فمهما تكن غرابة التفاوت الذي يضعه الحظ بينهم وبين عظماء الابطال في الحياة ، لا بد ان يزول هذا

(١) L.F.U. 22 Mauriac : 101 L T. 280 Phèdre 5—6

(٢) Lanson 540 L.T. 274—275

التفاوت بعد الموت . ان الاجيال القادمة التي تلتذّ المؤلفات التي يتركونها لهـا وتثقف بها ، لا تجد من صعوبة لتعـُدّلهم باعاظم الرجال ، لتسوّي بين الشاعر الفذّ والقـائد الكبير [١] . »

• • •

امضى الشاعر احـد عشر عاماً لا يزور المسرح ولا يؤلف له ابداً . ثم عاد فجأة يكتب له استجابة لرجاء « مدام دي مانتونون » (٢) ، وهي سيدة اديبة تزوجت شاعراً يدعى « سكاروّن » ، فلمـــا هلك عنها دخلت قصر فرساي مربيةً لاولاد الملك من محظيّته السيدة « دي موتسبان » . ثم تزوجها الملك سراً وكان لهـا شأن في تسيير دفة الحكم وماتت بعده ببضع سنوات . طلبت اليه هــــذه السيدة ان ينظم مأساة اخلاقية دينية ليقوم باخراجها بعض الفتيات النبيلات اللواتي كانت تشرف على تربيتهن في مدرسة أسستها لهن في « سان سير (٣) » ، فأكب على نظم مأساة « استير (٤) » على الرغم من تحذير بوالو له من العودة الى المسرح ، واختار موضوعها من الكتاب المقدس (٥) ؛ ثم كتب في مقدمتها : « ان هذه القصة ملأى بدروس عظيمة تعلّم حب الله واعتزال العالم » وقد مثلت الرواية امام الملك والحاشية وحظيت بنجاح عظيم ولم يتوقـــف عرضها الا بمناسبة وفاة ابنة اخي لويس الرابع عشر ، ملكة اسبانيا [٦] . وقد اثنى الناقد الكبير « سانت بوف » على استير هذه وقال : « انها اروع شكاة وازكى مناجاة من تلك النفس الرقيقة ـ راسين ـ التي لم تستطع ذات يوم ان تشهد حفلة دخول احـــدى الفتيات في الرهبانية الا وعيناها تفيضان بالدمع . » وكان فولتير يعجب باسلوب هذه الرواية ويردّد منها على الخصوص هذه الابيات :

الازليّ اسمه ، والعالم صنع يديه ؛
يسمع زفرة الضعيف تمتدّ يد الظالم اليه ،
ويقضي بين العباد بقوانين متساوية ،
ويحاسب الملوك من سدّته العالية (٧) .

---

(١) L.F.U. 22 (٢) Mme de Maintenon راجع هذه المادة في L.U.
(٣) Saint-Cyr راجع L.T. 275 ثم L.F.U. 22 (٤) Esther
(٥) Mauriac 185–186 (٦) L.T. 281, Mauriac 187–188
(٧) مادة Esther في L.U.

ثم ينظم الشاعر رواية « أتالي » عام ١٦٩١ يستجيب بها لرغبة السيدة الكبيرة مرة اخرى ليخرجها تلميذات « سان سير » ايضاً . انه هو هو الشاعر العظيم يغرف من معين العبقرية الصافي النمير الذي لم يأسن ولم ينضب على طول ما اهمل . بيد ان هذا الأثر الخالد لم تبذل في اخراجه العناية الكافية فلم يلق حينئذ الترحيب المأمول . ولعل بوالو هو وحده من رجال ذلك العصر ، الذي عرف قدر هذه الرواية ووفاها حقها من الثناء! ولعل مدام دي مانتونون وحدها بين النساء يومئذ هي التي لمست ما فيها من شاعرية وجلال فصرحت بان راسين لم يكتب قط ما هو أجمل منها . فلما جاء ولتير في القرن الثامن عشر نادى بصوته المدوي ان أتالي هذه هي احدى نفائس الفكر الانساني ١ . وكنت احب ان اقف وقفة اطول عند هـذا الأثر العظيم ، لولا ضيق المقام وخشية الاطالة . فما اكثر ما تفتحت عنه اكمام العبقريات في ذلك العصر حتى كاد بعضه يطغى على بعض ، وحتى لنرانا نمر بالأثر الخالد فلا نستطيع ان نقف عنده الا لماماً !

* * *

لم ينظم راسين بعد « أتالي » هذه التي استمد موضوعها من الكتاب المقدس كذلك الا اربعة اناشيد دينية . على ان استجابته لرغبة السيدة الكبيرة واخراجه الروايتين السابقتين ما كانا ليعدا انحرافاً عن الطريق الجديد الذي اختطه لنفسه ، لان المثل الدينية العليا مادتهما وغايتهما كما رأيت . وما كان راسين ليزيغ بعد اذ تاب توبة نصوحاً واهتدى . ان عفو الله ومرضاة اساتذته الأخيار : ارنولد الكبير ونيقولاو هامون ... هما الامل الرطب الذي كان يثلج صدره والمنهل العذب الذي يطفىء أوامه . وعلى شديد حبه للملك ، فانه لم يخف يوماً تردده على بور رويال . ولعلك تذكر ان لويس الرابع عشر كان شديد النقمـة على سكان ذلك الدير وعلى أتباعهم ومريديهم ٢ . فلئن كان خصوم الشاعر يتهمونه بتملق الملك ، فعليهم ان يذكروا كذلك شجاعته الفائقـة في مصادقة جماعـة باءوا بغضب الملك فطاردهم وجد دابرهم إنقاذاً لوصيـة وزيره « مازاران » بألا يسمح بوجود هذا المذهب ولا بمجرد ذكره ٣ . ومن عجب ان لويس الرابع عشر لم يتغير عليه ولم يحجب عطفه عنه ؟ وبقي راسين مقرباً اليه ، يسير

(١) L.T. 281, Mauriac 193 (٢) حبه للملك من جهة وتردده على هذا الدير من جهة ثانية تجد خبرهما في Mauriac 149, 173, 174 (٣) Malet : 203
Les Contemporains 282

في ركابه اثى سار ويؤرخ وقائعه (١). بـــل ان جلالته تفضلت فانعمت على الشاعر عام ١٦٩٠ بلقب « نبيل » (٢) . بيد انه من المرجح انها لم تقابل بالارتياح ما وضعه الشاعر بعد ذلك في « أثالي » على لسان الـكاهن الكبير مخاطباً الملك الطفل :

انك لتجهل نشوة السلطان المطلق
وسحر صوت الاوغاد من ذوي الملق .
عما قليل سيحدثونك بأن اقدس القوانين
انما تسود الشعب الحقير لتعنو للحاكمين ؛
فليس للملك من رادع سوى ارادته ؛
وإن عليه ان يضحي بكل شيء في سبيل جلالته ؛
وان الشعب محكوم بالدموع والاجهاد ؛
وان عليك ان تقوده بعصى من حديد لينقاد . . .

هذه الابيات كما ترى على جانب كبير من الخطورة ؛ وبحسبك ان تعلم انهـا كانت تقاطع بالهتاف قبيل الثورة الفرنسية الـكبرى ، وانها اضطرت الوزير فوشيه في عهد نابوليون الى وقف الرواية من اجلها . هذا الى ان لويس الرابع عشر لم يـكن يرضى عن تدخل الأدباء في السياسة ولا عن تطوعهم لقيادة حملة الاصلاح في وطنهم . ومما زاد نقمة الملك عليه بكتاب الّفه الشاعر وسماه « الموجز في تاريخ پور رويال . » وثالثة الاثافي ما ذكره صغير ابناء راسين من ان اباه وضع مذكرات تلبيةً لرغبة السيدة دي مانتونون ضمنّهـا آراءه في اصلاح احوال الشعب وتخفيف آلامه ؛ فقد اطلع الملك على هـــذه المذكرات وانطوى منها على مضض وقال : «أفان كان يحذق صناعة الشعر أفتراه يحسب انه عالم بكل شيء ؟ أم تراه يريد ان يـكون وزيراً لأنه شاعر كبير (٣) ؟ » اما سيدة القصر فالحق انها كانت صديقة وفية للشاعر ، ولـكنها لم تجد في نفسها الشجاعة الـكافية لتدفع عنه فتور الملك (٤) . هـكذا ساءت الحـال منذ عام ١٦٩٨ بين هذين الصديقين . لم يعلن المليك سخطه على راسين ، ولـكنه فترَ عنه بعدئذ وصاحبه على دَخَل . واذا اردنا ان نعرف اثر هذه الجفوة البالغ في نفس شاعرنا الرقيقة وكيف انها زادته اعتلالاً

Mauriac 177—180 (١) Mauriac 206, Athalie 4 (٢)
Mauriac 207—208 (٣) L.F.U. 23, Le Siècle de Louis XIV, (٤)
v: 2 P: 18

واستعجلت منيته لما علينا الا ان نذكر تلك الحظوة العظيمة التي فقدهـا الشاعر بسبب هذه الجفوة ، بعد اذ بلغت الحال من عطف الملك انه كثيراً ما كان يدعو راسين لينام في غرفته ! لشدّ ما كانت تعجبه قراءته ، فاذا امتنع النوم على رجل الدولة الكبير كان يتشاغل عنه ببعض صفحات يتلوها عليه شاعره ، حتى يداعب الكرى جفنيه ! وكان راسين يشكو داءً عضالاً في كبده ، وقد اخذ المرض يشتد عليه ويقضّ مضجعه . وفي الثاني والعشرين من نيسان ١٦٩٩ اسلم الشاعر آخر انفـاسه ، شجاعاً ورعاً ، ومن حوله أسرته وصديقه الوفيّ بوالو ؛ بعد ان اوصى ان يدفن في پور رويال ، عند قدمي السيد « هامون » ، احب اساتذته اليه (١) .

وكانت وفاة راسين مثار حزن بالغ للملك الصديق . فلـا التقى بوالو لم يتمالك ان صاح : « لقد فقدنا كثيراً ، انا وانت يا صديقي ، بوفاة راسين . » فـكان بوالو يتحدث عن ذلك بقوله : إن جلالته قد تحدّث عن راسين على نحـــو يغري رجال البلاط بالتماس الموت ! أما « بوالو » الطيب فقد كبر عليه الخطب ووقع عليه كلّ موقع ، فاعتزل في داره ، ولم تطأ قدماه قصر فرساي بعد ذلك ابداً (٢) !



(١) Mauriac 175 L.T. 275 L.F.U. 23, «٢» Mauriac 225

برنيس

لراسين

اشخاص الرواية

تيتوس (١)	امبراطور روما
برنيس (٢)	ملكة فلسطين
انتيوكوس	ملك الكوماجين «مقاطعة سورية»
بولان	امين اسرار تيتوس
ارزاس	امين اسرار انتيوكوس
فينيس	امينة اسرار برنيس
روتيل	روماني
حاشية تيتوس	

«تجري الحوادث في روما، في حجرة بين شقتي تيتوس وبرنيس»

«١» تيتوس ابن فيسباسيان، هو احد اولئك الملوك الاماثل الذين حاولوا تخفيف آلام شعبهم بصدق واخلاص. «لقد اضعت يومي» كان هذا الملك الفيلسوف يقول حينما تغرب عليه شمس يوم لا يُسر فيه الى خير. وقد استولى على القدس في عهد ابيه.

«٢» لا نعرف كثيراً عن الملكة برنيس على وجه التحقيق. والمعروف انها ابنة أجريبا الاول ملك فلسطين، وقد لاذت بمعسكر الرومان فأحبها تيتوس ولم يكن حينئذٍ امبراطوراً.

الفصل الاول

المنظر الاول

انتيوكوس ـ ارزاس

انتيوكوس : ـ لنقف لحظة ، فقد ارى جيداً يا أرزاس أن ابهة هـــذه الحال جديدة لناظريك . هذه الحجرة البهية المستفردة طالما كانت مستودع اسرار تيتوس . فهو في هذا المكان يحتجب احياناً عن حاشيته ، عندما يأتي الملكة ليبثها حبه . وان هذا الباب لقريب من شقته ، وهذا الآخر الى مقر الملكة يؤدي . اذهب اليها وقل لها : إني مضطر الى ان ازعجها فأسألها الفرصة لأفضي اليها بحديث .

ارزاس : ـ انت ، مولاي ، مزعج ؟ انت ، ذاك الصديق الوفي ، الذي اثار التفاتك اليها وعنايتك بها اهتمام خير نبيل ؟ انت ، انتيوكوس ، ذاك الذي كان فيما سلف لها محباً ؟ انت الذي يعدك الشرق بين اعاظم ملوكه ؟ ماذا ؟ أفان أملت ان تكون قرينة لتيتوس ؟ فهل لهـذه المنزلة ان توسع الفجوة بينكما ؟

انتيوكوس : ـ اقول اذهب ، وانظر اذا كنت استطيع ان احدث اليها على انفراد ، ولا تحمّل نفسك عناء آخر .

المنظر الثاني

انتيوكوس « وحده » : ـ واذن ! اانت انت يا انتيوكوس على الدوام ؟ اأستطيع ان اقول لها : « احبك » من غير وجل ؟ ولكن هأنذا أُرعَد ، وان قلبي الواجف ليخشى هذه اللحظة بقدر ما تمناها . لقد سبق ان انتزعت مني برنيس كل امل حتى فرضت علي صمت الابد . فاخلدت

الى السكوت خمسة اعوام ، وضربت على حبي الى هـذا اليوم نقاباً من الصداقة . فهل لي ان اعتقد انها اذ وضعها تيتوس في المقـام الذي اعدّها له ، أحفلُ بي منها في فلسطين ؟ انه بان عليها (١) ، فهل انتظرت اداً هذه الساعة لأجيء وأكاشفها بحبي ؟ هذا وما يجدي علي اعترافٌ طائش متهوّر ؟ آه ! اذا كان لا بد من الرحيل ، فلأرحل من غير ان أبوء بغضبها . لأنسحب ، لأخرج ؛ ومن دون ان أميط عن نفسي اللثام ، فلأذهب بعيداً عن عينيها فأسلو عنها او اموت . واعجبا (٢) ! أؤُكابد الى الأبد ألماً تجهله ؟ أأسكب على الدوام دمعاً علي ان أحبسه ؟ كيف ؟ اخاف غضبها حتى حين افقدها ؟ ايتها الملكة الجميلة ، ولماذا تغضبين ؟ هل جئت اسألك ان تتخلي عن المملكة ؟ او ان تطارحيني الهوى ؟ واسفاه ! ما جئت الا لأقول لك : انني بعد اذ عللت النفس طويلاً بما قد يعترض اماني منافسي من صعاب ، هأنذا في هذا اليوم غداة لا يعجزه شيء ، وحين يقترب زفافكما ، وبعد اعوام خمسة من الحب والأمل الفائل (٣) ، هأنذا ارحل ، وانا لا ازال وفياً على حين لا ارجو شيئاً ، كمثال تاعس للثبات الطويل . سبيلها ان ترثي لي ، لا ان تنقم علي . ومهما يكن من امر ، فلنتكلم : فقد كفانا كبت انفسنا . وماذا عسى ان يخاف ، واسفاه ، عاشق بلا امل في مكنته ان يوطن نفسه على الا يراها ابداً ؟

المنظر الثالث

انتيوكوس ، ارزاس

انتيوكوس : — ارزاس ، ادخل ؟

ارزاس : — مولاي ، لقد رأيت الملكة ، على انني ما شققت اليها الا بعناء امواج الخلائق المتجددة الماكفة ، بجذبهم مجدهـا القريب على آثارها . وقد كف تيتوس بعد ثمانية ايام من العزلة الصارمة عن بكاء ابيه

(١) بنى الرجل على اهله : زفها (٢) لا حظ ترده (٣) الباطل

فيسباسيان . فهذا العاشق يعود مُعنّياً بحبه ؛ واذا كان لي يا سيدي ان اثق بحديث البلاط ، فلعل برنيس السعيدة تبدل لقب الامبراطورة من لقب الملكة قبل ان يغشى الليل .

انتيوكوس : — وا اسفاه !

ارزاس : — ماذا ؟ ايكون لهذا الحديث ان يكدر صفاءك ؟

انتيوكوس : — واذن فانا لا استطيع ان اكلها على انفراد ؟ .

ارزاس : — ستراها يا سيدي : فقد وقفت برنيس على رغبتك في رؤيتها وحيدة بلا تبَع . وقد تفضلت جلالتها بنظرة انبأتني أنها ستجيب رغبتك هذه ؛ ولا شك انها تنتظر اللحظة المواتية لتتوارى عن اعين بطانة تضيق بها ذرعاً .

انتيوكوس : — حسبك . ولكن الم تغفل شيئاً من الأوامر الخطيرة التي بها اليك ؟

ارزاس — مولاي ، انت تعلم نشاطي في طاعتك . وان في اوستيا [1] سلّحت بعناية ، وهي على استعداد لمغادرة الميناء بين ولا يمسكها عن الرحيل غير انتظار امرك .
ولكن من هم لذين ستعيدهم الى بلادك [2] ؟

انتيوكوس : — يجب ان نرحل ، يا ارزاس ، بعد ان ارى الملكة .

ارزاس : — من يجب ان يرحل ؟

انتيوكوس : — انا .

ارزاس : — انت ؟

انتيوكوس : — حين اغادر القصر ، اغادر روما ، اي ارزاس ، اغادرها الى الأبد .

ارزاس : — انا مدهوش ولاريب ؛ ومالي لا أدهش . ماذا ؟ مولاي ، ان الملكة برنيس قد انتزعتك منذ امد طويل من احضان ممالكك ؛ ولقد وقفت خطاك في روما منذ ثلاث سنين ؛ فالآن حين وطدت الملكة فوزها فهي تنتظرك شاهداً على هذا العيد المجيد ، حين يهيّئ لها تيتوس الحب

---

(١) ميناء قريب من روما (٢) في الاصل : الى كوماجين ، وهي مقاطعة سورية

عزاً سنياً ينعكس عليك اذ يصبح لها بعلاً ...

انتيوكوس : — ارزاس ، دعهـا تستمتع بحظها ، وخل عنك حديثاً لا اطيق الصبر عليه .

ارزاس : — فهمتك يا مولاي : ان هذه الامجاد قد جعلت برنيس جاحدة احسانك وبرك . وان البغضاء لتعقب المحبة اذا أسيء اليها .

انتيوكوس : — كلا يا ارزاس ، لم احبها مثل اليوم قط .

ارزاس : — ماذا اذن ؟ هل تجهّمك (١) الامبراطور الجديد وقد شغل من الآن بسلطانه عن كل امر ؟ هل اوجست منه اعراضاً فانت تتحاماه بعيداً عن روما ؟

انتيوكوس : — لم يبدُ من تيتوس تغيّر ما ؛ واخطئ اذا رحت اتظلّم (٢).

ارزاس : — فيم الذهاب اذاً ؟ واي هوىً عابر يؤلّبك على نفسك ؟ لقد رفعت السماء على العرش اميراً يحبك ، اميراً سبق ان شهد حروبك ورآك تنشد المجد والموت في أثره ، وقد كنت لشجاعته عضداً فاخضع بلاد اليهود العاصية . وانا ليذكر اليوم الخطير العصيب الذي بتّ في امر حصار طويل مريب : كان الاعداء يتأملون مطمئنين على سورهم الشلائي هجماتنا الفاشلة ؛ عبثاً كانت المجانق (٣) تهددهم . انت وحدك ، يا مولاي ، انت وحدك ، والسلّم في يدك ، حملت الهلاك حتى بلغت به اسوارهم . لقد كاد هذا النهار يفضي على مأتمك ؛ ولقد عانقك تيتوس وانت تجود بذمائك بين ذراعيّ ، وفاضت دموع كل من في المعسكر الظافر لموتك . ها هو اليوم يا سيدي الذي يجب ان تنتظر فيه ثمرة دماء كثيرة رأوك تريقها . انك تمل الحياة بعيداً عن ملكك ، حين يلجّ بك الشوق لرؤيته . فهل يراك الفرات تعود اليه بلا مجد ؟ الا فانتظر للرحيل ان يعيدك القيصر مظفّراً مقلداً بالألقاب السنية التي

---

(١) تجهمه او تجهم له : استقبله بوجه عابس (٢) اشكو الظلم .

(٣) جمع منجنيق (معربة)

تضفيها صداقة الرومان على الملوك . اما من شيء يردك يا مولاي عن
مسماك ؟ اراك لا تحير جواباً .

انتيوكوس : — ماذا تريدني ان اقول ! انتظر من برنيس برهة لاتحدث اليها .

ارزاس : — فاذن ، مولاي ؟

انتيوكوس : — لصبي رهن بنصيبها .

ارزاس : — كيف ؟

انتيوكوس : — أنتظر منها بياناً عن زواجها ، فاذا وافق قولها ما يتحدث به الناس ، فاذا صح انهم يرفعونها على عرش القياصرة ، اذا تكلم تيتوس ، وكان مقترناً بها ، فانني راحل .

ارزاس : — ولكن اي شيء يحملك على التشاؤم من هذا الزواج ؟

انتيوكوس : — سأقول لك الباقي عندما نذهب .

ارزاس : — في اي اضطراب تلقي بنفسي يا مولاي !

انتيوكوس : — الملكة قادمة . وداعاً . اعمل كل ماقلت لك .

المنظر الرابع

برنيس ، انتيوكوس ، فينيس

برنيس — واخيراً تواريت عن افراح الاصدقاء الكاذبة ، اولئك الاصدقاء الكثر الذين قسمهم لي الحظ ؛ هربت من طول اجلالهم الباطل ، لأبحث عن صديق يطارحني حديث القلب . ولا اكذبك القول : ان نفاد صبري العادل ليتهمك الآن ببعض الاهمال . وكنت اقول : يا عجبا ! انتيوكوس هذا الذي يشهد الشرق كافة وتشهد روما على مودته وهو الذي رأيته ثابتاً على الدوام فيما اعتراني من نكبات ، يتبع على حد سواء حظي المتبدل ؛ الآن وقد ظهر ان السماء تبشرني بمجد أوكد انني سأشركه فيه ، انتيوكوس هذا نفسه يستخفي عن عيني فيتركني لرحمة جمهور لا اعرفه ؟

انتيوكوس — فالأمر صحيح اذاً يا سيدتي ؟ وعلى هـذا فان الزواج سيردف (١) غرامكما الطويل ؟

برنيس — احب ان أسرّ اليك مخاوفي يا سيدي . هذه الايام رأت عينيّ مبللتين ببعض الدموع : ان هذا الحزن الطويل الذي فرضه تيتوس على قصره قد حمل التردّد الى حبّـه ولو بالخفاء . لم يبق له ذلك الشوق الملتهب حينما كان يمضي الايام بقربي . فهو أبكم ، مثقل بالهموم ، تتحير عينـاه بالدمع ، فلا يترك لي سوى الوداع الحـزين ، تصور المي ، انا التي لا احب في شخصه غير ذاته ، كما حدثتك مئة مرة ، انا التي كان بودي لو أختار قلبه وأنشد نبله ، بعيدة عما يلفّه من امجاد .

انتيوكوس — هل عاوده حنانه الاول اليك ؟ .

برنيس — لقد شاهدتَ هذه الليلة الأخيرة ، حينما اقام مجلس الشيوخ اياه بين الآلهة ، ليعزز مساعيه الدينية . وقد اطمأن ورعه بهـذه الفريضة فأفسح يا مولاي ، محلا للحب ؛ وهو هناك في هذه اللحظة نفسها ، من دون ان يخاطبني في الأمر ، في ذلك المجلس المنعقد بأمره . هناك يوسّع من حدود فلسطين ، فيلحق بها بلادالعرب وسوريا كلها ، واذا ركنت الى ما يقول اصدقاؤه ، اذا وثقت بأيمانه التي جددهـا الف مرة ، فانه انما يتوج برنيس على كثير من الدول لتضيف الى القاب اكـثر لقب الامبراطورة . وسيأتي بنفسه ليؤكد لي ذلك في هذا المـكان .

انتيوكوس — وقد جئت اذن لأودعك الوداع الأخير .

برنيس — ماذا تقول ؟ يا للسماء ! ايّ وداع ! ايّ قول ! ايها الأمير ، تضطرب ويحول لونك ؟

انتيوكوس — سيدتي ، يجب ان ارحل .

برنيس — ماذا ؟ الا يمكن ان اعرف لذلك سبباً . . .

انتيوكوس « جانباً » — كان يجب ان ارحل من دون ان اراها .

برنيس — ماذا تخشى ؟ تكلم :لقدطالسكوتك .ماهو اذنسرهذاالرحيلياسيدي؟

(١) ردّفه ، كسمعه ونصره : تبعه .

انتيوكوس — تذكري على الأقل أني استجيب لأمرك (١) ، وانك تسمعين لي للمرة الأخيرة . واذا كنت تذكرين في هــــذه المرتبة العليا من الجاه والسلطان مناني ولدت فيها ، فانك تذكرين يا سيدتي أن قلبي في هذه المغاني تلقى اول سهم انطلق من عينيك . لقد احببت ، وفزت بقبول اخيك أجريبا ، وخاطبك هــــو في امري . ولعلك كنت على وشك ان تتلقي ، من غير غضب جزية قلبي . فجاء تيتوس ، لسوء طالعي ، ورآك ، وحاز اعجابك . لقد بدا امامك في كل ما لرجل يحمل بين يديه الثأر لروما من بهــاء . فامتضمت بلاد العدو ، وعد انتيوكوس الشقي نفسه اول المخذولين . وبعد قليل اتاني من فمك الذي اعلن شقاوتي بقساوة اشعار بالسكوت . لقد جادلت طويلاً وأنبتُ عيني للكلام ، كانت ادمعي وحسراتي تتبعك انى سرت . واخيراً كانت الغلبة لقسوتك : اذ عرفت ان تلزميني النفي او الصمت ، ووجب ان أعد به بل ان اقسم عليه . على اني اذ تجاسرت فأبنت عن نفسي في هذه اللحظة ، فاعلمي أنه حين كنت تنتزعين مني هذا الوعد الجائر ، كان قلبي يقسم على الا يألوك حباً .

برنيس — آه ! ماذا تقول لي ؟

انتيوكوس — لزمتُ السكوت خمسة اعوام ، يا سيدتي ، وسألزمه امداً اطول . ولقد رافقت منافسي السعيد في حروبه ، وامّلت ان اريق دمي بعد دموعي ، او ان يتكلم اسمي في الاقل مكان لساني تحمله اليك الف مفخرة . وكأن السماء قد وعدت بنهاية لعذابي ؛ فبكيت لهلاكي الذي لم يتحقق ويا للأسف . ايتها المخاطر التي لا غناء فيها ! يا بُعدَ ما كان ضلالي ! لقد كانت بطولة تيتوس تفوق جنوني واندفاعي . يجب ان يناسب اكباري فضيلته : فمع انه كان مُنتَظَراً يا سيدتي لحكم العالم ، ومع انه موضع اعزاز الدنيا واحترامها ؛ ومع انه اخيراً يتمتع بحبك ، فقد كان يظهر للملأ انه وحده عرضة للتحوف ؛ ومنافسه

(١) يقصد أنها كانت خيرته بين مفارقتها او السكوت

الشقي القنوط لم يكن يبدو في يأسه من الحياة ونفور الناس منه الا تابعاً له يسير في ركابه .

ارى قلبك يهتف لي في الخفاء (١) ، وارى أنك تصغين الي وقد تطامن اسفك ، وأنك على انتباهك العظيم لسوء ما ارويه تصفحين عن كل ما تبقى رعاية لتيتوس .

واخيراً ، بعد حصار ممض (٢) ، بطيء ، دان حبيبك العصاة ، وهم فلول شاحبة دامية خلفها الجوع والحرائق والثورات ، وغادر اسوارهم وقد حجبتها الاطلال . فرأتك روما يا سيدتي قادمة بصحبته . فكم كان عذابي في الشرق الجديب ! لبثت امداً طويلاً أتيه في قيسارية (٣) ، تلك الربوع الجميلة التي احبك القلب فيها . كنت اسائل عنك مملكتك الحزينة ؛ وكنت اتحرى باكياً رسوم خطاك . واخيراً غلبني الوجد وحول اليأس خطاي نحو ايطاليا ، كان القدر يدخر لي فيها آخر سهامه . فقد عانقني تيتوس وقادني اليك . وخدعكما نقاب من الصداقة ضربته على حبي فاصبحت مناط سرك . على ان بعض الأمل كان يداعب احزاني على الدوام : كانت روما وكان فيسباسيان يعتاقان تنهداتكما ؛ فعسى تيتوس ان يذعن بعد كفاح طويل . بيد ان فيسباسيان قد مات واصبح تيتوس هو السيد ، ففيم البقاء حين ذاك ؟ تمهلت بضعة ايام لأكون على بينة من مجرى الأمور في مملكته المتيدة . ان نصيبي قد اكتمل . لقد تهيأ لكم المجد . كثيرون غيري سيشهدون افراحكم وسيشاركونكم في ابتهاجكم السعيد ؛ اما انا الذي لا استطيع ان امزج هذا الفرح بغير الدموع ، انا الأضحية الدائمة لحب باطل فاشل ، فانني ارحل اكثر حباً من اي وقت اخر ، سعيداً في آلامي لأني استطعت بلا حرج ان اروي خبرها للعينين اللتين احدثتاها .

برنيس — سيدي ، ما كنت اظن ان انساناً يمكن ان يجيء امام عيني ، يوم

---

(١) اي على ما اصف به حبيبك من الشجاعة (٢) هو حصار القدس ، بدأه فيسباسيان واتمه ابنه تيتوس سنة (٧٠) م (٣) في فلسطين ، عاصمة مملكة برنيس

يرتبط مصيري بقيصر ، ليثني هواه من دون ان يناله العقاب الاليم . ولكن سكوتي برهان صداقتي : ومن اجلها انسى خطاباً يسوءني . انا لم اشوّش بجراه المهين . وافعل اكثر من هذا : بالأسف اتلقى وداعك . والسماء تعلم اني لا انتظر غيرك ، بين هذه الامجاد التي اولتني اياها ، شاهداً على سروري . لقد كنتُ اكبر فضائلك انا والعالمُ اجمع . وكان تيتوس يُعزّك وكنتَ انت بتيتوس معجباً . وما اكثر ما وجدتُ المتعة الشائقة في التحدث الى تيتوس في ذاته الأخرى .

انتيوكوس — وهذا ما افر منه . اني اتجنب ، ولكن بعد فوات الأوان ، هذه الأحاديث الممضة التي ليس لي فيها نصيب . افر من تيتوس ، افر من هذا الاسم الذي يحمل الى نفسي الهم والرجفان . هذا الاسم الذي يردده فمك في كل اللحظات . ماذا اقول لك في الأخير؟ اني انجو بنفسي من عينين سهوتين اذ ترياني على الدوام لا ترياني ابداً . الوداع : سأنتظر الموت نصيباً لي وانا مدنف بحبك مفعم القلب بصورتك . لا تخافي ابداً ان يملأ الالم التائه هذا العالم بضوضاء احزاني . سيدتي ، لن يذكرك بي غير ضجة الموت الذي به استغيث . الوداع

المنظر الخامس

برنيس ، فينيس

فينيس — كم ارثي له ! مثل هذا الأخلاص ، يا سيدتي ، جدير بنصيب اوفر من السعادة ، الا ترثين له ؟

برنيس — اعترف ان هذا الرحيل الفاجئ يحزّ في نفسي .

فينيس — لو كنت في مكانك لاستبقيته .

برنيس — مَن ؟ أنا ؟ استبقيه ؟ اولى بي الا احتفظ ولو بذكراه . تريدين اذن ان احابي رغبة حمقاء ؟

فينيس — ان تيتوس لم يفصح بعد عن خاطره . وروما تنظر اليك يا سيدتي بعين الشانئ الحاسد ؛ واني لاخشى عليك عنف قوانينها ، فالرومانيون

لا يرتضون ان يتزوج احدهم غير رومانية ؛ ذلك وروما تبغض الملوك جميعاً ، وانت ملكة .

برنيس — لات حين مخافة يا فنيس . تيتوس يحبني ؛ بامكانه ان يفعل ما يريد : وما عليه الا ان يتكلم . فسيرى مجلس الشيوخ يحمل اليّ احترامه واكرامه ، والشعب يكلل بالأزهار تصاويره .

الم ترَي يا فينيس الى بهاء هذا الليل (١) ؛ الم تمتلئْ عيناك بجلاله ؟ هذه المشاعل والمواقد ، هذه الليلة اللاهبة ، هذه النسور وطاقات الرياحين ، هذا الشعب ، هذا الجيش ، هذا الملأ من الملوك ، وهؤلاء القناصل ، ومجلس الشيوخ هذا : كلهم من حبيبي يستعير البهاء ؛ هذا الارجوان ، هذا الذهب الذي رفعه مجده وأعلاه ، ثم هذه الأكاليل التي ما زالت شاهدةً على انتصاره ؛ والعيون التي جاءت من كل حدب وصوب لتجمع عليه وحده نظراتها الوامقة ؛ وهذا الميناء المهيب وهذا المنظر الوديع . يا للسماء ! بأي اجلال واي هشاشة تؤكد له تلك القلوب في السرّ اخلاصها . الاخبريني : هل لأنسان ان ينظر اليه من دون ان يجري في خاطره مثلي ، أن العالم اذ يراه يتعرّف سيدَه ، كائناً ما كان الظلام الذي كتبت له الاقدار ان يولد فيه ؟ ولكن الى اين تذهب بي هذه الذكرى الجميلة يا فينيس ؟

ان روما بأجمعها الآن ، في هذه اللحظة نفسها ، تنذر النذور لتيتوس ، وتحتفل بابتداء عهدها بحكمه الوليد بما تقدّم من الأضاحي . فيمَ الابطاء ؟ هيا نقدّم نحن كذلك نذورنا من اجل مملكته السعيدة للسماء التي تحميه . وسأعود في الحال لأبحث عنه ، من دون ان انتظره ومن غير ان يتوقع مجيئي ، وسنبدي في هذه المقابلة كل ما توحيه الى قلبينا الراضيين تلك الافراح المحتبسة منذ طويل .

---

(١) ستصف برنيس الاحتفال بانضمام فيسباسيان ابي تيتوس الى الآلهة حين وفاته .

الفصل الثاني

المنظر الاول

تيتوس — پولان — اتباع

تيتوس — هل رأيتم لي ملك الكوماجين (١) ؟ هل يعلم أني بانتظاره ؟
پولان — لقد بادرت الى الملكة ، فرأيت هذا الامير في شقتها ، وكان قد غادرها وأنا اسرع اليها ، فقلت لهم يا مولاي ان يبلغوه اوامرك .
تيتوس — يكفي . وماذا تفعل الملكة برينيس ؟
پولان — لقد تأثرت كثيراً من رعايتك وحسن التفاتك ، فهي الآن توقر السماء بالنذور لسعادتك . كانت خارجة . يا مولاي .
تيتوس — يا للأميرة الحبيبة ! وا اسفاه !
پولان — انى هذه الكآبة من اجلها ؟ يكاد الشرق باجمعه يدين لسلطانها : فهل ترثي لها ؟
تيتوس — ليتركوك معي ولينصرفوا ، يا پولان .

المنظر الثاني

تيتوس — پولان

تيتوس — حسن ، ان روما التي ما تزال في ريب من نياتي لتنتظر نصيب الملكة ما سيكون ؛ وان اسرار قلبينا اصبحت حديث العالم اجمع . لقد آن ان أفصح عن نفسي في الاخير . ماذا يقول الشعب عن الملكة وعني ؟ تكلم ، ماذا تسمع ؟
پولان — انهم يذيعون بشمائلك ويهتفون بمحاسنها ، يا مولاي .
تيتوس — ماذا يقولون عن الزفرات التي اصعدها من اجلها ؟ وأي مآل ينتظرون لهذا الحب الوثيق ؟

---

(١) انتيوكوس

بولان — لك ان تفعل ما تشاء : احبّ ، لا تحبّ ، البلاط في جانب رغباتك على الدوام .

تيتوس — لقد رأيته ، هذا البلاط المداجي ، لا همّ له غير مرضاة اسياده ، رأيته يحبذ فظائع ما اقترف نيرون من موبقات ، ويمجد جانياً رعنته واهواءه . وما كنت لاحتكم الى بلاط عابد متملق ، واني لارغب بابولان في ميدان أبَرّ من هذا وانبل . اريد ان اسمع منّ لسانك ما يضطرب في كل القلوب ، من دون ان أرعي سمعي هذرَ المنافقين . بذاك وعدتني . ان الاجلال والخوف يغلقان طريق الشكوى من حولي؛ وقد نشدتُ سمعك وبصرك ، يا عزيزي بولان ، لأرى جيداً واسمع جيداً ؛ بل انني وضعت لقاء هذا مكنون صداقتي ، فاردت ان تكون ترجمان القلوب وان ينهي اليّ اخلاصُك الحقيقةَ على الدوام من بين هؤلاء المتملقين . تكلم اذن . ماذا يجب لبرنيس ان تأمل ؟ اتأخذها روما بالسماحة ام بالقسوة ؟ وهل يجب ان يسبق الى فكري ان مثل هذه الملكة الفاتنة قد تطرف انظارهم حين تقتعد عرش القياصرة ؟

بولان — لا يخالجنْك في ذلك شك : أرشدٌ هو ام هوى ، ان روما لا ترى فيها الامبراطورة المنتظرة ! فهم يعلمون أنها جميلة رائعة ، ولكأنّ هاتين اليدين الرائعتين تسألانك سلطان الورى ؟ بل انه ليقال ان لها قلب الرومانية ، ففيها الف فضيلة ؛ ولكنها يا مولاي ملكة على كل حال . ان لروما قانوناً لا يتبدل ، فهي لا تقبل ان يختلط بدمها اي دم دخيل ، وهي لا تعترف ابداً بثمرات غير شرعية تلد من زواج يخالف حكمها . ثم ان روما كما تعلم ، حين طردت ملوكها ، وكللت بهذا الاسم الذي كان في غاية النبل والقداسة بغضاء ناميةً الى الابد ؛ ومع انها وفية منقادة لقياصرتها ، فان هذه البغضاء التي اعقبتها اياها الكبرياء ، لتستمرّ في جميع القلوب بعد تحررها . ان يوليوس ، وهو اول من اخضعها لقوته ، وهو الذي اسكت الشرائع في جلبة حروبه ، كان يتحرّق حباً لكليوباترا ، وقد تركها وحيدة في الشرق تنفث زفرات الألم من دون ان يكشف عن امره . وقد أحبها انطونيو وتعبّدها ، ونسي في احضانها مجده ووطنه ، ولكنه لم يجرؤ على الاقتران بها ، فسمت اليه روما تطلبه وهو على ركبتي حبيبته ، ولم تهدأ ثائرتها الناقمة حتى

انزلب الشر الوبيل بالعاشق وحبيبه . منذ ذلك الحين يا مولاي نهيِّب كاليجولا (١) ونيرون (٢) ، المسيخان اللذان أورد اسميها هنا على مضض واللـذان لم يحتفظا من الانسان بغير صورته فوطئا باقدامها كل ما لروما من قوانين ـ تهيبا هـذا القانون وحده ، ولم يوقدا قط امامنا مشعل زواج بغيض .

امرتني على الخصوص ان اكون صادقاً . لقد رأينا يا مولاي اخا العتيق بالاس (٣) يصبح زوج الملكتين (٤) واغلالنـــا ما تزال تُدويه ؟ . فاذا وجب يا مولاي ان اطيعك الى النهاية ، فلأُذكر ان هاتين الملكتين انما كانتا من دم برينيس . فهل تظن ان باستطاعتك ان تدخل ملكة الى سرير قياصرتنا من دون ان تُقذي انظارنا ، على حين يرى الشرق في اسرّة ملكاته عبداً قد فككنا من اساره ؟ هذا ما يجول في خواطر الرومانيين عن حبك ؛ ولست اضمن الا يعيد عليك المجلس (٥) هنا قبل ان ينتهي النهار ماقلته اذ هوالذي يحمل اماني الامبراطورية ، ولا ألا تخرّ روما معه على ركبتيـــك وتسألك ان تختـار ما يليق بهـا وبـــك . ولك يا سيدي ان تعدّ جوابك .

تيتوس ــ أواه ! عن اي غرام يثنوني !

بولان ــ انه لغرام مضطركم ، يجب ان اعترف .

تيتوس ــ اقوى ضراماً الف مرّة مما يذهب اليه وهمك يا بولان . لقـد اصبح من ضرورات سروري ان اراها كل يوم ، وان اطارحها الغرام ، وان انال اعجابها . بل فعلت اكثر من ذلك ــ ولا اكتمك شيئاً ــ لقد حمدت الآلهة مئة مرة من اجلها على انها قد اختارت ابي في جنوبي فلسطين ، وعلى انهـــا قد جعلت الشرق والجيش تحت لوائه ، وعلى انها اذ أثارت كذلك من بقي من الناس قد اودعت روما الدامية بين يديه الوديعتين . بل لقد تمنيت ان يكون لي مقـام والدي ، انا الذي

(١) امبراطور روما (٣٧ ـ ٤١ م) كان هذا الطاغية يتمنى الا يكون لشعبه غير رأس واحد ليتمكن من قطعه بضربة واحدة ، وقد بلغت حماقته ان اقام من حصانه قنصلا ؛ وكان يقـول : ليبغضني الشعب على ان يخافني (٢) امبراطور روما (٥٤ ـ ٦٨ م) اشتهر بفظاعة قساوته ، وقد خاطبه راسين على لسان آجريبين بقوله : « سيبدو اسمك للجيل المقبل عاراً فظيعاً لاقسى الطغاة » .

(٣) بالاس : عبد سرّحه الامبراطوركلوديوس ولعله فيلكس وقد حذفنا اسمه تخفيفاً على القارئ (٤) احداهما حفيدة كليوباترا التي منها انحدرت برينيس كذلك ، والأخرى اخت اجريبا الثاني وبرينيس (٥) مجلس الشيوخ

كنت أمدّ ايامه من ايامي مثمرة: يابولان لو انقدراً ارحم اراد ان يعد من اسبابها:
كل هذا – وكم يجهل العاشق ما يرغبه! – كل هذا بأمل ان ارفع برينيس على عرش الامبراطورية وان اشكر لها حبها ووفاءها وان اراني والناس على قدميها. فعلى حبي كله يابولان، وكل ما لها من جمال وسحر، وبعد الف قسم مشفوع بدموعي، الآن اذ استطيع ان اتوج كثيراً من المحاسن، الآن اذ احبها اكثر من اي وقت آخر، وحين يستطيع الحب السعيد وهـو يربط حياتينا ان يوفيّ في يوم واحـد نذور خمس سنوات، فهـأنذا يا بولان ... يا للسماء! هل لي ان اصرّح بذلك؟

بولان – ماذا يا مولاي؟

تيتوس – سأفارقها الي الأبد. ان قلبي الآن لم يكد يمتثل. فاذا كنت قد حملتك على الكلام، اذا كنت اردت ان استمع لك، فانا انما اردت من همتك ان تجهز في الخفاء على حب يسكت على كره.

لقد طالما ذبذبت برينيس الفوز. فاذا انا ملت اخيراً الى جانب المجد فثق بان كبح هذا الهوى الغلاب قد كلفني كفاحاً سيدمى القلبُ منه طويلا. كنت احب، وكنت اتأوّه في سلام عميق: غيري كان يحمل اعباء المملكة. كنت سيد أمري، حراً في آلامي، ليس لي من غير نفسي رقيب. ولكن السماء ما كادت تدعو ابي اليها، منذ اطبقت يدي الحزينة جفنيه، حتى برح الخفاء عن وهمي الحبيب: فأحسست بالحمل الذي فرض علي، وعرفت اني عمـا قليل افارق من احب فأفارق نفسي يا عزيزي بولان، وأن ارادة الآلهة حين تناهض حبي فهي تسلم الى العالم ما بقي من ايامي. إن روما لترقب اليوم نهجي الجديد. فأي عار عـلي، واية طيرة لها، اذا رحت منذ الخطوة الأولى أهدر حقوقها وابني سعادتي على انقاض نظمها! لقـد وطنت النفس على هذه التضحية الوجيعة واريد ان امهّد برينيس المسكينة لها؛ ولكن من اين ابدأ؟ لقد هممت عشرين مرة منذ ثمانية ايام ان افاتحها الكلام؛ ومن اول كلمة جمد لساني المرتبك عشرين مرة في فمي. وكنت ارجو ان يُشعرها اضطرابي والمي على الاقل بشقائنا المشترك؛ ولكنها كانت تكفكف بيدها دموعي وهي واثقة بي آلمة لهمومي، وما اوجست من امر خيفة فما خافت ان تمنى بزوال حب هي جديرة به. واخيراً استعدت هذا الصباح حزمي: يجب ان اراها، اي بولان، وان أفضّ

السكوت. واني لمنتظر انتيوكوس لا موصّر اليه هذه الامانة الغالية التي لا اقدر على الاحتفاظ بها. اريد ان يعود بها الى الشرق. وسترى روما الملكةَ غداً راحلة معه؛ وعن قريب يأتيها النبأ بلساني، واني لمكلمها للمرة الأخيرة.

بولان — لم اكن لانتظر اقل مما تبديه من هذا الحب للمجد الذي يسير النصرَ في ركابك حيثما سرت. وان بلاد اليهود المستعبدة واسوارها الداخنة، تلك الآثر الخالدة لهـــذا النشاط النبيل، لتكفيني جواباً بأن بطولتك العظيمة يا مولاي، ما كانت لترضى ان تهدم بنيانها؛ وأن بطلاً قاهراً لكثير من الامم لقادر ولا شك على ان يقهر عاجلاً او آجلاً ما في نفسه من أهواء.

تيتوس — آه! ما اقسى هذا المجد وراء الأسماء الجميلة! وكم كانت عيناي الحزينتان تريانه اروع بهاءً ان هــو لم يكلفني غير خوض المنون! ماذا اقول؟ ان ما بي من شوق لسحره (١) انما اشعلت ناره برينيس في صدري. انك لا تجهل الأمر: فالأقدار ما اذاعت اسمي عاطراً زكياً على الدوام. ان ايام حداثتي التي كان بلاط نيرون يغذوها. كانت تصلُّ، يا عزيزي بولان، وتغرّر بها الاسوة السيئة، وتتبع حدود اللذة الميسور. ولكن برينيس اعجبتني؛ فاي امر ينكل عنه قلب يريد ان ينال اعجاب من يحب ويفوز بأسره؟ لقد بذلت دمي بسخاء، فخلا المجال لسلاحي وعدت منصوراً. غير ان الدم والدمع لم يكونا كافيين لأنال حبّها وولاءها: فتكلفت ان احمل السعادة الى الف بائس معترّ؟ ورأى الناس من كل صوب عوارفي واحساني: سعيد! بل اسعد مما يرقى اليه فهمك، حينما كنت استطيع ان ابدو لعينيها الراضيتين محملاً بالف قلب ملأتها باحساني! انا مدين لها بكل شيء يا بولان .. يالهذا من جزاء! كل ما انا مدين به سيعود عليها بالوبال. وسأقول لها، مقابل مآثرها العديدة وفضائلها الجمة: ارحلي، ولا تريني ابداً.

بولان — ماذا؟ مولاي، ماذا؟ هذه العظمة التي مدت سلطان برينيس الى حدود الفرات، وهذه الامجاد التي بهرت بفخامتها مجلس الشيوخ، اما تزال ترهب بعدها وصمة الكفران؟ على مئة شعب جديد جعلتَ برينيس تامر وتنهى.

تيتوش — علالة واهية لألم عظيم! انا اعرف برينيس واعلم جيداً ان قلبها لم يطلب غير

---

(١) الضمير على المجد

قلبي . لقد احببتها ، واعجبتها . منذ هـذا النهار ـ اصفه بالشؤم ، واسفاه ! ام بالسعادة ؟ ـ من دون ان يكون لهـا اذ تحب من غرض سوى الحب ، كانت تمضي ايامها مَرْوية في روما ، نكرة في البلاط ، لا تطالب يا پولان بغير ساعة تراني بها وما بقي تقضيه في انتظاري . واذا كنتُ ذات مرة اقلّ مثابرة فتجاوزت وقتاً هي فيه بانتظاري ، كنت اعود بعد قليل فأراها قد أُخضِلَتْ بالدموع . ويا طالما شُغلت يدي بتجفيفها . واخيراً فكل ما للحب من عرى وثيقة ، ومن تأنيب لطيف ، وافراح تتوالد بلا فتور ، وعناية بنيل الاعجاب من غير كلفة ، وخشية ما تفتأ تتجدد ، وجمال ، ومجد ، وفضيلة ، كل اولئك اجده فيها . اراها كل يوم منذ خمسة اعوام سويّاً فيخيل اليّ أني انما اراها لأول مرة . لا ينبغي لنا ان نفكر بهذا ابداً . هيّا بنا يا عزيزي پولان ؛ كلما افكر في ذلك احس بخور عزيمتي القاسية . اي نبأ يا للسماء ! سافضي به اليها ! مرة اخرى كذلك ، هيّا ، لِتَنْكَبْ (١) عن ذكر ذلك . اعرف واجبي ، وان امر اتباعه لعليّ : وما انا بملتفت ابداً الى امكان البقاء حياً بعدها .

المنظر الثالث

تيتوس ، پولان ، روتيل

روتيل — برنيس يامولاي تطلب التحدث اليك .

تيتوس — آه ! پولان .

پولان — أمن الآن تبدي نكوصاً ؟ الا فلتذكر يا مولاي نبيل عزمك . هذا وقته .

تيتوس — لا بأس ، نراها ؛ لتأت .

المنظر الرابع

برنيس ، تيتوس ، پولان ، فينيس

برنيس — لا تغضب اذا ما قطعت عليك همتي الهوجاء سرّ عزلتك . أمن الحق يا مولاي ان يدوّي من حولي بلاطك الجميع بما غمرتني به من نعم على حين اكون

(١) لتعدل عن ذكر ذلك

وحدي غير رافعة صوتاً ولا شاكرة فضلاً ؟ ولكن يا مولاي (وذاك اني اعلم ان هذا الصديق الوفيّ (١) على علم بخفايا اسرار قلبينا) قد انتهى حدادك ولا شيء يعوق خطاك ، انت وحيد اخيراً ولا تبحث عني . لقــد نُمي اليّ أن ستتحفني بتاج جديد مع اني لا استطيع ان اسمعك انت . واأسفاه ! راحةٌ اكثر ، مولاي ، وأبهةٌ اقلّ . الا يمكن لحبك ان يظهر الا في مجلس الشيوخ ؟ آه ! تيتوس ، فالحب يفرّ من قيود هذه الاسماء التي تورث الحرمة والرهبة ، بأي مسمى يَنْصَبُ (٢) غرامك ؟ الا يملك غير دول يَهَبُها ؟ منذ كم قام في وهمك أنني أحْفِل عظمتي . زفرة ، نظرة ، كلمة من شفتيك ، هذا ما يطمع به مثل قلبي . اكثر من رؤيتي ولا تعطني شيئاً . أكلُّ اوقاتك وقف على المملكة ؟ اما لهــذا القلب ، بعد ثمانية ايام ، ما يقوله لي ؟ ما اكثر ما تؤمّن البالَ كلمة منك ! ولكن هل كنت تتكلم عني حين باغتّك ؟ هل كان لي نصيب من احاديثك المكتمة يا مولاي ؟ هل كنتُ في الاقلّ حاضرة في الخاطر ؟

تيتوس — لا ترتابي في ذلك ابداً يا سيدتي ، واني لاشهد الآلهة على ان برينيس ماثلة نُصب عينيّ على الدوام . ما الغياب ولا الزمان — حلَفَةً ثانية — بقادرين على ان يغصباكِ هذا القلب الذي شغفتِه حباً .

برينيس — واعجبا ، اتقسم على هيامك الخالد وانت على هــذا البرود ؟ بل فيم تشهد قدرة السماء ؟ أمن الحتم ان تهزم بالأيمان حذري وارتيابي ؟ ان قلبي لم يقصد يوماً الى مناقضتك وأنا اصدّقك بزفرة عابرة .

تيتوس — سيدتي ...

برينيس — ماذا يا سيدي ؟ ماذا ؟ تصرف عينيك عني من دون ان ترجع قولاً ، وتبدو وبكةً على محياك . الن تهدي اليّ غــير وجه حائر ؟ اما ينفكّ موت ابيك يشغل فكرك ؟ اما من شيء يخفف عنك العذاب الذي يضنيك ؟

تيتوس — ليت ابي ، واأسفاه ، ما يزال حياً ! فكم كنت اعيش سعيداً !

برينيس — سيدي ، ان هــذا الأسف كله لمن توابع برّك الفاضلة . ولكن يكفي ما ذرفت من دمع اكراماً لذكراه : ان عليك لشواغل اخرى لروما وللمجد . اما عن برينيس فلا اجرؤ على مخاطبتك . لقد كان بمقدورها فيما سلف ان تحمل

---

(١) بولان (٢) نصب : تعب

العزاء اليك ؛ وكنت تصغي اليهـا بقدر اوفر من الارتياح . كم عانيت من ألم لاجلك وسكبت دموعي في كلة منك ! تأسفُ على اب : اوّاه ! آلام واهنة ! وانا (وهذه الذكرى لا ازال ارعتش منها) لقـــد كانوا يريدون ان ينتزعوني عن كل ما أهيم به ؛ انا التي يُستطار فؤادي حينما لا تفارقني غير بعض الوقت ؛ انا التي اجرّع المنون يوم يريدون ان يمنعوني عن ان . . .

تيتوس — سيدتي ، واأسفاه ! ماذا جئت تقولين لي ؟ اي ساعة تختـارين ؟ آه ! اتوسّل اليك ، أمسكي . كثيرٌ أن تفرّطي باحسانك على جاحد عاق .

برينيس — على جاحد عاق ، يا سيدي ! وهل تستطيع ان تكونه ؟ وعلى هذا فلربمـا يُمِلُّك احساني ؟

تيتوس — كلا ، يا سيدتي . واذ يجب ان اصارحك ، ابداً لم يشعر قلبي بحرقة اوجع . ولكن ...

برينيس — اكمل .

تيتوس — واحرّ قلباه !

برينيس — تكلم .

تيتوس — روما ... الامبراطورية ...

برينيس — ماذا ؟

تيتوس — لنخرج ، پولان : لا استطيع ان اقول لها شيئاً .

المنظر الخامس

برينيس ، فينيس

برينيس — كيف ؟ ايتركني بهذه السرعة ، ولا يقول لي شيئاً ابداً ؟ عزيزتي فينيس ، اوّه ! يا للحديث البغيض ! ماذا فعلت ؟ ماذا يريد ؟ وما يعني هذا السكوت ؟

فينيس — أحار مثلك كلما فكرت فيه . ولكن الا تذكرين شيئاً يا سيدتي قـد يمكن ان يؤلبه عليك ؟ انظري ، تبيني .

برينيس — واأسفاه ! بامكانك ان تصدقيني : كلما اردت ان أخطر على بالي ذكرى الماضي ، من يوم رأيته الى هذا اليوم الكئيب يخيّل اليّ اني ملومة على هـــذا الفيض من الحب . ولكنك كنت تصغين الينا . لا ينبغي ان تطوي عني شيئاً

ابداً : تكلمي . ألم أفه بشيء قد يسوءه ؟ وما يدريني ؟ لعلّي اسرفت في الاستخفاف بهداياه ، او في تبكيت ألمه . اليس ذلك انه يخشى كره روما ؟ لعله يخشى ، يخشى ان يتزوج ملكة . واحسرتاه ! ان صح هـذا ... ولكن لا ، لقد طمأن حبي مئة مرة من شرائعهم العاتية : مئة مرة ... آه ! فليوضح لي هذا السكوتَ الممض : لا التقط انفاسي في هذا الارتياب . انا ، قـد اعيش ، فينيس ، واستطيع ان افكر انه يهملني ، وانه وسعني ان اسيء اليه ؟ لنعد في اثره . على اني اظن حين انعم النظر اني اتبين مصدر هذا الاضطراب ؛ فينيس : لعله على علم بكل ما جرى ؛ لعل حب انتيوكوس قد آذاه . بلغني انه ينتظر ملك الكوماجين (١) . لا نتحرَّ في غير هذا علة عنائي ابدا . ولا شك ان هذا الغم الذي اثار مخاوفي ما هو الا ريب طفيف لا يصعب تهدئته . لا اطري لك ابداً هذا النصر الواهن (٢) ، يا تيتوس . آه ! ليت منافساً اقوى منك يحاول مودتي واخلاصي من غير ان ينتقض من مجدك ، ويستطيع ان يضع على قدمي اكثر مما تضع من الممالك ، ويكافىءُ شغفي وهيامي بعدد لا يحصى من التيجان (٣) ، ويا ليت حبك لا يملك غير نفس يجود بها . حين ذاك ، ايها الحبيب تيتوس ، ترى وانت محبوب مظفر ، مكانة قلبك مني . هيا ، فينيس ، كلمة قد تترضّاه . لتطمئن يا قلب ، فمازلت قادرة على نيل رضاه . لقد عجلت في اعتبار نفسي في عداد الاشقياء . ان يكن تيتوس غيوراً ، فتيتوس عاشق .



(١) انتيوكس (٢) اي انتصارها على حب انتيوكوس (٣) الأصل : من الصوالجة

الفصل الثالث

المنظر الاول

تيتوس ، انتيوكوس ، ارزاس

تيتوس — ماذا ؟ ايها الأمير ، أكنت ترحل ؟ اي سبب فاجيء اعجل رحيلك ، وبالأحرى فرارك ؟ اكنت تريد ان تخفي عليّ حتى وداعك ؟ اتترك هذه البلاد عدوًّا ؟ ماذا سيقول معي القصر ، وروما ، والامبراطورية ؟ ولكن ، على اعتبار اني صديقك ، اي شيء ليس لي ان اقوله ؟ مـاذا تأخذ عليّ ؟ ألم اجعل لك الى الآن ميزة بين الملوك ؟ لقد فتحت لك قلبي مـا عاش ابي : كان ذلك الهبة الوحيدة التي في مكنتي ان اسديها اليك . فحـين تستطيع يدي ما يستطيعه قلبي اراك تتجنب ما يسعى اليك من احساني ؟ فهل يتبادر الى ذهنك أني اقف تفكيري على المجد والرفعة غير ملتفت الى الماضي ، وأن اصدقائي جميعاً يلوحون لي من بعيد ككثير من الغرباء الذين لا حاجة لي اليهم ؟ انت نفسك ، ايها الأمير الذي يريد ان يهرب من وجهي ، فانا بحاجة اليك اكثر من اي وقت آخر .

انتيوكوس — انا ، مولاي ؟

تيتوس — انت .

انتيوكوس — وا اسفاه ! ما تنتظر من امير تاعس غير التمنيات يا مولاي ؟

تيتوس — لم أنس ، ايها الأمير ، أني مدين بنصف انتصاري لاعمالك الباهرة ، وأن روما استعرضت بـين المغلوبين كثيراً من الأسرى الرازحـين في اغـلال انتيوكوس ، وانها رأت في الـكابيتول (١) اسلاب اليهود التي انتزعتها بيديك . لا انتظر منك احدى هذه المفاخر الدامية ، ولا اريد الآن الا ان استعير صوتك . أعلمتَ ان برينيس مدينة لك وتعتقد انها تملك فيك صديقاً صدوقاً . فهي لا ترى في روما ولا تسمع احداً غيرك . فما انت ونحن الا قلب واحد ونفس واحدة . فابذل مالك عندها باسم الصداقة الوثيقة الرائعة من نفوذ . قابلها عني .

(١) قلعة على احدى هضاب روما كانوا يتوّجون فيها الغزاة المنصورين

انتيوكوس — انا ؟ اظهر لعينيها ؟ ان الملكة تلقت الى الأبد وداعي .

تيتوس — يجب ان تكلمها كذلك من اجلي ، ايها الأمير .

انتيوكوس — آه ! كلمْها انت يا مولاي : فالملكة تعبدك . لماذا تحرم نفسك الآن لذة اعتراف بأسر القلوب ؟ انها ترتقبه ، يا مولاي ، بفارغ الصبر . اني لأضمن وانا راحل ، طاعتها . بل انها ذكرت لي انك لن تراها وانت على وشك الاقتران بها الا لاعدادها للزواج .

تيتوس — آه ! اي اعتراف عذب كان يمكن ان يثلج صدري ! ما اسعدني لو ان عليّ اداءه ! ان افراحي هذا اليوم كانت ترجو ان تنطلق ؛ ومع هذا فيجب ان افارقها اليوم ايها الأمير .

انتيوكوس — تفارقها ! انت ، مولاي ؟

تيتوس — تلك هي قسمتي . لا زواج لها ولتيتوس . لقد كنت اعلّل النفس عبثاً بأمل سائغ جميل : يجب ان ترحل غداً معك ، ايها الأمير .

انتيوكوس — ماذا اسمع ؟ يا للسماء !

تيتوس — ارث لعظمتي المرهقة . سيد العالم ، ادبّر شئونه ، في يدي اقامة الملوك وخلعهم ؛ ومع ذلك فانا لا استطيع ان اتصرّف بقلبي . ان روما الثائرة في كل زمان على ملوكها لتتكره جمالاً ناشئاً في جلالة الملك وترف القصور . وان بريق التاج والانحدار من مئة ملك لتعيبان حبي وتنفّران العيون جميعاً . ان قلبي فيما خلا هذا حرّ طليق ، فله ان يهيم كما يشاء في ظلمات الهوى لا يبالي همس العذّال ؛ وان روما لتتقبل مسرورة من يدي اوضع ما تخفيه في احضانها من جمال . لقد اذعن يوليوس نفسه للتيار الذي يجرفني . فاذا لم ير الشعب الملكة راحلة من غد ، فانها ستسمع هذا الشعب الغضوب يأتيني غداً ويطلب مني رحيلها امامه . لننقذ من هذا العار اسمي وذكراها . فان كان ولا بد من الامتثال ، فلنمتثل لمجدنا . وان تكتّمَ لساني وفراغ نظراتي منذ ثمانية ايام قد يهيئانها لهذا الحديث الشجيّ . فهي حتى في هذا الوقت ، وعلى قلقها وهيجانها ، تريد ان اشرح لها قصدي . فخفّف من غمّاء عاشق مشدوه : أعفني من هذا البيان . اذهب ، واشرح لها صمتي واضطرابي ؛ واجنبني بخاصة ان اقابلها . لتشهد وحدك دموعها ودموعي ؛ احمل اليها وداعي وتقبل وداعها . لنجتنب كلانا ، لنجتنب مشهداً بغيضاً قد يبهظ

ما بقي لنا من ثبات وصبر . فاذا كان للامل في تملّك قلبي والحياة فيه ان يلطّف من شقائها ، آه ! فأقسمُ لها ايها الأمير اني مقيم على الوفاء ، منتحب في بلاطي ، اكثر منها تشرداً ، ولن يفارقني حبها حتى اوسّد الثرى ، ولن يكون حكمي غير نفي طويل ، اذا لم تشتف السماء بمـــا خطفتها مني فكتبت عليّ ان اشقى كذلك بطويل الحياة . انت الذي لا يدفعك وراءها غير المودّة ، لا ينبغي لك ان تتخلّى عنها ساعة محنتها . فلتقفل الى الشرق في اثرها ؛ وليكن ذلك نصراً لا هزيمة ؛ لتكن لمثل هذه الصداقة الرائعة روابط خالدة ؛ ولأكن من بالكما ، ولتذكراني دواماً . سيكون الفرات حداً لمملكتيكما لتصبحا اكثر تقارباً . واني لاعلم ان المجلس الذي ملأ سمعه ذكرك سيؤيّد بالاجماع هذه العطية : اني اضمّ كليكيا الى بلادك . وداعاً : لا تفارق ابداً اميرتي ، ملكتي ، منية قلبي الوحيدة ، تلك التي أحبها الى النفس الأخير .

المنظر الثاني

انتيوكوس ، ارزاس

ارزاس — هكذا تأهّبُ السماء لانصافك . سترحل يا مولاي ، ولكن صحبة برينيس . لن يغصبوها منك ، بل سيُسلمونها اليك .

انتيوكوس — ارزاس ، دعني اتنفس . ان هذا التغيّر لعظيم ، ان مفاجآتي لبالغة . تيتوس يودع بين يدي كل ما يحب ؟ أ أثق ايها الآلهة العظـام بما قد سمعت ؟ واذا وثقت فهل لي ان اغتبط ؟

ارزاس — ولكن ، انا نفسي . يا مولاي ، ما ينبغي لي ان اصدق ؟ اي عثرة جديدة تعترض سرورك ؟ هل كنت تخادعني منذ قليل لدى خروجنا من هـــذه الاماكن ، حين كنت لا تزال متأثراً بوداعك الأخـير ، فكان قلبك يروي لي ما جدّ من جرأتك ، وهو راجف من اقدامه على التعبير امامها عمـــا في نفسك ؟ لقد كنت تفر من زواج تُرعَدُ له اوصالك . لقد فُضّ هذا الزواج : فأي شاغل يكدرك ؟ اتبع لطيف الافراح حيث الحب يدعوك .

انتيوكوس — ارزاس ، اراني مكلفاً بمرافقتها ؛ سأتمتع طويلاً بأحاديثهـــا الغالية ، بل ان عينيها قد تألفان عيني ؛ ولعل قلبها يلمس الفارق بـــين برود تيتوس

وأواري . انني انوء هنا بعظمة تيتوس : كل شيء في روما يستخفي بجانب بهائه ؟ ولكن الشرق وان زخر بذكراه ، فبرينيس لابد واجدة فيه شيئاً من أبهتي ومجدي .

ارزاس — لا ريب في ذلك ، مولاي . فكل ما تتمناه يتحقق .

انتيوكوس — آه ! كم نسر فيما نغالط به انفسنا !

ارزاس — ولماذا نغالط ؟

انتيوكوس — ماذا ؟ ايمكن ان احظى منها بحسن القبول ؟ ألن تناسب رغباتي العداء؟ السكن برينيس بكلمة برحائي ؟ ايتبادر الى فكرك ان الجاحدة تسمح لي وسط احزانها حين يصد العالم اجمع عن محاسنها ان اذرف لأجلها الدموع ، او انها تتضع فتتقبل عناية يلوح انها مدينة لحبي بها ؟ .

ارزاس — ومن يستطيع ان يخفف من بلائها خيراً منك ؟ سيأخذ حظها وجهة اخرى ، يا مولاي . لقد تركها تيتوس .

انتيوكوس — واسفاه ! لن يعود علي هذا التغيّر الا بألم جديد حين تكشف دموعها مدى حبها اياه . سأراها تنتحب ، وسأرثي لها بنفسي ، وستكون ثمرة كثير من الحب ان يعهد الي باجتناء دموع ليست من اجلي .

ارزاس — واعجبا ! الا ترتاح لغير الهموم يتبع بعضها بعضاً ؟ هل شوهد قط في قلب كبير اكثر من هذا الوهن ؟ افتح عينيك ، مولاي ، ولنفكر فيما بيننا في الاسباب الكثيرة التي تجعل برنيس لك . فاذ ليست لتيتوس اليوم رغبة في استمالتها فلا يغيبن عن بالك ان اقترانك بها اصبح ضرورياً لها .

انتيوكوس — ضرورياً !

ارزاس — امنح دموعها بضعة ايام ، دع زفراتها الاولى تسير في مجراها : كل شيء سيكون في جانبك : الغيظ ، النقمة ، غياب تيتوس ، الزمن ، حضورك ، ثلاثة صوالجة (١) لا تقوى وحدها على صيانها، تجاور مملكتيكما اللتين تسعيان الى الاتحاد، المصلحة ، العقل ، الصداقة ، كل شيء يربط بينكما .

انتيوكوس — نعم ، لقد سرّي عني ، يا ارزاس ، وأعدتَ اليّ الحياة : ارتضي وانا

(١) جمع صولجان : عصا الملك .

مسرور فألا سائغاً جميلا . فيم نتمهل ؟ لنقم بما ينتظر منا . لندخل على برينيس ، ولنبيّن لها كما أمرنا ان تيتوس قد هجرها . ولكن أجمل بنا ان نبقي (١) . ماذا كنت فاعلا ؟ ارزاس ، هل من شأني ان آخذ على عاتقي هذه المهمّة القاسية ؟ اعن فضيلة ام عن حب ، ان قلبي منهـا لينفر . من فمي تسمع برينيس الحبيبة بخـبر هجرهـا ! آه ! ايتها الملكة ، ومن كان يخطر في باله ان هـذه الكلمة ستلقى يوماً عليك !

ارزاس — ستقع الضغينة بكاملها على تيتوس : مولاي ، انما انت تتكلم برجاء منه .

انتيوكوس — كلا ، لن نراها . لنحترم آلامها : كثيرون غيري سيأتون ليروا لهـا سوء حالها . الا يكفيها شقاءً ان تعرف اي احتقار اراده لها تيتوس ، فلا يبلغها هذا الاحتـقار الا بلسان منافسه ؟ مرة أخرى : لنهرب : ولا نتحمل بهـذا الخبر بغضاء باقية .

ارزاس — أوه ! ها هي ذي ، مولاي : لنشجع .

انتيوكوس — يا للسماء !

المنظر الثالث

برينيس ، انتيوكوس ، ارزاس ، فينيس

برينيس — ماذا ؟ مولاي ! ألمّا تذهب ؟

انتيوكوس — سيدتي ، ارى خيبتك جيداً ، فأنت انما تبحثين عن القيصر . ولكن لا تلومي غـيره اذا كنت على وداعي ما ازال أولم عينيك . لعلي اكون الآن في أستيا (٢) لولم يمنعني من الخروج من بلاطه .

برينيس — انه لا ينشد سواك ، وهو يتحامانا جميعاً .

انتيوكوس — انه لم يستبقني الا ليخاطبني فيك .

برينيس — فيّ ، ايها الأمير !

انتيوكوس — نعم ، سيدتي .

برينيس — وماذا قال لك ؟

---

(١) لاحظ تردّده . (٢) أستيا ميناء روما الذي سيبحر منه انتيوكوس .

انتيوكوس — آلاف غيري يستطيعون ان يخبروك خيراً مني .

برنيس — كيف ؟ مولاي . . .

انتيوكوس — أمسكي عن غيظك . سواي اذ يَبِدُ عليه السكوت في مثل هذه الحال ربما زها واستجاب واثقاً جذلاً لما تبدين من جزع . اما انا الذي لا يفارقني الوجل ، انا الذي استحبُّ راحتك ، كما تعلمين ، على راحتي ، فانني افضل لئلا اعكر صفوها ان اسوءك ، وأخشى ألمك اكثر مما اخشى غضبك . وداعاً سيدتي .

برنيس — يا للسماء ! يا له من حديث ! لا تذهب . ايها الأمير ، كثير ان اكتمك قلقي واضطرابي . امامك ترى ملكة والهاً تسألك كلمتين والموت في صدرها . تقول انك تهيب ان تعكّر صفوي ، مع ان رفضك القاسي لا يألوني عذاباً ، بل يهيج ما بي من آلام وسخط وبغضاء . مولاي ، اذا كانت راحتي عزيزة عليك ، اذا كنت في يوم من الأيام اثيرة لديك ، فخفف ما ترى فيه روحي من عناء . ماذا قال لك تيتوس ؟

انتيوكوس — أنشدك الآلهة يا سيدتي . . .

برنيس — واعجبا ! أإلى هذا الحد تُصغر معصيتي ؟

انتيوكوس — ما عليَّ الا ان اكلمك لأبوء بمقتك .

برنيس — لتتكلمنَّ .

انتيوكوس — يا للآلهة ! يا لها شدة ! سيدتي مرة اخرى ، ستحمدين سكوتي ...

برنيس — ايها الأمير ، أرضِ من الآن رغباتي ، او تأكد من كرهي الى الأبد .

انتيوكوس — سيدتي ، اما اذ امرت فلا بدَّ من الكلام . حسن ، تلك ارادتك ، يجب ارضاؤك : ولكن لا تعلّلي النفس بالآمال : سأنبئك بفواجع لعلك لا تجرئين على التفكير فيها . اعرف قلبك : يجب ان تتوقعي الصفع على ارق جوانبه . لقد تقدَّم اليَّ تيتوس . . .

برنيس — فيمَ ؟

انتيوكوس — في ان ابين لك انه يجب ان يفترق احدكما عن الآخر الى الأبد .

برنيس — نفترق ؟ من ؟ انا ؟ تيتوس عن برنيس ؟

انتيوكوس — يجب ان انصفه امامك . كل ما يمكن للحب اليائس ان يجمع من فظاعة وهول في قلبٍ شفوق خيِّر ، لقد رأيته في قلبه . انه ليبكي . انه ليهيم فيك هياماً ،

ولكن ماذا يجدي عليه اخيراً ألا" يزال يحبك ؟ الملكة موضع ظـــنة في المملكة الرومانية . يجب ان تفترقا ، وان ترحلي غداً .

برنيس — أن نفترق ! اواه ، فينيس !

فينيس — سيدتي ، يجب ان تكشفي هنا عن عظمة نفسك . لا شك انهـا ضربة قاسية ، من شأنها ان تطير صوابك .

برنيس — بعد كثير من الأيمان ، تيتوس يهجرني ! تيتوس الذي كان يحلف لي... كلا ، لا استطيع ان اصدق هذا : ما هو بتاركي فالأمر يمس شرفه . يريدون ان يخبروني بما ينتقص براءته . لم تنصب هـــذه الحالة الا لتفسد بيننا . ان تيتوس ليحبني . تيتوس لن يريد هلاكي . هيا بنا نره . اريد ان اكلمه لساعتي . هيا .

انتيوكوس — كيف ؟ هل يمكن ان تنظري الي" هنا . . .

برنيس — انك تتمنى هذا الأمر تمنياً لا سبيل معه لاقناعي . كلا ، لا اصدقك ابداً ولكن مهما يكن من امر ، احترز الى الأبد من الظهـور امامي . « تخاطب فينيس » لا تتخلّي عني في حالتي هذه . ياويح قلبي ! اعمل ما بوسعي لأغالط نفسي .

المنظر الرابع

انتيوكوس ، ارزاس

انتيوكوس — الا يضل" بي الفكر ابدا ؟ هل اصغيتُ جيداً اليها ؟ يجب ان أحـذر ، انا ، أن اظهر امامها ! سأحاذر جيداً . اما كنت ارحل لولم يؤخرني تيتوس بالرغم مني ؟ لا شك ، يجب ان ارحل . لنستمر" ، ارزاس . تخال انها تتعمّني وتؤلمني : ان بغضاءها لتسدي الي" احساناً . كنت تراني منذ هنيهـــة قلقاً شارد اللب : كنت ارحل صبّاً متيما ، غيُوراً ، يئوساً ؛ والآن ، ارزاس ، بعد هـذا الصّدود ، لعلي ارحل خالي البـال .

ارزاس — ما وجب ان تبقى كما وجب اليوم .

انتيوكوس — انا ، ابقى لأحتقَر ؟ اا كون مسئولا عن فتور تيتـوس ؟ أوجازي في اجرامه ؟ بأي جور واي فظاعة تشك" امامي بصدق روايتي! تقول ان تيتوس يحبها واني اغرّر بها . يالنا كرة الجميل ! تتهمني بهذا الخداع ! وفي اي وقت كذلك ؟ في

الوقت النكد وانا ابسط امام عينيها ادمع منافسي ، وانا ابرزه لها ، تفريجاً لكربها، عاشقاً مقيماً على حبها ، ولربما اكثر مما هو عليه حباً .

ارزاس — بأي هم ، مولاي ، تشغل بالك ؟ دع لهذا السيل وقتاً يتبدد ، في ثمانية ايام ، بعد شهر ، لا ضير ، يجب ان يمر . ولكن ابق .

انتيوكوس — كلا ، انني تاركها يا ارزاس ؛ والا فأنا اشعر بالتوجع لألمها : مجدي ، راحتي ، كل شيء يحثني على الرحيل . هيا ؛ ولنتجنب القاسية من بعيد . ينبغي الا نحدث عنها زمناً طويلا . ومع هذا (1) ، لا يزال عندنا فسحة من النهار : سانتظر عودتك في قصري. اذهب وانظر لعل الألم لم يستبد بها . بادر ؛ ولنرحل متثبتين من حياتها على الأقل .



(1) لاحظ تقلبه السريع

الفصل الرابع

المنظر الاول

برينيس « وحدها »

ألن تأتي فينيس ؟ ايتها اللحظات العصيبة ، كم تبدين متتأنية لرغباتي العاجلة ! اني لأرتعد ، وابادر ذابلةً مكدّةً ؛ القوة تخذلني ، والسكينة ترديني . الن تأتي فينيس ؟ آه ! كم يروع القلبَ طول هذه الطيّرة الناحسة . اما من جواب تأتيني به فينيس ؟ تيتوس ، تيتوس الجاحد لا يريد ان يستمع لها ابداً : انه ليفرّ ، انه ليتوارى من غيظي الحقّ .

المنظر الثاني

برينيس ، فينيس

برينيس — عزيزتي فينيس ، خيراً ! هل رأيت الامبراطور ؟ ماذا قال ؟ هل سيأتي ؟

فينيس — نعم ، رأيته يا مولاتي ، وقد صوّرت له اضطراب نفسك . رأيت دموعه تسيل وكان يريد لو يحبسها .

برينيس — هل يأتي ؟

فينيس — لا يخامرك في ذلك شك ، سيأتي . ولكن اتريدين ان تظهري في هـــذا الاضطراب البالغ ؟ اسكني يا مولاتي وأبصري رشدك . دعيني أقم هذه الخمُر المسترخية ، وأكفّ هذا الشعر المتشعّث الذي يحجب عينيك . ائذني لي ان اصلح ما افسده منك البكاء .

برينيس — خلّي عنك ، خلّي عنك ، فينيس ، سيرى ما صنعت يداه . وما أفيد ، واأسفاه ، من باطل هذه الزينات ؟ اذا كان اخلاصي ، اذا كانت عبراتي ، اذا كانت حسراتي ، ولكن ماذا اقول ؟ عبراتي ؟ بل اذا كان هلاكي الأكيد ، اذا

كان موتي الذي بالمرصاد اخيراً لا يُبعده ؟ الا خبرني ما هي ثمرة كلامك الباطل ، وكلّ هذا السناء الطفيف الذي لا يمسّ منه الشعور ؟

فينيس — لِمَ توجّهين اليه جائر اللوم ؟ أسمعُ ضجة يا سيدتي ، الامبراطور يقترب . تعالي ، اهربي من الحفل ، ولنعد على عجل . ستحدثينه وحيداً في شقتك .

المنظر الثالث

تيتوس ، پولان ، تبَع

تيتوس — پولان ، فرّج من كرب الملكة . سأراها . اريد بعض العزلة . فليتركوني.

پولان — ايتها السماء ! لكم اخشى هذا العراك ! ايها الآلهة العظام ، أنقذوا مجده وشرف الدولة . لِنَرَ الملكة .

المنظر الرابع

تيتوس وحده

خيراً ! تيتوس ، ماذا جئت تصنع ؟ برينيس تنتظرك . اين تأتي ، ايها المتهوّر ؟ هل اعددت وداعك ؟ أترويت جيداً ؟ هل وعدك القلب بقساوة كافية ؟ وذاك انه في هذه المعركة التي تتهيأ لك ، قليل ان تكون ثابتاً عازماً ، ولا بدّ لك ان تكون بربرياً قاسياً . أاحتمل هاتين العينين الماهرتين ، بما لهما من فتور عذب ، في اكتشاف ما لقلبي من سبل ؟ حين ارى هاتين العينين المسلحتين بالجمال والسحر ترمقاني لتضنياني بعبراتهما ، ترى هل اذكر حين ذاك واجبي الناصب ؟ هل اقوى على ان اقول اخيراً : « لا اريد ان اراك ابداً ، جئت اطعن فؤاداً يحبني واعبده ؟ » ولماذا اطعنه ؟ بأمر مَنْ ؟ بأمري . اذ هل عبّرت روما عن مرادها ؟ هل نسمعها تصيح حول هذا القصر ؟ هل اشفت الدولة على الهاوية ؟ الا استطيع ان انقذها بغير هذه التضحية ؟ الكل صامت ؛ انا وحدي اذ أحثّ الخطا الى ما يكدّر حياتي ، أعجلُ بلايا بمقدوري ان اؤجلها . ومن يدري اذا كانت روما وقد نزلت فضائل الملكة منها منزلاً حسناً ، لا تريد ان تضمّها بين ابنائها ؟ ان روما باختيارها هذا لتزكّي اختياري . لا ، لا ، مرة اخرى ، لا نستعجل شيئاً . لتضع روما في كفة الميزان شرائعها ، وفي الأخرى

دمعاً غزيراً ، وحباً خطيراً ، ووفاءً كبيراً . روما ستكون في جانبنا ... تيتوس ، افتح عينيك ! اي هواءٍ تتنسّم (١) ؟ ألستَ في هذه الحال ، حيث لا يمكن ان تمّحي ، رغباً او رهباً ، بغضاء الملوك المرتشفة مع اللبن ؟ لقد لفظت روما حكمها في مَلِيكتك حين حكمت على ملوكها . ألم تسمع هذا الصوت منذ نعومة اظفارك ؟ ألم تصغ الى آله الشهرة يعلمك واجبك حتى وانت في جيشك ؟ وحين قدمت برينيس وراءك ، الم تسمع حكم روما فيها ؟ هل يجب اذاً ان يعاد هذا مرات كثيرةً على مسمعك ؟ آه ! ايها التعس الجبان ، اتبع هواك وتخلَّ عن المملكة : اذهب الى اقصى العالم اذهب ، بادر الى الابتعاد ، وأفسح المجال لقلوب اجدر منك بالسلطان . اهذه هي خطط العظمة والمجد التي من شأنها ان تخلّد ذكري في القلوب ؟ لقد تقلدت الملك منـــذ ايام ثمانية ، فماذا فعلت ، الى اليوم ، في سبيل المجد ؟ كل ما فعلت فللحب . اي حساب اقـــدم عن وقت جد ثمين ؟ اين هي تلك الأيام الرخية التي منّيتهم بها ؟ اي دموع كفكفتها ؟ في اي عيون مسرورة ذقت ثمرة احساني ؟ هل رأى العالم تغيراً في أنصبائه (٢) ؟ هل اعلم حظي المقسوم من الايام ، ومن هذه الايام القليلة التي طال انتظارها ، آه ! ايها الشقي ، كم اضعت الى الآن (٣) . ما يكون لنا ان نتأخر : لنفعل ما يقتضيه الشرف ؛ لننقض الرباط الوحيد ...

المنظر الخامس

برينيس ، تيتوس

برينيس « وهي خارجة » — كلا ، اقول لكم دعوني . عبثاً تمسكني هنـا نصائحكم جميعاً : يجب ان اراه . وا ، مولاي ! هأنتذا . احقٌ اذاً ان تيتوس هاجري ؟ يجب ان نفترق ؛ وهو الذي امر بذلك .

تيتوس — لا تعنّتيني (٤) يا سيدتي اميراً بائساً . لا ينبغي لنا نحن الاثنين ان نتأثر هنا . يكفي ما يعصف بي ويفترسني من عذاب ، فلا تمزّقني كذلك عبرات عزيزة جداً . واولى بك ان تستردّي هذا القلب الذي طالما علمني صوت واجبي . هـذا وقته . أكرهي الحب على السكوت ؛ وانظري الى كل ما في واجبي من عنف بعين يثيرها

(١) تتنفس . لا حظ تردّده . (٢) جمع نصيب (٣) ينظر الشاعر الى كلام تيتوس : كان اذا مرّ عليه يوم لم يفعل فيه معروفاً ، يقول : « لقد اضعت يومي » (٤) ترهقني تعذيباً .

المجد والرشد . بُنيّتي انت نفسُك قلبي امامك ، اعينيني ، اذا امكن على قهرضعفي ، على ضبط دموع لا تني تُفلتُ مني ؛ واذا عجزنا عن ان نسيطر على دموعنا ، فليكن حب المجد في الاقلّ عونا لنا في آلامنا ، وليتبيّن العالم بلا جهد عبرات امبراطور وعبرات ملكة . وذاك انه ، يا اميرتي ، يجب اخيراً ان نفترق .

برينيس — أوّهْ ! يا قاسي ، هل آنَ ان تصرّح لي به ؟ ماذا فعلتَ ؟ واسفاه ! لقد خُيّل اليّ انني أُحَبّ . ان نفسي التي الفت نعيم رؤيتك لم تكن لتحيا الا من اجلك. هل كنت تجهل شرائعكم عندما بُحتُ لك بهــذا لأول مرة ؟ الى اي حب بالغ قدتني ! لماذا لم تقل لي : « ايتها الأميرة المنكودة الحظ ، اين ترتبطين ، وما هو املك ؟ حذار ان تهبي قلبا لا يمكن تقبّلهُ . » ألم تتسلمه ، يا قاسي ، الا لتعيده وهو لا يريد ان يمتثل لسواك ؟ لقد تآمرت علينا المملكة بأجمعها عشرين مرة ؛ وكان الفراق لا يزال ممكناً : فلم لم تتركني حين ذاك ؟ الف عزاء كان فيه سلوان احزاني : اذاً لَلُمت اباك على موتي ، اذاً لَلُمت الشعب ، المجلس ، الامبراطورية الرومانية جمعاء ، ولم ألُمْ يداً عزيزة حبيبة . فقد كانت بغضاؤهم التي صرّحوا بها منذ امد طويل قـد هيأتني لتحمل شقائي منذ ذلك الحين . اذاً لما تلقيتُ يا مولاي هذه الطعنة النجلاء ، غداة ارجو أن نكون اسعد السعداء ، حين يستطيع حبك الميمون ان يفعل ما يشاء ، حين لزمت روما الصمت ، حين قضى ابوك نحبه ، حين ينحني العالم اجمع على ركبتيك ، واخيراً حين ليس لي ما اخشاه سواك .

تيتوس — وانا وحدي كذلك كنت مالك امري . كان بامكاني ان اعيش حين ذاك وأدَعَ نفسي تعمه في الضلال . كان قلبي يحاذر التطلعَ الى المستقبل وتبيُّنَ ما قد يفرق بيننا يوماً ما . وكنت اريد الا يواجه رغباتي شيء لا يغلب ؛ لم اكن لاتبصر في شيء ، كنت ارجو المستحيل . وما يدريني ؟ كنت آمُل ان اقضي امام عينيك قبل ان اتجرّع مرّ هذا الوداع . ولكأن المصاعب قد اجدّت جذوة حبي . لقد تكلمت المملكة جميعها ؛ غير ان المجد يا سيدتي لم يكن بعد قد رنّ في قلبي بالنغمة التي يكلم بها قلب امبراطور . اعرف جميع الآلام التي يسلمني اليها هذا العزم ، واشعر جيداً بأنني لن استطيع من دونك حياةً ، وان قلبي على وشك ان يفر من اضالعي ؛ على ان الأمر ليس امر حياة ، بل امر دولة وملك .

برنيس — حسناً ! املك ايها القاسي ؛ أرض مجدك : لن اجادل . وانما كنت انتظر لتصديقك، هذا الفم نفسه فرض عليّ غياب الأبد، وهو يعترف امامي بحنثه وغدره، بعد الف قسم على حب كان يجب ان يجمع حياتينا . أردت ان اسمعك بنفسي في هذا المكان . لن اصغي الى شيء ؛ وداعاً الى الأبد .

الى الأبد ! آه ! مولاي ، هل فكرت في نفسك كم ان هذه الكلمة الجافية كبيرة على المحبين ؟ بعد شهر ، بعد عام ، كيف نرضى يا مولاي ان تباعد بيننا بحار وبحار ؟ وأن يعود النهار وينقضي النهار من دون ان يرى تيتوس برنيس ابداً ، ومن دون ان ارى طول يومي تيتوس ؟ ولكن يا لضلالي ، ويا لضيعة آمالي ! ايتفضل الجاحد فيعد ايام غيابي وقد سلا قلبه سلفاً عن رحيلي ؟ هذه الايام التي تبدو لي جد طويلة ستبدو له جد قصيرة .

تيتوس — لن تطول حياتي كثيراً يا سيدتي . وآمل ان تحملك الاقدار عن قريب على الاعتراف بانك كنت حبيبة القلب ومالكته ، سترين تيتوس لم يستطع من دون ان يلاقي حتفه ان . . .

برنيس — واهاً ! مولاي ، ان صحّ هذا ، ففيم نفترق ؟ لن اسألك زواجاً سعيداً : هل حكمت روما علي الا اراك ابداً ؟ لماذا تأبى علي الهواء الذي تتنسم ؟

تيتوس — وا اسفاه ! انت وما شئت ، يا سيدتي . أقيمي : لن اعارض ؛ بيد أنني أشعر بضعفي : سيكون علي ان اجاهد هواك وان اخشاه بلا فتور ، وان أعنى على الدوام بوقف خطاي التي تجرها محاسنك اليك في كل آن . ماذا اقول ؟ ان قلبي هذه اللحظة ينسى نفسه ويخطئ رشده ولا يذكر من امر سوى انه يحبك .

برنيس — واذن ، مولاي ، واذن ! وماعسى ان يكون من هذا ؟ هل ترى الرومانيين على وشك ان يتمردوا ؟

تيتوس — ومن يدري بأي عين سينظرون الى هذه الاهانة ؟ اذا تكلموا ، اذا أعقب التذمر صياح ، فهل الجأ الى الدماء اجوّز بها ما اخترت لنفسي ؟ اذا ركنوا الى السكوت ياسيدتي وباعوني نظمهم، فلأي امر تعرّضينني ؟ اي مراضاة سيتوجب علي ذات يوم ان اؤدي بها ثمن حلمهم وصبرهم ؟ اي شيء لا يجسرون حين ذاك على ان يطلبوه مني ؟ هل لي ان احافظ على نظم اضيق صدراً بصونها ؟

برنيس — انت لا تقيم لعبرات برنيس وزناً .

تيتوس — لا اقيم لها وزناً ؟ يا للسماء ! يا لضيعة الأنصاف !

برنيس — كيف ؟ أمن اجل قوانين جائرة في يدك ان تغيرها تغمر نفسك في كرب لا ينقضي ؟ لروما حقوقها ، يامولاي : اليس لك حقوقك ايضاً ؟ هل تكون مصالحها اقدس من مصالحنا ؟ قل ، تكلم .

تيتوس — اواه ! كم تمزّقيني ألماً !

برنيش — مولاي ، امبراطور ، وبكي ؟

تيتوس — نعم ، سيدتي ، هو كذلك ، ابكي ، اتأوه ، ارتعد . غير ان روما على كل حال اخذت علي موقفاً حين قبلت المملكة ان اصون حقوقها : يجب ان اصونها . لقد سبق ان عجمت روما أكثر من مرة نبعات (١) امثالي . وان انت ارتفعت الى زمان انشائها رأيتهم ممتثلين على الدوام اوامرها . فأحدهم دفعه البرّ في يمينه الى ان يذهب الى الاعداء ساعياً الى ما أعد له من عذاب وموت (٢) . والآخر ضرب عنق ابنه الظافر (٣) ؛ والثالث رأى ولديه يموتان بأمر منه وعيناه لا تعبّران بل تكادان لا تعبأ ان (٤) . تعساء ! ولكن الوطن والمجد يكسبان النصر بين الرومانيين على الدوام . أعلم ان الشقي تيتوس يجاوز بفراقك قساوة فضائلهم كلها . وانها لا تدنو ابداً من هذا الجهد الكبير . ولكن ، هل تظنينني يا سيدتي على كل حال غير جدير ان أذرّ للاجيال الآتية أسوة حسنة صعبة المنال ؟

برنيس — كلا ، اعتقد ان كل امر سهل على بربريتك ؛ اعتقد انك اهل ، ايها الجاحد لان تنزع مني الحياة . لقد بات القلب على علم بكل عواطفك . لن اكلمك في

---

(١) عجمت نبعاتهم : جرّبتهم

(٢) هو ريجولوس ، القنصل عام ٢٦٧ وعام ٢٥٦ ق م ؛ وهو احد هؤلاء الشيوخ الكرماء المعروفين في روما بفضلهم والذين يمكن ان نوجز عواطفهم بكلمتين : حب الوطن ، مثل الشيخ هوراس احد ابطال الرواية المعروفة باسمه . وقد وقع ريجولوس اسيراً في قرطاجنة ، ثم ارسلته الى روما بعد ان وعد بالرجوع ، حالما تنتهي مهمته في اقناع امته بترك الحرب وتبادل الاسرى مع الاعداء ، وقد عاد الى قرطاجنة ليفي بعهده رغم تضرع زوجته واولاده وتوسل اصحابه ، حيث كان التعذيب والموت في انتظاره لانه لم ينصح قومه الا بالاستمرار في حرب قرطاجه

(٣) هو مانليوس توركاتيوس ، امر بقتل ابنه الذي انتصر في معركة لم يستأذن رؤساءه عليها !

(٤) هو زعيم الثورة التي ازاحت التركيين Les Tarquins عن الملك ، وكانوا مشهورين بقساوتهم ، واعلنت الجمهورية ، وقد امر بقتل ولديه لانهما تآمرا لاعادة الملك الى تاركان الجميل ، الملك المخلوع عام ٥١٠ ق م

أستبقائي . من ؟ انا ؟ الرضى احتمال الاهانة والهزء من شعب يكنّ لي البغضاء ؟ وانما اردت ان ادفعك حتى الى هذا الرفض . قضي الأمر ، وعما قليل لن تخافني ابداً . لا تنتظر هنا ان أنفجر لعنة وسباباً ، ولا ان أشهد السماء عدوة الخائنين لا ، اذا كانت السماء لاتزال ترثي لعبراتي فرجائي حين النزع ان تنسى آلامي . اذا كان لي امنية انتقم بها من جورك ، اذا ارادت برينيس المحزونة ان تترك قبل ان تفارق الحياة من يثأر موتها منك ، فأنا لا التمسه ، ايها العاق ، الا في خبايا قلبك . لاريب عندي أن هذا الحب العظيم لا يمكن ان يمحى منه ، وإن المي العتيد ورفقي القديم ، ودمي الذي اريد في هذا القصر ان اريقه ، كل أولئك بمثابة اعداء سأخلفها لك ؛ سأتكل عليها لتقتص لي منك ، غير نادمة على حبي ووفائي . الوداع .

المنظر السادس

بولان — تيتوس

بولان — في اي نية خرجت يا مولاي ؟ هل تأهبت اخيراً للرحيل ؟

تيتوس — بولان ، انني هالك ، لن اقوى على الحياة بعدها . تريد الملكة ان تموت . هيا ، يجب ان نلحق بها . بدار الى اغاثتها .

بولان — كيف ؟ الم تأمر منذ هنيهة ان تراقب خطاها ؟ ان وصائفها يلازمنها في كل آن ويستطعن ان يصرفنها عن هذه الافكار القاتمة . لا . لا ، لا تخش شيئاً . تلك هي اعظم الصدمات يا مولاي : استمر ، فالنصر لك . لا يخفى علي انك لم تستطع ان تصغي اليها من دون ان تأخذك الرأفة . انا نفسي لم أخلُ من ذلك لدى رؤيتها . ولكن انظر الى ابعد من هذا : فكر وانت في هذا الشقاء : اي مجد سيتبع هذا الألم ، اي هتاف يعدّه لك العالم ، واي مقام في المستقبل .

تيتوس — كلا ، أنا بربريّ عات . واني لأبغض نفسي . نيرون المقيت نفسه لم يبلغ في الفظاظة هذا المقدار . لن اسمح ان تموت برينيس . هلم ، لتقل روما مايبدو لها .

بولان — ماذا مولاي ؟

تيتوس — لا اعرف يا بولان ما اقول : فالألم يفدح روحي .

بولان — لا ينبغي ان تعكّر ذكرك الطيب . لقد سبق ان ذاع خـــبر توديعك ، فزهت روما بحق بعد ان ألمت وتحسرت ؛ ما من معبد مفتوح الا وهو يتضوع بذكرك ؛ وليرفعنّ الشعب فضائلك الى السحاب وليكللن تمـاثيلك بالغار في كل مكان .

تيتوس — آه ، روما ! آه ، برينيس ! آه ، ايها الامير الشقي ! لمَ انا امبراطور ! لم انا عاشق ؟

المنظر السابع

تيتوس ، انتيوكوس ، بولان ، ارزاس

انتيوكوس — ماذا فعلت ، مولاي ؟ ربما لفظت برينيس العزيزة انفاسها على ذراعي فينيس . انها لا تستمع للبكاء ولا للنصح ولا للعقل ؛ فهي تتوسل طالبـــة الحديد والسم الذعاف . انت وحدك تستطيع ان تصرفها عن رغبتها هذه . انهم يذكرونك ، فيعيدها ذكرك الى الحياة ؛ ولكأن عينيهـا اللتين لا تتحولان عن شقتك تطلّبـانك من حين لآخر ، هذا المنظر يقتلني فلا استطيع له احتمالاً . فيم التمهل ؟ اذهب واظهر امامها . أنقذ ما لا يحصى من الفضائل والظرف والجمال ، أو لا ، فاعدل يا مولاي عن كل ما في الانسان من رحمة ورفق . قل كلمة .

تيتوس — وا اسفاه ! اي كلمة اقول لها ؟ اأشعر انا نفسي في هذه اللحظة بترداد انفاسي ؟

المنظر الثامن

تيتوس ، انتيوكوس ، بولان ، ارزاس ، روتيل

روتيل — مولاي ، جاء القضاة والقناصل والشيوخ باجمعهم يطلبونك باسم الدولة كلها . ومن ورائهم شعب كبير ينتظر حضورك في شقتك بفارغ الصبر .

تيتوس — لقد فهمت ما ترومون ايهـا الآلهة العظام . تريدون ان تثبّتوا هـــذا القلب الذي يوشك ان يضلّ .

بولان — تفضل مولاي لندخل الغرفة المجاورة : هلم نر الشيوخ .

انتيوكوس — وبها ! بادروا الى الملكة .

بولان — واعجبا ! اتطأ بقدميك يا مولاي عن الملكة بمثل هذه الاستهانة ؟ وروما . . .

تيتوس — مه . يا بولان ، سنستمع اليهم . لا استطيع ، ايها الأمير [1] ، ان ادفع نفسي عن هذا الواجب . انظر الملكة . اذهب . آمُل في رجعتي الا يبقي لديها شك في حبي .

(١) يخاطب انتيوكوس

الفصل الخامس

المنظر الاول

ارزاس « وحده »

اين عسى ان ارى هـــذا الامير الوفي المخلص ؟ ايتها السماء ، سدّدي خطاي ، واعضدي عزمي . يسّري لي ان ازفّ اليه سعادة لعله لم يجرؤ على التفكير فيها .

المنظر الثاني

انتيوكوس ، ارزاس

ارزاس — اوه ! اي حظ سعيد اعادك الى هذه الحال يا مولاي ؟

انتيوكوس — اذا كان في عودتي ما يسرك ، فلا تشكر على ذلك غير ما في نفسي من يأس .

ارزاس — الملكة راحلة ، يا مولاي .

انتيوكوس — راحلة ؟

ارزاس — ليلتها هذه . لقد اعطت اوامرها . وانما اغضبها ان تيتوس قد تركها رهينة العبرات طويلاً . وقد اعقبها هـــذا السخط غيظاً مستعراً : لقد رغبت برينيس عن روما ، وعن الامبراطور ، بل انها لتريد ان ترحل قبل ان تشعر روما باضطرابها وتتمتع بفرارها . لقد كتبت الى القيصر .

انتيوكوس — يا للسماء ! من كان يفكر في هذا ؟ وتيتوس ؟

ارزاس — لم يظهر تيتوس امامها قط . لقد وقفت جماهير الشعب الهائجة في طريقه واحاطت به هاتفة له بالألقاب التي انعم بهـا المجلس عليه ؛ هذه الألقاب ، وهذا الاجلال ، وهذه الهتافات ، كل اولئك اصبح من اجل تيتوس بمثابة عهود تربطه يا مولاي بسلسلة مشرفة وتثبّت رغباته الحائرة على الواجب ، على الرغم من عبرات الملكة وزفراته . لقد قضي الأمر ؛ ولعله لا يراها ابداً .

انتيوكوس — ما اكثر دواعي الأمل ، يا ارزاس ، أعترف ! على ان القدر يخاتلني بشاغل لا يرحم . ما زلت ارى آمالي تخيب حتى ما تراني اصغي الى ما تقول الا واجفاً . وان قلبي ليوجس الخيفة ويخيل اليه انه يحقد القدر حين يأمل . ولكن ما ارى ؟ تيتوس يسير نحونا . ما خطبه ؟

المنظر الثالث

تيتوس ، انتيوكوس ، ارزاس

تيتوس « وهو داخل » — امكثوا : لا تلحقوا بي (١) . جئت اخيراً ايها الأمير اتحلل من وعدي . برينيس ما تفتأ تشغلني وتحزنني . جئت موجع القلب بعبراتك وعبراتها لأخفف من أحزان اقل ايلاماً من احزاني . تعال ، ايها الأمير ، تعال . اريد ان أشهدك المرة الاخيرة حبي لها .

المنظر الرابع

انتيوكوس ، ارزاس

انتيوكوس — جميل ! هذا هو الأمل الذي اعدته الي ؛ وهانتذا ترى النصر الذي كان ينتظرني . برينيس ترحل غاضبة بحق ! لقد تركها تيتوس الى غير رجعة ! ترى ماذنبي ، ايها الآلهة العظام ؟ اي حياة شقية كتبتم علي ؟ ليست اوقاتي كلها غير تردد ابدي من الخوف الى الرجاء ، ومن الرجاء الى السخط . افلا ازال اتنفس ؟ برينيس ! تيتوس (٢) ! ايها الآلهة الجفاة ! لن تهزءوا بدموعي ابداً .

المنظر الخامس

تيتوس ، برينيس ، فينيس

برينيس — كلا ، لن اصغي الى شيء . لقد صحت عزيمتي : سأرحل . لماذا تظهر امامي ؟ لمَ تأتي وتهيج أحزاني ! الست براض ! لا اريد ان اراك ابداً .

---

(١) تيتوس يخاطب حاشيته (٢) هنا يرى تيتوس وبرينيس قادمين

تيتوس — ولكن ، من فضلك ، اسمعي .
برنيس — لقد فات الوقت .
تيتوس — سيدتي ، كلمة .
برنيس — لا .
تيتوس — في اي هموم تلقين بي يا سيدتي ، أنّى هذ
برنيس — لقد قضي الأمر . اردتَ ان ارحل من غد وسأرحل .
تيتوس — أقيمي .
برنيس — ايها الجاحد ، أقيم ! ولمَ ؟ لاسمع الشعب يرفع عقيرته باهانتي ويفعم هــــذه الاماكن دوياً بشقاوتي ؟ الا يَعلاُ اذنيك هـذا السرور الغاشم ، على حين اغرق وحدي في الدموع ؟ اي إثم ، اية اساءة حرضتهم ؟ ويح نفسي ! هل نقموا مني الا أن غلوتُ في حبك ؟
تيتوس — هل تلقين سمعك ، يا سيدتي ، الى جمهور محنّق مجنون ؟
برنيس — ما من شيء هنا الا ينال مني وينتقصني . هذه الشقة التي هيأتها بمنايتـك ، هذه الحال التي طالما شهدت حبي وكأنها تؤكد لي ابد الدهر حبك ، هذه الأكاليل حيث يحتبك اسمانا والتي تمثل نُصب عيني الكئيبتين اينما يممت ، كل اولئك خداع لا اقوى على احتماله . هيا ، فينيس .
تيتوس — يا للسماء ! ما اظلمك !
برنيس — ارجع ، ارجع الى هذا المجلس المبجل الذي جاء يهتف لك على قساوتك . الاخبرني ! هل اصغيت اليه مسروراً ؟ هل انت مرتاح جهد الارتياح من مجدك ؟ هل عاهدتهم على ان تنسى ذكراي ؟ على انه لا يكفي ان تكفّر عن غرامك : فهل وعدتهم ان تكنّ لي على المدى البغضاء ؟
نيتوس — كلا ، لم أعد شيئاً . انا ، ان اكنّ لك البغضاء ! ان انسى يوماً ما برنيس ! يا للآلهة ! في اية لحظة يثير جفاؤها الظالم اشجاني بهذا الاتهام الوجيع ! اعرفي حقيقتي يا سيدتي ، وأحصي الاوقات والأيام التي اعربت لك فيها عن رغبات قلبي منذ خمس سنوات بالهيام الوصيل والزفرات الحرّى : فهذا النهار يفوق الجميع . ابداً لم يحببك القلب بمثل هذا الحنان ، اعترف بذاك ؟ ابداً . . .

برنيس — تحبني ، تؤكد لي هذا ، ومع ذلك فانا ارحل ، وبأمر منك ! واعجبا ! هل تجد فيما ينتابني من يأس بهجة وارتياحاً ؟ هل تخشى الا تذرف عيناي الا قليل العبرات ؟ ماذا تفيدني عودة هذا القلب التي لا غناء فيها ؟ آه ، ياقاسي ! حنانيك ، لا تظهر كثير الحب ، لا تذكرني ذكرى حبيبة غالية ، ودعني في الاقل ارحل موقنة انني اذ تطردني روحك في الخفاء ، انما اهجر جاحداً لا يأسف على فقدي .

((هنا يقرأ تيتوس رسالة انتزعها من برنيس وكانت قد كتبتها لتخبره بانها ستموت وتبدي رغبتها في ان تضم رفاتها يوماً ما الى رفات تيتوس))

لقد انتزعت مني ما كتبتُ ، هذا هو كل ما اتمناه من حبك . اقرأ ، ايها الجاحد ، ودعني اذهب .

تيتوس — لن تذهبي : لا استطيع ان اوافق على هذا . كيف ؟ ليس هذا الرحيل اذن غير خديعة مروعة ؟ اتسعين الى الموت ؟ ومن كل ما احب ، لن يبقى غير ذكرى حزينة ؟ ! عليّ بأنتيوكوس ، أحضروه .

« برنيس ترتمي على اريكة »

المنظر السادس

تيتوس ، برنيس

تيتوس — سيدتي ، يجب ان ادلي اليك باعتراف صادق . حين نظرتُ في الساعة المخيفه تلاحقني فيها لمفارقتك الفراق الأبدي قوانينُ واجب غاشم ، وعندما شعرت باقتراب هــذا الوداع الأليم ، وعرفتُ مخاوفي وكفاحي ودموعك وتعنيفك ، فقد اعددت نفسي لكل ما قد يدهمني من الآلام والمصائب ؛ على انني مهما أخشَ فانني لم اكشف الا عن اقل ما في الأمر ، فمن الواجب ان اذكر هـذا : كنت احسب فضيلتي اقل استعداداً لأن تزل وبخجلني ما اراها فيه من قلق . لقد رأيتُ روما بكاملها مجتمعة امامي ، وكلمني المجلس ؛ ولكن نفسي المتعبة كانت تصغي ولا تسمع ولم تقابل هياجهم بغير صمت واجم . لا تزال روما في ريب من مصيرك . انا نفسي في كل اللحظات ما اكاد اذكر انني عاهل ولا أنني روماني .



برينيس : — لقد انتزعتَ مني ما كتبت

اقبلت شطرك غير عارف قصدي : حبي كان يدفعني ؛ ولعلي اتيت لالتمس نفسي ولكي افيق من غشيتي . ماذا وجدت ؟ وجدت الموت مكتوباً على عينيك ؛ وارى انك انما تغادرين هذه الربوع في طلبه . هذا كثير . ان عذابي لدى هذا المنظر المؤلم قد بلغ اخيراً غايته واني لأشعر بجماع الآلام التي يمكن ان اشعر بها ؛ بيد أنني لا اخطئ سبيل الخلاص .

لا تنتظري ابداً ان اكفكف بقران سعيد دموعك بعد اذ ملأت بواعث الهم والخوف . ومهما تطوّحين بي ، فان مجدي الذي يأبى النسيان يحوطني ويرعاني في كل آن : انه لا يبرح يمثل بين يدي نفسي الحيرى مملكة لا تتفق وزواجك ويقول لي انه ما وجب علي ان اعدل عن الاقتران بك مثلما وجب بعد المفاخر التي نلتها والخطا التي خطوتها .

اجل يا سيدتي ؛ ولا حاجة لأن اقول لك انني على استعداد لأن اتخلى عن المملكة لأجلك ، ولأن اجري وراءك فأيمم قواصي المعمور انفث الزفرات معك مرتاحاً سعيداً باساري . اذن لأخزتك سيرتي الجبان ، ولرأيت آسفة عاهلا وضيعاً لا مملكة له ولا بلاط يتبعك ، ولطالع الآدميون مشهداً زرياً عن عزمات الحب الواهنة . هناك ، كما تعلمين طريق أبر لانجو بنفسي مما يحيق بها من عذاب : لقد هداني هذا السبيل السوي ابطال ورومانيون كثير : كانوا اذا حزّبتهم نوائب الزمان وغمّت عليهم الامور يتقبلون جور الاقدار واعتسافها ويستسلمون لخفيّ حكمها . اذا عادت دموعك فآلت تظري وراءك لا تفتئين عازمة على ان تموتي ، اذا وجب ان أرعد في كل آن خوفاً على حياتك وأبيت ان تقسمي لي على الحفاظ عليها ، فانه يجب عليك يا سيدتي ان تتوقعي دموعاً اخرى : في حالي هذه لا اربأ بنفسي ان افعل كل شيء ، وما انا بضامن ألا تدمي يداي في حضرتك وداعنا المشئوم .

برينيس — يا ويلاه !

تيتوس — كلا ، ما من شيء أحرج عن فعله . فأنت الآن مسئولة عن حياتي . فتدبرى الأمر يا سيدتي ؛ واذا كنت عزيزاً عليك . . .

المنظر السابع

تيتوس — برنيس — انتيوكوس

تيتوس — اليها الينا ايها الأمير ، لقد وجّهت في طلبك . تعال اشهد كل ما ابديه من وهن وتخاذل ؛ انظر هل آلو الحب حناناً . احكم بيننا .

انتيوكوس — اصدّق كل شيء : فانا اعرفكما جميعاً . ولكن هلا عرفت انت حقيقة امير شقي. انت شرّفتني يا مولاي باكرامك واعطامك؛ وانا - يميناً برّة لا حرج(١) فيها - لقد نازعت هذه المنزلة او في احبائك ، بل نازعتهم ببذل دمي . لقد استودعتماني حبكما على كره مني . للملكة وهي تسمعني ان تردّ قولي اذا تشاء : فانها رأتني اقابل ثقتك على الدوام بعنايتي واهتمامي ، غير فاتر عن اللهج بذكرك والثناء عليك .

ربما يلوح لك انه ينبغي ان تشكر لي ذلك ، ولكن هل يدور في خلدك في هذه اللحظة السوء ان هذا الصديق الوفي انما كان منافسك ؟

تيتوس — منافسي !

انتيوكوس — لقد آن ان اوضح لك . اجل يا مولاي، احببت دائماً برنيس ، وجهدت ألا احبها مئة مرة فأعياني سلوانها ؛ وا كتفيت بالسكوت . ان ظواهر تقلّبك الخلابة قد احيت لي ميت الأمل : ولكن عبرات الملكة مالبثت أن اخمدته . كانت عيناها الفياضتان بالدمع تطلبان رؤيتك. فرحت اناديك يا مولاي بنفسي ؛ فأتيت . انت تحبها وهي تحبك ، ورجع كل منكما الى صاحبه : هذا ما لم اشك فيه بحال . لقد شاورت نفسي للمرة الأخيرة ، ورزت(٢) لآخر مرة شجاعتي ، وناديت حلمي ان يثوب : لم اشعر قط انني اكثر حباً مني اليوم . فلا بد من جهود أخر لأفصم هذه العرى الكثيرة : وان هذا لن يتم بغير ان القى حتفي . واني لمبادر اليه . وهذا ما اردت ان اكاشفكم به .

اجل يا سيدتي ، اعدت خطاه اليك ؛ وافلحت جهودي وما انا بنادم عليها . فلتغمر السماء ايامكم بفيض السعادة الدائم ؛ واذا كانت لا تزال تدخر لكم

---

(١) لا اثم فيها (٢) راز : جرب

أثارة (١) من حنق فأنا أبتهل الى الآلهة ان تفرغ كل ما قد يهدد حياة جميلة كهذه من البلايا على ايامي التاعسة التي ابذلها في سبيلكما .

برنيس « وهي قائمة » — كفى كفى . ايها الأمير ان الخيران ، في اي عناء وحرج تلقيان بي ؟ سواء أنظرت اليك ام اليه فاني اصادف خيال اليأس رانياً في كل مكان . لا ارى غير دموع ولا اسمع الا حديث الهموم والأهوال والدماء تريد ان تسيل .

« تخاطب تيتوس »

انت عارف قلبي يا مولاي ؛ ولي ان اقول ان احداً لم يره يهفو الى الملك . وانت خبير بان عظمة الرومان ، وابهة القياصرة لم يفتنا قط انظاري . كنت احب يامولاي ، فكنت أنشد من يبادلني الحب . أعترف اني ملئت هذا اليوم جزعاً اذ خيل الي ان هواك موشك على الزوال . بيد اني عرفت خطئي ، فأنت مقيم على حبي . لقد وجب (٢) قلبك ودمعت عيناك . وما برنيس يا مولاي أهل لهذا الجزع العظيم ، ولا العالم الشقي بمستوجب ان يحرمه حبك في لحظة جميع لذاذاته حين تتطاول رغباته اليك ، وبعد ان ذاق بواكير احسانك وراح رائحة فضلك . واظن اني منذ خمسة اعوام الى هذا النهار الاخير قد أثبت لك حباً صادقاً اكيداً . ليس هذا كل شيء : اريد في هذه اللحظة الفجوع ان اتوج بجهد اخير كل ما بقي : سأعيش ، سأتبع اوامرك المطلقة ، وداعاً يا مولاي ، إملك : لن اراك ابداً .

« تخاطب انتيوكوس »

ايها الأمير ، بعد هذا الوداع ، ترى بنفسك أني لم اقبل فراق من احب لأصغي الى رغبات اخرى بعيدة عن روما . عش وابذل جهداً كريماً ، ولتأتس بي (٣) وبتيتوس . أحبه وافر منه ، وتيتوس يحبني ويتركني . إحمل زفراتك واغلالك الى مكان بعيد عني . الوداع : لنضرب نحن الثلاثة للعالم مثالاً لأشقى ما يحتفظ به التاريخ الأليم من الحب وانضره .

---

(١) بقية (٢) اضطرب (٣) إئتسى به : اقتدى به

كل شيء حاضر . هم بانتظاري . لا يُشيّعني احد .

« لتيتوس »

المرة الأخيرة ، وداعاً يا مولاي .

انتيوكوس — وا اسفاه !



فيـــدر

لراسين

اشخاص الرواية

تيزيه : — ملك أثينا

فيدر : — زوجة تيزيه ، وابنة مينوس وپاسيفاي

هيبوليت : — ابن تيزيه وانتيوب ، ملكة الأمازون

آريسي : — اميرة من الاسرة المالكة في أثينا .

تيرامين : — مربي هيبوليت .

اونون : — مربية فيدر وصديقتها « أمينة سرّها »

ايسمان : — صفيّة آريسي

پانوب : — امرأة من حاشية فيدر .

حرس

• • •

تجري الحوادث في تريزين ؛ احدى مدن البيلوپونيز

الفصل الاول

المنظر الاول

هيبوليت — تيرامين

هيبوليت : — لقد حزمت أمري ، فانا راحل ياتيرامين ، ومغادر هذا البلد الحبيب «تريزين» . ان جبيني ليندى من بطالتي مع ما يعصف بي من شكوك قاتلة . منذ اكثر من ستة اشهر باعد الزمان فيها بيني وبين ابي كنت اجهل ما حلَّ بشخصه العزيز ، بل اني لاجهل حتى الحالَّ التي قد تخفيه .

تيرامين : — أين عساك اذن يامولاي ان تبحث عنه ؟ لقد جهدتُ في الاستجابة لخوفك العدل ، فجعلت اطوف البحرين اللذين يفصلان « كورنث » ؛ وسألت عن « تيزيه (١) » شعوب هذه السواحل ، حيث نرى « الأشيرون (٢) » يغيب بين الموتى ؛ قصدتُ « إليدا » وغادرت « تينيرا » ومضيت حتى وصلت البحر الذي شهد سقوط « إيكار (٣) » . اي امل جديد يحدوك ، في اي اقاليم سعيدة يخيَّل اليك انك واجد أثر خطاه ؟ من يعلم كذلك ، من يعلم اذا كان ابوك الملك يريد أن يعرف الناس سرَّ غيبته ؟ وحين تجيفُ قلوبنا معك خوفاً على حياته ، أترى هذا البطل لا يكون ناعم البال ، كاتماً مغامرات حب جديدة ، مترقباً على الدوام عشيقة واهمة . . .

هيبوليت : — على رسلك ، ايها العزيز تيرامين ، واحترم « تيزيه » . ما كان لعائق دنيء كهذا ان يؤخره ، بعد اذ ابصر رشده ورغب عن ضلالات صباه ؛ لقد وضعت « فيدر » حداً لطيشه الوبيء ، فهي لا تخشى من منافسة منذ طويل . هذا

---

(١) ملك أثينا ، ابو هيبوليت (٢) نهر ينتهي بجراه في العالم الآخر ، حسب الميتولوجيا اليونانية التي يريد الشاعر ان يحييها في هذه المأساة . (٣) هو ابن « ديدال » ، فر معه من سجنهما في جزيرة كريت بعد أن اتخذ اجنحة من ريش وشمع . غير ان « ايكار » مازال يطير صعداً نحو الشمس حتى ذاب الشمع وتفكك الجناحان ، وهوى ذلك الطامع الغرير في البحر .

الى اني حين اشتدّ في طلبه انما اقوم بواجبي ، وأنجو بنفسي من هذه الاماكن التي اصبحتُ لا أطيق رؤيتها .

تيرامين : — واعجبا ! منذ كم ، يا مولاي ، اصبحت تخشى منظر هذه الربوع الآمنة التي تعشّقتها في طفولتك ورأيتك تستحبّ الاقامة فيها على جلبة الحياة وزهوهـا في اثينا وفي البلاط ؟ اية مخاطر بل اية مخاوف تصدّك عنها ؟

هيبوليت : — لقد ولت تلك الاويقات الهنيئة . ما من شيء إلا غيّر وجهه ، منذ بعثت الآلهة الى هذه الشواطىء بابنة مينوس وباسيفاي (١) .

تيرامين : — افهم ما تقول : ان سبب آلامك معروف لديّ . ههنا الفيـدر تؤذيك وتطرف عينيك . هذه الخالة الخطرة ما كادت تراك حتى اقامت الدليل على سطوتها ونفوذها باستبعادك . بيد أن بغضاءها التي انصبّت فيما مضى عليك قد امحت اوفترت ، فماذا عسى امرأة محتضرة تنشد المـــوت أن تحيـــق بك من اذى او تعرضك لمكروه ؟ أتستطيع « فيدر » بعد ما مسّها من ضرّ أصرّ على كتمانه ، وقـد سئمت اخيراً نفسها وهذا النهار الذي ينير سبيلها ، أتستطيع ان تفكر في شر تبيّته لك ؟

هيبوليت : — ليست بغضاؤها ما اخشاه . انا حين ارحل افرّ من عدوّ اخرى : أفر من هذه الصبية « آريسي » ، بقية ذلك الدم الخصيم الذي نهدَ لحربنا .

تيرامين : — ماذا ! أأنت نفسك يا سيدي تضطهدها ؟ هل ساهمت قط هذه الفتـاة اللطيفة ، اخت البالانتيين القسـاة ، في دسائس اخوتها الغُدُرِ ؟ وهل ينبغي لك ان تجفو جمالها البريء ؟

هيبوليت : — لو أبغضتها لما تحاميتها .

تيرامين : — أيأذن لي سيدي ان اذكر لهروبه تفسيراً ؟ أفي استطاعتـك ألا تكون بعد اليوم ذلك الامير المزهوّ الذي يناصب الحبّ عداوةً رابية ويأبى نيْرَه الذي طالما تعبدّ (٢) من قبله اباه « تيزيه » ؟ أتريد فينوسُ (٣) التي اكثرت إهانتها بتعظّمك ان تزكّي آخر الأمر اعمال « تيزيه » ؟ أتراها حين تسوي بينك وبين سائر الأحيـاء تضطرك الى ان تحرق البخور في مذابحها ؟ هل أحببتَ يا سيدي ؟

هيبوليت : — اي صديقي ، ماذا تجسر أن تقول ؟ انت الذي تعرف قلبي منـذ اخذت

---

(١) يريد « فيدر » امرأة ابيه ، وانما ذكرها بأبويها ليبين اثر الوراثة فيها . (٢) صيره عبداً (٣) آلهة الجمال .

انفاسي تتردد ، أتستطيع ان تسألني انكاراً شائناً لعواطف قلب غال في ترفعـه وكبريائه ؟ وما ذاك لأن أماً باسلة أرضعتني مع لبنها هذا الاستكبار الذي يدهشك فحسب ، بل انا نفسي كذلك لما كبرت ، ونضجت جعلت أثني على ما عرفت من كريم صفاتي . عندئذ اخذت تروي لي تاريخ ابي ، بعد اذ ربطت بيننا الصداقة البريئة . وانت خبير ، كم أصغت نفسي اليك ، وكم نشطت لاحاديث مفاخره الزكية ، حينما وصفت لي هذا البطل المغوار يحمل العزاء للناس على غياب « ألسيد (١) » فالكواسر مختنقة وقطاع الطرق مجازون . . . (٢) وعملاق إبيدور قد تبعثرت عظامـه ، وكريت جعلت تدخن بدم ميناتور . على انه حينما اخذت تنحو في احاديث عنه اقل حظاً من المجد ، اذ يعرض وفاءه ويصغي الى احاديث الوفاء أنى سار ، واذ يختطف « هيلين » في اسبارطة من ابويها ، واذ تشهد بلاد « سالامين » دموع محظيتـه المهجورة « باريبيه » ، وغيرها كثيرات يغيب عنه مجرد اسمائهن ، تلك القـلوب الساذجة التي غرّر بها حبّه ، من امثال « أريان » التي تشهّر بمظالمه عند الصخور وفيدر التي انتزعها اخيراً في حظ ورعاية اكبر (٣) ، فأنت عليم كيف انني كنت أصغي لاخبارك آسفاً ، وكيف كنت أحثك في الغالب على اختصارها ، سعيداً ان استطعت ان اطوي عن الاجيال الآتية شطراً وضيعاً من سيرة كريمة ؛ فهل اكون انا بدوري من أسرى ذلك الغرام ؟ أفيبلغ بالآلهة ان ينزلوا بي هـذه المهانة ، فآسى للحب ، وأمعن في الحقارة ؟ اذ ليس لي ما كان يشفع لأبي من مفاخر ، فانا لم اقهر بعد كاسراً ولم أخضع عاصياً فيكون لي الحق ان أزلّ مثله . وهب ان امتناعي على الحب قد فتر ، أينبغي لي ان اتخذ من « آريسي » حبيباً آسراً ؟ ألن تذكر مشاعري التائهة ذلك العائق الدائم الذي فرق ما بيننا ؟ ان ابي ليطردها ، وينهى ابناءه ، بما فرض من قوانين صارمة ، ان يصهروا الى اخوته (٤) ؛ انه يخشى أفراخ ذلك الفرع الأثيم ؛ يريد ان يمحو بهذه الفتاة آثارهم ، فيخضعها حتى المات لوصايته ، ولا يـأذن لنار الزواج ان تشتعل من اجلها أبدا . هل ينبغي لي ان ارعى حقوقهـا امام اب غضوب ؟ اأكون مثالا للتهور ؟ واذ يرتبط شبابي بحب احمق . . .

---

(١) هو هركول ، اعظم ابطال الميثولوجيا اليونانية . (٢) تجاوزنا هنـا عن بعض الاسماء الغريبة . (٣) لأنه رضي ان يتزوجها . (٤) اشارة الى العداء المستحكم بين ابيه وعمه ، ابي « آريسي » .

تيرامين : — واهاً ! مولاي ، إصنع ما تشاء ، فلن تتدخل السماء في امرك . لقد فتح « تيزيه » عينيك من حيث اراد ان يغلقها ؛ وان بغضاءه اذ تبعث فيك هوى مريداً (١) فهي تعير غريمته جمالا جديداً . وأخيراً فما بالك تفرق من حب شريف؟ اذا لم يخل من حلاوة افلا تجرؤ على اختبارها ؟ أتشقى على الدوام بوهم نافر قاس ؟ أم تخشى ان تضل اذا سرت على آثار هركول (٢) ؟ اي قلب لم تأسره فينوس (٣) ولم تملك قياده ؟ انت نفسك ، انت الذي تجاهد سلطانها ، اين تراك تكون ، لو أن « انتيوب (٤) » تأبت على نواميسها ولم تكتو بنار حب طاهر لأبيك ؟ على انه ماذا يجدي عليك ان تصطنع هذا الكلام المتعالي ؟ لقد تغيّر كل شيء ، وعليك ان تعترف: انت المتعاظم المستوحش ، رايناك ، لبضعة ايام خلون ، اقل ركضاً لعربتك على الشاطئ ورأيناك ، وانت العارف بالفن الذي اخترعه « نبتون (٥) » تروض جواداً نافراً وتحمله على الوداعة. الغابات اصبحت اقل دوياً باصواتنا . لا ينبغي ان يساورنا الشك ابداً : انت تحب وتتحرق وتهلك من ضر تكتمه . ترى ، هل عرفت الجميلة « آريسي » ان تنال اعجابك ؟

هيبوليت : — انا راحل ياتيرامين ، سابحث عن ابي .

تيرامين : — ألن ترى « الفيدر » قبل رحيلك يا مولاي .

هيبوليت : — هـــذا ما اقصد اليه ؛ في استطاعتك ان تخبرها . ينبغي ان نراها ، فبذلك يقضي الواجب . ولكن اي بؤس جديد يثير صفيتها « أونون » ؟

• • •

المنظر الثاني

هيبوليت — أونون — تيرامين

اونون : — واأسفا ! مولاي ، اي غم يعدل غمي ؟ توشك الملكة ان تحتضر . عبثاً عكفت الليل والنهار على رعايتها : فهي تجود بذمائها بين ذراعي من مرض

---

(١) متمردا . (٢) الذي لم ينفر ، على جبروته ، من الحب . (٣) الهة الحسن .
(٤) ام هيبوليت (٥) إله الفروسية ، Phèdre : 36

تخفيه علي . قلق دائم يسود فكرها . لقد انتزعها الهم والألم من فراشها . تريد ان ترى النور ؛ ومع ذلك فان ألمها العميق يوجب علي ان ابعد الناس . . . قدمت .

هيبوليت : — يكفي : سأتركها هنا ، ولن اريها وجهاً بغيضاً .

المنظر الثالث

فيدر — اونون

فيدر : — لا ينبغي لنا ان نتقدم . لنبق ، ايتهـــا العزيزة اونون . لا اقـوى على النهوض : قوتي تخلت عني . عيناي مبهورتان بهذا النهار الذي ارى ، وركبتـاي المرتجفتان تنسرقان تحتي . واأسفي ! « تجلس »

اونون : — ايتها الآلهة القادرة على كل شيء ، لتطفئ دموعنا غضبكم .

فيدر : — ما اثقل هذه الزينة الباطلة وهذه الخُمُر علي ! أية يد مزعجة اوثقت هذه الربط وعنيت بجمع هذا الشعر على جبيـني ؟ كل شيء يضنيني ويضويني (١) ، ويأتمر بي ليرديني .

اونون : — ما اشد ما نرى أمانيها ينقض بعضُها بعضاً ! انت نفسك تستنكرين مقاصدك الجائرة ، فتُعجلين ايدينا (٢) احياناً لتجميلك ؛ وانت انت تذكرين ماضي قوتك فتريدين ان تظهري وان تري نور النهار . ها هو النور ياسيدتي ؛ أفتستعدين للتواري وتكرهين الضياء الذي كنت تنشدين ؟

فيدر : — أيتهذي النبيلة الساطعة التي ابدعت أسرة حزينة ، انت التي كانت امي تجترئ فتفخر بأنها ابنتك ، والتي قد تستحي اا انا فيه من قلق ، ايتهـا الشمس ، لقد جئت أراك للمرة الأخيرة .

اونون : — واعجبا ! ألن تتخلي قط عن هذه الرغبة القاسية ؟ أأراك على المدى راغبة عن الحياة ، على اهبة الموت الفَجوع ؟

فيدر : ايتها الآلهة ! لماذا لا اكون جالسة في ظل الغابات ! متى يقسم لي ان أتبـــع نظري ، خلال غبار كريم ، عربة فارة من الميدان ؟

اونون : — ماذا ، سيدتي ؟

---

(١) يضعفني (٢) تحثينها .

فيدر : — اين انا ، ياحمقاء ؟ وماذا قلتُ ؟ اين تركتُ اماني تشرد وعقلي يضل ؟ لقد سلبتني الآلهة القدرة على الانتفاع به . الحمرة تغشى وجهي يا أونون : كاشفتك اكثر مما يجب بآلامي المهينة ؛ وعيناي تفيضان على الرغم مني بالدموع .

اونون : — اذا وجب ان تخجلي فمن سكوت يزيد آلامك هولاً . اتأبين عنايتنا ، وتتصامّين عن اقوالنا ، وتريدين ان تنهي بغير رفق ايامك ؟ أي جنون يعترض سبيلها الدافق ؟ اي سحر او اي سم انضب معينها ؟ لقد ضرب الليل روقه ثلاثاً لم يغمض لك فيها جفن ، وطرد النهار كتائب الليل ثلاثاً كان جسمك فيها يذوي من غير غذاء . الى اية نية مخوفة تستسلمين ؟ باي حق تحمّلين نفسك مالا تطيق ؟ أما إنك لتغضبين الآلهة الذين وهبوا لك الحياة ؛ وتعقّين زوجك الذي تربطك به يمين مقدسة ؛ وتغدرين اخيراً باطفالك التاعسين الذين ترمين بهم تحت نير العبودية الرعناء . فكري في ان نهاراً واحداً سيسلبهم امهم وسيحيي الامل لابن الاجنبية ، عدوك اللدود ، عدوّ آبائك وابنائك ، ذلك الولد الذي حملته أمازونية في احشائها ، ذلك الفتى هيبوليت . . .

فيدر : — آه ، ياللآلهة !

اونون : — هذا التعنيف اثرّ فيك .

فيدر : — باي اسم هتفت يا شقية !

اونون : — حسن ! بحق ما يثور غضبك : احب ان اراك ترعدين لهذا الاسم النكد . عيشي اذن . فليُعد اليك الحب والواجبُ الحياة . عيشي ، لا تأذني لابن الرعناء ان يثقل ابناءك بممقوت سلطانه ، فيأمر وينهى على اكرم ما تسلّ الاغريق والآلهة (١) . لكن لا تؤخري امراً : فكل لحظة تسير بك الى حتفك . بادري الى ترميم قواك المتداعية ، حين تستمر شعلة ايامك المشفية على الخطر ويكون في مكنتها ان تتوقد من جديد .

فيدر : — شد ما اطلتُ مدّتها الآثمة .

اونون : — ماذا ؟ أيقضُ مضجعك وخز الضمير ؟ أي ذنب أثمر هذا الاضطراب البالغ ؟ لعل يديك لم تبتلا بدم بريء ؟

---

(١) تريد ابناء فيدر ، لان اباهم البطل تيزيه ، وامهم ابنة الشمس .

فيدر : — ماكان ليديّ، بفضل الآلهة ، ان تأثما . فليـــمثوا على كذلك بقلب بريء مثلهما !

اونون : — فأي عزم رهيب أنشأت حتى ترعب له قلبك ورعدت اوصالك ؟

فيدر : — يكفي ما حدثتك عنه . أعفيني من الباقي . اني لاختار الموت على اعتراف أليم كهذا .

اونون : — موتي اذن ، والزمي صمتاً لا رحمة فيه . على انه ينبغي لك ان تبحثي عن يد أخرى تغمض جفنيك . فمع انه لم يبق لك الا انفاس ضعيفة ، فاني سابقتك الى لقاء الموت . الف طريق مكشوفة تقود اليه على الدوام ، وسيختـــار ألمي الحق اقصرها . يا قاسية ، متى خدعتك بحبي واخلاصي ؟ هل تفكرين في اني تلقيتك بين ذراعيّ حين ولدت ؟ وطني ، اولادي ، كل شيء تركته في سبيلك . فهل أعددت هذا الجزاء لاخلاصي ؟

فيدر : — اي ثمرة ترجين من كل هـــذا العنف ؟ سترتعدين لهول ما اقول إن انا قطعت السكوت .

اونون : — يا للآلهة ! وما عساك ان تقولي لي وهو لا يصغر فظاعـــة موتك امام عينيّ ؟

فيدر : — لن يعصمني من الموت أن تعرفي إثمي والحظ الذي يرهقني ، بـل سأموت لذلك وانا اكبر اثماً .

اونون : — سيدتي ، باسم الدموع التي ذرفتها لأجلك ، وهاتين الركبتين اللتين اضمهما الى صدري إلا ما اطلقت فكري من هذا الشك المميت .

فيدر : — تريدين ذلك . فانهضي .

اونون : — تكلمي ، انا اصغي اليك .

فيدر : — ايتها السماء ! ماذا اقول لها ، ومن أين أبدأ ؟

اونون : — كفي عن الاساءة الي بمخاوفك الباطلة .

فيدر : — يالبغضاء فينوس ! يالغضبها النحس ! في اي متاهة قذف الحب بأمي[1] !

اونون : — لننس ذلك يا سيدتي ، وليطو خبره عن الاجيال الآتية سكوت دائم .

---

(١) يريد الشاعر ان يظهر أثر السلالة في الفيدر .

فيدر : — أريان، ياأختاه ، أي حب آذاك ، فقضيت نحبــك حيث طرحت على الساحل (١) !

اونون : — ماذا تصنعين يا سيدتي ؟ أي عذاب مميت يؤانبك اليوم على اسرتك ؟

فيدر : — سأموت ، ما دامت فينوس تريد ، آخر هـــذه الأسرة المنكودة الحظ وأكثرها بؤساً.

اونون : — أتحبين !

فيدر : — عندي من الحب هوله وسعاره (٢) .

اونون : — لمن ؟

فيدر : — ستسمعين ما يحزنك ويهولك . احب . . . ارتجف لدى ذكر هذا الاسم الشؤم ويقشعر جلدي ، احب . . .

اونون : — من ؟

فيدر : — انت تعرفين ابن الامازونية ، ذلك الأمير الذي طالما جفوته وبغيت عليه ؟

اونون : — هيبوليت ؟ اينها الآلهة العظام !

فيدر : — انت التي سميته .

اونون : — يا عدل السماء ! تجمد كل مافي عروقي من دم . يا لليأس ! يا للجناية ! ايتهــا الذرية المنكودة الحظ ، ما اشأمها رحلة (٣) ! ايها الشاطئ التاعس ، أكان يسوغ ان نقترب من حفافيك الخطرة ؟

فيدر : — من أبعد من هذا يتحدر عذابي : ما كدت أزف الى ابن « إيجيه » (٤) ، ويبدو قراري وسعادتي موطدين ، حتى اظهرت لي « أثينا » عدوي الفخور . رأيته فاحمر وجهي ثم اصفر لمرآه ؛ تولاني اضطراب بالغ ، وذبلت عيناي ، وعجــزت عن الكلام ؛ احسست بجوارحي ترتعد وتلتهب . تعرفت فينوس ونيرانها المخوفة والآلام التي تطارد بها ذرية لا عاصم لها من امرها . ولقد خيل الي اني اصرفها عني بنذور لا تنقطع : فبنيت لها معبداً وعنيت بتجميله . كنت احيط نفسي بالأضاحي كل ساعة، ملتمسة في جنباتها عقلي التائه . ياللاشافي (٥) العــاجزة عن حب عاصف معضل !

---

(١) يريد الشاعر ان يظهر أثر السلالة في الفيدر . (٢) جنونه (٣) لان فيــدر التقت هيبوليت في رحلة هــذه فاذكي نار حبها من جديد . (٤) تيزيه (٥) جمع : شفاء ، وهو الدواء .

عبثاً كانت يداي تحرقان البخور فوق المذابح : فعندما كان فمي يبتهل الى الآلهة كنت اعبد هيبوليت ؛ واذ كنت اراه على الدوام ، حتى امام المذبح الداخن بعطوري ، كنت ارفع كل شيء في الواقع الى هذا الاله الذي لم اكن أجرؤ على ذكر اسمه . كنت اتجنبه اينما سرت . يا للبلاء الشامل! كانت عيناي تستردانه في ملامح ابيه . وانتهى بي الأمر الى انني ثرت على نفسي : اذ شحذت شجاعتي للتنكيل به . وانما تصنّعت ظلم الخالة الحقود لأروغ من (١) هذا العدو الذي شغفني حبا . استعجلت نفيه ، وانتزعته بصيحات لا آخر لها من ذراعي ابيه ، فسكنت نفسي وتنفست الصعداء يا اونون ؛ وسارت ايامي منذ تغيبه في مجراها البريء . خضعت لزوجي وكتمت المي وجعلت اعنى بثمرات زواجي البغيض (٢) . يا للحذر الباطل ! يا للقدر الظالم ! فقد رأيت ثانية العدو الذي ابعدته ، حين قادني الى « تريزن » زوجي نفسه . فما اسرع ما نكأ ذلك جرحي العميق . ليس ذلك بحمًّيا مستخفية في العروق : بل تلك فينوس تتشبث بفريستها بكل ما اوتيت من قوة . لقد شعرت بفزع حقيقي من جريمتي ؛ ونظرت الى حياتي كارهة والى حبي ساخطة . وكنت اريد ان احافظ حين اموت على شرفي وأترك طي الخفاء حباً جد آثم : بيد أني لم اقو على تحمل عبراتك وعراكك ؛ فكاشفتك بكل شيء ؛ وما انا على ذلك بنادمة ، شريطة ان توقّري نذُر الموت الذي يدنو مني ، فلا تثقليني بملامك الظالم ، ولا تستمر معونتك الباطلة في التشبث ببقية انفاس لن تلبث ان تضيع .

المنظر الرابع

فيدر ، اونون ، بانوب

بانوب : — كنت احب ان اكتمك خبرَ سوء يا سيدتي ؛ غير أنه يجب ان أظهرك عليه . لقد اختطفت يد المنية زوجك الباسل ؛ وان هذه الكارثة لا يجهلها سواك .

اونون : — بانوب ، ماذا تقولين ؟

---

(١) لأحيد عن (٢) ثمرات زواجها : اطفالها

بانوب : — إن الملكة السارحة في اوهامها عبثاً تسأل الآلهة عودة تيزيه ؛ وان ابنه هيبوليت عرف بموته من سفائن قدمت الميناء .

فيدر : — يا للسماء !

بانوب : — ان أثينا انقسمت على نفسها لاختيار سيدهـا . ففريق منهم انحاز الى ابنك الأمير يا مولاتي ؛ وفريق غفل عن قوانين الدولة فانحاز الى ابن الاجنبية . بل انه ليقال ان هناك مؤامرة على العـرش ترمي الى تنصيب آريسي واعادة ذرية بالانتين . لقد ظننت ان من واجبي ان انبهك الى هذا الخطر . ان هيبوليت قد فرغ من اعداد الرحيل ؛ ويُخشى اذا ظهر في هذا الخطب المفاجئ ان يشتدّ سواده ويأمرّ أمرُه (١) .

اونون : — كفى يا بانوب . لقد سمعتك الملكة ولن تتهاون بخطير تحذيرك .

المنظر الخامس

فيدر ، أونون

اونون : — كنتُ عدلت يا مولاتي عن الالحاح عليك لتتشبثي باذيال البقـاء ؛ بل فكرت كذلك ان اتبعك الى القبر ؛ اذ فقدت كل صوت يصدك عنـه . بيد أن هذا البلاء الجديد يفرض عليك واجبـات اخرى . انت الآن في موقف جديد : لقد مـات زوجك يا سيدتي وعليك ان تحتـلي مكانه . ان موته يترك لك ابناً عليك ان تعني به ، فسيكون عبداً اذا مت وملكا اذا حييت . على اي انسـان تريدين ان يعتمد في شقائه ؟ لن يكون ثمة يدٌ تكفكف عبراته ؛ وسترتفع اصواته البريئة الى السماء فتثير على امـه سخط اجداده . عيشي ، فلم يبق شيء تلومين به نفسك : اذ اصبح غرامك امراً عادياً . ان تيزيه لينقض بموته ذلك الرباط الذي يرد حبك الى الفظاعة والاثم . وقد اصبح هيبوليت اقـل خطراً عليك ؛ فلك ان تريه من غير ان تأثمي . لعله بعد ان اقتنع بكراهيتك له سوف ينتدب قائداً للعصيان . فاكشفي له ضلاله واثني من عزيمتـه . ان

---

(١) أمرّ امرُهُ : اشتدّ وتمّ

بلاد تريزين لمن نصيبه مـادام هو مليك هذه الشطآن السعيدة . لكنه على علـم من ان الشرائع قد منحت ابنك هذه الاسوار التي شيدتها « مينرفا (١) » . هذا الى ان لكما عدواً مشتركاً بحق : فوحّدا قواكما للوقوف في وجه « آريسي » .

فيدر : ـــ حسن ! اني عامـــلة وفق نصائحك . لأعش ، إن استـطعتم ان تعيدوني الى الحيـاة ، وان استطاع حب الولد في هـذه اللحظة الفاجعة أن ينعش خامل انفاسي .



(١) الهة الحكمة والفنون

الفصل الثاني

المنظر الاول

آريسي — ايسمان

آريسي : — هل وجّه هيبوليت في طلبي الى هذا المكان ؟ أيبحث عني هيبوليت ويريد ان يقول لي : الوداع ؟ هل تقولين الحقيقة يا ايسمان ؟ ألست واهمة ؟

ايسمان : — هذه اولى نتائج موت تيزيه . تهيّئي يا سيدتي لرؤية القلوب التي ابعدها تيزيه تطـــير اليك من كل جانب . ان آريسي سيدة حظّها آخر الأمر ، وعما قليل ستجد بلاد اليونان جميعها على قدميها .

آريسي : — فليس ذلك يا ايسمان خبراً واهي الدعائم ؟ افارقت عبوديتي ولم يبق لي من عدوّ ؟

ايسمان : — كلا يا سيدتي ، لن يكون الآلهة اعداء لك بعد اليوم ؛ وقد لحق تيزيه بارواح اخوتك .

آريسي : — هل ذكروا اي حادث قضى عليه ؟

ايسمان : — لقد بثّوا عن موته روايات لا تصدّق . قالوا ان اليمّ ابتلع هـــذا الزوج الخئون بعد ان اختطف معشوقة جديدة . بل قالوا ، وقد استفاض هذا الخبر وشاع في كل مكان ، انه نزل صحبة صديقه «بيريتوس» الى العالم الآخر ، ورأى نهر الكوسيت والشواطئ المظلمة ، وبدا حياً في ظلال جهنم ؛ غير انه لم يستطع ان يخرج من تلك الاقامـــة المحزنة ، ولا ان يجتاز ثانيةً السواحل التي يجتازها الناس الى غير عودة .

آريسي : — ايكون لي ان اعتقد ان في طوق الحي ان يلج ، قبل ساعته الأخيرة ، مساكن الموتى السحيقة ؟ اي سحر يجذبه الى هذه الشواطئ المخوفة ؟

ايسمان : — أما ان تيزيه لميت ؛ انت وحدك ترتابين في ذلك . فأثينا تبكيه ، وتريزين احيطت علماً به ، واعترفت بهيبوليت ملكاً عليها . اما فيدر فقد تولاها القلق على ولدها ، وهي في هذا القصر تتعرّف آراء اصدقائها الحيارى .

آريسي : — وهل تظنين ان هيبوليت سيكون أرفق من أبيه ؛ وانه سيخفف من قيودي وسيرثي لشقائي ؟

ايسمان : — سيدتي اظن ذلك .

آريسي : — أتعرفين ما لهيبوليت من طبع نافر عصيّ ؟ اي امل باطل يحملك على التفكير في انه يرثي لحالي ويخصّني بالحرمة وهو الذي يحتقر النساء جميعاً ؟ لقد رأيت من اي وقت جعل يروغ عن طريقنا ويسعى الى الاماكن التي لا نكون فيها .

ايسمان : — انت تعلمين كل ما يحكى عن فتور عاطفته ؛ على انني وجدت هذا المزهوّ هيبوليت بالقرب منك ؛ وقد ضاعف تطلّعي اليه عندما قابلته اخبارُ كبريائه . ان مظهره لا ينطبق ابداً على هذه الاخبار : رأيته يضطرب منذ صوّبت اليه نظراتك الاولى . ان عينيه اللتين جهدتا من غير طائل في تحاميك كانتا ذابلتين عاجزتين عن التحوّل عنك . لعل اسم العاشق يجرح كبرياءه ؛ غير ان له عينيه ، ان لم يكن له لسانه .

آريسي : — لكم يصغي القلب بنَهَم ايتها العزيزة ايسمان ، الى حديث قد لا يكون وطيد الاساس ! انت التي تعرفينني ، هل يبدو لك ممكناً ان تعرف الحب وآلامه الحمقاء تلك الالعوبةُ الحزينة للقدر الغاشم ، ذلك القلبُ الذي طالما غُذّي بالحسرة والدموع ؟ لقد افلتُّ وحدي من اهوال الحرب ، انا بقية ابناء ملك كان ابن الارض البار . فقدتُ ستة اخوة في زهرة العمر . وا آمال بيت ماجد عظيم ! حصدهم السيف جميعاً ؛ وشربت الارض كارهةً دماءهم . تعلمين اي امر صارم منذ وفاتهم حظر على اليونان جميعاً ان يأسوا عليهم : ذلك بانهم يخشون ان تحيي الاخت بحميتها المهورة رمادَ اخوتها ذات يوم . ولكنك تعلمين جيداً كذلك بأي عين زارية كنت انظر الى هذا الذي يشغل الظافرَ المرتاب . تعلمين اني ، وانا التي تقاوم الحب في كل آن ، كثيراً ما كنت اشكر تيزيه الظالم الذي كانت قساوته المواتية عضداً لي في مقاومتي . لم تكن عيناي حينئذ قد رأتا ابنه . وليس ذلك اني انحططت الى ان أوخذ بمجرد النظر ، فاحب فيه جماله وظرفه الممدوح ، هتين المنحتين اللتين شرفته بهما الطبيعة ، واللتين هو نفسه يحقرها ويبدو جاهلاً لهما ؛ انما احببت فيه خلالاً انبل واكبرتها ، احببت فيه محاسن ابيه منزهة عن مطاعنه .

اني اعترف بحبي لهـذا الغرور الكريم (١) الذي لم ينحن ابداً لنير الحب . عبثاً تعتزّ فيدر بزفرات تيزيه : فانا اكثر اعتزازاً منها ؛ وانا انفر من ذلك المجـــد الميسور بانتزاع احترام سبق ان بُذل لألف امرأة ، وبالدخول في قلب مفتوح من كل جانب . أما أن أعطف قلباً صعباً ابيّاً ، وان اقيد بالأغلال اسيراً لم يألف القيد وامتنع من غير جدوى على نير يعجبه : فذاك هو الذي اريده ، وذاك هـو الذي يغريني . ان هركول لأكثر اتياناً من هيبوليت ؛ وهـو بما يسهل ويَسْرُع من اخضاعه يُتيح حظاً أضأل من المجد للعينين اللتين تغلبانه . ولكن يا عزيزتي ايسمان ما كانَ اكبر غفلتي ، واسفاه ! فانني لن اقابَل إلا بكثير من الاباء . لا يبعد ان تريني حزيناً في عذابي ، منتحبة شاكية هـــذا الغرور نفسه الذي أعجب به اليوم . ترى ، أيمكن لهيبوليت ان يحب ؟ باي سعادة بالغة قد استطيع ان اعطف...

ايسمان : — ستسمعينه بنفسه . لقد جاءك .

المنظر الثاني

هيبوليت ، آريسي ، ايسمان

هيبوليت : — سيدتي ، أعتقد أنه لزام عليّ وقد أزِفَ رحيلي ان احيطك علماً بما انت مشرفة عليه . لقد اخترمت المنون ابي . كان ارتيابي المعقول يحدس باسباب غيبته الطويلة . الموت وحده اذ يقف اعماله الباهرة يستطيع ان يحجبه هـــذا الزمن الأطول عن العالم . لقد اسلمت الآلهةُ أخـــيراً للموت صديقَ هركول ورفيقه وخليفه . اعتقد ان بغضاءك لا تتناول فضائله ، وانك لا تضنين عن سماع هـذه الخلال التي كان لها اهلاً . ثمة أمل يخفف من حزني القاتل : وهو أنني إستطيع ان أميط عنك ثقل وصايته . لقد أبطلتُ اوامر كنت آسَفُ لشدّتها . لستطيعين ان تتصرّفي في الآن بنفسك وقلبك . وفي تريزين ، وهي اليـوم نصيبي وارثي من جدي « بيتيه » ، وقد اعترفت بي ملكاً غير مدافَع عليها ، اتركك حرة كذلك ، بل اكثر حرّية مني .

آريسي : — أقيلُ من الطافك (٢) الذي يُربكني الافراط فيه . انك بتفضّلك بكشف هذه الغمرة عني في حدب وحسن رعاية لتطوّقني يا مولاي اكثر مما تفكر بهـــذه

(١) غرور هيبوليت المنبعث من نبل طبعه (٢) الالطاف : البر .

القيود الصارمة التي تريد ان تضعها عني .

هيبوليت : — ما تزال اثينا مترددة بين من تستطيع ان تختارهم ليخلفوا الملك الراحل على عرشها ؛ فهي تتحدث عنك وعني وعن ولد الملكة .

آريسي : — عني ، ياسيدي ؟

هيبوليت : — لا اريد ان اعلل النفس بالأماني ، فانا اعلم ان ثمة قانوناً أخرق يعترض طريقي . ان اليونان يعيّروني أماً أجنبية . على انه إن لم يكن لي من منافس غير اخي ، فان لي عليه يا سيدتي حقوقاً غير منكورة استطيع ان اصونها من عبث القوانين . لكن مانعاً شرعياً يحدّ من جرأتي : ذلك بانني سأترك او بالحري سأعيد اليك مقاماً وصولجاناً سبق ان تسلمهما ذلك الفتى الذي ولدته « الارض » ثم قدّر لهما ان يئولا الى المتبنّى « ايجيه »(١) . بذلك اعترفت أثينا راضية مسرورة بملكية ابي الذي دافع عنها وتعاهدها بأقصى ما يتعاهد به مليك رعيته من نبل وحسن رعاية ، والقت في زوايا النسيان اخوتك التعساء . ان أثينا لتناديك الآن من وراء أسوارها . لقدعانت فيه الكفاية تلك الخصومة الطويلة القديمة ؛ بحسب الحقول ما شربت من دمائكم التي انبتتها وبحسبها ما دخنت بها . ان « تريزين » القت الى عصا الطاعة . وان حقول كريت وأريافها لتقدم لابن فيدر معتزلاً خصيباً . اما اثينا وما حولها فهي من نصيبك . سأرحل ، سأجمع لاجلك اماني الشعب الموزعة بيننا .

آريسي : — اني لأدهش ويهتز كياني لما اسمع ، وانا اخشى ان اكون خدعة حلم جميل . أتراني أحلم ؟ أفي مقدوري ان أصدق عزماً مثل هذا ؟ اي آله يا سيدي ، أي آله القاه في صدرك ؟ ما أحق ما انتشر مجدك في كل مكان ! وكم تجاوز الحقيقة شهرتك ! تريد أن تضحي بمنافعك من اجلي ؟ ألا يكفيك انك لم تحمل لي بين جوانحك من بغضاء ، وانك استطعت ان تصدّ النفس طويلاً عن عداوة ...

هيبوليت : — ان أبغضك ، انا ، يا سيدتي ؟ مهما يصفون على نفور طبعي من نعوت ، أتراهم يظنون اني انحدرت من صلب اب مسيخ ؟ اي خلق نافر ، اي بغضاء قاسية ، يستطيعان ان يراك ثم لا يستأنسا ؟ هل استطعت ان اقاوم السحر الفاتن ...

---

(١) هو ابو تيزيه وجد هيبوليت . اما ابو آريسي فهو سليل الملك الحقيقي ، لا المتبنى .

آريسي : — ماذا ؟ مولاي .

هيبوليت : — اراني استرسلت في قولي وتجاوزت الحد ؛ وارى العقل يذعن لسلطان الحب . اما واني بدأت أفضّ السكوت فيجب ان اتابع يا سيدتي : يجب ان اكاشفك بسر لن يطيق القلب طيّه بعد الآن . امامك ترين اميراً جديراً بالرثاء ، وكان قبل مثالاً لا ينسى للخيلاء . انا الذي كنت اتمرد على الحب في إباء ، وانظر في زراية الى قيود أسراه ؛ وكنت ارثي لغرق الانسانية الضعيفة في لجاته ، ظاناً اني ارقب العواصف دوماً من الساحل ؛ فالآن وانا ارزح تحت قانونه العام ، بأي عين مؤرّقة أراني أجرّف بعيداً عني ؟ لحظة واحدة ذهبتْ بتلك الجرأة التي لم تكن تحسب لشيء حساباً : هذه النفس المزهوة اصبحت آخر الأمر خاضعة . عبثاً امتنعتُ عليك وعلى نفسي ، وانا يائس ، خجلان ، حامل منذ زهاء ستة اشهر اينما يممت ذلك النبل الذي يمزق احشائي : فانا اتحاماك ما حضرتِ ، وأنشدك ما تغيبت ؛ وان صورتك لتتبعني وسط الغابات ؛ اضواء النهار ، ظلمات الليل ، كل شيء يرسم لناظري الجمال الذي احذر ؛ كلها تتنافس في تسليمك العاصي هيبوليت . انا نفسي لم تثمر جهودي الضائعة شيئاً ، فاراني ابحث الآن عن رشدي بغير جدوى . قوسي ، حربتي ، عجلتي ، كل يثقل علي ويؤذيني ؛ ما من شيء من دروس «نبتون (١)» اصبحت اذكره . بنحيبي وزفراتي وحدها تدوّي الغابة ، وقد نسيتْ خيلي العاطلة صوتي . لعل عرض حب بهذه الغرابة يحملك على الخجل مما احدثتِ وانت تصغين الي . يا لجفاء هذا الكلام من قلب يتقدم اليك ! يا لغرابة اسيرٍ في قيدٍ نفيس رائع ! على ان هذه التقدمة جديرة ان تحظى باكرامك . فكري في اني احدثك بلسان جد غريب ؛ ولا ترمي جانباً باماني لم احسن التعبير عنها ، وما كانت لولا انت لتهجس في صدري ابداً .

المنظر الثالث

هيبوليت ، آريسي ، تيرامين ، ايسمان

تيرامين : — الملكة قادمة ، يا مولاي ؛ انها تبحث عنك .

هيبوليت : — انا ؟

(١) آله الفروسية .

تيرامين : — اجهل ما يضطرب في ذهنها . بيد أنهـا وجّهت في طلبك . تريد « فيدر » ان تتحدث اليك قبل براحك .

هيبوليت : — فيدر ؟ ما ينبغي لي ان اقول لها ؟ وما عساها ان تنتظر ...

آريسي : — لا يسعك يا سيدي ان ترفض الاصغاء اليها . فعلى اقتناعك ببغضها فان من حقها عليك ان تعير دموعها ظلاً من رحمتك .

هيبوليت : — في اثناء ذلك ستخرجين . انا راحل . اخشى ان اكون اسأت الى الجمال الذي أعبد ! أجهل ما اذا كان هذا القلب الذي أودعه يديك ...

آريسي : — اذهب ايها الأمير واتبع مقاصدك الكريمة . خذ لي الطاعة من أثينا . قبلت الهبات التي تريد ان تمنحني جميعاً . بيد أن هذه المملكة على اتساعها وعظمتها ليست في نظري أثمن هباتك .

المنظر الرابع

هيبوليت ـ تيرامين

هيبوليت : — أكل شيء حاضر ايها الصديق ؟ لكن الملكة تتقدم . اذهب . على الجميع ان يبادروا الى اسلحتهم فيتقلدوها للرحيل . أوعز اليهم ان يعطوا الاشارة ، أسرع ، مُر ، وعد لتنقذني بعدهنيهة من حديث ثقيل .

المنظر الخامس

فيدر ، هيبوليت اونون

فيدر « تخاطب اونون في آخر المسرح » : — هـذا هو . دمي كله يعود الى قلبي . نسيت اذ رأيته ما جئت اقول له .

اونون : — تذكري طفلاً لا امل له غيرك .

فيدر : — يقولون ان رحيلاً عاجلاً ينأى بك عنا ياسيدي . جئت اضم دموعي الى آلامك . ثم جئت اشرح لك مخاوفي على طفلي . لم يبق لابني اب ؛ ولن يكون بعيداً ذلك اليوم الذي سيشهده كذلك موتي . من الآن بات يتهدّد طفولته الف عدو . بيدك وحدك امر الدفاع عنه . لكن روحي مضطربة بوخز ضمير

خفي . اخشى ان اكون قد أوصدتُ اذنيك عن صيحاته . يخيفني ان يطارد فيه غضبك العدل اما له بغيضة .

هيبوليت : — لا ينطوي صدري يا سيدتي على شعور وضيع كهذا .

فيدر : — اذا أبغضتني فلن ارفع صوتي بالشكوى يا سيدي . لقد رأيتني جاهدة في اذاك ؛ ولم تكن قادراً على ان تقرأ مكنون قلبي . كنت احرصُ على ان اتعرّض لكرهك . على الشواطئ حيث أسكن لم أطق ان أراك . واذ شدّدتُ عليك النكير سرّاً وعلانية ، اردت ان تحول بيننا البحار . بل اني نهيت بأمر صريح عن ذكر اسمك في حضرتي . ومع ذلك فاذا كان الجزاء يقاس بالاساءة ، اذا كانت البغضاء وحدها تستطيع ان تثير بغضاءك ، فما من امرأة ادعى لرحمتك واجدر ألا تكرهها مني يا سيدي .

هيبوليت : — قلما تتحمّل أمّ غيور على حقوق ابنائها احد ابناء زوجها . اعرف ذلك يا سيدتي . الشكوك المزعجة هي أظهر ثمار الزواج الثاني . أيما امرأة اخرى مكانك ستساورها المخاوف نفسها ، ولعلّي كنت اعاني منها سوءاً اكبر .

فيدر : — آه ! يا سيدي ، لقد ارادت السماء ان تستثنيني من هذه السنّة الشاملة وانا أشهدها على ذلك . هنالك شاغل مختلف جداً يؤرّقني ويضنيني .

هيبوليت : — لم يأنِ لك بعد يا سيدتي ان تخافي . ربما كان زوجك لا يزال حياً . فقد تستجيب السماء لدموعنا فتمنّ عليه بالرجوع . « نبتون » يحميه ؛ وهذا الآله الحافظ لن يضيع عنده ابتهال ابي .

فيدر : — ليس لمخلوق ان يرى ساحل الموتى مرّتين يا سيدي . عبثاً ترجو ان يعيده اليك آله ، بعدما رأى الشواطئ المظلمة ؛ وما كان لذلك النهر البخيل « آشيرون » ان يُفلت فريسته قط . ماذا اقول ؟ بل ما هو بميت ابداً ، وذلك لأنه يعيش بك . ما ابرح اظن اني أري زوجي ماثلاً امامي . اراه ، احدّثه ؛ وقلبي ... اراني أضلّ يا سيدي ، وجنون أشواقي يستبين على رغمي .

هيبوليت : — ارى تأثير حبك العجيب . ان تيزيه ، على موته ، حاضر امام عينيك . روحك تتحرّق ابداً بسعير هواه .

فيدر : — اجل ايها الأمير ؛ اذبل واحترق من اجل تيزيه . أحبه لا كما استقبله

العالم الآخر ، عاشقاً طائشاً لألف محبوبة ، يغامر ليلوّث فراش آله الموت (١) ؛ ولكن احبه وفياً انوفاً ، بل على شيء من الجفاء ، جميلا ، يرفل في الشباب ، ويجرّ وراءه القلوب كلها ، على نحو ما يصفون لنا الآلهة ، وعلى نحو ما اراك . كانت له هيئتك ، وعيناك ، ولسانك ؛ وكان هـذا الطهر النبيل يزين طلعته ، عندما اجتاز امواج « كريت » وسار لتشيّعه اماني ابنتيْ « مينوس (٢) » . ماذا كنت تصنع حين ذاك ؟ لمَ جمع نقاية (٣) ابطال اليونان من دونك ؟ لِمَ لم تركب معه السفينة التي انطلقت به الى شواطئنا ، على فتائك (٤) وقوة أسرك ؟ لقد كان في مستطاعك ان تقضي على مسيخ اليونان (٥) ، على بعـــد معتزله والتوائه . اذن لبادرت اختي فقلدتك الصارم البتار تكشف به هذه الغمّاء . لا بل لكنتُ سبقتها الى هذه الغاية ، يلهمني الحب قبلها ويحفزني . انا التي كنت اهديك السبيل في محاني تلك المتاهة وأحسن نجدتك . ما اكبر العناية التي كان بودّي ان أوليهـا شخصك اللطيف ! ما كان للسيف وحده تنتضيه ليؤامن من خوف عليك قلباً محبك . بل كنت اودّ ان اسعى معك بين يدي تلك المخاطر وان اتقدّمك اليه واذا أوغلت معك في ظلمات « اللابيرانت (٦) » وملاويه ، فسواء علي ان اعود معه او أضيع معك .

هيبوليت : — ايتها الآلهة ! ماذا اسمع ؟ أنسيت يا سيدتي ان تيزيه هو ابي وزوجك ؟

فيدر : — وفيم تحكم باني نسيته ايها الأمير ؟ أم تراني لا احسب لشرفي حساباً ؟

هيبوليت : — معذرة يا سيدتي . اعترف خجلانَ اني اتهمت ظلماً حديثك البريء . ان خجلي ليجعلني اعجز عن مداومة النظر اليك ؛ وقد كنت ...

فيدر : — آه ! يا قاسي ، بل فهمتني كل الفهم . لقد حدّثتك بما يكفي لاخراجك من عمايتك . حسن ! إعرفْ اذن فيدر وسُعار حبها . أحبُّ . لا يقومن في وهمك أني حين احبك أجيز عملي واستحسنه ، ولا أني أقوّي بتسامح رذل سم هـذا الغرام الشرود الذي يعصف بعقلي . اني لأمقت نفسي ، بعد اذ جعلتني

(١) اجتاز تيزيه شواطئ العالم الآخر ليختطف «بروسيربن» ، زوجة آله الموت (٢) هما فيدر وأريان . (٣) نقاية كل شيء : خياره (٤) شبابك (٥) مسيخ اليونان ، ويدعى في عرف الخرافة اليونانية بالمينوتور ، هو حيوان له جسم رجل ورأس ثور ، تولّى قتله تيزيه .

(٦) قصر عظيم الحجرات متشابك الممرّات ، تزعم الخرافة انه بني ليكون محبساً للمينوتور .

السماء هدفاً تاعساً لنقمتها أضعاف ما تمقتني انت . وانا أُشهد الآلهة على ما قلت ، هؤلاء الآلهة الذين ألهبوا بين جوانحي جذوةً كانت قبل وبالاً على ذوي قرابتي ، هؤلاء الآلهة الذين قسوا فتفاخروا بما أزاغوا قلب امرأة ضعيفة . ألا فلترجع بذاكرتك الى الماضي : قليلٌ أني تحاميتك ، ايهـا القاسي ، بل إني طردتك . اردتُ ان اظهر لعينيك كريهة جافية الطباع . كنت ألشد كرهك لأحسنَ مقاومتَك . ماذا أجدت علي هذه الجهود الباطلة ؟ لقد زدتني كرهاً ، من حيث لم آلك حباً . بل ان آلامك كانت تضفي عليك جمالاً جديداً . ذويتُ وجفَّ عودي على جمر الهوى ودموعه . في عينيك الغناء لتتحقق ألمي الدفين ، لو انهما استطاعتا ان تلقيا الي بنظرة عابرة . ماذا اقول ؟ هذا الاعتراف الذي جئت أبوح به اليك ، هذا الاعتراف المَهين أيبدو ارادياً لعينيك ؟ لقد ساورني الخوف على ولدي ولم اجرؤ على التهاون بحقوقه ، فجئت ارجوك ألاّ تجعل في صدرك غلاً لاخيك . يا لوهن (١) العزيمة لقلب هو في شغل شاغل بمن يحب ! لم احدثك ، واأسفاه ، إلا عن نفسك ! انتقم لنفسك ، جازني على حبي البغيض . ايها النجل الجدير ببطل نجلَكَ ، أرح العالم من امرأة شنعاء تغيظك . ارملة تيزيه تجرؤ على حب هيبوليت ! صدقني ، لا ينبغي لهذه المسيخة الكريهة ان تفلت من يدك . هذا قلبي ، ونحوه فلتسدد ضربتك . أمّا انه ليضيق بانتظار العقوبة يكفّر بها عن سيئته ، فأحس به يتقدم صوب يدك . اضرب . واذا كنت تظنه غــــير خليق بضربك ، اذا كانت بغضاؤك تضن علي بعقاب جد لطيف ، او اذا كنت تخشى ان تلوث يدك بدم جد خسيس ، الا فلتعرني سيفك بدلاً من ذراعك . أعطنيه .

« تمد يدها الى السيف »

اونون : — ماذا تصنعين يا سيدتي . اينها الآلهة ! على ان هنالك قادماً . إحذري مستكرَه الشهود ؛ تعالي ، تجنبي عاراً أكيداً .

المنظر السادس

هيبوليت — تيرامين

تيرامين : — أهذه فيدر هاربة ، او بالحري مجرّرة ؟ لماذا ، مولاي ، لماذا امارات

(١) الوهن او الوهن : الضعف



فيدر : — ألا فلتُعرني سيفك بدلاً من ذراعك ،

الألم هذه ؟ اراك من دون سيف ، شارد اللب ، حائل اللون .

هيبوليت : — لنهرب يا تيرامين . ان دهشتي لبالغة . لا استطيع ان انظر الى نفسي الا منقبضاً راجفاً . ان فيدر ... أيتها الآلهة العظام ! لا بل فليَغيب هذا السرّ المقيت في يمّ النسيان .

تيرامين : — إن شئتَ الرحيل فقد أُعِدَّ الشراع . بيد ان أثينا قد حددت يا مولاي موقفها . لقد اخذ رؤساؤها اصوات الشعب جميعاً . اخوك هو الظافر ، وكانت كلمة فيدر هي العليا .

هيبوليت : — فيدر ؟

تيرامين : — لقد اوفدت أثينا اليها من يعبر لها عن ارادتها ويضع بين يديهـا مقاليد الحكم . أصبح ابنها ملكاً يا مولاي .

هيبوليت : — أيها الآلهة الذين تعرفونها ، أعلى فضيلتها تـكافئونها ؟

تيرامين : — ومع ذلك ، فثمة إشاعة ضعيفة بان الملك لا يزال حياً . انهم يزعمون بان تيزيه قد ظهر في «ايبيريا» . غير اني وقد بحثت عنه هناك اعرف جيداً يا مولاي...

هيبوليت : — لا يهم لنصغ الى كل قول ولا نهملْ شيئاً . لنتحرَّ هـــذه الاشاعة ولنرتفع الى مصدرها . اذا لم تستوجب ان أعدل عن رحيلي فلأرحل . ومهما كلف الأمر فلنضع الصولجان في يد جديرة بحمله .



الفصل الثالث

المنظر الاول

فيدر ، اونون

فيدر : — آه ! فليذهبوا بعيداً عني بما غدوا علي به من أمجـاد(١) . ايتها الثقيلة ، أتتمنين ان يروني . بأي شيء جئت تخدعين عقلي الحزين ؟ أجدر بك أن تحجبيني: فقد أسرفتُ في القول . عواطفي الهائجة تجرأت فاعتلنت . قلتُ ما لم يكن ينبغي ان اقوله ابداً . يا للسماء ! كيف كان يصغي الي ! بأي دهاء تجنب القاسي طويلاً أقوالي ! ما اكثر ما كان يتمنى الانصراف عني ! وكم ضاعف خجلُه خزيي ! لماذا ثُنيت عزيمتي عن سعيها الى الموت ؟ ويلاه ! عندما صوبتُ سيفه الى صدري هل حال لونه خوفاً علي ؟ هل انتزعه مني ؟ يكفي ان يدي لمست مرة هذا السيف ، فقد جعلته بذلك بغيضاً على عينيه الجافيتين ؟ وكأن هذا السلاح النكد يدنس يديه .

اونون : — على هذا فانت في شقائك لا تفكرين إلا في الشكوى ، وتذكين ناراً كان عليك ان تخمديها . أليس أجـدى عليك ، وانت من ذرية « مينوس » الاكرمين ، ان تنشدي الراحة في امور أنبل ، وان تلوذي بالفرار من وجه جاحد معجب ، وان تملكي وتحرصي على تدبير شئون الدولة ؟

فيدر : — انا ، أملك ! انا ، اجعل الدولة تحت حكمي ، على حـين يعجز عقلي الضعيف عن السيطرة على نفسي ! على حين لا استطيع ضبط حواسي ! وعندما اكاد لا أقوى تحت ذلك النير المخزي على ترداد انفاسي ! عندما اموت !

اونون : — اهربي . .

فيدر : — لا استطيع فراقه .

اونون : — استطعت ذات يوم طرده ، وانت الآن تعجزين عن اجتنابه .

فيدر : — لقد فات الوقت . اضحى عارفاً بجنون حبي . تجاوزت حـدود العفة

(١) على اعتبارها أمّ الملك الجديد .

الصارمة . سبق إن أبنت عن خزيي لعينتي آسري ، وتسلل الامل على الرغم مني الى قلبي . انت نفسك جعلت تهيبين بقوتي الخائرة ان تعــود ، وأمسكت عليّ روحي وهي تتيه على شفتيّ ، وعرفت بماكر نصحك كيف تعيدين الي الحياة . لقد أريتني ان في امكاني ان أحبه .

اونون :ــ اواه ! سواء أكنت مسئولة عن شقائك أم بريئة منــه ، فأي شيء لا اقوى على صنعه لأنقاذك ؟ ولكن اذا قدر لك ان تغضبي يومــاً للاساءة ، فهل تستطيعين ان تنسي اهانة فتى متكبر مختال ؟ بأي عينين جافيتين استطاع هــذا القاسي العنيد ان يغادرك ساجــدة على رجليه او تكادين ؟ ما كان ابغضه في كبريائه العاتية ! لماذا لم يكن لفيدر عندئذ عيناي ؟

فيدر :ــ في يده ان ينتهي عن هذه الكبرياء التي تمضك . رُبِّي في الآجام فرجته بجفائها . ان هيبوليت بعد اذ ردته المبادئ المستوحشة الى القساوة ليصغي الى حديث الحب لأول مرة . لعل دهشته قد حالت دون كلامه ، ولعلنا قد أسرفنا في شكوانا .

اونون :ــ تذكري انه ربي في احضان امرأة متوحشة .

فيدر :ــ ولكنها قد احبت ، على جفائها وتوحشها .

اونون :ــ انه يكره النساء كل الكراهة .

فيدر :ــ على هذا فلن تفضلني عنده امرأة اخرى . واخــيراً فكل نصائحك في غير وقتها . أعيني هواي ودعك من عقلي . انه ليصد عن الحب بقلب نفــور ، فلنلتمس لغزوه جانباً أطوع : يظهر ان سحر المملكة يغريه . لقد جذبته أثينا فما استطاع ان يكتم ذلك ؛ ها هي ذي سفنه قد ولت الوجوه شطرهــا وأشرعتها في قبضة الرياح . اذهبي واطلبي عني هذا الشاب الطمح يا اونون ؛ لوحي لعينيه ببريق التــاج . فليضع على جبينه الاكليل المقدس ؛ لا اريد غير شرف عقده بيدي . لأنزل له عن هذا السلطان الذي أعجز عن حفظه . سيكون قدوة لابني في فن الحكم ؛ ولعله يريد ان يكون منه في مكان الأب . اني اضع قيد تصرفــه الولد وأمه . ومهما دار الأمر فحاولي كل السبل لتليين عريكته . ستحظى كلماتــك بتوفيق اكبر . ألحي ، اذرفي الدمع ، نوحي ، إرث بين يديه لفيدر تجود بانفاسها ؛ لا تحرجي قط من اتخاذ صوت ضارع متوسل . سأقر كل ما تفعلين ؛

ليس لي امل سواك ، اذهبي . أنتظرُ عودتك لاقرِّر مصيري .

المنظر الثاني

فيدر « وحدها »

ايتها الحقود « فينوس » ، انت التي ترين ما ترديّتُ فيه من عار ، ألا خبريني هل يكفي ما نزل في ساحتي منه ؟ اما انك لا تستطيعين ان تذهبي في القساوة الى ابعد مما وصلت . اكتملَ نصرُك ، وما فوّقت من سهم إلا كان صائباً . ايتها القاسية ، اذا كنت ترغبين في مجد جديد فسددي الضرب الى عدو اكثر تمرداً . ان هيبوليت ليفلت منك ؛ وهو يستهين بسخطاك ويأبى ان يركع على مذابحك . ولكأن اسمك يجرح اذنيه المزهوّتين . ايتها الآلهة هلا انتقمت لنفسك : اشتبهت قضيتانا . فليحب . . . ولكن مالي اراك يا اونون عائدة من حيث ذهبت ؟ انه يبغضني ويأبى ان يصغي اليك .

المنظر الثالث

فيدر ، اونون

اونون : — عليك يا سيدتي ان تخنقي فكرة حب باطل في نفسك ، اذكري فضيلتك الماضية . الملك الذي ظُن انه ميت سيظهر امامك . لقد وصل تيزيه ؛ انه لفي هذه الاماكن . اما الشعب فبادرَ لرؤيته وتهافت . كنت خارجة أبحث وَفق أمرك عن هيبوليت واذا آلاف الأصوات المنطلقة الى السماء . . .

فيدر : — زوجي حي ، يكفي هذا يا اونون . لقد اعترفت بحب يمس كرامته اعترافاً قبيحاً . انه يعيش : لا اريد ان اعلم اكثر من ذلك .

اونون : — ماذا ؟

فيدر : — لقد تنبأت لك بذلك ، ولكنك ابيت ان تمضي (١) نبوءتي . تغلبت دموعك على وخزات ضميري العادلة . كنت سأموت هذا الصباح جديرة ان يبكيني الناس ؛ ثم اتبعت نصائحك فاذا انا اموت غيرَ شريفة .

اونون : — تموتين ؟

(١) أمضي الشيء : اجازه وقبله

فيدر : ـــ يا عدل السماء ! ماذا صنعتُ هذا اليوم ؟ سيظهر زوجي وابنه معه . سأرى الرجل الذي شهد غرامي الأثيم يلاحظ بأي وجـــه أجرؤ على الاقتراب من ابيه بقلب مورّم بالزفرات التي لم يصغ اليهـا ، وعين رطبة بالدموع التي لم يعطف عليها . اتعتقدين انه سيطوي عن تيزيه خبر غرامي ، وهـو الحريص على شرفه وحسن سمعته ؟ ايأذن لانسان ان يخدع اباه ومليكه ؟ أيستطيع ان يكبح ما في نفسه من كراهة لي ؟ سيكون صمته من غـــير جدوى . أعرف حنثي وخياتي يا اونون ، ولست من هؤلاء النساء الوقحات اللواتي يتذوقن في الجريمة سلاماً هادئاً ويَبْدين على الناس بوجوه لا يعرف الخجل اليها سبيلاً . أعرف جنون هواي وانه لمـاثل نصب عيني بأجمعه . يخيل الي الآن ان هذه الجدران والقباب ستتكلم ، وانهـا مستعدة لتعنيفي ، فهي تنتظر زوجي لتكاشفه بحقيقتي . لأمت . لينقذني الموت من اهوال واهوال . أيكون انقطاع الحياة بلاء كبيراً ؟ ما كان الاشقياء ليُرعبوا من الموت ابداً . انما اخشى الذكر الذي اترك ورائي . فانه ما كان اقبحه ميراثاً لابنـائي التعساء ! انهم لَيُزهَوْن بدم جوبيتير ، ابي الآلهة ، يجري في عروقهم ويثبّت قلوبهم ؛ ولكن مهما يكن ذلك العُجب الذي يلهمهم اياه سمو اعراقهم صائباً ، فان جريمة الأم حمل باهظ لا يطاق . اني لأرتعد خوفاً من ان يرقى ذات يوم الى اسماعهم احاديثُ تصِمُ بالحق ، وا اسفاه ، امّهم . يهولني ان ينوء بهم ذلك الحمل الكريه ، فلا يجسر احدهم على رفع بصره .

اونون . ـــ لا مجال للشك في ذلك ؛ اني لأرثي لهم جميعاً . ابداً لم يكن خوف في محله كخوفك . ولكن لماذا تعرّضينهم لعار كهذا ؟ لماذا تشهدين انت على نفسك ؟ تقضي الامر ؛ ليقولُنّ إن فيدر قد أبعدتْ في الجريمة فهي تتجنب ان ترى زوجهـا بعد اذ نكثت عهده وتخشاه . وليبتهجَنّ هيبوليت بانتهاء ايامك لأنك تدعمين بذلك اقوالهم . ماذا عساني اقول لمن يشي بك ؟ لن يكون في يدي غير ان اخنس امامه واسكت . سأراه يستمتع بنصره الرهيب ويتحدث بعـارك الى من يريد . آه ! احرى بي ان تلتهمني نيران السماء ! لكن اصدقيني ، الا يزال حبيباً اليك ؟ بأي عين ترين هذا الأمير الجريء ؟

فيدر ؛ ـــ اراه مسيخاً يهول العين ويؤلمها .

اونون ؛ ـــ لماذا تبيحين له اذاً كامل النصر ؟ انت تخشينه . الا فلتجرئي على اتهامه

بالجرم قبل ان يسبقك اليوم الى ذلك . اي شيء قد يكذبك ؟ كل شيء ينطق ضده : تركه السيف لحسن الحظ بين يديك ، اضطرابك الحاضر وسخطك الماضي ، نفور ابيه منه منذ طويل لما سبق من احتجاجك ، ثم سعيك لنفيه وفوزك به .

فيدر : — انا ، ان اجسر على ظلم البريء وتسويد صفحته ؟

اونون : — سأغنيك عن ذلك ، ولا اريد منك غير السكوت . انني ارتعد مثلك لذلك ولا اعدم وخز ضمير . كنتُ خليقة ان اختار الموت الف مرة على هذا العمل . ولكنني لا بد فاقدتك بغير هذا العلاج البغيض ، وحياتك عندي يهون في سبيلها كل شيء . سأتكلم . سيغضب تيزيه ويثور بما سأنهي اليه من خبر ، ولكنه لن يجاوز في انتقامه ان ينفي ابنه . الأب حين يجازي يا سيدتي لا يخرج عن ابوته ؛ عقوبة خفيفة تهدئ غضبه . على انه اذا وجب اهراق الدم البريء ، فأي شيء نتكل عن بذله لقاء شرفك المهدد ؟ انه لكنز أثمن من ان نعرضه للخطر. مهما يفرض عليك من امر فعليك ان تذعني له ؛ واذا اردنا استنقاذ الشرف المهدد فعلينا ان نضحي بكل شيء ، حتى بالفضيلة . جاءوا ؛ ارى تيزيه .

فيدر : — آه ! ارى هيبولت ؛ ارى في عينيه العاتيتين ما كُتب لي من هلاك . انت وما شئت ، اسلمتُ امري اليك . في هذا الاضطراب الذي يغمرني لا املك لنفسي خيراً .

المنظر الرابع

تيزيه ، هيبوليت ، فيدر ، اونون ، تيرامين

تيزيه : — لن يكون الحظ بعد اليوم حرباً على اماني ، وبين ذراعيك يا سيدتي...

فيدر : — قف يا تيزيه ، لا تدنّس جميل الأفراح . اصبحتُ غير اهل لرقيق عاطفتك . لقد اسيءَ اليك . لم يرعَ القدَر الحاسد حرمة زوجك في غيابك . لست جديرة بان احظى باعجابك ولا بقربك ، وعليّ الا افكر بعد الآن إلا في الاحتجاب .

المنظر الخامس

تيزيه ، هيبوليت ، تيرامين

تيزيه : — ما هذا الاستقبال الغريب الذي تلقَّتْ به اباك يا بني ؟

هيبوليت : — فيدر وحدها تستطيع ان تميط اللثام عن هذا السر . على انه اذا كان لرغباتي الحارة ان تلقى منك استجابة ، فأذن لي يا سيدي ألا اراها ابداً . ائذن لهيبوليت المرتجف ان يتوارى الى الأبد عن هذه الاماكن التي تعيش زوجك فيها .

تيزيه : — انت يا ولدي ، تفارقني ؟

هيبوليت : — لم اكن اسعى اليها : انت الذي قدت خطاها الى هــــذه السواحل ، تنازلتَ يا مولاي ، فأودعت غداة رحيلك شواطئ « تريزين » الملكة وآريسي . بل انك وكلت الي امرها . ولكن اي واجب قد يضطرني الى البقاء بعد اليوم ؟ بحسب شبابي العاطل ما اظهر من مهارة بين الغابات في مطاردة اعداء لا شأن لهم . الا استطيع حين اغادر هذه السكينة الزرية ان اخضب حرابي بدم امجد ؟ لقد احس بوطأة ساعدك اكثر من ظالم عات ، وكنتَ بعد لم تدرك السن التي انا فيهـا . قبل ذلك كسرت شوكة البغاة واعدت الطمأنينة الى شواطئ البحرين ؛ فأصبح السائح حراً لا يخشى اذاة ، وانتشى هركول على صليل سيوفك ، واتكل في عمله عليك (١) . وانا ، هذا النجل المغمور لاب ماجد عظيم ، لا ازال بعيداً حتى عن آثار والدتي . اسمح لي ان اشغل آخر الأمر شجاعتي بأمر . واذا كان قد فاتك احد الأشقياء فاذن لي ان اتشرف فأغدو بجثمانه على قدميك ، او ان تخلّد ذكرى موت مجيد اياماً قضيتها بشرف ، فأبرهن للعالمين اني ابنك .

تيزيه : — ماذا ارى ؟ اي فظاعة انبثّت في هــــذه الاماكن فطفق ابناء اسرتي يلوذون بالفرار ؟ ان كنت اعود مخوفاً غير مرغوب فيّ ، فلماذا استنقذتني ايتها السماء من سجني ؟ لم يكن لي غير صديق واحد ساقه الهوى الجموح الى اختطاف زوجة الطاغية في « ابيريا » ؛ كنت اعينه وانا آسفٌ على تحقيق رغائبه ؛ غير ان الحظ الناقم اعمانا نحن الاثنين . اتاني الطاغية على حين غرة لا املك سلاحاً ولا اقوى على دفاع . رأيت « پيريتوس » ، ذلك الصديق التاعس الذي طالما انهالت

---

(١) يقول بلوتارك ان تيزيه بدأ يحارب عصابات الاشقياء عندما أوى هركول الى « ليديا » .

عبراتي عليه ، يلقي به ذلك المتوحش الجافي الى سباعه الضارية التي كان يغذيها بدماء البائسين . اما انا فقد رمى بي في غيابة كهف سحيق على مقربة من مملكة الظلام . واخيراً ، بعد ستة اشهر ، التفتت الآلهة اليّ ورحمتني ؛ اذ عرفتُ كيف اخاتل ساجني وأطهّر الارض منه . لقد عاقبت هذا العدوّ الخئون أنكأ عقوبة ، فتركته هو نفسه جزَرَ سباعه (١) . فعندما طربت وتهللت لفكرة الاقتراب من أولئك الذين جعلتهم الآلهة احبّ الناس الي ، ماذا اقول ؟ بل عندما عادت روحي الى نفسها وجاءت تتمثّى وجوهاً عزيزة حبيبة ، فانني لم احظ من كل لقاء إلا بالرجفان والهروب والامتناع من ضمي وتقبيلي . انا نفسي اصبحت اشعر بالخوف الذي اوحيه اليهم واتمنى لو كنت لا ازال في سجون « ابيريا » . ألا اخبرني ، ان فيدر تشتكي من انني أهينت ، فمن ذا الذي غدر بي ؟ لِمَ لم يغضب احد لكرامتي ؟ هل آوت اليونان الجاني اليها ، على اخلاصي لها وحسن بلائي في الذود عنها ؟ أراك لا تحير جواباً . أيواطئ ولدي الأعداء على ابيه ؟ لندخل . كثير ان اكتم هذا الشك الذي ينوء بي . لنعرف الجناية والجاني معاً . على فيدر ان توضح آخر الأمر القلقَ الذي يغمرها .

المنظر السادس

هيبوليت ، تيرامين

هيبوليت : — إلامَ يرمي حديثها (٢) الذي جمّدني رعباً ؟ أتريد فيدر ، وهي دوماً فريسة غضبها البالغ ، ان تعترف فتورد نفسها مورد الهلاك ؟ يالالَهه ! ماذا سيقول الملك ؟ أي سم زعاف صبه الحب على ابناء بيتها جميعاً ! انا نفسي ماذا كنت يوم رآني مودعاً وماذا صرت هذا اليوم ، بعدما خفق قلبي بحب يبغضه ولا يقرّه (٣) . اني لأطّيّر من المستقبل وأفرق . على انه ليس للبريء ان يخشى شيئاً . هلم . لنبحث في مكان آخر عن طريقة لبقة نثير بها حنان ابي ونكاشفه بحب قد يرغب في تنكيده ، ولكنه لن يستطيع ، على قوّته وسلطانه ، ان يضعف من شأنه .

---

(١) اي تركته قوتاً لها تأكله (٢) حديث فيدر (٣) يريد ان اباه يبغض « آريسي » ولا يقر ابنه على الزواج منها .

الفصل الرابع

المنظر الاول

تيزيه ، اونون

تيزيه : — آه ! ماذا اسمع ؟ أيهبيء الخائن المتهور هذه الاساءة لشرف ابيـــه ؟ بأي قساوة تطاردني ايها القدر ! لا اعرف اين اسير ولا اين انا . ايهـا الحنان ، ايهـا الطيب الذي لم يقابَل بغير السوء . يا للخطة الجريئة ! يا للفكرة البغيضة ! كان الوقح يطلب العون بالقوة ليحقق رغبات حبه الداعر . لقـــد عرفت السيف الذي انتضاه في غضبة هواه ، هذا السيف الذي قـلدته اياه لمطلب اسمى (١) . ألم تستطع روابط الدم جميعاً ان تصدّه عن فعلته ؟ ثم تريد فيدر أن تـــؤخر جزاءه ! اتريد بسكوتها ان ترفق بالجاني ؟

اونون : — احرى ان نقول انها ترفق بالأب المسكين . لقد آلمها وأخزاها قصد العاشق الضال وما تبرق به عيناه من لواعج حب أثيم ؛ فهي تجود بذمائها (٢) يا مـولاي ، وان اليد القاتلة لتطفيء النور الطهور في عينيها . رأيتها تشير بيـ[illegible] ـــبادرت لانقاذها . انا وحدي عرفت ان احفظها لحبك ؛ واذ رثيت لاضطرابها ولمخاوفك معاً جعلت من نفسي وانا كارهة ترجماناً لدموعها .

تيزيه : — يا للخائن ! لم يستطع ان يتجلد من الاصفـرار . رأيته يرتجف خوفاً وهـو يقترب مني . عجبت من ضآلة ابتهاجه ؛ حتى لقد جمّد عناقه الفاتر حناني . لكن هل ذاع في اثينا ما يعصف به من حب اثيم ؟

اونون : — تذكر يا مولاي شكاوى الملكة . ان هذا الحب الآثم اثار جماع ما في نفسها من بغضاء .

---

(١) يريد السيف الذي اختطفته منه فيدر ثم زعمت مربيتها انه كان يهدد به امرأة ابيه .
(٢) تجود بذمائها : تموت

تيزيه : — هذا الغرام قد عاد اذاً في ترزين ؟

اونون : — لقد حدثتك يا سيدي بكل ما جرى . كبير أن نترك الملكة وعذابها القاتل ؛ اسمح لي ان اغادرك لأكون الى جانبها .

المنظر الثاني

تيزيه ، هيبوليت

تيزيه : — آه ! هاهوذا . ايتها الآلهة العظام ، اي عين لا تخدع كعيني بهذه الهيئة الوقور ؟ أيجوز ان يلتمع سنى الفضيلة على وجه حانث غادر ؟ اليس ينبغي ان تكون ثمة شارات تعرف بها قلوب الخونة الغُدُر ؟

هيبوليت : — استطيع ان اسأل يا مولاي اية غمامة كاربة عكرت محياك الجليل ؟ الا تجرؤ فتأتمنني على سرك هذا ؟

تيزيه : — يا لك من خائن ! أتجرؤ على المثول أمامي ؟ ايها الشقي الذي ترفقت به الصاعقة وابقت عليه اكثر مما ينبغي ، ايتها النفاية الباقية من اللصوص الذين طهرتُ من رجسهم الأرض . بعد حميا حب مفعم بالفظاعة تجرؤ فتبدي لي وجهاً عدواً ، وتخطر في محال مملوءة بعارك ، ثم لا تضربُ في الارض لتبحث تحت سماء مجهولة عن بلاد لم يصلها اسمي بعد . أنج بنفسك ايها الوغد . لا تستهن بحقي ابداً ، ولا تتعرض لحوة غضب لا اكاد اطيق لها كظما . حسبي من العار الذي لا يُمحى أنني نسلت ولداً يخيبُ في الأثم ، فلا يزدني موتك عاراً بما يدنس به نبيل مجدي . اهرب ؛ وان كنت راغباً عن ان يضيفك عقاب مفاجيء الى الاشقياء الذين نكلت بهم يدي هذه فحذار ان يراك الكوكب الذي يشرق علينا تضع قدماً متهورة في هذه الاماكن ابداً . اقول اهرب ؛ حث الخطا بغير رجعة وطهر بلادي من كريه مرآك . وانت يا نبتون (١)، اذا صح انه سبق لشجاعتي ان طهرت شاطئك من قتلة قباح ، فلتذكر وعدك لي بالاستجابة لأول امنية ، مكافأة لي على جهودي الموفقة . لقد عانيت ما عانيت في ظلمات سجن رهيب من دون ان ابتهل الى قدرتك الخالدة . واذ كنت حريصاً على المونة التي انتظرها منك فقد ادخرتك لحاجات اعظم . اليوم

---

(١) آله البحر

ادعوك . انتقم لاب تعس . اني أ كل هذا الخائن لغضبك . اخنق بالقضاء عليه رغباته الداعرة : ان تيزيه ليتعرف احسانك في بطشك .

هيبوليت : — فيدر تتهم هيبوليت بحب أثيم ! ان هول هذه الفظاعة ليهمني ويغمني فما استطيع الى قول سبيلا . فاجأتني الصدمات دراكاً فخنقت صوتي والزمتني السكوت .

تيزيه : — كنت ترجو يا خائن ان تدع فيدر طي كتمان جبان سفاهتك ووحشيتك . كان عليك لدى هروبك ألا تترك السيف في يدها ليؤكد جرمك . لا بل كان عليك ان تسير في خيانتك الى آخر الشوط فتحرمها بضربة واحدة الكلام والحياة معاً .

هيبوليت : — كان علي بما استفزتني به هذه الفرية (١) السوداء ان اتيح للحقيقة ان تتكلم يا سيدي ؛ على انني لا احب ان أزيح النقاب عن سر يمسك . تقبل الاحترام الذي يحملني على الكتمان قبولاً حسناً ؛ دعك من الرغبة في زيادة آلامك ، واستعرض امامك ماضي حياتي وما تعرفه عني . لا بد ان يسبق الجريمة العظمى بعض الجرائم ؛ فالذي يتخطى الحدود المشروعة يستطيع في النهاية ان ينتهك حرمة اقدس الحقوق ؛ للجريمة دركاتها (٢) ، كما ان للفضيلة درجاتها ؛ أبداً ما رئيت البراءة الحيية (٣) تثب بغتة الى الدعارة المتطرفة . وما كان ليوم واحد ان يرد الفتى الفاضل خائناً قاتلا او فاجراً جباناً . لقد ربيت في احضان بطلة عفة ، ولم اخرج يوماً على طبيعة اصلها . ان « بيثيه » ، وهو الحكيم المعروف بين الناس ، تواضع فتولى تهذيبي كذلك بعد ما تخرجت على يديها . لا اريد ان اغالي في تزكية نفسي ؛ بيد انه اذا كان لي من الفضيلة نصيب يا سيدي ، فأنا اعتقداني اظهرت للملأ على الخصوص شديد كرهي للفواحش التي يجسرون على نسبتها الي . بهذا عرف هيبوليت في بلاد اليونان . لقد دفعت الفضيلة الى القساوة ؛ وعرف الناس صرامتي التي لا تنثني . ليس النهار باطهر من سريرتي . ومع ذلك فهم يدعون ان هيبوليت قد تيمه هوى داعر . . .

تيزيه : — اجل ، ان هذا الغرور نفسه هو الذي يظاهر عليك ايها الوغد . اني لارى مبدأ فتورك البغيض : فيدر وحدها هي التي فتنت عينيك العاهرتين ؛

(١) الفرية : الكذبة (٢) الدركة : الدرجة الى أسفل . (٣) مؤنث حيي : ذو حياء

واذ كنت زاهداً في كل ما سواها فقد كرهتُ ان تتحرّق بنـار حب بريء .

هيبوليت : — كلا يا ابت ، كثير ان اكتمك ما في قلبي : انه لم يأنف قط من الاكتواء بنار حب عفيف . اعترف على قدميك بذنبي الحقيقي : انني احب ؛ احب ، حقيقة، رغم نهيك . لقد استعبدتني « آريسي » في هواها . ابنة البالانتيين تتلبت على ابنك. اهواهـــا ، وقـــد عصيت امرك ، فـما استطيع ان احنّ ولا ان اتحـــرق الا لاجلهـا .

تيزيه : — تهواها ؟ يا للسماء ! كلا ، تلك حيلة جافية . تتظاهر بالاجرام لتبرّئ نفسك .

هيبوليت : — مولاي ، منذ ستة اشهر احبها واتحاماها . كنت آتيـــاً وانا مرتجف لاذكر لك ذلك . واعجبا ! اما من شيء يخرجك من خطئك ؟ بأي آبدة من الأيمان ينبغي ان ادخل الطمأنينة الى قلبك ؟ فلتكن الارض والسماء والطبيعة . . .

تيزيه : — دأب الفسقة دوماً ان يلجؤوا الى الأيمان . أقصِرْ ، أقصر ، أجنبني هذا الحديث الثقيل ، اذا لم يكن لفضيلتك الزائفة غوث آخر .

هيبوليت : — اذا كانت تلوح لك زائفة مخادعة فان فيدر لتنصفني في اعماق قلبها .

تيزيه : — آه لكم تثير بوقاحتك سخطي !

هيبوليت : — أي موعد تضرب لنفيي ، واي مكان ترسم ؟

تيزيه : — لو انك انتبذت ما وراء اعمدة « ألسيد » لكنتُ مـا ازال احسبني قريباً من خيانتك .

هيبوليت : — أي الاصدقاء سيرثون لحالي ، بعد ما حملت علي هـــذا الاثم المقيت وهجرتني ؟

تيزيه : — اذهب والتمس أصدقاء يكرمون الزور باحترامهم النحس ويهتـفون للفجور ، من كل خائن جاحد لا خلاق (١) له من شرف ولا رادع له من قانون ، جدير ان يحمي كل شرير مثلك .

هيبوليت : — اما تنفك تحدثني عن الزور والفجور ؟ الازم الصمت . ومع ذلك فان فيدر انحدرت من أم تعرفها يا سيدي ، ومن ذرية ألصق بهذه الفظائع مني .

---

(١) الخلاق : النصيب

تيزيه : — ماذا ؟ أليس لحنقك امامي رادع ؟ للمرة الاخيرة : افرب عن وجهي : اخرج يا نذل. لا تنتظر ابا غضوبا ان يأمر بك فتهان وتجر من هذا المكان .

المنظر الثالث

تيزيه « وحده »

ايها الشقي ، لأنت تبادر الى هلاكك المحقق. لقد اعطاني نبتون وعداً بلسان النهر الذي تخافه الآلهة انفسهم ، وانه لمنجز وعده . انه منتقم يطاردك ، فما تستطيع منه فراراً . كنت احبك ؛ واني ، على اساءتك ، لأحس باحشائي تتفطر (١) من الآن حزناً عليك . غير أنك دفعتني للتنكيل بك دفعاً . هل أسيء الى اب حقاً كما أسيء الي ؟ أيتها الآلهة الذين يرون ما يهظني من ألم كيف استطعت ان ألد ولداً في هذا الاجرام ؟

المنظر الرابع

فيدر ، تيزيه

فيدر : — مولاي ، اتبعتك والخوف يملأ جوانحي . لقد نفذ صوتك الرهيب الى قلبي فأنا اخشى ان يتحقق بالعجل وعيدك . اذا لم يفت الوقت بعد فاستبق دمك ، وارجوك ان تحترمه . أنقذني من هول ان اسمعه يعلي صوته بالصياح ؛ لا تعتد لي ألماً باقياً بما جعلت يد أبيه تريقه .

تيزيه : — كلا يا سيدتي ، أبداً ما ابتلت يدي بدمي . بيد أن هذا الولد العاق لم ينج مني على كل حال . ستتولى قتله يد أزلية . لقد اخذت عهداً على « نبتون » بذلك ، فلتثأرن لنفسك .

فيدر : — بذلك تعهد نبتون ! ماذا ؟ ان سورة غضبك . . .

تيزيه : — عجباً ! أتخشين ان تستجاب رغباتي الحق ؟ أحرى بك ان تضمي صوتك اليها . اعيدي تصوير جرائمه على مسمعي بكل ما فيها فظاعة وفحش ؛ هيجي ثورتي

---

(١) تتشقق

البطيئة الراقدة . لا يزال بعض جرائمه مجهولا لديك : فقد انتثرت نقمته شتائم . الك ؟
فلك ، على حد قوله ينطق بالبهتان ؛ وهو يزعم ان آريسي قد استأثرت بقلبه واخذت
عهده ، وانه لها عاشق .

فيدر ، — ماذا ! مولاي ؟

تيزيه ، — قال ذلك امامي . على انني عرفت كيف افند (١) حيلته وادحض مكره .
لترج من نبتون عدلا وشيكا . سأذهب بنفسي كذلك الى مذابحه فأستعجله ان يبر
بوعوده الوثقى .

المنظر الخامس

فيدر « وحدها »

لقد خرج . اى خبر طرق اذني ! اي نار لم تخب في قلبي جيداً عادت الى
ضرامها ؟ يالها ضربة صاعقة ايتها السماء ! وياله من خبر نكد ! كنت اطير لنجدة
ابنه ؛ وقد انتزعت نفسي من ذراعي اونون المروعة واذعنت لوخز الضمير الذي
كان ينهكني . من ذا الذي يعرف الى اين كنت سأبلغ بالندامة ؟ لعلي كنت ارتضي
ان اعترف بأثمي ؛ لعلي لولم أقاطع لكنت بحت بالحقيقة الراعبة . ان هيبوليت شعوراً
وهو لا يشعر نحوي بشيء ! لقد ملكت آريسي قلبه ! واخذت آريسي عهده !
يا للآلهة ! لما امتنع الجاحد على رغبتي ، وترفع بنظرة شامخة وجبين مزهو ، خيل
الي ان قلبه الأغلف (٢) ممتنع كذلك على سائر النساء . ومع ذلك فقد استطاعت
امرأة غيري ان تفل غربه (٣) . امرأة غيري استطاعت ان تروق عينيه القاسيتين .
لعل له قلباً رفيقاً عطوفاً . انا المخلوقة الوحيدة التي لا يطيق احتمالها ؛ أأنتدب مع
ذلك للدفاع عنه ؟

المنظر السادس

فيدر ، اونون

فيدر : — ايتها العزيزة أونون ، أتعلمين اى خبر بلغني ؟

(١) فنده : كذبه ونسبه الى خطأ الرأي والعجز (٢) قلب أغلف : كأنما أغشي غلافاً فهو لا يعي .
(٣) فل غربه : كسر حده .

اونون : — كلا ، ولكن لا اكذبك فقد جئت خائفة راجفة . تولاني الاصفرار مما خرجت له من قصد . خشيت ان يعود عليك الاضطراب بالشر والوبال .

فيدر : — ان لي منافسة يا اونون ، من كان يظن ذلك؟

اونون : — كيف ؟

فيدر : — هيبوليت يحب ، لقد برح عني الخفاء . هذا العدو النابي الذي عجزت عن تذليله ، والذي كان الاحترام يغيظه والشكوى تضجره ، هذا النمر الذي لم اقترب منه يوماً إلا على خشية ، لقد خضع واستأنس واعترف بآسر : اذ وجدت آريسي طريقاً الى قلبه .

اونون : — آريسي ؟

فيدر : — آه ؛ يا للآلام الشداد لم أكابد مثلها ابداً ! فلأي عذاب جديد استمهلتني الايام ! كل ماعانيته من مخاوف وآلام ولذع سعير ، واهانة نالني بهـا رفضه بشر كبير ، لم يكن الا بداءة واهنة لما يرهقني من عذاب . يتحابان ! بأية رقية خدعا عيني ؟ كيف التقيا ؟ منذ كم ؟ في اي مكان ؟ كنت على علم بذلك ، فلماذا تركتني وضلالي ؟ ألم يكن في ميسورك ان تخبريني بمكتوم غرامها ؟ هل وجدا كثيراً يسميان الى بعضها ويتحدثان ؟ أتراهما كانا يستخفيان في بطون الغاب ؟ وا اسفا ! كانا يلتقيان بملء حريتها . كانت السماء ترتضي بريء زفراتها ؛ كانا يجريان مع الهوى بضمير مرتاح ؛ وكانت الايام تشرق عليهاوضاحة صافية . وانا ، تلك المحزونة التي طردتها الطبيعة كلها ، فاني اتواري عن النهار وابتعد عن الضياء : الموت هو الآله الوحيد الذي اجرؤ على التوسل اليه . انني انتظر ساعة هلاكي ، الحسرة تغذوني والدموع ترويني ؛ ولكنني جد مراقبة في محنتي ، فما اجرؤ على اغراق نفسي بدموعي في هدوء . كنت استمتع وانا خائفة بهذه اللذة الكاربة ؛ كان علي ان أواري مخاوفي وجهاً هادئاً وان امتنع في الغالب عن البكاء .

اونون : — ماذا يجدي عليها حبها الباطل ؟ لن يتقابلا بعد اليوم .

فيدر : — سيتحابان الى الأبد ساعة احدثك ، آه ! يا للفكرة القاتلة ! انها لا يعبأان بعاشقة حمقاء . وعلى هذا النفي نفسه الذي سيفرق بينهما انهما يوثقان بالأيمان اتحادهما كلا ، لا اطيق سعادة تهينني يا اونون . الا فلترحمي غيرتي وغيظي . يجب ان تزول آريسي . يجب ان أوقظ حقد زوجي على دمها البغيض . ينبغي له ألا يقتصر على

عقوبات خفيفة : فان اثمها يفوق إثم اخوتها . اريد ان استنفيه وانا في حمـــوة غيرتي . ولكن ماذا أراني فاعلة ؟ في اية مَضَلّة يتيه عقلي (١) ؟ انا غيريّ ! وتيزيه هو الذي استنفيه ! زوجي حيّ وانا لا ازال اتلظى ! لاجل من ؟ من هـــو ذلك القلب الذي اطمح ببصري اليه ؟ كل كلة ينتصب لهولها شعر رأسي . خطاياي قـد طفح كيلها. انني أزخم بالفجور والخداع . يداي القاتلتان تستعجلان الثـــأر لي وتتوقان الى الانغماس في الدم البريء . يالي من شقية ! ومع ذلك اعيش ؟ واستطيع النظر الى هذه الشمس المقدسة التي انحدرت منها ؟ جدي ابو الآلهة وسيـــدهم ؛ السماء والعالم اجمع يزخران باجدادي . أين استخفي ؟ لنهـــرب الى ظلمات جهنم . ولكن ماذا اقول ؟ هنالك ابي وفي يده الجرة المشئومة . يقولون ان القدر وضعها في يديه القاسيتين : مينوس (٢) يقضي في العالم الآخر بين المجرمين . آه ! لكم سيذعر ظله ويرتعد عندما يرى ابنته ماثلة بين يديه، مضطرة ان تعترف بكبائر مختلفة كثيرة وبجرائم لعل جهنم لم تعرف لها نظيراً ! ماذا عساك ان تقول يا أبت تلقاء هذا المنظر الرهيب ؟ لكأني ارى الجرة الرهيبة تقع من يدك ؛ لكأني اراك تبحث عن عقاب جديد وتريد ان تجازي ابنتك بيدك . اسألك الصفح . لقد شاء إله قاس لاسرتك الهلاك ؛ تحقق انتقامه من هيجان ابنتك . واأسفاه ! ابداً لم يقطف قلبي التاعس ثمار الجريمة البشعة التي يطاردني عارها . الرزايا تطاردني وانا اردد آخر انفاسي ، فأسلم الى الآلام حياتي الشاقة .

اونون : — مه مه ! انبذي يا سيدتي خوفاً لا دعامة له . انظري بعين أخرى الى ضلال لا يخلو من عذر . تحبين . ليس في يد الانسان ان يقهر حظه . أهي اذن اعجوبة لم نسمع بها من قبل ؟ ألم ينتصر الحب الى اليوم الا عليك ؟ الضعف طبيعة شائعة في الانسان . انما انت مخلوقة فانية فتحملي مصير المخلوق الفاني . أما انك لتشتكين من نير كُتب عليك منذ عهد بعيد . الآلهة انفسهم ، وهم ساكنو الاولمب الذين يرهبون الآثمين بهائل صوتهم ، فانهم قد اكتووا احياناً بنيران حب غير مشروع .

فيدر : — ماذا اسمع ؟ اي نصيحة تجرئين على الادلاء بهـا الي ؟ فانت اذن تريدين ان تسممي افكاري الى النهاية ايتها الشقية ؟ انظري كيف أرديتني . انت التي أعدتني

(١) لاحظ ترددها (٢) ابوها

يوم هربتُ . إلحافك هو الذي انساني الواجب. تحاميتُ هيوليت فأظهرته لي.ماذا تريدين ان تصنعي ؟ لماذا تجرّأ فمك الكافر على اتهامه وتسويد صفحته ؟ ربما كان في ذلك القضاء على حياته ، وربما استجيب دعاء ابيه الاحمق . لن اصغي اليـــك بعد الآن . اذهبي ايتها المسيخة الكريهة . اذهبي . أتركيني وحظي العاثر . فلتَسجزكِ السماء الجزاء الأوفى . وليكن عذابك عبرة دائمة تُخوّف بهـا امثالك الذين يغذون الأمراء التعساء بحيلهم الوضيعة، ويدفعون بهم الى المنحدر الذي تميل اليه قلوبهم ، ويمهّدون لهم طريق الغواية ، اولئك المداهنون المقبوحون ، اولئك الهدايا المشئومة التي لا يستطيع الآلهة الغضاب ان يدهموا الملوك بشرّ منها .

اونون « وحدها » : — آه ! ايتها الآلهة ! كل شيء فعلتُ من اجلها ، كل شيء تركت في سبيلها ؛ ثم اعود بهذا الجزاء ؟ الحق انني اهل لهذا .



الفصل الخامس

المنظر الاول

هيبوليت ، آريسي

آريسي : — عجباً لك ! أتطيق السكوت في هذا الخطر الماحق ؟ أتترك اباً محباً يعمه في الضلال ؟ يا قاسي ، ان كنت لا تعبأ بسلطان دموعي ، وتوافق من غير ألم على ألا تراني ابداً ، فارحل ، فارق المحزونة آريسي . على انه ينبغي لك حين ترحل ان تطمئن الى سلامتك . ادفع عن شرفك وصمة مخزية واقسر اباك على ترك رغبته . لا يزال في الوقت متسع . ماذا ، لاي عبث تترك المجال حراً لمن اتهمتك ؟ أوضح الأمر لتيزيه .

هيبوليت : — يا ويحي ! اي شيء قصرت عن قوله ؟ أكان علي ان اذيع عار سريره ؟ أكان علي ان اخبره بكل شيء فأغطي بالخزي وجهه ؟ انت وحدك نفذت الى هذا السر البغيض . قلبي لا يبيح سره إلا لك وللآلهة . انظري مبلغ حبي : فانني لم استطع ان اكتمك كل ما كنت أود الا اعرفه انا نفسي . ولكن فكري بطابع الكتمان الذي طبعته به حين اظهرتك عليه . تناسي اذا قدرت انني حدثتك يا سيدتي ؛ على فمك الطهور ألا يدنس قط بحكاية هذا الحادث الكريه . لنجسر على التسليم لعدالة الآلهة والاطمئنان اليها : انهم جد حرصاء على تبرئتي ؛ اما فيدر فلتجازين إن عاجلاً او آجلاً ولتعجزن عن ان تتجنب ما تستحق من فضيحة . هذا هو الشيء الوحيد الذي أصر عليك ان ترعي حرمته . وانا اسمح لحقدي ان ينطلق في كل ما عداه . أخرجي مما فرض عليك من عبودية ؛ لا تحرجي من اتباعي ومن مرافقتي في هروبي ؛ انتزعي نفسك من مكان شؤم ودنس ، حيث تتنسم الفضيلة هواء موبوءاً . اغتنمي لاخفاء رحيلك الوشيك فرصة البلبلة التي تخلقها محنتي هنا . في مكنتي ان أوطد لك سبل الفرار ؛ فانه ليس لك حتى الآن إلا من اقتهم حولك من حرس ؛ سيؤيدنا مناصرون اقوياء ؛ «آرغوس[1]» تبسط لنا ذراعيها ، واسبارطة تنادينا : لنحمل صيحاتنا العادلة الى اصدقائنا

---

(١) مدينة يونانية قديمة .

جميعاً ؟ لا ينبغي لنا ان نسمح لفيدر ان تطردنا من عرش آبائنا ، وان تبني مجدها على حطامنا ، وان تمنّي ابنها بجناني وجناناك . الفرصة سانحة ، علينا ان نغتنمها . أي خوف يمنعك ؟ كأني بك تترددين ؟ صلاح امرك وحده هو الذي المني هذه الجرأة . ما بالك باردة جامدة على حين اضطرم انا حماسة ؟ اتخشين ان تتبعي خطا رجل طريد ؟

آريسي : — ويح نفسي ! ما كان أحب مثل هذا النفي الى القلب يا سيدي ! ما كان اسعدني لو انني وقد ربطت مصيري بمصيرك استطعت ان اعيش منسية بعيدة عن الناس ! ولكن اما واننا لم نرتبط بعد برباط سعيد فهل استطيع ان افرّ بشرف معك ؟ انا اعلم انني استطيع ان اتحرر من ربقة ابيك من دون ان اخرج على حدود الشرف والكرامة : فانا بذلك لا انتزع نفسي من احضان اهلي ؛ وقد ابيح الفرار لمن يفر من ظالميه . ولكنك تحبني يا سيدي ؛ وشرفي المهدد . . .

هيبوليت : — كلا ، كلا ، لشد ما تهمني سمعتك . هنالك نيّة انبل قادتني اليك : اهربي من اعدائك ، والحقي بزوجك . واذ كنا حرّين في شقائنا كما قضت السماء ، فان امر زواجنا لهو في ايدينا . ليست المشاعل شرطاً اساسياً في الزواج . على ابواب « تريزين » ، وبين قبورها التي يرقد فيها امراء من ذوي قرابتي ، يقوم معبد مقدس يخيب كل من يحنث بعهده فيه . هناك لا يجرؤ حي على يمين فاجرة ، اذ يفاجأ الحانث بسريع العقاب ؛ ليس للافك (١) من رادع اخطر ، اذ لا عاصم لصاحبه من الموت . هنالك اذا ركنت الي سنوثق اليمين البَرة على حبنا الخالد ؛ سيكون اله ذلك المكان المعبودُ شاهدنا . سنسأله جميعاً ان يكون لنا ابا . سأشهد الآلهة الاكثر قدسية على ما نفعل . ان ديانا الطاهرة وجونون الجليل وسائر الآلهة سيشهدون حناني ويضمنون برّي بعقدي وعودي .

آريسي : — جاء الملك . لنهرب ايها الأمير ، ولنرحل على عجل . سألبث لحظة لأخفي رحيلي . اذهب ؛ واترك لي دليلاً مخلصاً يقود خطاي الوجلة اليك .

المنظر الثاني

تيزيه ، آريسي ، ايسمان

تيزيه : — ايتها الآلهة ! اكشفوا لي حيرتي وأظهروا لعيني الحقيقة التي انشد هنا .

---

(١) ألافك : الكذب

آريسي : — تدبري الامور يا عزيز

المنظر

تيزيه ، آريسي

تيزيه : — لقد حال لونك وكأنك أخـــذت على غرة يا سيدتي ، ماذا كان هيبوليت هنا ؟

آريسي : — كان يلقي اليّ وداعه الأبدي يا مولاي .

تيزيه : — لقد عرفت عيناك كيف تروضان هذا الفؤاد العصي ، وإن أولى لمن ناجح عملك .

آريسي : — مولاي ، يشق عليّ أن أنكر امامك الحقيقة : انه لم يرث عنك بغضاءك الظالمة ؛ ابداً لم يعاملني بما يعامَل به المجرمون .

تيزيه : — أفهم : كان يقسم لك يميناً خالدة . على انه لا ينبغي لك ان تركني الى هذا الرجل القلّب ؛ فقد كان يفعل مثل ذلك لغيرك .

آريسي : — هو يا سيدي ؟

تيزيه : — كان عليك ان تجعليه اقل طيشاً . كيف تحملين هذه القسمة الكريهة ؟

آريسي : — بل كيف تسمح انت لمرذول القول ان يلوث مجرى حياة نبيلة فاخرة ؟ هل ضئّل علمك به الى هذا الحد ؟ أتعجز عن تمييز الطهر من الاجرام ؟ أيكون لغمامة بغيضة ان تغشي فضيلته عن عينيك فقط على حين انها تتلألأ لكل عين ؟ آه ! كثيرٌ أن تسلمه الى افواه مخـادعة . أقصر ، استشعر الندامة على رغباتك القاتلة ؛ حذار يا مولاي حـــذار ان يبلغ كره السماء القاسية لك ان تستجيب دعواتك . فانها كثيراً ما تتلقى في غضبها ضحايانا ؛ وكثيراً ما تكون ألطافهـــا عقوبات لنا على آثامنا .

تيزيه : — كلا ، عبثاً تريدين ان تستري جنايته : ان حبك يعمي بصيرتك لأجله . على اني اتّكل في ذلك على شهود ثقات لا شائبة فيهم : فقد رأيت دموعاً صادقة تسيل .

آريسي : — خذ حذرك يا سيدي . يداك اللتان لا تقهران اراحتا الناس من عدد لا يحصى من الاشقياء ؛ بيد أنك لم تقض عليهم جميعاً ، وقد تركت على قيد الحياة

... مولاي ان ابنك عنعني من ان استمر . واذ علمت بالاحترام الذي يريد ان يبقيه عليك ، فانني قد أحزنه كثيراً اذا تجرأت وأكملت . اني لأحذو في الرصانة حذوه وابتعد عن حضرتك لئلا أضطر الى قطع السكوت .

المنظر الرابع

تيزيه « وحده »

ماذا يجول في رأسها اذن ؟ وماذا يخفي خطاب بدأته مرّات وقطعته مرّات !
أيريدان أن يموّها على الأمر باختلاق باطل ؟ أتراهما على اتفاق ليشمنا في عذابي ؟
ولكن انا نفسي ، على شدتي الشديدة ، اي صوت منتحب يصرخ من اعماق قلبي ؟
احس برحمة خفية تطيف بي فتغمني وتثيرني . لنسأل اونون مرة اخرى . اريد المزيد من الايضاح عن الجرم كله . ايهـا الحراس ، فلتخرج أونون ولتتقدّم وحدهـا الى هنا .

المنظر الخامس

تيزيه ، بانوب

بانوب : — مولاي ، انا اجهل الخطة التي تفكر الملكة فيها ، غير اني اوجس كل خيفة مما ينتابها من قلق . يأس قاتل ارتسم على محياها ؛ بل لقد بدأ شحوب الموت يرهقه واذ أهانت اونون وطردتها من حضرتها ، فان هذه ألقت بنفسها في البحر العميق . لا نعلم مردّ هذا العزم الرهيب ؛ ولقد غيّبها الموج عن أعيننا الى الأبد .

تيزيه : — ماذا اسمع ؟

بانوب : — بيد أن موتها لم يهدّئ الملكة ، بل خيّل الينا ان الاضطراب قد ازداد في نفسها الحائرة . فحيناً تريد ان تخفف مكتوم آلامها ، فتتناول ابناءها وتبللهم بعبراتها ثم يبدو لها فتزورّ عنهم وتدفعهم في مقت بعيداً عنها . انها تسير حائرة على غـــير هدى ؛ وعيناها الشاردتان لا تتعرّفاننا أبداً . لقد كتبت ثـلاث مرات ، ثم عادت فمزقت ما كتبت ثلاثاً . تفضّل برؤيتها يا مولاي ؛ تفضّل بنجدتها .

تيزيه : — يا للسماء ! أماتت اونون ، وتريد فيدر أن تموت ؟ لينادوا ابني ، فليـــأت

ليدافع عن نفسه ! ليحدثني ، فأنا مستعد للاصغاء اليه . نبتون ، لا تعجّل لي معروفك الوبيء . أحبُّ اليّ ألا أستجاب ابداً . لعلي صدّقت اكثر مما ينبغي شهوداً زوراً وعجلت في رفع يديّ القاسيتين بالشكوى اليك . آه ! بأي خيبة سأمنى !

المنظر السادس

تيزيه ، تيرامين

تيزيه : — أهذا انت يا تيرامين ؟ ماذا فعلت بابني ؟ لقد اسلمتك اياه منذ طراوة عوده . ولكن فيم هذه الدموع التي أراك تذرف ؟ ماذا يصنع ولدي ؟

تيرامين : — يا للعناية المتأخرة التي لا تجدي نفعاً ! يا للحنان الذي لا يفيد ! لقد هلك هيبوليت .

تيزيه : — يا للآلهة !

تيرامين : — رأيت أحب الناس يموت ، وأجرؤ فأقول يا سيدي انه اقلهم إثماً .

تيزيه : — أمات ولدي ؟ ماذا ؟ أعندما بسطت له ذراعيّ يضيق صدر الآلهة فيعجلون له الموت ؟ اية ضربة قاضية سلبتنيه ؟ اية صاعقة فاجئة ؟

تيرامين : — ما كدنا نخرج من ابواب تريزين حتى كان ممتطياً عربته ؛ وكان حرّاسه المذعورين صافّين حوله مخلدين الى السكوت مثله . كان يتابع طريق « ميسان » وهو مستغرق في التفكير ؛ وقد تركت يداه على الخيل اعنتها . اما جياده المختالة التي كنا فيما مضى نراها تطاوع امره في حماسة ونبل فقد كانت خاشعة الطرف منكسة الرأس ، كأنها تتجاوب مع فكرته الحزينة . ثم نشب صوت هائل من اعماق الموج فعكّر صفاء الجوّ في ذلك الحين ؛ واجابه من جوف الثرى صوت مجلجل معول . فتجمّدت الدماء في اعماق قلوبنا ، وانتفشت أعراف[1] الخيل المتنبّهة . وفي اثناء ذلك ارتفع على ظهر البحر جبل رطب يمور من حوله الزبد ؛ ثم اقتربت الموجة ، وتحطمت ، وقاءت امام اعيننا وحشاً هائلاً بين امواج الزبد . كان جبينه العريض مسلحاً بقرنين مخيفين ، وكان جسمه محاطاً بفلوس ضاربة الى الصفرة ، أما عَجُزُ

---

(١) جمع : عرف ، وهو شعر عنق الفرس

هذا الثور الذي لا يُقهر ، هذا الوحش المتجبّر ، فينحني ويتدرّج في تجاعيد . وكان يهزّ بخواره ارجاء الشاطىء . فالسماء تنظر اليه في سخط ، والأرض تضطرب له ، والجوّ يفسد به ؛ واللاجة التي حملته تتراجع في فزع . كل يلوذ بالفرار ؛ كل انسان لم يجدْ نفعاً بالتشبث بأذيال الشجاعة ، فهو يلتمس معتصماً في المعبد المجاور . هيبوليت وحده ، وهو ابن البطل بحق ، وقف جياده وأمسك بحرابه ، ثم اندفع شطر البهيمة وأوجرها سهماً بيد راسخة ترك في خاصرتها جرحاً بليغاً . جعل الوحش يقفز من غيظ ومن ألم ، وارتمى على اقدام الخيل يعوي ويجأر ، ثم تدحرج نحوها واوسمها من فمه المتلظي ناراً ودماً ودخاناً . عندئذ بلغ منها الخوف ، واعتراها الصمم ، فما تعرف رادعاً ولا تصغي الى صوت . عبثاً ذهبت جهود صاحبها . لقد احمر خطامها برغاوة دامية . حتى لقد ذُكر أنهم رأوا خلال هذا الاضطراب الرهيب إلهاً يضغط بالمهاميز جنوبها المعفّرة بالتراب . لقد أهوى بها الخوف بين الصخور ، فدوّى صوت المحور وتحطم ، ورأى هيبوليت المقدام عربته المهشمة تطايرُ إرباً إرباً؛ وتهاوت هو بنفسه بين الاعنّة لا يملك لنفسه خلاصاً . اعذر ألمي. ستكون هذه الصورة الفاجعة مصدراً لا ينضب لعبراتي . رأيت يا مولاي ابنك التاعس تجرّره الخيل التي كان يطعمها بيديه . يريد أن يناديها فتجفل بندائه وتجري . ولم يلبث جسمه ان ارتضّ وتقرّح . باصواتنا الأليمة دوّى السهل . واخيراً خفّت ثورة الخيل العاتية : فوقفت قريباً من تلك المدافن القديمة ، حيث رُمم اجداده الباردة . كان دمه الكريم هو الذي يقودنا : فقد كانت الصخور به مخضّبة ؛ وكانت اشجار العوسج الكريهة تحمل بقايا شعره الدامي ؛ وصلت فناديته فبسط اليّ يده وفتح عيناً محتضَرة ما لبث ان اغمضها وجعل يقول : « لقد انتزعت السماء مني حياة بريئة . إعتن بعد وفاتي بآريسي المسكينة . ايها الصديق العزيز ، إن تبيّن ابي ذات يوم خطأه فرثى لشقاء ابن متهم بغير الحق ، فقل له : اذا شئت ان تهدأ دمائي ويطمئنّ خيالي الشاكي فلتتلطف في معاملة أسيرتك ولتُعِد اليها . . . » عند هذه الكلمة لم يترك البطل المحتضَر بين ذراعيّ غير جسم شائه انتصر فيه غضب الآلهة ، حتى لتكاد تنكره عين ابيه نفسها .

تيزيه : — بنيّ ، بنيّ ! يا أملاً عزيزاً أضعتُه ! ايتها الآلهة الجفاة الذين بالغوا في الاستجابة لي ! أية حسرة قاتلة اعدّتها لي الأيام !

تيرامين : — حين ذاك قدمت آريسي محزونة كسيراً . قدمت يا مولاي هاربة من غضبك لتتقبل هيبوليت امام الآلهة زوجاً . اقتربت ، فرأت العشب الأحمر الداخن ؛ يا لهول ما وقعت عليه عينا هذه العاشقة ! رأت هيبوليت ممدداً بلا شكل ولا لون . لقد بدا لها ان ترتاب بعض الوقت في شقائها . فلما لم تعرف هذا البطل الذي تهواه جعلت تنظر الى هيبوليت وهي تسائل عنه . حتى اذا تحققت آخر الامر انه امامها وجهت اللوم بنظرة حزينة الى الآلهة ؛ ثم بردت اوصالها وعلا نحيبها وكادت معالم الحياة تفارقها وارتمت على قدمي حبيبها مغمياً عليها . كانت ايسمان الى جانبها ؛ انها تبكي وتناديها ان تعود الى الحياة او بالاحرى الى العذاب . اما انا فقد كرهت الي ذلك الحياة ؛ وانما اريد ان أنهي اليك رغبة البطل الأخيرة ، وان اقوم بما علي من مهمة محزنة كان عول في ادائها يا مولاي علي وهو يجود بانفاسه الأخيرة . لكني ارى عدوته اللدود قادمة .

المنظر السابع

تيزيه ، فيدر ، تيرامين ، بانوب ، حراس

تيزيه : — حسناً ! لقد انتصرت وقضى ولدي نحبه . آه ! ما كان احرى بي ان اخاف ! لكم يذعرني بحق ذلك الارتياب القاسي حين يبرئه في اعماق قلبي ! لكنه يا سيدتي قد مات ، فاليك ضحيتك : استمتعي بمهلكه ، على هدى كنت ام على ضلال . اوافق على ان تخدع عيناي على الدوام . اعتقد انه مجرم وذلك لأنك اتهمته . ان وفاته لدافع كاف لعبراتي ، فلا حاجة لي الى البحث عن ايضاح مقيت عاجز عن ان يخفف برده الي احزاني ، ولعله لا يستطيع الا ان يزيد شقائي . دعيني بعيداً عنك ، بعيداً عن هذا الشاطىء ، لاهرب من صورة ابني الدامية . اريد ان أجلو عن هذا العالم كله ، بعد إذ استبدت بي الاحزان وأقضت مضجعي الذكرى الفجوع . كل شيء يبدو مستنكراً ظلمي . حتى صيتي الذائع ، فانه يزيدني نكالا : فلو انني اقل شهرة لكنت أحسن توارياً . ان يغضي ليمتد حتى يتناول ما يشرفني به الآلهة من حسن التفات ؛ سأبكي بما نلت عندهم من حظوة قاتلة ، ولن اضايقهم بعد اليوم برجاء لا جدوى فيه . ألا إن معروفهم النكد ، مهما يحسنوا الي ، يقصر عن ان يعوضني ما انتزعوا مني .

فيدر : — كلا يا تيزيه ، يجب ان اضع حداً لصمت الخائر ؛ يجب ان نردّ على ابنك براءته : فانه ابداً لم يكن آثماً .

تيزيه : — آه ! ايها الأب التاعس ! ما قضيتُ فيه قضائي إلا معتمداً عليك ! أم حسبت يا ظالمة انك تعذرين . . .

فيدر : — لحظاتي ثمينة ، فأصغ اليّ يا تيزيه . انا التي تجرّأت ان أتي على هذا الولد العفّ الوقور نظرة فاجرة داعرة . لقد وضعت السماء في صدري غراماً شؤماً . ثم تولّت اونون البغيضة سائر الأمر . وانما خشيتُ ان يفضح هيبوليت غراماً لم ينل عنده حسن القبول ، بعد اذ عرف نقمتي عليه . لقد استغلّت الخائنة عظيم ضعفي فبادرت اليك تتهمه بنفسها . ثم جازت نفسها على ما فعلت ، وتجنّبت نقمتي اذ سعت الى حتفها هائمة في ثنايا الموج . كان على السيف ان يقضي عليّ ، لولا انني بذلك اترك الفضيلة تحوم حولها الريب . اردت ان أكشف امامك عن وخز ضميري فلم اتعجّل الموت . على انني تناولت سماً جاءت به « ميديه » الى اثينا فهو يسري في عروقي الملتهبة . الآن قد وصل السمّ الى قلبي الهالك وأشاع فيه برداً لا عهد لي به ، الآن لا ارى إلاّ من خلال سحابة تلك السماء وهذا الزوجَ الذي يثيره حضوري . ان الموت اذ يسلب عينيّ القدرة على تبيّن الاشياء يعيد الى النهار الذي كانتا تلوّثانه جلاءه ورواءه .

بانوب : — انها تموت ، مولاي !

تيزيه : — لتمت معها ذكرى عمل بغيض ! اما وقد ادركت خطئي في وضح النهار ، وا اسفاه ! فلأمزجْ دموعي بدم ابني التاعس . لنذهب فنضمّ الى صدورنا بقايا هذا الولد العزيز ، ونكفّر عن جنون نذر كريه . لنردّ عليه شرفه وامجاده التي نالها بحق ؛ ثم لا ندّخرْ وسعاً في تسكين روحه الثائرة ، فلتكن مني حبيبته منذ اليوم بمكان الابنة ، على الرغم مما حاكت اسرتها الباغية حولي من دسائس .



موليير

١٦٢٢ - ١٦٧٣ م

لعله كبير كتاب الملاهي في العالم ، وهو بلا جدال اعظم من كتبها في فرنسا . كان ممثلا ورئيس فرقة وشاعراً ينظم الملاهي وينثرها ، فحياته شبيهة بحياة شيكسبير من وجوه كثيرة ، وهو في فرنسا عدل زميله في انجلترا في نظر كثير من النقاد (١) .

ولد « جان باتيست بوكلان » الذي اختار لنفسه فيما بعد اسم « موليير » في باريس عام ١٦٢٢ من اب يشتغل بالتجارة ويقوم بوظيفة متعهد لبعض حاجات القصر الملكي (٢). وفقد امه وهو في العاشرة (٣) . وقد اراد له ابوه ثقافة حسنة فأدخله كلية « كليرمون » الشهيرة . ويقال انه اتصل بالفيلسوف « جاساندي » واخذ عنه كثيراً من آرائه الحرة (٤) ، ولكن البحث العلمي الحديث اثبت ان موليير لم يتلق عنه شيئاً (٥) . وقد حرص ابوه على ان يخلفه في عمله في القصر ، فتجحت مساعيه . ولكن الولد تابع دراسته في كلية الآباء اليسوعيين هذه ، في رفقة التلاميذ النبلاء والأمراء ، ولم يكن يفصلهم عن ابناء الطبقة المتوسطة غير سياج من حديد مذهب ! وقد بالغ بعض الباحثين في الثناء على ابيه ، وبالغ آخرون في ذمه ، وحاولوا ان يكتشفوا فيه الخطوط الاساسية للبخيل « هارباجون » كما رسمته يراعة موليير ، ولكنه كان في الواقع اباً يقوم بواجبه باعتدال ، ويبدو ناشف الطبع ، من غير ان ينطوي على قساوة .

اصاب موليير ثقافة واسعة في كليته . كانت الدراسة فيها تمتد خمسة اعوام يتلوها عام لعلوم البلاغة وآخران للفلسفة . وكان الآباء يعنون كثيراً باللغة اللاتينية وقليلا باليونانية ، على النقيض من منافسيهم الجانسنيين ، في « بوريال (٦) » . وقد اخذ الشاب ينعم بالحرية وهو يتابع دروس الفلسفة ، فكان يتردد على دور التمثيل كلما سنحت له

---

(١) قصة الادب ٣٢١ - ٣٢٢ (٢) Des Granges : 93 (٣) Molière 13
(٤) L.T. : 254 (٥) Molière 17 (٦) Molière 15—17



مولیر

الفرصة ، فيشهد بعض الهزليات الشعبية ، وخصوصا تلك التي تقوم بها فرقة المهرج الذائع الصيت « تورليبان (١) » . لم يفكر باحتراف التمثيل بعد ، ولكن جو المسرح استهواه وحرّك فكره . ثم درس الحقوق في مدينة اورليان ونال اجازتها التي لم تكن تعني في نظره شيئاً . وفي الوقت نفسه اقسم اليمين التي يوجبها عليه عمله في القصر . الى أين تراه يسير ؟ أيتولى منصباً في القضاء كما تؤهله ثقافته الواسعة ، ام يستجيب لنداء المال والجاه اللذين تغريه بهما وظيفته ؟ واتفق ان خرج لويس الثالث عشر في رحلة الى الجنوب (١٦٤٢ م) فانابه ابوه عنه لمرافقة الموكب . ها هو ذا قد بدأ العمل الرسمي لأول مرة امتدت الرحلة بضعة اشهر ، فكان موليير يحس بالبون الشاسع بين ما هو فيه وما خلق له . والا فلماذا قرأ اذن لوكريس وتيرانس وسينيك وسيشرون وهوراس . . ؟ أليكون تابعاً في ركاب الملك يزاحم الحجاب والخدم ؟ اما المال ومظاهر الجاه فلم يجد فيها عوضاً كافياً عن آماله وميوله . ولكن ما هي على التحقيق هذه الآمال والميول ؟ انه لم يكتشفها بعد ، وانه لفي حاجة الى ظروف مساعدة تجلو صداه وتهز طبيعته المتأملة الحالمة . واخيراً شاءت الاقدار ان تعرّف على اسرة « بيجار Béjart » التي كانت تحترف التمثيل ، وقرّر ان يربط مصيره بمصيرها (٢) . كان موليير في الحادية والعشرين من عمره حين بعث الى ابيه بكتاب ينبئه فيه بتخلّيه عن منصبه في القصر ويسأله ان يردّ عليه حقّه من ارث امه «ليدعم به العمل المذكور .» اي عمل ؟ الشركة التي ألّفها مع السيدة « بيجار » واسرتها وبعض الانسباء والاصدقاء ، لانشاء « المسرح العظيم (٣) ». لم تصادف هذه العزيمة قبولا حسناً من الوالد ، فأرغى وأزبد ، ولكنه لم يذهب في السخط الى آخر الشوط ، بل صاح بابنه « اذهب الى حيث تُشنق » واعطاه شيئاً من المال ؛ فوقّع الشاعر العقد واتخذ لنفسه اسم موليير ، وكان ذلك إيذاناً ببدء حياته الفنية (٤) .

كانت الخطوات الاولى شاقة جداً . كان موليير يطارد النجاح جاهداً فيعود بالخيبة . وقد صوّر الاستاذ : پيير بريسون (٥) في كتابه عن هذا الشاعر الظروف الحرجة التي احاطت الفرقة والطريق الواعر الذي كان عليها ان تسير فيه ، تصويراً يشهد بانه لا بدّ لمثل هذا العمل العظيم من رعاية سامية تظلّله بجناحيها وتدفع عنه الاخطار . فكم من مرة تراكمت فيها الديون وخذل المحبون وتألّب الاعداء واصحاب الحقوق ، حتى لقد بلغ به

---

(١) Turlupin (٢) Molière 21 (٣) L'Ulustre Théâtre L.T. 254
(٤) Molière : 23 (٥) Pierre Brisson

سوء الحال ان اودع السجن . غير ان هذا كلّه لم يفتّ في عضده ولا في عضد السيدة بيجار شيئاً . فقد عزما على ان يتابعا سيرهما ويستعطفا حظهما الناشز في المدن الأخرى (١).

لم يكد عام ١٦٤٥ ينقضي ، حتى اعدت الفرقة عدتها وجمعت متاعها وتحملت عن باريس، لتحط رحالها بين حين وآخر في بوردو ، وطولوز ، وألبي ، ونانت ، وآجين ، وبيزوناس ، وفيّان ، وليون ، وغيرها من المدن (٢) . واستمرّت الفرقة في اغترابها اثني عشرة سنة ، تطوّف في البلاد مشياً او على ظهور الخيل ، تحت العجاج في هجير الصيف ، وتحت الامطار في زمهرير الشتاء ، حول العَجَلة التي تحمل الحقائب والاثاث (٣) . كانت هذه المشاق عاملاً فعالاً على تقوية شخصية موليير وتوسيع تجاربه وفهمه للحياة . لقد لفحت الريح وجهه ، ولوّحته الاسفار ، فكسبته بشرة سمراء ، وذراعين مفتولين ، وحرارة ونشاطاً . وما أظلّ عام ١٦٥٥ حتى كان موليير ، وهو في الثالثة والثلاثين ، رئيس فرقة ناجحة ، قد ألّفت ازمات الحياة بين افرادها وجمعتهم على المحبة والتعاون والاعجاب بالقائد الباسل . وحظيت الفرقة برعاية الأمير كونتي Conti وتوطدت عرى صداقة متينة بينه وبين رئيسها . وانضم اليها ثلاث ممثلات ، بينهن ابنة لشريكته السيدة بيجار ، تدعى أرماند ، وقد اصبحت فيما بعد زوجه (٤) .

كان موليير كبير الأمل في اتقان الادوار الجدّية من مآسي كورني وغيره ، بيد انه تبيّن يوماً بعد يوم انه لا يصلح لغير الادوار الهزلية الضاحكة . وقد قنع الى ذلك الحين من عمله بالاخراج والتمثيل ، ولم تكن تراود ذهنه فكرة التأليف ابداً . ومع ذلك فلم يكن عمله خالياً من الابداع ، فكثيراً ما كان يزيد وينقص ويحوّر ويهذّب فيما بين يديه من فصول قبل ان يعدّها للظهور . ثم بدا له فأخذ يضع بعض التمثيليات القصيرة، لا يتوخّى فيها الا تسلية الجمهور وتفكيهه بالاعاجيب والاضاحيك؛ فهي اقرب الى التهريج منها الى الملاهي الراقية ؛ ولكنك تلمح فيها مقدرة على الاضحاك وكثيراً من تباشير الذكاء . انه يقيم الآن في « ليون » حيث وجد اقبالاً وربحاً وافرين جعلاه يتخذ منها محوراً لتطوافه . وقد أخذ يفكر في نظم ملهاة ذات خمسة فصول يركّز فيها قواه الفنية ويملو

---

(١) L.T. 254 و Molière 24—27 (٢) Albi, Toulouse, Bordeaux
Lyon, Vienne, Pézenas, Agen, Nantes عن : Des Granges 93
(٣) L.T. 254 (٤) Molière 28—30

بها عن المستوى العامي الذي اعتاده ، على ألا يبتعد عن روح الجمهور كثيراً ؛ فوجد في شخصية « مسكاريل » – وهي نموذج للخادم المرح المحتال راج سوقها في القرن السابع عشر (١) – مادةً صالحة لعمله : اراد « مسكاريل » ان يعينَ سيده على اختطاف فتاة اسيرة من الشيخ « تريفالدان » فهو يبتدع سلسلةً من الحيل يداور فيها هذا الشيخ ويخاتله ، حتى اذا اوشكت مساعيه ان تنجح في كل مرّة احبطها « في الوقت المناسب » طيشُ السيد وبلادته . هذا هو موضوع ملهاة « المشدوه (٢) » ، اولى آثار موليير الادبية وقد مثلها في « ليون » ١٦٥٥ م . لا تحدثنا كتب الادب عن مدى النجاح الذي احرزته هذه الملهاة ، ولكن نجاحها الكبير عند تمثيلها في باريس بعد اعوام ثلاثة قد يعيننا على تصور الموقف الى حدّ ما (٣) . ايُّ مرح وايّة حرارة وحياة ! واذن ففي استطاعة هذا الممثل ان يكتب للأدب وان يسخّر ثقافته الواسعة وتجاربه العملية الكثيرة للانتاج الفنيّ اذا شاء ؛ فلا يقف عند عمله على خشبة المسرح لا يتعدّاه ، وإن جاء انتاجه هذا متأخراً على كل حال .

هنالك ناحية هامة يجب ان نفرغ منها قبل التعرض لملاهي موليير الأخرى ، وقد برزت للعيان منذ ان كتب رواية « المشدوه » ، الا وهي : ناحية الأسلوب . فقد أخذ عليه « لابروييّار » أنه يستعمل على لسان ابطاله اللهجات المحليّة والالفاظ الدخيلة (٤) ، وأخذ عليه آخرون استغلاقَ معانيه وتراكم استعاراته وكثرة حشوه ومغالطه (٥) . ولا شك في انّ مردّ هذا الى كثرة شواغل الرجل واضطراره الى الاسراع في كثير من الاحيان بما يشبه الارتجال . غير ان الاستاذ لانسون مع اعترافه بهذه الاسباب ونتائجها لم يسعه الا ان يبدي عظيم الاعجاب باسلوب الكوميدي الكبير ، وان يعدّ غمائزه هذه نواحي قوة فائقة في الادب التمثيلي . هؤلاء الفلاحون والخدم والسويسريون وسكان المقاطعات وطبقات الشعب المتفاوتة الدرجات ، كلهم قد استطاع موليير ان يقلد اساليبهم بلهجاتها ولكناتها ولحونها ؛ فاذا كان الاسلوب جانباً من الحقيقة ، فانّ تخطيء الكاتب هذا يعني لومه على اختياره المواضيع التي تتطلب هذه الطريقة في الاداء ، الأمر الذي لا يوافق الصواب . لقد اخذوا على موليير إعراضه عن اللغة المهذبة ، لغة الطبقة الراقية كما ارادها ادباء الصالات واعضاء المجمع ، ولكنه كان في الواقع يسخر من متحذلقي

---

(١) راجع .L.U مادة : Mascarille (٢) L'Etourdi (٣) Molière : 34
(٤) Les Caractères, v. 1, P : 6 (٥) Lanson 516

الصالات ولا يعفي من سخريته علماء الاكاديمية انفسهم . لقد ولد في احضان الشعب ، وتغيَّب عن باريس اثنتي عشرة سنة ، كان فيها بعيداً عن تأثير الطبقة الارستقراطية في اللغة ، فلما عاد الى مسقط رأسه كانت طبيعة المواضيع التي عالجها تستدعي الاحتفاظ باسلوبه الشعبي الصريح ، اسلوب اقرب الى الحرارة منه الى الدقة ، والى التنوّع وصدق التمثيل منه الى الصفاء ، وكان معنيّاً باحكام الصورة وقوة المطابقة حتى في حديث اشخاصه (١) ؛ ومن الحق انه لم يعجز عن الارتفاع بلغته الى مستوى جيد حيثما اقتضى ارتفاعُ الموضوع ذلك ، كما في « كاره البشر » وفي « طرطوف » ؛ كلا لم يعجزه ذلك وهو ربيب اليسوعيين وخرّيج الجامعة والممثل الذي لا تفارق شفتيه روائع كورني وراسين وغيرهما من اعلام البيان . بل ان الاستاذ « جوتمان » قد كشف عن كثير من مواضيع الروعة في اسلوب موليير ؛ وهو يرى ويرى معه بعض جهابذة النقد ان هناك نسباً قريباً بين طريقته وطريقة كورني في نسج العبارة وقوة الأداء . فكثيراً ما تسمو انفاس الممثل العظيم ويفخم رصفه حتى يذكرنا بجهارة الألفاظ وحزونة التراكيب عند ابي التراجيديا الفرنسية ؛ ونستطيع ان ننتزع مقاطع كثيرة من « طرطوف » وننسبها الى كورني من دون تغيير او بشيءٍ من التغيير ، فلن يجادل في صحة نسبتها اليه احد . ثم انهما يتشابهان في سرعة الانتاج وقلة العناية بالصقل والتهذيب ، فيزلاّن بين حين وآخر في خطيآت عروضية وبلاغية ولغوية (٢) ؛ ويبقى ان لموليير ما يبرّر موقفه ، من وفرة اعماله وملاءمة اهماله لطبيعة المواضيع التي عالجها . يقول الاستاذ «بريسّون» إن موليير ينزع في اسلوبه الى لغة مَحْكيَّة جاءته من مختلف طبقات الشعب وانسجمت في دماغه المثقف الخلاق (٣) . ويعني بقوله « مَحكيّة » انها انما تكتسب جمالها حين تجري بها ألسنة أبطاله على المسرح ، فهي بحاجة الى رنة الممثل ونَفَسِه ، وبها استطاعت ان تحتفظ بحيوية غريبة خلال العصور . لا يُخيلن اليك اذن ان وراء هذا الاسلوب الطبيعيّ عيّاً او جهلاً ، فهو اسلوب رجل ناضج ، غُذّي ذهنه بآلاف التجارب وتدفقت من اعماق طفولته ينابيع المعرفة القديمة . كلا ، ولا يخيلن اليك ان موليير كان اسير الفكرة التاريخية التي تُعنى بتسجيل اللهجات المحلية والعامية تسجيلا يطغى على الفكرة الفنية في الرواية ، وكل ما في الأمر أنه لم ير بدّاً من تطعيم لغته الفصحى ببعض الالفاظ الدخيلة المحرّفة التي ينطق بها الاجانب وسكان الاقاليم ، ولم ير حرجاً في اعفاء

(١) 517 (٢) Gutmann 144—146 (٣) Molière 33—34

نفسه من تكرير النظر والمعاودة بالتهذيب ، ليبثّ في آثاره روحاً شعبيـة ، وليستحضر المواقف والأجواء . ان مهمة الادب هي تصوير الحياة الانسانية بلغـة خالدة ، والـكاتب الكبير هو الذي يستطيع بما اوتي من مهاره فائقة وأناة ان ينبش من بطون اللغة ما يحتاج اليه من مفردات في اداء معانيه ، من غير ان يمدّ يده الى ما ليس في لغته ؛ الا اذا آنس في الخروج على اوضاع اللغة نفعاً لا يدفع ، فحينئذ ، وعلى ألاّ يستكثر من ذلك بما يخل بحرمة اللغة ويذهب برونقها . اما العدول عن سبيل الفصحى الى العامية فانه يفتـق على على أبناء اللغة الواحدة مشاكل أيسرُها استبهام المعاني في غير زمنها ووَسَطها وتعريض الآثار الادبية للاهمال .

• • •

كانت الفرقة تقصد بعض المدن القريبة من ليون ثم تعود اليها . هناك فقـد موليير مناصراً قوياً هو الأمير كونتي (١٦٥٧) . كان بعض رجال الدين يوالون مســـاعيهم لاستتابة الأمير وحمله على اطراح اللهو والانصراف الى التعبد . وكان من جمـلة ماحاولوا ان يصدوه عنه ميله الشديد الى « الملهاة Comédie » ؛ وقد افلحت مساعيهم آخر الأمر فتنكّر الأمير للشاعر وهجره هجراً غير جميل ؛ وكان من جملة الآباء الذين نزغوا بـين الصديقين الأب « روكيت (١) » ، ويرى بعض المحققين انه الاصل الذي على مثاله صـاغ موليير شخصية بطله « طرطوف » . وقد كان إعراض الأمير صدمة قوية لموليير ، ولـكنـه صمد لها فكانت شاحذاً لقريحته ودافعاً له على مواصلة الجهد (٢) . لقد أيقظت هذه الصدمة شعوره وفتحت عينيه . كانت الحياة عنده فكاهة ودعابة ، فاصبحت تأملاً وتفكيراً . ان مضاحك الانسانية ومخازيها اخذت تتراقص امامه وتكشف عن مواضع العبرة فيهـا . لقد بدأت القيم الاخلاقية تلتمس لها مكاناً في اتجاهه الى جانب الأغراض الفكاهية .

كان موليير قد كتب ملهاة اخرى دعاها « إحنة الغرام (٣) » ١٦٥٦ ، مع عـدد آخر من الملاهي الصغيرة ضاع اليوم معظمها . انهم ليتحدثون عنه في باريس ، وانه ليـمدّ الفرقة للرحيل اليها . وفي الرابع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٥٨ ؛ وفي « اللوفر » قدّمت الفرقـــة في حضرة الملك ورجال القصر تمثيليتي : « نيكوميد (٤) » لكورني و « الطبيب العاشق (٤) » لموليير ، وقـــد اصابت هذه الاخيرة نجاحاً حسناً ،

(١) Roquette (٢) Molière 35, 40 (٣) Le Dépit amoureux
(٤) Le Docteur amoureux, Nicomède

ولكنها أثارت كثيراً من الدهشة بين المتزمّتين واخذوا يتساءلون : أيباح الضحك في اللوفر ؟ ! بيد ان الملك سُرّ من هذه المشاهدة كثيراً وارسل ضحكات لم ينسها فيما بعد، وأمر فوضعت احدى قاعات فرساي تحت تصرّف الفرقة (١) .

واذن فقد اراد القدر ان يعود موليير الى الوسط الذي هرب منه . عاد اليه وقد نضج عقله وزادت تجاربه ، واغتنى خياله بآلاف المشاهد والصور . ثم هو الآن يمرّ بتجربة جديدة هي الحب . وهال موليير ذلك التيار الجارف الذي سبق ان حدثناك عنه في كلامنا عن الحياة الاجتماعية (٢) ، اعني تيار الحذلقة والاناقة المتكلفة اللتين شاعتا حينئذٍ في الصالات والمجالس ، وادرك بفطنته مواضع التفاهة والفكاهة فيها ؛ كما ادرك ما في تصوير هذه المدرسة المدّعية من عبرة وطرافة لسواد الامة الطبيعي العاقل ، وعزم على ان يرفع راية الطبيعة والعقل ، فكتب : « المتحذلقات المضحكات » ١٦٥٩ .

تقع هـــذه الملهاة في فصل واحد ، كتبه موليير نثراً ، وهاك موضوعها : اراد « جورجيبوس (٣) » وهو بورجوازيّ طيّب من باريس ، ان يزوج ابنته وابنة اخيه بشريفين جاءا يخطبان ودها . غير ان الفتاتين كانتا قد تهيّلتا وعلّتا من موجة الحذلقة المتأنقة التي شملت كرام القوم في باريس ، وزاد في افساد ذوقهما قراءة الروايات ، فلم يرقها بساطة الرجلين وصدّهما عن متكلّف العادات فردّتاهما ردّاً زرياً آلمهما وحملهما على الانتقام . عمـــد الشريفان الى خادميهما ، ماسكاريل وجودولي (٤) ، اللذين بهرا الأنيقتين بظرفهما ومظاهر الوجاهة والنبالة عندهما ، واستحضرا آلات الطرب ليحتفلا في حضرتهما ، فاصابا بزخرف القول وزوره من قلب الفتاتين ما لم يصبه السيدان بالعقل واستقامة النهج . بيد أنّ السيدين لا يلبثان ان يفاجئا صالة الفتاتين فيجرّدا الخادمين من ثيابهما المستعارة ويوسعاها لكماً وضرباً امام جماعة الزائرات ؛ فتخجل الفتاتان وتستسلمان لغمّ شديد يضاعفه عليهما تأنيب وليّهما ، جورجيبوس ، وهو رجل فظّ، ولكنه سليم التفكير (٥) .

• • •

هذه التمثيلية القصيرة هي في الواقع تهريجة Farce ، اعني انها عمـــل روائيّ

(١) مادة : Molière في Larousse du XX ème siècle ثم Molière 45 -46

(٢) ص ٦٥-٦٧ من هذا الكتاب (٣) Gorgibus (٤) Mascarille

و : Jodelt (٥) اعتمدنا في التلخيص على : Larourse du XX ème siècle

مادة : Les Précieuses Ridicules وعلى L.T. 257

هازلٌ صاخب . على ان اهمية الموضـــوع الذي اختاره الشاعر بالغة . فهذه اول مرة يتناول فيها مؤلف مادته من حياة معاصريه وعاداتهم ، اول مرة يلتقي فيها تيارُ المسرح تيّارَ الحياة . لقد بدأ موليير هنا حرباً لا هوادة فيها على لغة التكلّف والادعاء، على الذوق السقيم، والحذلقة ، تلك الامراض الاجتماعية التي كانت تهدد الطبقة المهذبة واخذت عدواهـا تسري الى الطبقات الوسطى . وقد مثل موليير بنفسه دور « مسكاريل » فبلغ حدّ الروعة في الاجادة وهزّ اعطاف السامعين إضحاكاً ؛ واستخف الطربُ الملكَ فلم تكن عينه تفارق موليير ؛ ونادى مناد : الشجاعةَ يا موليير ، هذه هي الملهاة الحق (١) .

هذه الدعابة الذكيّة التي احرزت حظاً وافراً من النجاح احدثت لموليير كثيراً من الخصوم بين روّاد قصر « رامبوييّي » (٢) — وهو سكنُ تلك النبيلة التي حدثناك عن عودتها من بلاط الفاتيكان واعتزالها البلاط الملكي ودعوتها الى اشاعة التقاليد في حياة الطبقة الارستوقراطية — وقد كان قصرها مباءة لنخبة من المفكرين والاذكياء الذين كانت لهم اياد بيضاء على اللغة والادب . غير انهم لم يخلوا من مقلدين شوّهوا حركتهم وقلبوا ظرفهم حماقـــة وعلمهم سخافة . جاءوا جميعاً ، ومن ورائهم روّاد الصالات الاخرى ، وجمـاعة المتشاعرين والممثلين المتكلفين ، وكلهم سخر منهم موليير وجعلهم اطروفة المجتمع ، جاءوا ليشهدوا بأبصارهم كيف يضحك الكوميدي الكبير ويُضحك منهم ؛ وكان فيهم العالم اللغوي « ميناج » (٣) الذي مثّل به مولـــير فيما بعد شخصية المدعي المتفيهق باسم «فاديوس» في تمثيلية « النساء العالمات (٤) » ، حاول هؤلاء ان يعترضوا سبيل الرواية ويمنعوا تمثيلها ؛ وكان الملك غائباً عن باريس ، فاغتنموا الفرصـــة ، وتمكنوا من وقف العرض . غير ان موليير بذل مساعيه واستطاع آخر الأمر ان ينـال الموافقة على تمثيلها من جديد ؛ وكان الاقبـال عليها عظيماً جداً ؛ ونشر الرجل الرواية بعدئذ وقدّمها بكلمة يقول فيها : «من الخطأ ان يغضب دعاة الاناقة الصحيحة لما اننا نسخر من سخائف من لا يحسنون تقليدهم . » وفي هذه الفترة العصيبة كان المؤلفون بدورهم حرباً على الشاعر ، ووقف الناقد الطيب بوالو بجـانبه يشدّ أزره ! لقد اصبح الفريق هو الاول في باريس (٥) .

• • •

(١) المصدران السابقان ثم .L.U المادة نفسها (٢) Rambouillet راجع هذه المادة في L.U. (٣) Ménage : راجع هذه المادة ، ومادة Vadius في L.U
(٤) Les Femmes savantes (٥) Molière 56 -59

اخرج موليير بعدئذ رواية « سجاناريل (١) » ١٦٦٠ ، وأتبعها برواية « دون جاريس (٢) » ١٦٦١ ؛ وقد احرزت اولاهما نجاحاً ملحوظاً حتى انها مثلت سبعاً وثلاثين مرة متتابعة (٣) . بيد أنهما لا ترقيان الى مستوى « المتحذلقات المضحكات» على كل حال. ذلك لأن موليير في الحقيقة اديب ناقد اكثر منه فنّان مصوّر . انه ليستثيره كلّ ما يحيد عن الطبيعة والذوق السليم . وهو في حاجة قبل كل شيء الى امر يهاجمه : الى منقصة او رذيلة يستخفّها ، الى ادعاء يخزيه ، الى تقاليد بالية يلقي بها طعمة الى النار . اما حبكة الرواية واشخاصها فسرعان ما يتهيأان له حالما يجد فريسته (٤) .

ما كاد الملك يعود من رحلته حتى امر فمثلت امامه « المتحذلقات » و «سجاناريل» واجاز الشاعر عليهما ، ووافق على ان ترمّم احدى صالات القصر لتكون داراً لتمثيل الفرقة ؛ اذ شرع متعهّد القصور الملكية بتهديم الجناح الذي كانت فيه صالة التمثيل القديمة ، من غير سابق انذار . وقد اقتضى ترميم الصالة الجديدة ثلاثة اشهر ، تعرّض فيها الشاعر لمنافسة الفرقاء الآخرين ، والممثلون لاغراء الخصوم اياهم بالمال لينفضّوا عن رئيسهم ؛ ولكنهم كانوا في الواقع يحبونه ، وأصروا على ان يشاطروه ايام الشدة كما شاطروه ايام الرخاء (٥) ؛ فلما استأنف العمل اخرج هزليتين ناجحتين هما : مدرسة الازواج ، والمزعجون (٦) «١٦٦١» ، وقد مثلتا امام الوزير « فوكيه » قبيل عزله ، في حضرة عاهلة الانجليز ؛ ثم في حضرة لويس الرابع عشر (٦) .

• • •

ومضى ستة عشر شهراً شغل فيها موليير بزواجه ، ثم اخرج رائعته الاولى : مدرسة النساء (٧) . انه ليجتاز برهة سعيدة من حياته . لقد نزلت شريكته وخليلته « مادلين (٨) » عند رغبته ، وزوّجته ابنتها « أرماند (٩) » . يا لعظم التضحية ! لقد اظهرت هذه السيدة من ضروب الفهم والبطولة ما يثير الاعجاب . اما أرماند فقداغراها المستقبل الذي ينتظرها على المسرح وصرفها عن حساب الفارق الكبير بين عمرها وعمره. كانت لا تزال في اعتاب العشرين ، اما هو ففي الاربعين . . وعاود موليير الكتابة .

---

(١) Sganarelle (٢) Don Garice de Navare (٣) Larousse du XX ème siècle المادتان السابقتان (٤) Molière 60 (٥) 61—62 (٦) Les Facheux, L'Ecole des maris راجع 69—74 (٧) L'Ecole des Femmes (٨) مادة Molière في L. du xxème siècle (٩) Armande

أكان يستلهم الحالة التي هو فيها ؟ ان اختيار الشاعر ربيبته (١) زوجاً له على بعد ما بينهما من فارق في السن، واندفاع الغريزة في ارماند وتوقد الغيرة في قلب موليير، كل ذلك قد يحملنا على الرد بالايجاب. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي نرى فيها الكوميدي العظيم يستلهم ظروفه ويسخر من نفسه، بل ان قصة حياته غنية بالشواهد على ذلك. وها نحن اولاء نعرض عليك حبكة روايته « مدرسة النساء » لتتبيَّن ما نقول :

بلغ « أرنولف (٢) » الثانية والاربعين، وهو شديد الاهتمام بدواعي الاختلاف والنفور بين الازواج، يستطرفها ويبتهج لها. انه ليحدّث نفسه عن غباوة هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون ان يستصلحوا من احوال زوجاتهم ويحملوهن على الرضى عن عشرتهم. اما هو فقد دبّر امره على نحو يضمن له حياة منزلية سعيدة. وذلك انه اشترى طفلة جميلة من امّ قروية، ورباها في عزلة عن الناس وجهل يجعلان منها « بلهاء جهد المستطاع »؛ فهو لا يحدثها الا عن حاجات البيت وواجبات المرأة. ولكن غفلة هذه الفتاة وسلامة طويتها انقلبتا عليه، وفي مأمنه يؤتى الحذر: فما كادت « أنياس (٣) » تبلغ السابعة عشرة وتلتقي الشاب « هوراس (٤) » حتى مالت اليه بغريزتها واستجابت لعاطفة الحب في نفسه، من غير تردد ولا تأثم، لانها لا تدري ما الشر وما الاثم. أسرّ الشاب الى ارنولف بما بيّتَ من امر الفرار بصاحبته، وهو يجهل علاقته بها، فزاد أرنولف في الحيطة، واخذ يفسد على العاشقين خططهما الواحدة تلو الأخرى. غير انه لم يستطع ان يمنع « الفتاة البريئة والفتى الطايش » من ان يحبطا آخر الأمر مساعيه ويردّاه الى يأس مضحك مؤثر. فقد اتفق ان عاد ابو الفتاة من امريكا، فاذا هو صديق ابي هوراس؛ فهو يستردّ ابنته ويزفها الى عشيقها الشاب (٥) !

اخرج موليير ملهاته هذه شعراً عام ١٦٦٢ فكانت اولى ملاهيه العظيمة وصادفت نجاحاً منقطع النظير. غير ان هذا النجاح اثار عليه كثيراً من الاعداء: المتحذلقات وبنات الهوى والمنافسون والمتشاعرون وبعض رجال الدين، كلهم تألبوا عليه وغروا بذمّه. وقد ضحك النظارة حتى استفرغوا مجهودهم في الليلة الاولى؛ ولكن الحساد والموتورين اخذوا يعكرون صفو الليالي الضاحكة الأخرى، وبين هؤلاء من حملة الاقلام من لم

---

(١) الربيبة : بنت الزوجة ، وهي هنا بنت شريكته ، التي ربيت في احضانه .

(٢) Arnolphe (٣) Agnès (٤) Horace (٥) استعنا في تلخيصها على : L.T. من 257 - 258 وعلى L. du xx ème siècle

يتورّع عن ثلبه . ولقد تعجب اذا علمت ان الشاعر كورني واخاه توماس كانا من جملة الثالبين ، فقد اخـــذ الجمهور يستثقل مآسي الشيخ كورني ويعرض عنها ، واصبح صوته خافتاً في المعركة الادبية الجديدة ؛ فحزّ ذلك في نفسه ، وتصدّى هـو واخوه للشاعر الناشيء وآذياه ؛ وقـــد احفظ ذلك موليير ولكنه ما لبث ان كال لهما بصاعيهما وزاد . ومثلت الرواية بعدئذ في حضرة الملك ، فأعجبته كثيراً وما كاد يتماسك من الضحك . وهتف الاصدقاء للشاعر ، وارسل اليه شاب في السادسة والعشرين ابياتاً يقول فيها :

دع الحسّاد بأصـــواتهم يجأرون

. . . .

لو انك عرفت ان تكون اقلّ ارضاءً

لمـا كنت على اعدائك همّاً وبلاءً

ذلك هو بوالو ، الناقد الطيب الذكيّ . وكان الشاعر الكبير « لافونتين » من جملة المعجبين ، وترجع صداقته لموليير الى ايام اخراجه ملهاة « المزعجين » . اما لويس الرابع عشر فكان يعضد الشاعر من طرف خفيّ ، ولولاه لساءت الحال كثيراً . فلمـا رزق موليير طفله الاول اعلن الملك عطفه عليه وترأس حفلة التعميد ! وفي الوقت نفسه أمر باعداد تسلية جديدة . فوضـــع موليير في ثمانية ايام ملهاة « الزواج بالاكراه (١) » ١٦٦٤ م . اما الردّ على اقوال النقاد المغرضين فقد اودعه موليير ملهاتين قصيرتين هما : « نقد مدرسة النساء » ، « ومسرحية فرساي المرتجلة (٢) » قبل ذلك بعام ١٦٦٣ .

لقد اجاد الشاعر دراسة نفسيتي « ارنولف » و « أنياس » اجادة بالغة . وكانت هذه هي المرة الاولى في تاريخ المسرح الفرنسي تعتمد فيها الملهاة على التحليل النفسي وعلى اصطراع العواطف في الانسان . فاذا اضفت الى هذا فكرة المؤلف الفلسفية التي ترتكز عليها الرواية ، عرفت السبب في اعتبارها احـــدى ملاهي موليير العظيمة : ان المؤلف ينحاز في فكرته الى جانب الغريزة الطبيعية التي تدفع الشباب الى الشباب ويسخر من مواعظ « ارنولف » التي تدعو الى زواج الطاعة والواجب (٣) . وهو يبرهن بتصرّف

---

(١) Le Mariage forcé (٢) La Critique de l'Ecole des femmes et l'Impromptu de Versailles (٣) Molière 79, 90—93 102 م L.T. 257—258 م L. du xx ème siècle مادة L'Ecole des Femme

بطلته « أنياس » على ان فضيلة المرأة لا يمكن ان تقوم على جهلها الرذيلة وحده (١) ، فمن لا يعرف الشر كان أجدر ان يقع فيه .

• • •

اما «طرطوف» فهي احب آثار موليير اليه وألصقها بحياته انها تحفة المسرح الفرنسي الهزلي على الاطلاق (٢) ، ولذلك رأينا ان ننقلها كاملة اليك . وقد ظهر ثلاثة فصول منها بادئ الامر « ١٦٦٤ » ولم تظهر كاملة الا عام « ١٦٦٩ » . خمس سنين تصرمت كتب الشاعر خلالهـا : « دون جوان » و « الحب المداوي » و « كاره البشر » و « الطبيب رغم أنفه » و « انفيتريون » و « جورج داندان » و « البخيل (٣) » .

حمل الشاعر في « طرطوف » على المنافقين ، ولكن اعداءه زعموا انه يعني رجال الدين . ولا شك ان الرواية في وضعها الحالي ، بعد ان غير الشاعر فيها وعدل ، لا تكشف عن عداء صريح لحملة الدين ، ولكنها لا تكتم النقمة الشديدة على المتجرين بالتقوى والمستخفين وراء ستار الفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . اما دواعي هذه النقمة فكثيرة ، وقد عرضنا لك ماهو هام منها عندما حدثناك عن تضخم سلطان الكهنوت في فرنسا في ذلك الحين وشدة وطأته على الناس وسوء استغلاله مرافقهم . ويرى بعضهم ان موليير يوجه سهامه بخاصة الى «جماعة القربان المقدس (٤) » ، اذ كان اعضاؤها يتجسسون شئون الناس الخاصة . اما ما يتصل بشخص شاعرنا من اسباب هذا العداء ، فنستطيع ان نذكر ذلك الشعور بالوحشة الذي اعتراه عندما استقبلته السيدة بيجار وضمته الى طائفة المغضوب عليهم من الممثلين. لقد هون ذلك الشعور عندئذ غفلة الشاب وفرحته بالحياة الجديدة ، ولكنه ترك في نفسه على كل حال ندوباً نكأها عليه بعد اثني عشر عاماً انتقاض صديقه وحاميه الأمير كونتي عليه بتأثير رجال الدين ، وكان موليير حين ذاك لا يزال يتيه في البلاد ويلتمس لفرقته الغذاء والنصير (٥) .

لم يخل الشاعر من خصوم اشداء في السنوات الاربع الاولى التي أمضاها في

---

(١) المادة نفسها في : L.U. (٢) مادة Tartufe في المصدر السابق ثم Molière : 107

(٣) Le Misanthrope, L'Amour médecin, Don Juan

George Dandin, Amphitryon, Le Médecin malgré lui,

L'Avare, (٤) La Compagnie du Saint-Sacrement

(٥) L.T. 256 ثم Molière : 108

باريس ، اثارهم عليه نجاحُ « المتحذلقات السخيفات » و « مدرسة الازواج » و « المزعجون » ؛ غير ان خصوم « مدرسة النساء » كانوا ألدَّ ميسماً (١) وأحدَّ ناباً . فقد بدأ موليير يشير من طرف خفيّ الى رجال الدين ويتعرَّض لنقمتهم . ثم اخذ يكتب « طرطوف » استجابة لرغبة عاتية في نفسه . كل مالاحظه خلال عشرين عامـاً ، وكل ما كابده في الاشهر الاخيرة ، قد رسما في ذهنه صورة انسان رائعة : انه ليتخيَّله بقبعته المستديرة ووجهه النبيذي ؛ انه ليسمع شهقاته على المائدة ، ويتبينه يملأ خياشيمه من عبير إلمير ، امرأة صديقه ؛ ثم يحيا البيت حول الرجل الاسود وتدبّ فيه الحركة . وفيما هو يكتب ملهاته هذه رزق ولدَه لويس الذي تولى الملك تعميده ، ولكنه لم يعش غير بضعة شهور . ابداً لم يبذل موليير من العناية والجهد ما بذله في « طرطوف » ، ابداً لم يتوفّر فيه اليراع المصوّر بمثل ما توفر في هذا الأثر الخالد . وما كاد الملك يأذن بتمثيل الرواية حتى هاج الاكليروس وماجوا . أيتركون مهرّجاً يعالج موضوع الدين على المسرح ؟ لم يعبأ لويس الرابع عشر باحتجاج القوم ، ولكنه لم ينس ان يلقي الى الشاعر بنصيحة عابرة : « لا تغيظن العبّاد ، فهم قوم لا يغفرون (٢) . » لم يجرؤ موليير ان يمثل باديءَ الأمر اكثر من الفصول الثلاثة الاولى ، ومع ذلك كان سخط الكهنـة بالغاً ، وهجاه احدهم بانه « شيطان » يستحق الحرق . كان لويس حين ذاك غائباً ، وزاد في اضطراب الشاعر سلوك زوجته المريب . كانت غادة لعوباً مطروفةً بالرجال (٣) ، وقد اتاح لها التمثيل ان تختلط بالناس وتستكثر من المعجبين وتذكي بذلك نار الغيرة في قلب زوجها . وثالثة الاثافيّ ان الملكة الأم انحازت الى معسكر الكهنة وشدت ازرهم . فلما عجب الملك من ان القوم لم يثوروا لرواية هزلية جريئة كانت تعرض في تلك الايام واسمها : « اسكاراموش الناسك » ثورتهم على طرطوف ، انبرى احد الأمراء مجيباً : « سبب ذلك يا مولاي ان اسكاراموش تسخر من السماء والدين اللذين لا يعنيان هؤلاء السادة في كثير ولا قليل ، اما موليير فهو يسخر من رجال الدين انفسهم ، وهذا مالا يطيقونه » ! هـذه الأزمة التي اجتاحت الشاعر ، والحفاوة التي تلقّى بها الجمهور رواية طرطوف ، ومكانة الاعداء الذين نهدوا له (٤) ، كل اولئك كان يُشعره بالمنزلة المرموقة التي بدأ يحتلّها . لقد امتلك ناصية فنه . لقد سكب في طرطوف كل ما اوتي من براعة وفهم وفوق ما كان ينتظر هو نفسه . ان

(١) الميسم : المكواة « مادة : وسم من القاموس المحيط » (٢) Molière 111—113
(٣) لا تنظر الا اليهم (٤) صمدوا له

اسم طرطوف ما كان يفصل من انامله حتى ذاع على كل لسان (١) . انك لتستمرئ هذه الفكاهة الحلوة الرشيقة ، فلفكاهة موليير تخيف رواجح الاحلام ، وتعجب لهذه الريشة الصناع قد اشاعت الحياة والحركة في ابطال الرواية حتى كأنهم ناس من الناس. فطرطوف ذلك النموذج الخالد للماكر الفاجر الشهوان، المنهوم بالمآكل والمتجر بالفضائل، واورغون رب الأسرة الغبي المندفع العنيد، وامه العجوز الشكيسة المغفلة ، هؤلاء هم نكد الاسرة وعذابها . ثم إلمير الزوجة البرّة الرّزان ، واخوها كليانت الرجل الفطين الأمـــين ، وماريان الفتاة الحيية الجبان ، وداميس الفتى الغرير الصريح ، ودورين الخادم المحبـــبة المهذار . ثم لويال الموظف الرطب اللسان والصورة المصغرة عن طرطوف، كل اولئك نماذج حية لبني الانسان ، قد ادق الشاعر تصويرهم وأحكم :

يرفع الستار عن اسرة بورجوازية غنية ، قد توزعتها الهموم ، والتـوت عندهـا الظنون في رجل دخيل عليها ، طرطوف ، أهو تقي عابد ام غوي فاتك ؟ كل شيء كان يجري على ما يرام لولم يقع رب الاسرة اورغون وامه العجوز في حبائل هذا الرجل الذي اجتذبها اليه بنسكه المصطنع ، فآوياه اليها وأحلاه مكان الواعظ الزاجر ، ولم يسمعا فيـه تحذير الخال كليانت ولا نذر الخادمة دورين . فأما العجوز فهي تأخذ على حفيديها ماريان وداميس طيشها ، وتنعى على امرأة ابيها تبرجها واسرافها، وتريد الجميع ان يقتدوا بمرشدهم طرطوف وان يوقروه ويأتمروا بأمره وينتهوا بنهيه . فهو عابد ورع ، سليـل الاغنيـاء المخدّمين ، قد طلق الدنيا ورغب الى الله طائماً مختاراً . ولكنهم لا يرون في هـذا الرجل رأيها ، فلا هو في نظرهم بالعابد ولا هو بالكريم المحتد ، ولكنه منافق محتـــال ، عرف ما يروج عند صاحبه اورغون وامه فأوقع في روعها (٢) انه زاهد ناسك ، يقضي ايامه في نصح الضالين والسعي على الفقراء والمساكين ، فجاز عندهما وملأ اعينهما ؛ فاذا عاد اورغون من سفره رأيته لا يسأل الا عن طرطوف ولا يعنى بغير طرطوف ، واذا حدثته الخـادم بمرض زوجته الشابة الحسناء إلمير لم يلق اليهـــا بالاً ، بل عاود السؤال عن قدّيسه : وطرطوف ؟ ثم هو قد استحدث الآن رأياً جديداً ينتوي تحقيقه : انه يريد ان يفسخ خطبة ابنته من شاب تحبه ، هو فالير ، وان يزوجها صديقه الناسك، فهو احق بها من خطيبهـا.

---

(١) 114—117 ثم مادة : Tartufe في L. du xx ème siècle (٢) الروع : الذهن ، العقل ؛ وبفتح الراء : الفزع

ففالير دمث الطباع ، سهل الخالقة ، ولكن الوالد التقي لا يصادفه كثيراً في الكنيسة ، فضلاً عما يشاع من ميله الى المقامرة . من يشيعون ذلك ؟ لعلهم « جماعة القربان المقدس » . اما طرطوف ، فيالبراعة المصادفة ! انه يكاد يلتقيه في كل مرة بين المصلين ! فهو لا يقصد إلا الكنيسة التي يقصدها اورغون ولا يذهب الا في الوقت الذي يذهب فيه ! ! انقضى الفصل الثاني وطرطوف شغل الاسرة الشاغل ، ولكنه لا يظهر الا في الفصل الثالث ، بعد « ان يمد ظله الاسود أمامه . . . عندئذ فقط يتخطى الباب ليبدو امام النظارة وهو ضامن ان يوقظ فيهم اقصى الاهتمام (١) » :

« لوران ، أشدد بالسوط قميصي ، واسأل الله الهداية على الدوام »

هذا ما يخاطب به غلامه ؛ اما دورين فيأبى ان يكلمها إلا بعد تستر صدرها وتدني عليها جلبابها : « فبمثل هذه الاشياء تؤذى النفوس ، وتثور الخواطر الآثمة » .

وسمع القوم بما صحت عليه عزيمة الاب المغفل من امر الزواج فهالهم الخبر ؛ وجعلت الفتاة تهيل الدمع جاثية ضارعة الى ابيها ألا يحطم قلبها . ولكن اورغون في واد وصاحبه في واد : ان طرطوف قد استهوته الزوجة الحسناء، فهو يغتنم اول فرصة ليبثها حبه بعيداً عن أعين الرقباء . ولكن الفتى داميس كان يسترق السمع ، وقد آلى لينقلن الخبر الى ابيه .

فاذا بلغ الوالدَ الخبرُ بمحضر طرطوف ، رأيت المنافق راكعاً امام صديقه المغفل ، مطأطئ الرأس ، يعترف بكثرة آثامه ليلفت نظر صاحبه عن جرمه الراهن وليرقى درجات في سلم الخديعة ؛ ثم رأيت اورغون تنتفخ اوداجه ويتطاير الشرر من عينيه ، سخطاً لا على الصديق الآثم ، ولكن على الولد المفتري والأهل الحاقدين الذين ساءهم ورع الرجل وازعجهم أنه يستنفر الى الخير وينفر من الشر ، فجعلوا يكيلون له التهم ليفسدوا ما بينه وبين صديقه . لقد عزم اورغون على ان يلوي عنان هؤلاء المتآمرين ، فهو يبدأ بابنه فيطرده وبابنته فينال موافقة صاحبه على ان يتزوجها ، ويسجل امواله كلها باسم طرطوف ، لا يسمع في ذلك قول المحذرين والناصحين . فاذا أيدت إلمير فيما بينها وبين زوجها تهمة الولد ، واكدت له ان صاحبه قد كاشفها بحبه ، ابى ان يُمضي شهادتها (٢) واضافها الى زمرة المتآمرين !

---

(١) Molière 128 (٢) امضى الشهادة : أجازها

لقد كان الشاعر بارعاً حقاً حين ارادت إلمير ان تطوي حديث طرطوف عن زوجها ، وحين لزمت السكوت امام الرجل المحتال فلم تبدِ له كامن العداء ؛ وكان بارعاً حين ركب اورغون رأسه واراد ان يُكثر صاحبَه المقدّس عشرةَ زوجه وأنف الجميع راغم ! في استطاعة إلمير اذن ان تستدعي طرطوف اليها وان تستدرجه الى مثل حديثه الأول لتشهد زوجها في مخبئه فجورَ صاحبه وغدرَه . وباستطاعة طرطوف بعد ان ضمن انقياد اورغون اليه واصبح المال في حوزته ، ان يلبي دعوة الزوجة وان يتحلّل قليلاً من تحوّطه وحذره . هنا يبدأ مشهد الغواية الطريف . لقد سمع الزوجُ الطيّبُ باذنيه الرجلَ الناسك يضلّل زوجته ويزيّن لها الاثم . وما يدرينا ، فقد تبلغ الغفلة في اورغون ان يلتمس لموقف صاحبه عذراً وتأويلاً ، لولا انه سمع صاحبه يسخر منه ويعيّره البلاهةَ ، فيثير الجانب الاناني من نفسه . لقد انكشف امر المنافق . وإنّ اورغون ليهمّ بطرده اذا طرطوف يرفع صوته مهدّداً :

« عليك انت ان تغادر الدار ، انت الذي تتحكّم وتتأمّر ، فالدار ملك يميني »

وأسقِطَ في يد اورغون (١) ، وعلم انه هالك لا محالة . فقد استودعه مجرم سياسي أوراقاً خطرة قبل فراره من وجه العدالة ، فوضعها في حوزة طرطوف . ولم يرض المنافق بما آل اليه من ثروة صديقه ، بل اراد ان ينكّل به كذلك . فهو يرفع أمره الى الملك ؛ وهو يعود الى الدار ومعه مفوض الشرطة ليقبض على اورغون . وما كادت عيون القوم تراها حتى رُعبوا وساد الهرْج والمرْج ، وطال الجدلُ بين طرطوف وغرمائه ، حتى أعيته الحيلة في الرد عليهم ، فتوجّه الى المفوض يأمره بالقاء القبض على رب الاسرة التاعسة ؛ ولكن المفوض اعلن ان لديه امراً سرياً بسوق طرطوف وحده الى السجن مقرّناً في الاصفاد : لقد علم الملك ما في عمل المنافق من نذالة ولؤم فأحبط سعيه ، وامر ان يلقى في غياهب السجون ، لأنه بعد هذا وذاك مجرم طريد العدالة متنكّر في زي ناسك ؛ كما امر ان يُراح المالُ على صاحبه (٢) ، جزاء اخلاصه المعروف لسيده الملك .

• • •

هذه الملهاة العظيمة تكشف لنا الجانب الجدي من شخصية موليير ، ذلك الممثل الذي اخذ حظاً وافراً من العلم ، واختبر الناس وتمرّس بالاهوال واغتنى ذهنه بالمشاهد

(١) أسقط في يده : ندم وتحير (٢) أراح فلان على فلان حقه : ردّه اليه .

ففالير دمث الطباع ، سهل الخالقة ، ولكن الوالد التقي لا يصادفه كثيراً في الكنيسة ، فضلاً عما يشاع من ميله الى المقامرة . من يشيعون ذلك ؟ لعلهـــم « جماعة القربان المقدس » . اما طرطوف ، فيالبراعة المصادفة ! انه يكاد يلتقيه في كل مرة بين المصلين ! فهو لا يقصد إلا الكنيسة التي يقصدها اورغـــون ولا يذهب الا في الوقت الذي يذهب فيه ! ! انقضى الفصل الثاني وطرطوف شغل الاسرة الشاغل ، ولكنـــه لا يظهر الا في الفصل الثالث ، بعد « ان عد ظله الاسود أمامه . . . عندئذ فقط يتخطّى الباب ليبـدو امام النظارة وهو ضامن ان يوقظ فيهم اقصى الاهتمام (١) » :

« لوران ، أشدد بالسوط قميصي ، واسأل الله الهداية على الدوام »

هذا ما يخاطب به غلامه ؛ اما دورين فيأبى ان يكلمها إلا بعد تستر صدرها وتدني عليهـا جلبابها : « فبمثل هـــذه الاشياء تؤذى النفوس ، وتثـــور الخواطر الآثمـة » .

وسمع القوم بما صحت عليه عزيمة الاب المتغفل من امر الزواج فهـــالهم الخبر ؛ وجعلت الفتاة تهيل الدمع جاثية ضارعة الى ابيها ألا يحطم قلبها . ولكن اورغون في واد وصاحبه في واد : ان طرطوف قد استهوته الزوجة الحسناء، فهو يغتنم اول فرصة ليبثهـا حبه بعيداً عن أعين الرقباء . ولكن الفتى داميس كان يسترق السمع ، وقد آلى لينقلن الخبر الى ابيه .

فاذا بلغ الوالدَ الخبرُ بمحضر طرطوف ، رأيت المنافق راكعاً امام صديقه المغفّل ، مطأطىء الرأس ، يعترف بكثرة آثامه ليلفت نظر صاحبه عن جرمـــه الراهن وليرقى درجات في سلّم الخديعة ؛ ثم رأيت اورغون تنتفخ اوداجه وتتطاير الشرر من عينيه ، سخطاً لا على الصديق الآثم ، ولكن على الولد المفتري والأهل الحاقـــدين الذين ساءهم ورع الرجل وازعجهم أنه يستنفر الى الخير وينفّر من الشرّ ، فجعلوا يكيلون له التهم ليفسدوا ما بينه وبين صديقه . لقد عزم اورغون على ان يلوي عنـان هؤلاء المتآمرين ، فهو يبدأ بابنه فيطرده وبابنته فينال موافقة صاحبه على ان يتزوجها ، ويسجل امواله كلهـا باسم طرطوف ، لا يسمع في ذلك قول المحذرين والناصحين . فاذا أبدت إلمير فيما بينهـا وبين زوجها تهمة الولد ، واكدت له ان صاحبه قد كاشفها بحبـــه ، ابى ان يُمضي شهادتها (٢) واضافها الى زمرة المتآمرين !

---

(١) Molière 128 (٢) امضى الشهادة : أجازها

لقد كان الشاعر بارعاً حقاً حين ارادت إلمير ان تطوي حديث طرطوف عن زوجها ، وحين لزمت السكوت امام الرجل المحتال فلم تبدِ له كامن العداء ؛ وكان بارعاً حين ركب اورغون رأسه واراد ان يُكثر صاحبُه التقدّس مُعاشَرَةَ زوجه وأنف الجميع راغم ! في استطاعة إلمير اذن ان تستدعي طرطوف اليها وان تستدرجه الى مثل حديثه الأول لتُشهد زوجها في مخبئه فجورَ صاحبه وغدرَه . وباستطاعة طرطوف بعد ان ضمِن انقياد اورغون اليه واصبح المال في حوزته ، ان يلبي دعوة الزوجة وان يتحلّل قليلاً من تحوّطه وحذره . هنا يبدأ مشهد الغواية الطريف . لقد سمع الزوجُ الطيّبُ باذنيه الرجلَ الناسك يضلّل زوجته ويزيّن لها الاثم . وما يدرينا ، فقد تبلغ الغفلة في اورغون ان يلتمس لموقف صاحبه عذراً وتأويلاً ، لولا انه سمع صاحبه يسخر منه ويعيّره البلاهةَ ، فيثير الجانب الاناني من نفسه . لقد انكشف امر المنافق . وإنّ اورغون ليهمّ بطرده اذا طرطوف يرفع صوته مهدّداً :

« عليك انت ان تغادر الدار ، انت الذي تتحكّم وتتأمّر ، فالدار ملك يميني »

وأسقِطَ في يد اورغون (١) ، وعلم انه هالك لا محالة . فقد استودعه مجرم سياسي أوراقاً خطرة قبل فراره من وجه العدالة ، فوضعها في حوزة طرطوف . ولم يرض المنافق بما آل اليه من ثروة صديقه ، بل اراد ان ينكّل به كذلك . فهو يرفع أمره الى الملك ؛ وهو يعود الى الدار ومعه مفوض الشرطة ليقبض على اورغون . وما كادت عيون القوم تراها حتى ذُعِروا وساد الهرْج والمرْج ، وطال الجدلُ بين طرطوف وغرمائه ، حتى أعيته الحيلة في الرد عليهم ، فتوجّه الى المفوض يأمره بالقاء القبض على رب الاسرة التاعسة ؛ ولكن المفوض اعلن ان لديه امراً سرياً بسوق طرطوف وحده الى السجن مقرّناً في الاصفاد : لقد علم الملك ما في عمل المنافق من نذالة ولؤم فأحبط سعيه ، وامر ان يلقى في غياهب السجون ، لأنه بعد هذا وذاك مجرم طريد العدالة متنكّر في زي ناسك ؛ كما امر ان يُراحَ المالُ على صاحبه (٢) ، جزاء اخلاصه المعروف لسيده الملك .

• • •

هذه الملهاة العظيمة تكشف لنا الجانب الجدي من شخصية موليير ، ذلك الممثل الذي اخذ حظاً وافراً من العلم ، واختبر الناس وتمرّس بالاهوال واغتنى ذهنه بالمشاهد

---

(١) أسقط في يده : ندم وتحير (٢) أراح فلان على فلان حقه : ردّه اليه .

والصور . « فطرطوف » تتناول مادتها من نقائص الانسانية ودناياها ، وتعرض لمشكلة اجتماعية خالدة ، وهي مشكلة النفاق والتستّر وراء الدين ودهان الفضيلة . اما الاتقياء المخلصون فلا يسع الشاعر الا ان يعترف بسموّهم ويرعى حقّ طهرهم ؛ ولكنه لا يريد لهم ان يفاخروا بتقواهم ، ولا ان يخرجوا على حدود العقل بغيْرتهم ، ولا ان يتشدّدوا ويتعصّبوا ؛ كلا ولا يريد لهم ان يتجسّسوا احوال النـاس ويتدخلوا في ما لا يعنيهم . فهم بذلك يخرجون على معاني الفضيلة والدين من حيث لا يشعرون . لا يكفي ان يكون المتدين مخلصاً اذن ، ولا بدّ ان يكون سمحاً عاقلاً كذلك . نجد امثال هذه المعـاني في حوار الخال كليانت مع اورغون . لعل موليير لم يوردها مخلصاً ، ولكنه اضطرّ اليها اضطراراً إزاء ما لقيه من مقاومة خصومه واصرارهم . لعله لم يرد باديء الأمر الا الهزء بالدين ورجاله ، الصادقين منهم والخادعين ، ثم اخذ يعدّل من موقفه ولا يطلق النقد على عواهنه ، ويحوّل نقمته الى المداهنين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والى الغلاة والمتعصّبين ؛ فالشاعر كما رأينا لم يلق باثره هذا كاملاً دفعة واحدة ، بل على مراحل متعددة ، كان في كل منها يزيد وينقص ويهذب ويغيّر ما شاءت له ظروفـه حين ذاك . لا شك ان هذا التهذيب المتواصل افاد الرواية كثيراً ، فحوّل موضوعهـا عن الاتجاه الشخصي الى اتجـاه أليق واسمى هو التصوير الفني المجرّد عن الاغراض ، وكسبها عمقاً فصوّر المشكلة من طرفيها وأبرز بقوة مالها وما عليها . فاذا اضفت هذه الخلال الى ما في الرواية من قدرة فائقة في مزج الجد بالدّعابة ، واستخلاص الضحكات المدوية حتى في المواقف الـكاربة والمـآزق الراعبة ، واذا اضفت اليها ذلك الفن العجاب في نظم الحوادث وسوق المناظر ، وذلك الحوار الناشط الحـار ، وتلك اللغة الرشيقة المهذبة ، عرفت لماذا كانت هذه الملهاة رائعة الروائع في آثار موليير ، وربما كانت اقوى اثر عرفه تاريخ الملاهي على الاطلاق .

* * *

كانت معركة طرطوف في أشدّها لما كتب موليير تمثيلية «دون جوان [1]» ١٦٦٥ م فلا غرابة اذا رأينـا الروايتين ترميان عن قوس واحد وتسدّدان الى هدف واحد . اما موضوع الرواية فقد كان شائعاً في الأدب الاسباني حين ذاك ، و « دون جوان » هو في عرف الاسبانيين مثال لرجل القصر الموسر المزهوّ السادر في طريق الغواية. وقد صوّره

(١) Don Juan

موليير كما عاينه في فرساي ؛ وندّد فيه بالخلاعة والفسوق ، ولكنه لم يستطع ان يتألف بحملته هذه رجالَ الدين ، بل زاد في نقمتهم ، لأنه اضاف الى صفات بطله التقليدية صفة الرياء والاتجار بالفضائل ، فعدّوا ذلك تعريضاً بهم وقاوموه :

هجر « دون جوان » زوجته الشابة « دونا إلفيرا » من غير سابق انذار ؛ وانطلق يبحث عن مغامرات جديدة في الحب ، يتبعه خادمه « سجاناريل » الذي يعتبر سيده إمام الآثمين ، ولكنه لا يجرؤ على مفارقته « لأن سيداً كبيراً شريراً لهو شيء هائل مخيف.» اما اخوة الزوجة فقد اخــذوا يجدّون في اثره حتى وصلوا الى غابة ، فأحاط اللصوص باحدهم ، فانقذه « دون جوان » من ايديهم ، لأنه على انبعاثه في المعاصي نَدْبٌ شجاع ؛ يشهد بذلك أنه زار ذات يوم قبر فارس قتله لأشهر خلت في مبارزة ، وأنه دعا تمثاله الى غداء فأومأ اليه التمثال بالقبول . غير انه ما من شيء استطاع ان يعطف هذا القلب الجماد على زوجته : انه يتلقى تعنيف ابيه بخبث وسفاهة ، وتتوسّل اليه امرأته وتتضرّع ، وقد ارتدت ثوب راهبة وقررت دخول الدير ، فلا يستطرفها الاّ لما يبدو عليها من جمال في زيّها الجديد ! فاذا قدم التمثال عليه استقبله غير خائف ، وزاد فقبل ان يردّ زيارته ويأكل على مائدته. انه ليلهو بخداع ابيه واخي امرأته بالرياء والكلام المزوّق ؛ وهــو ثابت على طريقته ماضٍ في ضلالته ، لا يزحزحه عنها فألٌ ولا طــيرة ولا وهمٌ ولا حقيقة ؛ فاذا برزله تمثال الفارس رأيته يضع يده في يد الحَجَر غير متردّد ولا خائف ، ليجرّه الى الهاوية ، حيث لهيب الجحيم .

اجاد موليير في هذه الرواية تصوير النفوس والعادات في عصره . انها تعلو تارة الى مستوى الملاهي العظيمة ؛ وتنحدر اخرى الى التهريج والفكاهة ، خصوصاً في دور الخادم « سجاناريل (١) » ، وهو شخصية خلقها الشاعر وادخلها في عدد من ملاهيه ، لتمثل الذوق السليم بين العامة ، واحياناً لتمزج ذلك بالمكر والدهاء . امّا دور التمثال ففيه إغراب واسراف في الخيال ، يعود بنا الى عهــد الاعاجيب المسرحية في القرن السادس عشر (٢) .

• • •

واذن فقد ابى الحقد الدفين الا ان يكشف عن نفسه ، فما وسع الشاعرَ الا ان

---

(١) Sganarelle (٢) انظر مادتي Don Juan و Sganarelle في L.U. ثم انظر L.T. P : 259

يسخر بالخصوم المتزمّتين من حيث اراد ان يستلّ سخائمهم ويستميلهم اليه . ولكنه لم يكتف بان يصبّ نقمته على مدّعي التقوى وحدهم ، فالرواية في الاساس غمزٌ من جانب الفجّار المستهترين ، اولئك الذين كانوا يلتفّون حول أرماند زوجته فيبهرونها بشبابهم ومالهم ويلهون بها على مرأى من الزوج الغيور ومسمع (١) . لقد أنفذ اليهم موليير اول سهامه ؛ وهو الآن يريش سهماً جديداً لينفذه اليهم بعد حين في رائعته العظيمة « كاره البشر » . ارأيت كيف ان جانباً كبيراً من ادب الاتباعيين هو ادب شخصي يستمد غذاءه وماءه من حياة المؤلفين واشخاصهم ، فلا يسترهم عنا غير ستار شفّاف رقيق ؟

لم يعترض رجال الدين سبيل الرواية الجديدة «دون جوان» باديء الأمر ، وأحرز الفريق بها نجاحاً حسناً . ولكن لم يمض غير قليل حتى جدّد الخصوم حملتهم ، فأوعز الملك سراً الى موليير فوقف عرضها بعد ان مثلت خمس عشرة مرة فقط (٢) . لعلك تتساءل عن هؤلاء الخصوم الاشدّاء الذين عكّروا صفو شاعرنا والذين كان الملك يصانعهم على كره منه وكثيراً ما كان ينزل على ارادتهم . لقد كشف النقاب عنهم اخيراً الاستاذ ر. أليبه (٣) في كتابه : « عصبة الاتقياء (٤) » ١٩٠٢ م : وذلك انه قد تألف في فرنسا عام ١٦٧٢ حلف سرّي من كهنة ومدنيين باسم : « جماعة القربان المقدس (٥) » ، يدعو الى مواساة الضعفاء وتشجيع العبادة والنسك ومراقبة الأخلاق العامة ولو اقتضى ذلك بثّ العيون والأرصاد . وقد رأى الوزير « مازاران » نفوذ هذه الجماعة في تضخم فحاول ان يصدر امره بابطالها ١٦٦٠ م . ولما آل الحكم الى لويس الرابع عشر ، رأى فيهم ما يحدّ من سلطته ويقف في طريق لذته ، ولكنه تهيّب ان يجاهرهم بالعداوة ، وفيهم الملكة الام والمطران بارافيكس مربيه وغيرهما من كبار رجال الدين . فلما قضت الملكة العجوز نحبها ١٦٦٦ م باداهم لويس بالعداوة وحل رابطتهم ، ولكن نفوذهم استمر في الخفاء عامين آخرين ثم اضمحل (٦) .

• • •

كانت «طرطوف» لا تزال همّ موليير وشاغله . لقد عمل على اصلاحها بما يخفف عداء الاتقياء الساخطين : حذف بعض ابياتها ، ووسّع في حديث كليانت في التفريق

---

(١) Molière 134 (٢) 119 ثم 144 (٣) R. Allier
(٤) La Cabale des dévots (٥) Compagnie de Saint Sacrement
(٦) ص ٦-٧ من مقدمة Le Tartuffe

بين العبادة النفعية المزوّرة والعبادة البريئة الخالصة ، وخلع عن بطله ثياب الكهنــوت واخرجه في لباس عصري . وكانت احوال الفرقة تزدهر يوماً بعد يوم ، فقد اعلن الملك عام ١٦٦٥ عطفه على الشاعر ، فاصبح رئيساً « لفرقة الملك » ، واصبح له راتب ضخم من خزينة القصر ؛ ولم يمض عام واحد حتى الغيت رابطة الخصوم كما رأيت ، واذن له لويس ان يمثل روايته ثم اخذ طريقه الى حرب « الفلاندر » ؛ وابتهج الشاعر لهـذا الترخيص واعدّ الفريق عدته لتمثيل الملهاة بعد ان حيل بينها وبين الجمهور ثلاث سنوات ، فكان الاقبال عليها عجيباً ، ولكن رئيس البرلمان فاجأ الفريق بأمر منه باغــلاق المسرح . واحتج الشاعر بالاذن الملكي ، ولكنه كان اذناً شفويا عدّه المسئولون غير كاف ! وتوسط بوالو في الأمر ، وجمع الشاعر بالرئيس الذي اثنى على موليير وقال له انه احد الرجال العظام الذين تفخر بهم فرنسا ؛ ثم اخذ يشرح له ما يكمن وراء سخريته بالمنافقين من نيــل من كرامة الصالحين ووضعهم موضع الشك والتهمة . وأرتج على موليير ولم يدر كيف يجيب ، ولكن الرئيس ما لبث ان اشار الى ساعة الجدار وقال :

ترى يا سيدي ان الوقت ظهر ، وأنني سأضيع الصلاة اذا بقيتُ هنا .

وقد وضع موليير على لسان طرطوف كلاماً بهذا المعنى بعدئذ !

ولم يستطع الملك ان يعطي اذناً رسمياً لتمثيل الرواية ونشرها الا بعد ان قطع دابر الرابطة وأمن جانبها ، وكان ذلك في /٥/ فبراير « شباط » ١٦٦٩ م (١) .

• • •

وهذه ملهاة ثالثة : « الحب المداوي (٢) » تتصدّى للاطباء فتسخر منهم وتضمهم الى زمرة الخصوم . مثلتها الفرقة عام ١٦٦٥ بعد ان صدرت الأوامر بوقف الروايتـــين السابقتين . لم يكن موليير أول من سلك فكاهات الاطباء وحماقاتهم في رواية ، ولكنهم نقموا منه خروجه عن الدعابة التقليدية الى تصوير اشخاص احياء معروفين . لقـد رأى الأطباءَ في مشاهد كثيرة يجتمعون ويتشاورون ، ثم لا يكشفون الا عن جهل وحمــاقة وجشع . رآهم حول سرير الملك يعاني الحمّى فيعقدون جلسة اثر جلسة فتشيع اضاحيكهم في الآفاق . ورآهم حول الوزير المحتضر « مازاران » يتداولون امرهم بينهـــم : قال قائل منهم ، انه الطحال ، وقال آخر انه الكبد ، وقال ثالث بل هي الرئة . . . فلــا حضرت الوفاةُ الملكة الأم مثلوا الدور نفسه ، فكأنهم كانوا يغرون الشاعر بهم ويزيّنون له ان

(١) المصدر السابق Molière 121—124 (٢) L'Amour médecin

يفيد من سخفهم . هاهم أطباء القصر يسرحون ويمرحون ويخدعون ويمكرون في الملهاة الجديدة ، بعد ان التمس لهم الشاعر عند صديقه « بوالو » اسماء يونانية تموّه وجوههم وتشهّر دناياهم (١) . دعنا من حبكة القصة هذه المرة ، ولنصغ الى ابطالها يتحاورون :

« ـ ان رجلاً ميتاً ما هو الا رجل ميت ، لا يترتب على موته شيء . لكن الاخلال بالقانون والعرف لهو شرّ مستطير يحيق بهيئة الاطباء كلها . . .

— تذكر الرجل الذي قضيتَ عليه في هذه الايام الماضية .

— تذكر المرأة التي ارسلتها الى العالم الآخر منذ ثلاثة ايام . »

ثم أرْعِ سمعك حكيم الاطباء يمحّضهم هذه النصيحة الغالية :

« ـ الا تندى وجوهكم خجلاً يا سادة لما تبدون من حمق وطيش ! ... اذا لم نُعِر هذا التفاتنا اهلكنا انفسنا بأيدينا . لا احدثكم بهذا الحديث لقاء منفعة أرجوها ، فانني بحمد الله قـد فرغت من شئوني الصغيرة . فلتعصف الريح ، وليهطل المطر ، ولينزل البرَدُ ، فالذين ماتوا قد ماتوا ، وانني لفي غنى عن الاحياء . بيـد انه ليس في هـذه الخصومات كلها ما يفيد الطبابة . فلا نوقظنّ الناس بمؤامراتنا الحمقاء ، ولنغتنم بلاهتهم بما نستطيع من رفق . . . » فيردّ صاحبه : « ـ فليسمح هـذه المرة بدوائي المقيّئ للمريضة المذكورة ، وسأسمح له ان يعطي اول مريض قادم كل ما يريد . »

فيقول الطبيب الحكيم : « لم أرَ أحسن منك قولاً . هيّا يا سادة ، اطرحوا أحقادكم ، ووثقوا عرى تآلفكم . »

اما منظر هؤلاء الأطباء الاربعة وقد اجتمعوا ايتشاوروا ويتفاهموا لتشخيص الداء وتعيين الدواء ، فهو من اطرف المناظر وأبعثها على الضحك : فقد اخذوا يتحدّثون عن بغالهم ، وأفاضوا في كل حديث سوى حديث المريض !

ثم انظر الى « سجاناريل » يؤلمه ما يرهق ابنتـه من أسى ، فيستشير جارَيْه : البسطي والصائغ . قال الاول : « أعطها سجّاداً » وقال الآخر : « بل أعطها حلياً . » فما كان من صاحبه الا ان لفت نظره الى ما في نصيحته من غش بقـوله : « انت صائغ يا مسيو جوس ! » يريد انه يضع نفسه موضع الشك حين لا يرى دواء الا من بضاعته .

لم تحتج هذه المفاكهة السارة الى اكثر من خمسة ايام ، كتبها الشاعر فيهـا نثراً وعرضها على القصر اولا وامام الجمهور ثانياً ، وقد رحب بها الفريقان واستغرقوا في ضحك

Molière 144—149 (١)

عميق . ولكن الشاعر قد أثار عليه فريقاً جديداً من الاعداء كان في اشد الحاجة اليه . ويشاء القدر ان يسخر من امام الساخرين ، فلا يمضي غير ثلاثة أشهر حتى يقع طريح الفراش ، ينفث الدم ويشرف على الموت ، بين ايدي غرمائه الاطباء .

وزاد الموقف حرجاً فتور العلاقة بينه وبين الشاعر « راسين » فتهاجرا وتناكرا. اما زوجته « أرماند » فقد كانت حرقة وألماً دفيناً في قلبه . ها نحن اولاء نقترب من روايته الخالدة : « كاره البشر (١) »

• • •

الانسان لعبة القدر وهزأته ، يستوي في ذلك الملوك والسوقة والفنانون وجبابرة العقول : كان موليير يسخر من الاطباء ويزري عليهم جهلهم وجشعهم وكبرياءهم ويعرض مناقصهم اضاحيك وعبراً للناس ، فاذا المرض يدهمه ويضعه بين ايدي غرمائه ورهين رحمتهم ! وكان يدبّج الفصول الروائع يقع بها في رجال الدين واهل الزمانة ودعاة الاحتشام ثم لا ينتهي عنهم الا كارها مغلوبا على امره ، فاذا الاقدار تعاقبه أنكأ العقوبة ، فيرى بأم عينه كيف يسلبه اطراحُ الوقار والاسراف في التحرر اغلى ما يملك ، ففترت عنه زوجته ورثّت حبال الحب بينهما ثم انقطعت ؛ واظلمت حياة هذا الرجل الذي ملأ جوانح الباريسيين جذلاً وهزّ أعطافهم ضحكا ، وعادت صفراً من نعيم الأسرة ومتعة العاطفة . بيد أن الشاعر لم يعترض رغبة « ارماند (٢) » ولا حاول ان يقسرها على طاعته ، ورأى الحكمة ان لا يمثل معها دور « ارنولف (٣) » وقال لها « ستكونين حرة ، ولن تعاني خسفاً ولا كبتاً (٤) » . وتمّت القطيعة ، غير ان ارماند لم تفارقه ، اذ كانت صلات المهنة تجمع بينهما كل نهار ليستظهرا ادوارهما ويمرّنا عليها ؛ فاذا جاء المساء مَثّلا معاً بين يدي الجمهور (٥) ليتفاكها ويتهازلا ويشبعا رغبة القوم من جدّ القول وهزله وليشيعا فيهم التفاؤل والسرور ! يالعبث الاقدار ويا لمهانة الانسان ! وكان موليير حينئذ يكافح لدَدَ الخصوم في معركة « طرطوف » الحامية الوطيس ، فكيفما التفت لا يرى حوله الا نواجذ الشرّ ومظاهر الخديعة واللؤم والوضاعة . انه ليسمع من اعماق نفسه صوت بطله الجديد ينادي بالويل والثبور لهذه الانسانية الجاحدة الظلوم ، صوت (ألسيسْت) بطل الرواية المتيدة الخالدة ، وصدى نفسه المتألمة المستوحشة . لم يغب عنه ذات يوم ما في حبه من غرابة

(١) Molière 144—149 (٢) زوجته (٣) بطل رواية : مدرسة النساء
(٤) Molière 164 (٥) 167

ولشوز ، وتغلبت روح الفنان عليه فكتب « مدرسة النساء » وسخر من ذلك الزوج الذي تعميه الأثرة عما بينه وبين زوجته من تفاوت العمر ؛ وهو الآن لا يخفى عليه مافي تشاؤمه وتألمه من غيّ وسخف ، وتأبى عليه ملكة الفن الا ان يتجرّد من ميوله واهوائه ليصوّر مافي التشاؤم من أفْنٍ وضيق مضطرَب وقصر نظر . انه الآن وحيد في بيته ، اسير الوحشة الكئيبة ، يطلّ على سرّ من اسرار النفس الانسانية ، فينقله الينا فصولاً رائعة بعد ان أنفق في نسج مناظرها ونظم ابياتها عامين كاملين :

يدخل « ألسست (١) » صالة الغانية « سيليمين (٢) » وهو ثائر صاخب ، يوجّه قوارع اللوم لصديقه « فيلانت (٣) » لأنه أكثرَ من دلائل الصداقة لرجل لا يعرفه . هذا في نظره نفاق صريح :

اريد الانسان مخلصاً شريفاً ،

فلا ينبس بكلمة لا تصدر من القلب (٤) .

انه يرى في مجاملة صديقه الناسَ ومسايرته اياهم سبباً كافياً لامتهانه واطراحه : ذلك لأن احترام الناس جميعاً لا يعني احترام احد (٥) . ثم ان ألسيست صريح لا يخفي انانيته وكبرياءه :

اريد ان يخصّني الناس بالرعاية ، وانا اقولها صريحة:

إن صديق النوع الانساني ليس لي بصديق (٦) .

اما « فيلانت » فهو يقابل جفاء صاحبه بالحلم ، ويحاول ان يبسط له حقيقة المشكلة فيريه مافي رأيه من غلوّ وما في لومه من تحامل . يقول له : انه لمن الحكمة ألا يبوح المرء ببعض اسراره للناس ؛ فالصراحة اذا وضعت في غير موضعها تبدو سخيفة او مزعجة . أمن الكياسة ان تُظهر الناسَ على كل ما يحوك في صدرك عنهم ؟ أن توبخ العجوز المتصابية على ما في تصابيها من بلاهة ، وان تلفت المدعي الهذار الى مافي حديثه من تفاهة ؟ يقول ألسست : نعم (٧) . ويقول فيلانت : إنّ هذا حمق ، ولن تقوّم هذه الصراحة ماتأد من اخلاق الناس ولن تصلح ما فسد من اعمالهم ؛ وهي بعد حقيقة ان تعرّضه لهزئهم وازدرائهم . هنا يكشف ألسيست من عميق كرهه للناس ، فهو يريدهم ان يسخروا منه ليغذّوا بسخرهم حقده ، وهو يأنف ان يكون في اعينهم فهماً رشيداً .

---

(١) Alceste «٢» Célimène «٣» Philinte «٤» البيتان ٣٥، ٣٦

«٥» البيت ٥٨ «٦» البيتان ٦٣، ٦٤ «٧» الابيات ٧٣-١١٧

غير ان فيلانت ينكر على صاحبه حقده الذي يصبه على المجتمع ، ولا يرى في ذلك فضيلة ولا خيراً (١) . فلا يزيد السست على ان يؤكد هذا الحقد الدفين ويستمسك بعراه :

كلا ، انه حقد عميم ، وانا اكره البشر جميعاً ،
هؤلاء لفساد طويتهم وكثرة مخازيهم ،
واولئك لصفحهم عن الاشرار ولين عريكتهم (٢) .
ان شهوة غلابة فاجئة تمتلكني احياناً ،
لأفر الى صحراء خاوية لا ارى فيها انساناً (٣) .

فيجيب فيلانت :

ولا كل هذا القلق يا صاح من التقاليد والعادات ،
ولننظر بعين العطف الى الطبيعة الانسانية ،
لا ينبغي لنا ابداً ان نقسو في البحث عنها ،
ولنر ما فيها من نقائص بشيء من المسامحة .
لا بد في هذه الدنيا من فضيلة سهلة ذلول (٤) ؛
فالعقل الكامل يختار من الامور اوساطها ،
وينصح بالاعتدال في الحكمة كما في غيرها (٥) .
انها لحماقة ليس لها من نظير
ان نأخذ النفسَ بتهذيب الصغير والكبير (٦) .

ويقول له وهو يحاوره :

اجل ، فعيوب البشر التي تحرك بالشكوى منك اللسان
نقائص محتومة ممزوجة بطبيعة كل انسان ؛
وان عيني لا تقذى لرؤية الماكر النفعي ذي المظالم
اكثر مما تقذى لرؤية العقبان الجائعة في الملاحم ،
او القردة المؤذية والذئاب الضارية (٧) .

«١» الابيات ٧٣-١١٧ «٢» الابيات ١١٨ - ١٢٠ «٣» البيتان : ١٤٣ - ١٤٤
«٤» الابيات : ١٤٥ - ١٤٩ «٥» البيتان : ١٥١ - ١٥٢ «٦» البيتان : ١٥٧ - ١٥٨
«٧» الابيات : ١٧٣ - ١٧٨

ومما يزيد في تشاؤم ألسست ودَغل صدره أن له في المحكمة دعوى يوشك ان يخسرها ، لأنه لا يعيرها اهتمامه ، ولا يعمل بنصيحة فيلانت الذي يريده ان يشمر بالواقع والا يطمئن الى عدالة القضاة ، بل يزورهم على انفراد ويلتمس معونتهم ، على عادة الناس في ذلك الحين او في كل حين ؛ ولكنه يأبى ذلك اباء شديداً ، لأن دعواه على حق وكفى . فاذا اقنعه فيلانت بانه خاسر الصفقة لا محالة اذا سلك هذا الطريق ، اجاب انه يلذّ ان يضيع حقه ليذكي نار البغضاء على الناس في صدره !

ثم ان ألسست يحب شابة أيمّا (١) تدعى سيليمين ، على ما فيها من خلاف معه في الخلق : فهو صريح يابس الطبع مستقيم النهج سيّئ الظن في الناس ، ينفر منهم وينأى عنهم ؛ وهي كتوم مرنة ملتوية الطبع ، تحب الخلطة وتكره الوحدة ، ولا يهمها الناس ، كرموا او لؤموا ، لا تحبهم ولا تكرههم ، ولكنها تحب عشرتهم على كل حال . هذا الخلاف في المزاج بين الرجل وفتاته ، وحبه الشديد لها ، ثم حرصه على ان يكون وفياً لطبعه اميناً على فضائله هو الذي يحملك على التفكير والابتسام ، ولا اقول على الضحك فان امير الملهاة لم يقصد هذه المرة الى الاضحاك ، ولكنه قصد الى التحليل العميق والعرض الطبيعي الخالص من كل عبث او تهريج . كان المعقول بعد اذ رأى ألسست عيوب صاحبته ونعاها مراراً عليها ان يستجيب لميل آخر اكثر ملاءمة لمبدئه وطبعه ، ميل الفتاة « اليانت (٢) » ابنة عم حبيبته ، فهي تحترمه وترنو اليه . هذا ما يشير به عليه صديقه فيلانت ، ولكنه يجيب بقوله :

ذلك حق يردّده عليّ العقل كل نهار ،
بيد ان العقل ليس بالذي يقود الحب (٣) .

ويقطع عليها الحديث «اورونت (٤)» ، احد اصدقاء الغانية المترددين على صالتها . وهو ذو مكانة في البلاط يفاخر بها . كما انه يؤمن بشاعريته ، لأن بعض الظرفاء يبدون اعجابهم بنظمه السخيف . هذه هي نقيصة الرجل . وهو بعدُ حسن المعشر خفيف الظل . إن احب شيء الى نفس « اورونت » ان يجد أذناً تصغي اليه ولساناً يثني عليه . وهو يتوسل الى هذا بدهائه الساذج الحقير . فما يكاد يرى « ألسست » حتى يمثل دوره التقليدي ليمهّد لقراءة شعره . فهو يغمره بثنائه ويكشف له عن امله في مصادقته ، وألسست مشغول عنه ، لا يلقي اليه بالاً . فاذا نبهه الرجل بقوله :

«١» هلك عنها زوجها «٢» Eliante «٣» البيتان ٢٤٧، ٢٤٨ «٤» Oronte

اليك ، اذا أحببت ، انما يساق الخطاب (١)

واستأنف مديحه وبالغ فيه ما شاء ، لم يستطع ألسست ان يكتم استغرابه لأنه يشترط في الصداقة ان تأتي عن تعارف طويل واحترام اكيد (١) . أليس هـذا بالحق ؟ بلى ، ولكن ذكاء ألسست لا ينفذ الى اكثر من هذا ؛ اذن لماكلّف نفسه عناء ذلك الشرح ولماقا بل الرجل بمثل ذلك الجفاء ؛ لأنّ اورونت أهون من ان يجابه بالحقيقة ، وغرضه أيسر من ان يُصرّف عنه بمثل هذا الاعراض : انه لا يريد الا ان يقرأ بضعة ابيات ويحظى ببعض التشجيع ! ان الصراحة فضيلة في كبريات الامور وحيث تُميط اذى او تكشف عن حق ، اما في صغائر الامور وتوافهها ، واما اذا آذت النفوس وعقّدت المشاكل فهي خفة وهي حماقة . لم يستطع اورنت ان يتألف صاحبنا ألسست باسم الصداقة اذن ، ومع ذلك فالقصيدة في جيبه تضايقه وتريد ان تلتمس طريقها الى آذان الناس ! فلا بأس في ان يقوم بمحاولة اخرى ، فيذكر وظيفته في القصر ومكانتـه من قلب الملك ، ويومي من طرف خفيّ الى استعداده لمدّ يد المعونة . حتى اذا فرغ من التملق وادعـاء الصداقة والتلويح بالوجاهة والاغراء باسداء المعونة ، ايقن انه فتح من جليسه مغلـق سمعه وضمن اعجابه وثناءه ؛ ولكن ألسست يستعفيه من هذه المهمة ، ويعتذر اليه بما في طبعه من صراحة جارحة ، ومافي طبع الناس من حرص على التقريظ وضيق بالتجريح . فيؤكد له اورونت ان الصراحة رغبته والنقد طلبته ، وانه يعدّ الثناء في غـــير محله خديعة والسكوت عن الهفوات لؤماً ؛ فما عليه الا ان يدلي برأيه في غير خوف ولا محاباة . ثم يشرع اورونت في قراءة قصيدته ، وهو يقف بين حين وآخر ليقول انه يهمه ان يعرف رأي صاحبه في اسلوب القطعة ، او ليلفت نظره الى انه لم يبذل في نظمها اكثر من ربع ساعة ، او ليصغي الى عبارات الاعجاب يغمره بها فيلانت . أما ألسست ، فقد سبق ان وصفناه بصراحة الصدر وقرب النظر ، ولا تزيد الحوادث الا تأييداً لهذه الصفة فيه وتمكيناً . انه يتمتع بفضائل رفيعة كثيرة . فهو قويّ الشخصية كما يتجلّى من هذا الاهتمام الذي يلقاه من ابطال الرواية ، رجالها ونسائها ، مرهف الذوق ، صريـح ، عزوف عن الدنايا ، ولكنه بالمقابل متصعّب ، يُصعّب على نفسه وعلى غيره ، نَزِقٌ يستشيط ويحمي لاهون الامور ، متشائم ، يفسد عليه سوء الظن بالناس حياته . مستوحش حريد ، يكره الناس ويكره عشرتهم ، ثم هو قليل الفطنة في امور الحيـاة ، ينقصه ما يمكن ان نسميه

(١) البيت ٢٦١ (٢) الابيات ٢٧٧ - ٢٨٤

« بالذكاء العملي » . لقد نفقت عنده كلمات اوورونت ، فظن ان الرجل جاد في طلب النقد الصريح ، راغب عن الثناء التافه ؛ فطفق يتحدث بما يجول في خاطره عن غثاثة هـذا الشعر وقلة مائه ، واستغرب من صاحبه ان يعنّي نفسه بفن لم يُخلق له ولم يحتج اليـه ؛ ونسي اوورونت ما قدّم من قول ، فلم تعجبه صراحة السست واحتج عليها ، وتطوّر الجدل الى الغضب ، وانتهى الغضب الى التهديد والقطيعة .

فيلانت هو الذي حجز بين الرجلين ووضع حداً لنقارهما . وهو الذي فهـم الموقف من اوله وعرف كيف يتصرف بذكاء ومكر . ليس في طبع الرجل لؤم ولا في مكره شر . ولكنه حاذق اريب يعرف متى يجب ان تُفهم الكلمات بمعانيهـا ومتى يجب ان يُفهم ما وراء الكلمات . انه يقرأ ما بين السطور اذا طاوع هذا التعبير . قرأ في وجـه اوورونت الغرور وحب الثناء ، فلم يصدق ما قاله من رغبته في النقد النافع النزيه . من اجل هذا رأيته لا يضنّ عليه بعبارات الاعجاب ، ولا يعبأ بما يوجهه اليـه ألسست من نظرات العتاب . لا شك انه كان أبعد نظراً من صاحبه في فهم حديث اوورونت وتحسّس رغبته . ولا شك في انه استطاع بتصرفه هذا ان يرضي غرور اوورونت ويتّـقي غضبه . ولكننا مع ذلك نتساءل : ألم يكن في المستطاع ارضاء هذا الشويعر المختال بطريقة اخرى لا تُذكي غروره ولا تزيد في ضلاله ؟ اليس اجدر بفيلانت ان يعدل عن هذا الرياء الظاهر في مبالغته في المدح الى كلمات معدودة يصرف بها محدثه بالتي هي احسن ، فيتـقي اذاه من غير ان يزيد في عماه ؟ لقد تقول ان اوورونت احقر من ان يحاَبه بالحقيقة ولكنه كذلك اقل من ان يحملنا على ان نشيد بفنه ونسبح بحمده ! بل كان في مستطاع فيلانت ان يلازم جانب السكوت فلا يمدح ولا يذم ، وهذا اكرم له واسلم ، لأنه حين اشاد بذكاء اوورونت واطنب ، كسب غضب صاحبه ألسست ، من غير ان يربح احـترام اوورونت ؛ وآية ذلك ان اوورونت لم يلتفت اليه ولم يفكر فيه ولم يحيه بغير جملة واحدة ! ومن يدري ، لعـل فيلانت حين نجا من غضب اوورونت لم ينج من احتقاره . ولعل أوورونت حين صب نقمته على ألسست كان يشعر نحوه بالاحترام في اعماق وجدانه ! ومن يدري ، فلو ان فيـلانت اقتصد في ريائه او لزم جانب الحياد لما شجع اوورونت على الاسترسال في صلفه ولما احرج موقف صديقه . اننا لا ننكر ما في شخصية فيلانت من سلاسة وسماحـة وأرْيَحيّة ، فقد جعله المؤلف « حليما مخلصاً في صداقته » ، كما يقول الاستاذ جيراند ، يغضي عن احتداد صديقه ألسست وتحامله ، ويفيض رحمة وعفواً عن نقائص الناس وضعفهم ، وينسى نفسه

امام صديقه المتشائم ، فينصح له بالزواج من صديقته اليانت على حبه الشديد لهـــا في الخفاء »(١) . بيد اننا لا نرى الوجاهة واحترام النفس في اسرافه في التملق ، كما لم نر الحصافة في صراحة ألسست وجفائه . ويبقى ان ألسست على خطئه يحظى باحترامنا لان الجفاء في الحق اهون من النفاق بالباطل . ولا معدى لنا هنا من ان نعجب من ان موليير الذي هاجم النفاق في روايته الخالدة « طرطوف » بما لم يهاجمه به كاتب آخر ، نراه قــد تطامن رأسه ولانت قناته امام سلطان المجتمع العاتي ، فأصبح يدعو في « كاره البشر » الى المجاملة والموادعة ، بل اخذ يدعو الى المداهنة ، ويراها شرطاً اساسياً لتوثيق عرى الالفة والمحبة بين الناس ، ولدفع المكاره والعوائق من طريقهم ! ! .

• • •

نحن الآن في الفصل الثاني من الرواية ، وفي صالة الغانية سيليمين ، حيث نراهـا تصغي الى عبارات الشكوى والزجر والتهديد يتدفق بها صاحبها ألسست ، لأنها تستكثر من العشراء ولا تصفيه الهوى من دونهم . ولكنها تحتج بانها لا تملك ان تطرد الناس من حضرتها ، وفيهم من ترتبط به مصالحها ، وتأخذ على ألسست غيرته ، وتؤكد حبهـا له . وفيما هي تجامله وتخفف من حدته يدخل عليها المركيزان « أكاست » و « كليتاندر »(٢) ، يرافقهما فيلانت ، وابنة عم للغانية تدعى « إليانت »(٣) ، فيستقبلهم صاحبنا غاضباً كظيما ، ويصغي اليهم يثبون على اعراض الناس ولا يخلون احداً من ذمهم ؛ فيحمـــل نفسه على السكوت اولاً ، حتى اذا طال حديث الغيبة ولم يبق في قوس الصبر منزع ، رأيته ينفجر على هؤلاء العيابين لوماً وتقريعاً ، فتنبري سيليمين مجيبة ، ويلج الجدال وينذر بالشر ، واذا بخفير يفاجىء القوم ويكاشف ألسست بمرافقته الى المحكمة لتقضي بينه وبين خصمه المتشاعر اورونت !

فاذا كان الفصل الثالث رأيت المركيزين وحدهما يتبادلان حديث الفخر والاختيال فقد اغتنم موليير الفرصة لينال في شخصهما من مكانة المركيزات جميعاً ، كما نال منهـــا في بعض ملاهيه السابقة . فهو هنا يجهز على هـــذه الطبقة من النبـــلاء فيعرض سخائفهم ومضاحكهم ، بما يصور فيهم من تخنث وتبذل وجفاء طبع وأثرة وزهو(٤) :

لديّ المال والشباب ، وانا سليل بيت

---

(١) مقدمة رواية Le Misanthrope P : 11 (٢) Clitandre, Acaste

(٣) Eliante (٤) المقدمة ص 10

يستطيع ان يدعي النبالة ببعض الحق .
واعتقد انني بالمنزلة التي يخوّلني اياها محتدي
قلما تطاولتْ نفسي لعمل لا اكون به جديراً .
اما الشجاعة التي يجب ان نخصّها باكبارنا ،
فالناس يعلمون ـ ولا فخر ـ ان لي منها حظاً . . .
واما الذكاء فلا ينقصني ولا شك ؛ لي ذوق رهيف
بحيث احكم من غير درس واخوض في كل حديث . . .
ثم انني حاذق ، حسن السمت ، بادي الحسن ،
لا سيما اسناني الجميلة وقوامي المشوق . . .
لقد بلغت من الحظوة والرعاية اكثر مافي الامكان ،
فالنساء يحببنني حباً ، والمليك يزيدني قربا .

ويخرج الرجلان لدى وصول الفتاة « ارسينوا (١) » ، وهي شخصية سمجة يضعها موليير بازاء سيليمين لتتوضح بالتضاد ميزات كل منهـــما ، وليغمز مرة اخرى من جانب المنافقين . فسيليمين هي الغانيةالظريفة المولعة بعشرة الناس ، والتيلا يطيب لها عيش من غير هالة من المعجبين من حولها ، وهي بعد مرهفة الحس ، متـــوقدة الذكاء ، لا ترى حرجاً في ان تبسط لسانها في نواقص الناس اذا اتاح لها ذلك ان تبينَ عن شفوف ذهنها وبعد نظرها . ثم انها على فطنتها وسماحة طبعها ملول متقلّبة لا تفهـــم حديث القلب ولا تدرك قيمة الوفاء . بيد أنها قد اوتيت من قوة الاغراء بصباها وظرفها وجمالها ما يشفع لها ويخفي عيوبهـا (٢) .

اما « ارسينوا » فليس شيء من هذا يشفع لها ، الى روح شريرة غدور ، يزيد في وضاعتها هذا الرياء الذي يظهر في احتشامها الـكاذب ، وفي ستار من الفضيلة المتـــكافة تخفي وراءه خبثها ومكرها . همُّها الدهرَ ان تنتقل من صالة الى أخرى لتترصد هفـوات الناس وتتزيّد فيها وتكبرها (٢) .

هـكذا عرض الشاعر صورة دقيقة حية لهاتين الفتاتين ؛ بعد ان قدم لنا في الفصل الاول وصفاً عميقاً بارعاً لبطل الرواية السست ، بمـا اختار من ظروف مواتية لتجلية شخصية بفضائلها ومساوئها ، وبما وفق اليه من رسم صورة اخرى دقيقة واضحة المعالم ،

---

(١) Arsinoé (٢) المقدمة ص 11– 10

تناقض في اوصافها صورة المتشائم ، فتزيدها قوة ووضوحا ، اعني صورة « فيلانت » الذي يذهب الى التفاؤل ويجري مع الدماثة والطبع المسماح .

• • •

ماذا يدور بين الفتاتين من حديث ؟ انه حوار طريف جداً كنا نحب ان ننقله اليك كاملاً لولا ضيق المجال ، فلنكتف بتلخيصه اذن :

تستقبل الغانية صديقتها بالترحاب ، فلا تلبث هذه ان تعلن المهمة الخطيرة التي قدمت من اجلها . تقول « ارسينوا » باسلوبها الخبيث الماكر إن الصداقة يجب ان تظهر في الامور التي تهمنا ؛ واذ كان الشرف هو رأس فضائلنا ، فقد جئت ابرهن على صداقتي بالتحدث اليك في امر يمسّه . ذلك ان نفراً من خيار الناس تحدثوا عنك بالأمس فلم يعجبهم سلوكك الصاخب وتهالكك على اللذات واسرافك في قبول الزوّار . وقد بذلت ما استطيع للدفاع عنك ، غير ان هناك اموراً لا نملك الدفاع عنها ، فلم أر بدّاً من الاعتراف بانك مخطئة شيئاً بسيرتك المريبة التي ارتضيتها لنفسك . وانا يا سيدتي ارى انك اعقل من ان تسيئي فهم هذه النصيحة النافعة ، واعيذك ان تنسبيها الى غير دوافع المحبة التي تربطني بك .

هذا النقد اللاذع والمكر الكبّار لا يُخرج الغانية عن هدوئها ولا يذهب بانسها وبشاشتها ، بل هي تقتبس اسلوب الفتاة المخادعة لتكيل لها من بضاعتها . تجيب سيليمين بانها جد شاكرة لصديقتها حسن صنيعها هذا ، وهي لا توفيها حقها الا اذا قابلتها بنصيحة اخرى تتصل بشرفها كذلك ! فقد كانت سيليمين تزور بالامس جماعة من الفضلاء ، وكانوا يتحدثون عن المكارم الصحيحة ، ثم دار الحديث على « ارسينوا » ، فاذا القوم يُنحون باللائمة على تزمتها وصاخب ورعها . ان اصطناع الوقار والاسترسال في حديث الحكمة والشرف ، وهذا الغلو في احترام النفس ، وهاتين العينين التقيتين ترميهما على كل شيء ، والدروس والعظات ترسلها دراكاً ، ونواهيها الشديدة عن امور طاهرة بريئة ، كل اولئك كان موضع النقمة العامة . كانوا يقولون : ما فائدة هذه الهيئة المحتشمة وهذا المظهر العاقل اللذين يكذبهما كل ما عداهما ؟ اذا كانت لا تهاون في صلاة ابداً فانها تجلد خدمها ولا توفيهم اجورهم . واذا كانت ما تني تتظاهر بالعبادة أينما حلت ، فانها تضع المسحوق الابيض وتحرص على ان ترضي بجمالها . ثم هي تحجب الصور العارية مع انها تعشق العري الحقيقي . اما انا فقد دافعتُ عنك ما وسعني الدفاع ،

واكدت لهم انهم يغتابونك من حيث لا يشعرون ؛ ولكنهم اجمعوا على انك تحسنين صنعاً اذا شغلت بعيوبك عن عيوب الآخرين ، اذا بدأت بنفسك فنهيتها عن غيها قبل ان تفكري باصلاح الناس . . . هذا ولم يفت سيليمين بدورها ان تضع ثقتها بالصديقة المرائية لتتقبل نصحها بصدر واسع ونفس كريمة .

لم تعجب هذه النصائح السيدة الواعظة واحتجت عليها ؛ ولكن سيليمين أصرت على سلامة نيتها واكدت انها بحاجة ماسة الى تبادل النصح دائماً وتذاكر ما يقال عنها ! فاذا تمادت ارسينوا في ابداء امتعاضها ، لم تجد الغانية بداً من ان تلمح لها الى ما بينهما من فارق في العمر ، والى ان التطرف يليق بالصبا المتفتح كما ان الاحتشام يناسب الشباب المدبر ، فهو حقيق ان يخفي العيوب او يخفف من بشاعتها . وآلمت هذه الاشارة السيدة المرائية فثارت واحتجت . هنالك واجهتها سيليمين بالحقيقة الصراح ، فهي تعلم ما تروجه عنها الصديقة الناصحة من اكاذيب في كل مكان ؛ لا لشيء الا لان الاقدار حرمتها ما لم تحرم سيليمين من صبا وجاذب وجمال . عندئذ تعود المرائية الى نغمتها القديمة ، فتقول انها لا تنفس على صاحبتها بحب غير شريف ، وانها غير عاجزة عن ان تسوق في ركابها المعجبين والمحبين اذا سلكت طريق الغانية وآثرت اللذة على الفضيلة ! ثم تخرج سيليمين ويدخل ألسست ليأخذ نصيبه من خداع المنافقة البغيض وحديثها الكذاب .

• • •

ربما كانت (ارسينوا) تتكلف الوقار وتلهج بالفضيلة مسايرة لغريزة النفاق في نفسها . غير انها في حديثها مع ألسيست تكشف لنا عن سبب آخر راهن ، وهو حبها لهذا الرجل المستقيم الفاضل ، واملها في اجتذابه اليها بما تتظاهر به من عفة ورزانة . فاذا انفردت به رأيتها بادية السرور للاقائه ، لا تعرف كيف تلتمس السبيل للخوض في حديث معه . فاذا رثت لحاله وألمت لاعراض القصر عنه ، صارحها انه لا يشعر بالغبن ولا يعتقد بهذا الاعراض ؛ واذا نوهت بمناقبه ومنت عليه إشادتها في المجامع بذكره ، جابهها باحتقاره لهذه العادة السيئة التي درج عليها المعاصرون باسرافهم في الاماديح يطلقونها على الصغير والكبير :

ان النفس لتلفظ هذه الاماديح ترمى بها هام الرجال

فلقد اذاعت الجريدة اسم خادمي ، الى هذا وصلت الحال .

واذا وعدته بأن تبذل وساطتها لتلتمس له عملاً في القصر ، اجاب انه لم يخلق لمثل هذا العمل الذي يحد من حريته ولا يتفق مع صراحته ، ويكلفه ما لا يطيق من خداع ونفاق .

تدع الفتاة حديث الكفاية والالمعية والقصر ، فهـــو حديث عارض تمهّد به الى حديث خطير قررت ان تفاتح بـــه الرجل المتشائم ، لتزعزع ثقته بالغانية سيليمين ، ولتحظى به من دونها . انها الآن تبدي اسفها لهذا الصديق الذي علّق آماله بفتـــاة لا تشاكله نبلاً وامانة ووفاءً ؛ وتستصحبه معها الى منزلهـــا لتضع امام عينيه دلائل قاطعة على خيانة صاحبته وجحودها .

• • •

ومنظر آخر طريف يعرضه علينا المؤلف في الفصل الرابع ، فيدفعنا الى العطف على بطله المتشائم ويغرينـــا بالابتسام من تشدّده فيما لا موجب فيه للتشدد ، وهو منظر تلك المحاكمة ينقله الينا فيلانت في حديثه مع صاحبته (اليانت) . ليس أوقفَ للنظر ولا ابعث على التفكّه من شهود هذا الخلاف في قاعة المحكمة بين ألسست وصاحبه الوجيه المتشاعر . عبثاً حاول القضاة ان يلينوا من عريكة الرجل ويحملوه على الاعـــتراف بشاعرية خصمه ! والفـــكاهة كلها قائمة على هذه السذاجة التي تتناول القضية بمنتهى الجد وتحرص على ان تشهد فيها بمنتهى الصدق ! قال ألسست :

كلا يا سادتي كلا ، فانا لا ارجع عن قولي ،
وسأجاريكم في كل شيء ، ما خلا هذا المطلب .
ماذا يَغيظه ، وما عساه ان يقول لي ؟
أيُنقص من قدره أنه لا يجيد الكتابة ؟
ماذا يضرّه رأيي الذي لا يحمله محملاً طيباً ؟
لقد يكون الرجل شريفاً وهو لا يحسن نظم القريض ؛
فهذه امور لا تمس الشرف من قريب ولا من بعيد .
انا اعتبره رجلاً فاضلاً في كل شيء ،
رجلاً ذا مكانة وجدارة وقلب ،
ما شئتم من نبل وفضل ، بيد أنه شاعر رديء . . .

تسمع « أليانت » خبر ألسست ، فلا يسعها ، على استغرابها امره ، الا ان تبدي

شديد اعجابها باستقامته وفضيلته النادرة . ويتحدث اليها « فيلانت » عن حب صاحبه للغانية الفجور ، ومن حديث الصديقين ، نفهم ان « فيلانت » يحب « اليانت » ، ولكنه مخلص لصديقه ، يطيب له ان ينزل لهـذا الصديق عنها ، اذا كان في ذلك ما يسعده ويرضيه . اما « اليانت » فلا ترى حرجاً ان تفتح ذراعيها وتضم اليها هذا الوحداني العبوس ، اذا صدفت عنه صاحبته ، وأحب ان يربط مصيره بمصير اليانت ! ! واذن فالمؤلف حين اراد ان ينقد شخصية بطله لم يرد ان يبخسه حقه من المحبة والاكبار .

فاذا كانت مبالغة الرجل وسذاجته وتشاؤمه تلقى التعجب والابتسام ، فان صدقه ونزاهته وعزوفه عن الدنايا يلقى العطف والاحترام . ما من احد يقرأ الرواية ويفهمها فهماً جيداً يستطيع ان ينكر الاهتمام الكبير والحرمة البالغة اللذين يحوطان الرجل اينما كان ، ولا ان ينكر ما يكنه له صديقه فيلانت من خالص الود ، وما يثيره في نفس « ارسينوا » و « اليانت » من صادق الحب . حتى الغانية العابثة الملول ـ سيليمين ـ فهي تعدّه اقرب عشاقها الى قلبها واحرام بعطفها . لقد استنكر الاديبان الكبيران فينيلون وروسو ان يسخر المؤلف من بطله الفاضل وعدّا ذلك خطيئة لا تغتفر (١) ؛ ونسي الرجلان ان موليير لم يعنف احداً ذا اهمية في الرواية من نقده . حتى فيلانت ، فلك ان تلومه على اسرافه في التفاؤل وغلوّه في التزلف ، كما سبق ان فعلنا . ولا يذهبنّ عنك ان في السست مشابه من موليير ، والانسان قد يفطن ليعيو به ولكنه لا يستسخف نفسه على كل حال . ان موليير الذي يعتبر « زعيم الثورة الادبية في الدور الثاني من القرن العظيم (٢) » ، تلك الثورة التي صرفت الاذواق عن ادب الفخامة والخيال العقلي ، ووجهتها الى الطبيعية والتصوير النفسي والنقد الاجتماعي ، ليبلغ ذروة الواقعية في « كاره البشر » حيث يشيح بوجهه عن كل عبث او تهريج ، وحيث يرسم لنا صوراً تامة لاناس مثلنا ، فيهم عناصر الخير والكمال ممزوجة بعناصر الشرّ والنقصان .

* * *

كان الصديقان يتفاوضان في امر ألسست عندما دخل عليهما مغيظاً يائساً يحمل في يده رسالة حبّ كتبتها سيليمين الى احد عاشقيها ؛ واغلب الظنّ ان ارسينوا هي التي القتها اليه ، لتنزغ بينه وبين صاحبته . انه يكاد يتميّز من الغيظ ولا تهدأ غواربه الا بالانتقام . ولكن اسلوبه في الانتقام غريب فطير يحملك مرة اخرى على الابتسام : فهو

(١) L.T. 260 ، ورواية : Le Misanthrope P : 95—96 (٢) Faguet 266

يقدّم قلبه لاليانت مؤكداً انها ستكون موضع حبه العميق واحترامه وعنايته ، يقدّمه متعالياً متفضّلاً بعد ان أخبرها بخطء صاحبته ويأسه من استصلاحها ! ولكنك تشعر انه غير جاد فيما يعرض ؛ وانما هي احدى بدَوات الرجل ، لا ليرضي بها اليانت ولكن ليكيد بها لسيليمين ، الفتاة التي لا يزيده مكرها وعقوقها الا حبّاً لها وتعلقاً بها . والا فما رجوعه الى صالتها وحرصه على مقابلتها ؟

• • •

انصرف الصديقان وبقي ألسست ينتظر عودة الغانية ؛ فما ان اقبلت حتى اخذ يعطرها وابلاً من لعناته . وعرفت الماكرة الغضب في وجه الرجل فعمدت الى السخرية تبدّد بها غضبه . لقد كان يشك في وفائها ، اما الساعة ففي يده الدليل القاطع على خيانتها ! كأن تبذّلها وخلاعتها لم يكونا من قبل كافيين ليردّاه عن عشرة الفتاة ويؤايساه من محبتها ! ان متاعب الرجل كلها في ظهوره في غير وسطه الملائم ، وان الفكاهة كلها في هذه المبادىء القويمة يلهج بها ألسست في موطن الغيّ والفُجور !

قال ألسست ان خداع الغانية قد اطار صوابه ووقع عليه كل موقع . وليس ذلك لانه يريد ان يفرض عليها حبه فرضاً ، فهو يعلم ان القلوب لا تُكرَه على حب ، وان هوى النفس لا يغالب . وانما آلمه منها وأوجده عليها أنها منّته الحبّ ووعدته الوفاء ، ثم سخرت منه وغدرت به . لن يقف مكتوف اليدين امام خيانة هذه المرأة ابداً ، ولقد آذنها بحرب لا هوادة فيها ولا لين . ورأت سيليمين الرسالة ، ولكنها لم تضعُف ولم تفقد دهاءها وحضور ذهنها ؛ بل صعّدت فيه بصرها وقالت متحدية بذلك الاسلوب الماكر الذي تتقنه الغانيات من سكان القصور – ولم يصور الشاعر أرستوقراطية القصور وتعقيدها والتواءها في غير هذه الرواية – قالت متحدية : أهذا ما أطار صوابك اذن ؟ وخيّل الى الرجل ان صاحبته تعتصم بالانكار ، ولكنها كذّبت ظنه ولم تنكر ! أتراها لا ترى حرجاً ان تكتب الى ذلك الشويعر اورونت وان تحدثه بوفائها وتبثّه اشواقها ؟ هنا تقلب الفتاة لصاحبها ظهر المجنّ وتتركه في حيرة من امره ، اذ تنكر ان تكون الرسالة الى اورونت ، كما ألقي في روعه ، او الى كائن من كان من الرجال ؛ انها رسالة الى احدى صديقاتها ! وان ألسست في نظر الغانية مهوَّس تعبث به الاوهام ، وحبيب عرف مقامه فتطاول ! فاذا حاول ان يستزيدها علماً ابت ان تزيده لأنها لا تريد ان تضع امانتها موضع الشكوك ، وتصامّت عنه ووكلته الى وساوسه ؛ فاذا الفتى العاشق ينحني

عوده امام هذه الصلابة ويُغمض على ما في صاحبته من خداع ، واذا به يبوح لها بشديد غرامه ، ويؤكد لها انه ما كان ليتحدّ وينذر بالويل لولا حبه اللاهب الصادق !

أرأيت الى هذا الفنّ المصفّى في تصوير البيئة الفرنسية الرفيعة ، والى هـــذه المقدرة العجيبة في الغوص على النفوس واستجلاء اسرارها ، وابراز ما يصطرع فيها من فكر وعواطف ورغبات ؟

• • •

هأنتذا في الفصل الخامس ؛ وامامك ألسست قـــد بلغ من التشاؤم منتهاه ومن سوء الظن بالنـاس اقصاه ، بعد ان خسر دعوى له في القضاء . لقد وطّد العزم جازماً على ان يعتزل هذا المجتمع المنافق الظالم ، الى صحراء خاوية لا يكلم فيها انسياً ولا يراه : كل الدلائل كانت ضد خصمه ، الشرف ، الامانة ، الطهر والقوانـين . في كل مكان يلهجون بعدالة قضيته ؛ ومع ذلك فانه قد خسرها . لماذا ؟ لأنه اطمأن الى وجدان القضاة وابت عليه الكرامة ان يستميلهم اليه بغير الحق . اما خصمه فقد عرفه الناس خواناً اثيما لاخلاق (١) لهمن مروءة او فضل، ولكن المكر والرياء استطاعا ان يقلبا وجهالعدالة وان يغتصبا له الحق من صاحبه . ومعنى ذلك ان هذا المعتدي الآثم قـــد توّج فاحشته بحكم القضاء ! ثم انظر الى أين تصل سفاهة الانسان : ان خصمه لم يكتف بما سلبه من حقه، بل اخذ يوزّع على الناس كتاباً قبيحاً ممنوعاً باسم ألسست . اماأورونت ، ذلك المتشاعر الذي تورّط صاحبنا بمصارحته برداءة شعره ، فقد كان يدعم موقف الخصم الجبان ، لا لشيء الا ان السست لم يرد ان يغشّه، وأدلى اليه برأيه صادقاً . واورونت بعد هوالذي حمله على قول الحقيقة حملاً ، بما زعم له من حرصه عليها واحتقاره لمن لا يجـــرؤ على المصارحة بها . هؤلاء هم الناس ! وهذا هو مصير الامانة والصدق والاستقامة ! أفيرجوه بعد هذا كله صديقه « فيلانت » ان يكون واسع الذرع محباً للناس حريصاً على عشرتهم ! لا شك ان موليير كان جاداً في نقده المجتمع على لسان بطله المتشائم ، اذ لا ينبغي لنا دائماً ان ننسى من حياة المؤلف تلك الفترة القاتمة التي اوحت اليه بنظم هذه الملهاة العظيمة ، كما لا ينبغي لنا ان ننسى ما بين موليير وبطله من تقارب وتشابه في ظروف العيش والمزاج. على ان موليير لا يريد لبطله ان ييئس ولا يريد له ان يتشاءم ويفقد قدرته على الكفاح وامله

---

(١) الخلاق : النصيب

بالحياة . انه لا ينكر ما في مفاسد المجتمع وظلم الانسان للانسان من محنة ، ولكن المحنة الكبرى أن تسود قلوبنا وتسوء نفوسنا فنضطغن على الناس وتفارق الجماعة ، من حيث يجب ان نثبت في الميدان وتقاوم احزاب الشر ونصلح من امر هذه الدنيا . ان موليير لا ينكر قيمة الفضائل التي يتحلى بها بطله ، من صدق وصراحة في الحق واستقامة ، ولكنه لا يريد له ان يكون فظاً غليظ القلب ، بل كيساً مدارياً، يتناول الأمور برفق ، وحاذقاً ذكياً يفرق بين جد المواقف وهزلها ، فللاول الصراحة في الحق والمضاء فيه ، وللآخر تلك الاغضاءة الكريمة السمحة ، وتلك الابتسامة الذكية الحلوة .

• • •

اثنان من عشاق الغانية حاكت في صدريها الوساوس وقررا ان يكاشفاها بها ويسألاها ان تعلن موقفها صريحاً امامها ، هما ألسست واورونت . واحست الماكرة بحرج الموقف وآنست من الرجلين شهوة للكلام ففسحت لها في التحدث بما في نفسيها ريثما تستعيد هدوءها لتُحكم لها جوابا مسدداً . قالت الخبيثة : لكما الله من رجلين ملحاحين زائغين ؛ وليس ذلك أنني مترددة بينكما ، لا اعرف ما يقضي به القلب ؛ ولكنني لا أرى الحكمة في رد الخائب منكما في حضرة الفائز . ان الرجل الذي وضعت فيه آمالي ليكفيه ما يعرفه من حبي، ويغنيني عنده عن ان أجبّه الناس بين يديه باعراضي . وأخيراً فبحسب المحب ادلة رقيقة ليعلم شقاءه وخيبة مساعيه .

قالت هذا بعبارات مضطربة تعكس لنا ما في نفسها من حيرة واضطراب ، كما نبه الى ذلك الشارح الاستاذ ف . جيراند (١) .

بيد ان الرجلين لم يقنعا بهذا القول الغامض المهوش وأصرا على الفتاة ان تصارحها عن تختاره منهما ، واكدا لها انهما سيتقبلان صراحتها راضيين ؛ ولكنها ما زالت تداور وتراوغ حتى أشرف عليهم فيلانت واليانت ، ثم المركيزان أكاست وكليتاندر ومعهما السيدة أرسينوا .

• • •

دخل المركيزان يحملان رسائل كانت سيليمين قد كتبتها الى كل منهما فتبادلاها وقرأاها ؛ ! مامن رجل منهم جميعاً الا ذكرته هذه الغاوية في رسائلها ورمته بسخريتها . وقف احدهم يقرأها عليهم وجعل كل منهم يصليها لعناً وهزواً ؛ وتقدمت ارسينوا ، تلك

(١) Félix Girand في Le Misanthrope P : 83

السيدة المرائية التي كادت لسيليمين في الخفاء ، تقدمت توبّخ صاحبتهـــا على عقوقهـــا لألسست ؛ ولكن ألسست قاطع هذه السيدة الماكرة بعنف وأبان لها الاحتقار وصارحها ان دفاعها عنه مهما بلغ فلن يحمله على التفكير فيها ولا على الانتـقام من صاحبته بهـــا ! وانسحبت ارسينوا وانسحب أكاست وكليتاندر واورونت ؛ وتوجـه السست الى فتـاته يصغي الى اعترافها بكبير خطئها ، ويلوم نفسه على عجزه عن هجرها ، ثم يعرض عليهـا عفوه شريطة ان تعتزل الناس معه في وحدته، فيصحرائه ؛ ولكن الفتاة "ترْعَبُ" من ذكر العزلة والصحراء ، وتكتفي بالموافقة على الزواج ؛ فيأبى ألسست ، ويتغلب تشاؤمه ونفوره على حبه ؛ فيهجر صاحبته ويعلن انه لن يلابس بعد اليوم هؤلاء الناسَ ولن يختار شيئاً على حياة الوحدة ! ثم يخرج ، ويتقدم فيلانت من صاحبته اليانت فيطلب يدها وتوافق الفتـاة الطيبة ويسدل الستار .

• • •

مجمع الادباء على ان رواية « كاره البشر » هي اعمق ما ولدته عبقرية موليير ، وعلى لعالم الفكرية التي لا تجارى . ومع ذلك فقد كان اقبال الجمهـور عليهـا ب ، ثم اخذ يزداد شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تصادف النجاح الذي صادفتـــه روايتا « طرطوف » و « البخيل » على كل حال . ويعزو أكثر النقاد ذلك الى خلوّ الرواية من عقدة مسرحية تغري الجمهور بمتابعتها الى النهـــاية (١) . والحق اننا عندما قرأناها استوقفنا فقدانُ العنصر القصصي فيها ، فلا حبكة ولا مفاجآت ولا حوادث ذات بال ! فالقارئُ لهذه الرواية يحظى بمتعة عقلية بعيدة عن الجوّ التمثيلي وشبيهة بتلك المتـــعة العظيمة التي يصادفها حين يقرأ المحاورات الفلسفية لافلاطون . فالرواية في الاساس قائمة على فكرة تؤيدها أحاديث ومواقف قد أحسن المؤلف اختيارها واحكم عرضها ، ولكنه لم يستطع ان يبعث فيها الحركة والحياة اللذين لابد منها في كل اثر تمثيلي ؛ فجاءت رواية « كاره البشر » تمثيلية هي اصلح لرجال الفكر ، كما يقول فولتير ، منها لجماهير الشعب ، وأجدرُ بالقراءة منها بالتمثيل (٢) . العمل الروائي كله قائم فيها على هـذا التحليل الرائع للطباع . والدعابة كلها تصدر عن هذه الدراسة الرفيعة الرائقة للعادات (٣) . حتى خاتمة

---

(١) راجع نبذة من آراء الادباء في الصفحات 98—91 الملحقة برواية Le Misanthrope ثم الصفحتين 6—5 من مقدمتها ثم L.U مادة Le Misanthrope ، ثم L.T. P: 260

(٢) Le Misanthrope 95 (٣) L.U مادة : Le Misanthrope

الرواية ، فليس فيها ما يفاجيء النظارة ويهز مشاعرهم ؟ لقد اعلن ألسست هجره للفتاة العابثة وفارقها غاضباً ، فهل كان هذا الهجر حاسما ام انه احدى بدَوات البـطل المتشائم وظاهرة من ظواهر ارادته الكليلة ، فلا نلبث ان نراه يعود سيرته الاولى ، فيشكو سطوة الحب ويندّد بالمكر والخداع ثم يستسلم لسحر مالكته من جـديد ؟ لا نعلم ، ولكن مما لا شك فيه ان سواد الشعب لا يرحب بقصة تنتهي باشارة استفهام حائر كهذا (١) . ماذا اراد موليير من هذه الملهاة ؟ اراد ان يقدّم الى رجال عصره أثراً فنياً خالصاً من كل دعابة او عبث او خروج عن الطبيعة ، فخيل اليه انه يستطيع ان يركّز هذا الاثر على دعامتين لا ثالث لهما : اولاهما فكرة في فلسفة المجتمع تنادي بالمحبة والتسامح في معاشرة النـاس وبالرفق والحكمة في معاملتهم والتعاون معهم لتحقيق الخـــير العام ؛ والأخرى صورة معروضة في لوحات فنية محكمة للحياة الاجتماعية الراقية في القرن السابع عشر بكل ما كان فيها من تبذّل وتستّر ورياء وادعاء وسخف وتزمّت ؛ هذه اللوحات او المشاهد المتتاليـة تواكب الفكرة العامة وتؤيدها وتسير بها عند النهاية الى قلب القارئ وعقله . والحق ان موليير وفّق في الدعوة الى فكرته الفلسفية هذه وفي رسم صورة دقيـــقة لتلك الحيـاة الاجتماعية بما ليس وراءه مُطّلَع لراغب او زيادة لمستزيد. غير انه لم يصب شاكلة الصواب من الوجهة المسرحية الفنية الخالصة . وليس ذلك لانه لا بدّ لـكل تمثيلية من عقـدة او حبكة او قصة ، سمّها ما شئت ، تدور عليها وتلتمس لها الحلول ؛ كلا ، فقد سبق ان بينا في دراستنا لمبادئ المسرح الاتباعي امكان الاستغناء عن هذه الحبـكة ، والاستعاضة عنها بصورة حية تقدّم عن حياة امة او رجل عظيم . . . على ان يكون في هذه الحيـاة ما يثير اهتمام النظارة ويمسك عليهم صبرهم الى آخر دقيقة . ولا شك ان موليير خطا خطوة جبارة في الادب الواقعي حين صرف النظر عن العقـــدة في « المتأنقات المضحكات » و « مدرسة النساء » وخصوصاً في « كاره البشر » . وحسبك ان تعـلم ان شيخ المسرح في العالم ــ ونعني به شيكسبير ــ قد توّج حياته الفنيّة الجليلة برواية لا عقـــدة لها بالمعنى المعروف ، وذلك في آخر دراماته : « هنري الثامن » . غير ان في حياة هنري الثامن كملك ما يثير الحركة والحياة فوق خشبة المسرح وما يبعث على الاهـتمام البالغ الذي لا بد منه في كل تأليف مسرحي ، الامر الذي خلت منه رواية « كاره البشر » ففقدت عنصراً

---

(١) مقدمة الرواية P : 8

فعالاً من عناصر القوة فيها . وشيء آخر لم يصب فيه المؤلف كبد الحقيقة وهو تركيزه هذه الملهاة على فكرة عقلية وسوقه ابطال الرواية الى احاديث جدلية مملة احياناً ولا تتفق كثيراً مع طبيعة الحوار الروائي الناشط ؛ وهذه ظاهرة تستوقف النظر في اكثر ملاهي الكوميدي العظيم ؛ فأنت تشعر امام هذه الملاهي انك مقبل على دراسة موضوع قبل كل شيء ، وان هذا الموضوع يتحكم في فن المؤلف ويحيد به عن التجرد الفني والهدف التصويري الاول ، كما انه يبرد الحوار احياناً اذ يسوقه الى سلسلة مناقشات تعليمية لا تلائم طبيعة المسرح .

• • •

لم يكن الجمهور وحده هو المسئول عن هذا الفتور الذي قوبلت به رواية « كاره البشر » ، بل كان موليير كذلك مسئولاً الى حدّ بعيد . على ان موليير لم يسلك في الرواية هذا الطريق الا بعد اختبار وطول نظر . فقد علمت انه لم يدّخر وسعاً من وقت او جهد في نظمها ، بل استمر في انشائها عامين كاملين . يرى الاستاذ ف . جيراند ان الشاعر لم يكن ليخفى عليه شيء من اسرار مهنته وانه اعلم الناس بذوق الجمهور ؛ فهو لم يلق هذا الاعراض لجهل منه او اهمال ؛ ولكنه قصد هذه المرة الى عمل فني خالص ووطّد النية على تحقيقه ايا كانت العاقبة (١) . ومع اننا لا نجادل في الغرض الذي رمى اليه الشاعر ، وهو رسم صورة انتقادية للبيئة الاجتماعية وللرجل النّفور ، فاننا نشك كثيراً في انه كان يتوقع هذه النتيجة حين تخطّى مقتضيات المسرح . فالرجل ممثل يعيش من مهنته وتعيش معه فرقة كبيرة ، فهو ينظر الى كسبه اولاً والى فنه بعد ذلك . بل اننا سنقيم الدليل على انه كان لا يرى فناً في غير ارضاء الجماهير واجتذابهم الى مسرحه . بيد أنه احب ان يسير في مذهبه الجديد الى آخر الشوط وشجعه على ذلك نجاح بعض رواياته الاولى على خلوّها من الحبكة ؛ فاستغنى هذه المرة عن الحبكة والفكاهة الصارخة معاً ، واصبح اسير فكرة واحدة توجه عمله كيفما تريد ؛ فقصّر بذلك في حقّ الجمهور والفن : فاما تقصيره في حق الجمهور فلما انه حين صرف النظر عن التهريج والحبكة وتوغل في جدله العقلي حرم النظارة لذة كبيرة وان لم تكن رفيعة ؛ واما تقصيره في حقّ الفنّ فلما انه اغفل مقتضيات المسرح من حركة وتبديل وحياة ، فضلاً عما في وحدتي الزمان والمكان

(١) Le Misanthrope ; 9

من تضييق ، فاصبح النظارة مضطرين الى ان يقسروا انتباهم الى بضعة اشخاص في صالة واحدة ساعتين كاملتين !

كان موليير اذاً يجاري تفكيره الفني عندما كتب اثره العظيم هذا ، ولكنه لم يوفق فيه من الناحية المسرحية كثيراً . وقد أثر هذا الاخفاق ، او على الاصح هذا النجاح الذي لم يكن يحقق آماله ، في نظرته الى الفن على ما يظهر لنا تأثيراً كبيراً ، بدليل عودته في ملاهيه التالية الى الحبكة والتفاته الشديد الى عنصر الفكاهة ، بيد أنه لم يتخلَّ عن القيد الفكري والاخلاقي الا نادراً ، أعني انه لم يتنازل عن ان يكون لملاهيه فكرة تدعو اليها ، كما في « النساء العالمات » و « مريض الوهم » او غرض اخلاقي كما في « البخيل » .

* * *

لم يمض شهران (١) على اخراجه « كاره البشر » حتى فرغ من رواية اخرى نثرية ذات ثلاثة فصول هي : « الطبيب رغم أنفه (٢) » . لم يهاجم هذه المرّة احداً ، فقد آذته عداوة الناس ونغّصت عيشه ؛ ولم يستغن عن الفكاهة والحبكة ، فقد آلمه اعراض النظارة عن رواية لا حوادث فيها ولا عقدة ولا هزل . فرأسُ ما يعنى به الآن هو ان يرضي جمهوره بما يثير من اهتمامه ويستجيب الى رغبته في الضحك والسرور . انه يريد النجاح اولاً ، وما يتراءى له انه فن بعد ذلك . ان رغبة الجمهور مقدمة عنده على قواعد ارسطو وهوراس وشابلان ودوبينياك (٣) ، بل على رغبته هو واجتهاده : « انكم لقوم مضحكون بعبادتكم التي تشغلون بها بال الجهلاء وتقلقوننا بها على الدوام . . . وبودّي لو اعلم أليست القاعدة الكبرى ، قاعدةُ القواعد ، هي ان نفوز بالرضى وحسن القبول (٤) » « ان المؤلفات التي تجاري القواعد لا تَسُرُّ احداً ، والمؤلفات التي تسرُّ لا تجاري القواعد ؛ فالقواعد اذاً لم توضع بفهم وإحكام . » ولم يكن موليير بدْعاً في مذهبه هذا ، بل كان بوالو وراسين على هذا الرأي كذلك . قال الاول : « سر الفن ان تُعجب وتؤثر » وقال الثاني : « القاعدة الاساسية هي ان تعجب وتؤثر ، وما دون ذلك خَدَم لهذه القاعدة وسبيل اليها (٥) » :

كان الحطاب سجاناريل يقسو على امرأته ويوسعها ضرباً ؛ فارادت ان تنتقم منه ،

(١) Molière 180 (٢) Le Médecin malgré lui (٣) d'Aubignac ، Chapelin (٤) Van Tighem 63 (٥) Faguet 284

فأسرّت الى خادمي الرجل الطيب « جيرونت (١) » ، اللذين كانا يبحثان عن طبيب لابنة سيدهما « لوسيد (٢) » أن سجاناريل طبيب لا يجارى ، ولكنه لا يتعهد مريضاً ولا يبذل علماً ومعروفاً إلا تحت وطأة العصا . نجحت خطة المـــرأة ، وقبض الرجلان على الزوج الحطاب ، وأرغماه بعصاهما على الاعتراف بانه طبيب ، ثم ألبساه ثوب الطبيب وقبعتــه ، وقاداه الى سيدهما ، ليلتمس دواء شافياً للفتاة التي تظاهرت فجأة بالبكم . وآنس الحطاب سذاجة في السيد وفيمن حوله ، فنشط يعمل بكل ما فيه من جهل وتهريج ، وكان مع ذلك موضع ثقة الجميع واحترامهم . لقد تبين ان الفتاة لا تشكو الا رغبة الاسرة في منعها من الزواج بشاب احبته اسمه « لياندر (٣) » . فجاء به متنكراً في زيّ صيدلي الى غرفـة الفتاة ، فسرعان ما عرفته ، وعاد اليها نطقها . ثم سهّل على العاشقين سبيل الفرار . ولقـد كاد عمله هذا يكلّفه غالياً جداً ، لولا ان الشاب العاشق مالبث ان عاد : لقـد توفي عمّه منذ هنيهة ، فورث عنه مالاً كثيراً ؛ وقد صحّ ظنه ان القوم لن يتمادوا في جفائهم بعدما يعلمون من ثرائه ؛ وهكذا تزوّج العاشقان (٤) .

ما هي الفكرة التي اراد الشاعر ان يدعو اليها ؟ ما هو المغزى الاخلاقي الذي يرمي اليه ؟ ليس للرواية فكرة ولا ترمي الى هدف الا استعادة جماهير المعرضين عن مسرحه، وردّ ثقتهم اليهـــم بمقـدرة الشاعر على اشاعة المرح في نفوسهم . فجعـــل غرضه ووُكْدَه (٥) الاضحاك ، ولا شيء غير الاضحاك .

ثم منطقية الحوادث ؟ كيف ألهمت امرأة الحطاب هـــذا الكيد لزوجها ، كيف صدّق الرجلان قولها ، كيف تجرّأ خادمان على ضرب طبيب ؟ من أين جاءاه بقبعة الطبيب وثوبه ؟ كيف أذعن الحطاب بهذه السهولة لرغبة الخادمين فمثل دور الطبيب ؟ كيف جاز الأمر على الأب وافراد الأسرة ؟ ثم كيف تُنكّر لهم الشاب العاشق في زي صيدليّ فلم يعرفوه وعرفته الفتاة ؟ وهذه الفتاة كيف استطاعت ان تمثل دور البكماء بهذه البراعة ؟ ثم كيف اتفقت هذه الوفاة ومن اين هبطت هذه الثروة في ساعـة العُسرة ؟ واذا صحّ بعض هذه المستبعدات فكيف صحّت كلها معاً ؟ الحقّ ان موليير لم يقصد هذه المرّة الى الحقيقة ، وانما قصد الى مفاكهة الناس ؛ غير أن الناس كانوا يرتضون روايةً ذات فكرة

---

(١) Géronte (٢) Lucide (٣) Léandre (٤) استعنا في تلخيصها على :
Le médecin malgré lui : مادة Larousse du xx me siècle
وعلى L.T. : 260 (٥) سعيه ، جهده

او مغزى اخلاقي كما ارتضوا طرطوف وكما سنراهم يرتضون « النساء العالمات » على ان يمازج الاحاديث النافعة بعض ما عند الشاعر من فكاهة وخفة روح ؛ ولكن موليير لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالتفكير في العودة الى هـــذه الطريقة : كل من حوله كان إلبا عليه (١) ، كانت الفرقة كلها مهددة بالشتات ، فلم يعن هذه المرة إلا بأن يلفت اليه انظار الجمهور ويهفي اليه قلوبهم . والحق ان الجمهور ضحك لهذه الرواية وضحك حتى لم يستطع ان يفكر فيما فيها من إحالات ومستبعدات . انظر الى الحطاب سجاناريل وقد توفر على مهنته بجد واهتمام يستضحك لها الوقور ، واضحك ملء شدقيك على ما يكشف في حججه من علم غزير ! : « . . . غير ان هذه الابخرة التي حدثتكم عنها ، عندما مرت من الطرف الأيسر ، حيث الكبد ، الى الطرف الأيمن ، حيث القلب ، اتفق ان الرئة ، التي ندعوها باللاتينية « أرميان » ، وهي ذات اتصال بالدماغ ، الذي ندعوه باليونانيـــة « ناسموس » بواسطة الشريان الأجوف ، الذي ندعوه بالعبرية « كوبيل » ، اتفـق ان الرئة صادفت الابخرة المذكورة وهي في طريقها تملأ تجاويف عظم الكتف ؛ وبمـــا ان للابخـرة المذكورة . . . افهموا جيداً هذا الدليل ، ارجوكم . . . ، وبما ان للابخـرة المذكورة بعض الخبث . . . ، اتوسل اليكم ان تصغوا جيداً لهذا . . . ، اقول بعض الخبث الناشيء عن . . . انتبهوا من فضلكم ، الناشيء عن حادية الأخلاط المولدة في تجـويف الحجاب الحاجز ، فكان أن هـــذه الابخرة . . . اوسابوندوس ، نوكيس ، يوتاريـــوم ، كيبساميلوس : هذا على الضبط هو ما أمرض ابنتك . » وقد شاع استعمال هـــذه الجملة الأخيرة على سبيل السخرية لوصف كل بيان ينطوي على الجهـل والادعاء . ثم اضحك لسذاجة الأب الذي وقف مشدوهاً امام هذا النطاسي الكبير ، ولم يهجس في خاطره الا وسواس ضئيل ، باح به امام سجاناريل في هيبة وخشوع : « ليس في المستطاع مناقشة الامور على نحو اصلح ، ولا شك . ولم استغرب إلا شيئاً واحداً : هو مكان الكبـــد والقلب . يلوح لي انك تضعها في غير موضعها : فالقلب في الطرف الايسر ، والكبـد في الطرف الايمن . » قال سجاناريل : « نعم ، لقد كان الأمر كذلك فيما مضى ؛ غير اننـــا بدل لنا كل ذلك » . لقد درج الناس منذ عهد موليير على استعمال هـذه العبارة الأخيرة : « اننا بدل لنا كل ذلك » للسخرية من اعمال الاصلاح يؤتى بها على غـير ما يرضي الذوق السليم والوجدان المستقيم (٢) .

(١) اي كانوا مجتمعين عليه بالظلم والعداوة (٢) راجع La rousse du xx me siècle

فتوخّي الاضحاك اذن غاية نفعيّة لا تختلف عن توخي التعليم او عن اقحام المواعظ او عن ترويج بعض الآراء ؛ وآية ذلك ان الشاعر يخرج عن الطبيعة اذا جعل همّه ودَيْدَنَه اضحاك سامعيه ، كما يخرج عنها اذا اقحم علمه ونصائحه وآراءه . فليست رواية موليير هذه بالملهاة الصحيحة ، ولكنها نوع آخر من الفن : هي تهريجة Farce رائعة ، عظيمة ، ما شئت لها من ضروب الثناء . فليس بالهيّن ان يوالي الممثل على النظارة الفكاهة بهذا التدفق وهذه السهولة ، حتى يُغربوا في الضحك (١) ولا يأبهوا لصحة القصة ومنطق الحوادث . اذا اردت ان يكبر طحالك وينتفخ من الضحك ، كما يقول شيكسبير (٢) ، فانا انصحك بقراءة موليير ، وبخاصة روايته هذه وروايته الأخرى « البورجوازي النبيل » ؛ واذا ركبك الهمّ وغرب عنك الحظ فليس أروح على النفس وليس اطبّ لأدوائها من قراءة آثار موليير . يقول الاستاذ لانسون : « ان فكاهة موليير لتجانسُ في بابها سموّ كورني . » وجاء في موسوعة « لاروس القرن العشرين (٣) » : « ان موليير الذي قام بدور سجاناريل ، قد افسح المجال لطبعه السيّال من الدعابة الطلقة الصارخة ، في هذه التحفة من الجَذَل الدافق . » ليس آثار موليير فحسب ، بل حياته نفسها يعود عليك تصفحها بالصبر والشجاعة والرضى . اقرأ حياة هذا الشاعر النابغة ففيها مسلاة احزانك وعضدٌ لك في المواقف الأزَمات ! اي رجل هذا الذي كتب « كاره البشر » ومثّلها ثم راح يكتب «الطبيب رغم انفه» ويقوم بالدور الاول فيها ؟ ! اي قلب هذا الذي ينبض بالألم ، ثم يفيض بهذا المعين من السرور ؟ !

واتَّرَ الشاعرُ انتاجه بعد ذلك فكتب : « ماليسَرت » « الصقلّي » «أمفيتريون» « جورج داندان (٤) » . . . والجدير بالذكر أنه كتب « امفيتريون » شعراً مرسلاً ؛ وانه وفِّق في اكثر هذه الملاهي في الحظوة عند جمهور الباريسيين (٥) . ثم أخرج رواية « البخيل » عام ١٦٦٨ ، وهي احدى روائعه الشهيرة ؛ وقد عاد فيها الى تركيز الموضوع على مغزى اخلاقيّ ؛ فرسم صورة فكاهية للبخيل وحلل نفسيته وعرض صوراً أخاذة عن تدبيره واعماله . غير انه لم يهمل فيها عنصر الفكاهة ، وهو الضامن الاول لنجاح

---

(١) أغرب في الضحك : بالغ فيه (٢) في روايته : الليلة الثانية عشرة Twelfeth Night
(٣) مادة Le Médecin malgré lui (٤) Le Sicilien, Mélicerte
George Dandin, Amphitryon كتب الاخيرتين عام ١٦٦٨ (٥) راجع ما جاء في كتاب : Molière عن هذه الروايات بين ص 185—209

الملهاة في ذلك الحين . لقد عاد اليه هدوء اعصابه واخذت نظرته الى الفنّ تتغير . لن يكون عمله بعد اليوم هزلاً محضاً ، ولن يكون جدّاً محضاً : « لا حقيقة من غير دعابة ، ولا دعابة من غير حقيقة (١) » هذا هو المبدأ الذي جهد لتحقيقه في روايته الجديدة ، والذي وضعه نصب عينيه في انتاجه الادبي بعد ذلك ؛ وهو المبدأ الذي نادى به زعماء الاتباعيين . قال بوالو في منظومته الشهيرة « بفن الشعر » :

الا فلتُضِفْ على الدوام قريحتُكم الولود
لطيفَ الفكاهة الى كل درسٍ مفيد
القارئُ اللبيب يتجنّب العبث في تسليّه
ويريد ان يعود عليه بالربح كل وقت يمضيه (١) .

وقديماً أدلى الناقد الروماني هوراس ، وهو الذي تأثر به ادباء الاتباعيين في القرن السابع عشر ، بنصيحته الى الشعراء فقال : « اذا شئت ان تستميل اليك الجمهور فامزج النافع بالممتع ، لتُهوِيَ اليك قلبَ القارئ وانت تفيده علماً (٢) » :

كان البورجوازي الأرمل « هرباجون » يعيش في باريس مع ابنه « كليانت » وابنته « إليزا » . وكان على سعة ثرائه بخيلاً كزّاً (٣) ، يقتّر على نفسه وعلى اهل بيته؛ وتلمح اثر الحرمان في ثياب خدمه الرثّة وفي نحول خيله ، اذ قضت الظروف ان يكون له خدم وعربة وخيل ! امّا هو فقد كان يثمّر ماله (٤) بالربّا الفاحش . وكان في حوزته مبلغ كبير من المال قد أهمّه واقلقه ، لأنه لم يكن يثق بالصناديق الحديدية ، فدفنه في ارض حديقته وما زال يخاف ان تمتد اليه يد اللصوص . تعرّفت ابنته الى شاب أنقذها من خطرٍ داهم فأحبته ووعدته سراً بالزواج ؛ وقد استطاع ان يكون على مقربة منها اذ تولّى ادارة اعمال ابيها . غير أن هارباجون كان يريد ان يزوجها شيخاً يدعى « آنسيلم » لانه رضي ان يصهر اليه « من غير بائنة » ، وهو تعبير ذهب بعدئذ مثلاً . اما ابنه فقد احب فتاة فقيرة اسمها « ماريان » فاضطره الانفاق عليها الى التفكير في الاستدانة من احد المرابين . وقد اعلمته الوسيطة ان مرابياً رضي ان يقرضه مبلغ خمسة عشر الف ليرة ، ولكن بفائدة ظالمة ، وعلى ان يؤدي اليه خمس المبلغ من سقط متاعه، مقدّراً باضعاف ثمنه ! فلما وفد الفتى على هذا الدائن الجشع ألفاه اباه ، فتبادل الرجلان

---

(١) Lanson 529 (٢) L'Art poétique P : 98 (٣) يابساً ، منقبضاً
(٤) ثمّر الرجل ماله : نمّاه وكثره



هرباغون: — تعال ، يجب ان ارى ، ارني يديك
لافليش : — ها هما .

قوارض الكلام ، وجرت براعة المؤلف بمنظر من اروع المناظر الفكاهية . وزاد الحبكة تعقيداً ان هارباجون يرغب في الاقتران بماريان ، وقد كلف الوسيطة المذكورة ان تفاوض ام الفتاة في هـــذا الموضوع ، فعادت اليه بموافقة الأم ، واوهمته ان الفتاة تكره الشبان ولا يستهويها غير الكهول ؛ وزعمت له أن ماريان عدلت ذات مرة عن الزواج من رجل بعد اذ تبينت انه دون الستين ، وبعد اذ رأته يوقّع عقد الزواج من غير ان يضع نظّارتين على عينيه ؛ وانها لا تزيّن غرفها إلا بصور الشيوخ الفانين ، كأتورن والملك بريام والعجوز نسطور والأب انشيز محمولاً على كتفي ابنه . ثم هي تبدّد وساوسه وتقنعه بكفاءته ان يكون زوجـــاً للفتاة : فبحسبه انه شيخ ذو لحية يجمّله السعال ويزينه الرداء القديم ! هنا تخرج الملهاة عن الطبيعة وتنحطّ الى التهريج ؛ وهو امر شائع في ملاهي موليير ، فبينما هو يسير بحكمة واتزان ، اذا هو يبالغ حتى يخرج الى المحال ، ليهزّ شعور الجماهير ويدفع بهم الى الضحك العنيف . غير ان شيئاً آخر ينغّص على الرجل سروره : لن تقدّم اليه «ماريان» بائنة ؛ فالوسيطة تجهد أن تبيّن له ان الفتاة الفقيرة اقدر على الاقتصاد ورعاية مصالح الزوج ، ولكن هـــذا القول لا يقنع الشيخ البخيل ؛ فاذا ما طلبت منه الوسيطة بعض المال تصامّ عنها ولم يأبه لالحاحها .

وفي الفصل الثالث نجد « هارباغون » قد ازمع على اقامة مأدبة لصاحبته ، احتفالاً بالعقد المنويّ توقيعه . وهو الآن يضاعف الاوامر الى « الملسّم جاك » ، وهو حوذي البخيل وطباخه ، ان يقتصد ما امكن في النفقات . ويريد فالير عشيق ابنته ان يتملّقه ، فيؤيده في طلب الاقتصاد ويبيّن له ان امثال هـــذه المآكل يضرّ بالصحة ، « وان الانسان يأكل ليعيش ، لا يعيش ليأكل . » وتقع هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب البخيل :

البخيل : ما احسن ما قلتَ ! اقترب اقبلْك لهذه الكلمة . هـذه اجمل حكمة سمعتها في حياتي . يجب ان نعيش لنأكل ، لا ان نأكل لنـ . . . لا ، ليس هـكذا . كيف كان قولك ؟

فالير : انما يجب ان نأكل لنعيش ، لا ان نعيش لنأكل .

البخيل : نعم . اسمعت (١) ؟ من هو الرجل العظيم الذي فاه بذلك (٢) ؟

فالير : لا اتذكّر الآن اسمه .

---

(١) يخاطب المعلم جاك (٢) يعود الخطاب الى فالير

البخيل : تذكّر أن تكتب لي هذه الكلمات . اريد ان انقشها بحروف الذهب على مدفأة غرفتي (١) .

غير ان هارباجون لم يكن يطمئن الى موقف ابنه من ماريان . ان الشكوك لتعبث به وتأكل قلبه . وانه يريد ان يحتال لابنه ليعلم حقيقة امره . فهو يكاشفه بعدوله عن الزواج بالفتاة ، بعد ان فكّر جيداً في شيخوخته ، ويقترح عليه ان يتزوجها هو . فتجوز الحيلة على الشاب ويبوح لوالده بسره . هنالك يرمي هارباجون قناعه ، ويأمر ابنه ان يصرف النظر عن الفتاة ؛ فيأبى الولد ويعتلكه العناد ، وتلج الخصومة بين الاثنين ويتحرج الموقف ويكفهر الجو . ولكن « لافليش » ، احد الخدم ، قد نبش الصندوقة ، وافتقدها البخيل فلم يرها ، فطار لبه ، ونسي امر الزواج ، واندفع يعبّر عن يأسه ، بنجوى مضحكة مؤثرة معاً . وسلم الخادم الصندوقة الى ابن سيده « كليانت » ، ولكن الشكوك حامت حول فالير ، وطُلب اليه ان يصرح بحقيقة اسمه ففعل . يالروعة المصادفة لقد عرفت فيه ماريان اخاها ، وعرف فيها الشيخ « آنسلم » ولديه ، وكان قد اضاعها في حادثة غرق . عندئذ فاجأ القومَ كليانت ، واخذ يعرض على ابيه اعادة مسروقه اليه ، على ألا يفكر بعد اليوم في الزواج من ماريان . وأفرخ روعُ البخيل ، ورُدّت اليه روحه فسرعان ما اعلن موافقته ، ورضي الجميع ان يتزوج فالير إليزا ، وكليانت من ماريان ، وشملت المتزوجين أريحيّةُ الشيخ الغنيّ « آنسلم » ، اذ تعهّد ان يقوم بكل النفقات .

• • •

هذه هي الصورة التي رسمها الشاعر للبخيل ، وهي كما ترى صورة طريفة كاربة عابثة معاً . وتعد رواية البخيل من أروج ملاهي موليير . فقد أحصي لها ١٦٧٨ عرضاً في دار التمثيل الباريسية الشهيرة « بالكوميدي فرنسيز » ، ما بين عامي ١٦٨٠ — ١٩٣٢ . ومع ذلك فقد كان استقبال الجمهور لها فاتراً آنذاك . لماذا ؟ لأن موليير لم يجد الوقت الكافي لينظم ملهاته هذه شعراً ! وكان الجمهور لا يأبه لغير الرواية المنظومة : « أمجنون هو موليير ، ام تراه يظننا من الغباوة بحيث نرتضي خمسة فصول نثراً ؟ » وارتاح راسين لاخفاق خصيمه ، فلما التقى الناقدَ الطيب بوالو قال له : « رأيتك امهد قريب في ملهاة موليير ، وكنت تضحك وحدك ! » لقد كان بوالو حقاً يثابر على مشاهدة الرواية تأييداً لصديقه (٢) . على ان اكثر النقاد لا يرون في نثر الرواية ما يطعن في جودتها ، بل يرون

(١) الفصل الثالث ، المنظر الاول (٢) L'Avare : 5, Molière : 215

ذلك اوفى بالغرض وأجرى مع الطبع ، وخصوصاً في الملهاة ، لانهـــا اقرب الى نفوسنا وألصق بحياتنا اليومية من المأساة . ليس طبيعياً ان تجري ألسنة المشـــلين بالشعر في روحاتهم وغدواتهم ، وفي صفوهم وكدرهم ، ومن سوقتهم الى ملكهم . فالنــــثر اكثر انفساحا من النظم الذي لا يمتد فيه النفس كما قال ناقد عربي قديم (١) ، باكثر من عروضه وضربه ؛ وهو لغة الحوار الطبيعية . يقول « فينيلون » : « اذا صح ظني فان نظمنا يفـــقد اكثر مما يجني بالقوافي : يفقد كثيراً من التنوع، والبساطة ، والانسجام. فكثيراً ما يعنّي الشاعر نفسه في طلب قافية ، فيضطر الى ان يمدّ حديثه او ان يقطعه . وقـد يحتاج الى بيت او بيتين لا لزوم لهما تمهيداً لبيت ثالث مطلوب . ثم ان الناظم يهمه ان يلتمس القوافي الغنية اكثر ممـــا يهمه عمق الفكرة والعاطفة ، وجلاء العبارة وطبيعتها ، وجمالهـــا وروعتها (٢) . » انما يقوم الشعر على سموّ العاطفة وجلالة الفكرة واقتدار الخيال وتناغم الالفاظ ، وكل اولئك يكون له النثر افسح واكثر طواعيـــة . ان الذي يضع في يديه الأغلال ويفرض على نفسه ان يعدو على رجل واحدة ، ثم يثب الى غير غرض الا المفاخرة بالمسافة التي يقطع لهو مشعبذ نعجب منه ولا نحترمه ، ولكننا نحترم الرجـل الذي يستفيد من حريته ويجري كما خلقه الله على رجلين ، ويضع امامه هدفاً غير التـفاخر الزائف . تقول ما دام دوستال : « ان من طبيعة النظم ان تحول احياناً دون التعبـير عن العواطف بعفويتها وعمقها الانساني . . . هذا الى ان النظم من شأنه ان يمنع بعض التعابير الطبيعية السهلة التي لها وقع كبير في النفوس (٣) » على اننا لا ننكر ما في النثر من قيود ، ولكنها قيود طبيعية ، لا نفرضها على انفسنا فرضاً لا لشيء الا للتـفاخر « بالصعوبة المذلّلة » كما يقول « فونتونيل (٤) . » بل ان الكتابة النثرية ابعد منالاً من النظم . فاذا كان النـــاظم يستطيع ان يُعفي طبعه ويغتنم الراحة ، متكلا على ما يختار من وزن يجري معـه الى آخر القصيد ، فان الناثر - ولا سيما الناثر الشاعر - لفي يقظة دائمة وجهد متصل ليختار الانغام الكثيرة التي تناسب معانيه ، وليحسن تأليف ما بين هذه الانغام ، تأليفاً لا يعتمد على عادة رتيبة مريحة ، بل على دواعي معنوية ولفظية مستجدة . اني اشبّه القصيدة المنظومـــة

(١) المثل الثائر ٣٣٧ والناقد هو ابو اسحاق الصابئ (٢) Van Tieghem : 94

(٣) 164—167 (٤) La difficulté vaincue ، الكتاب السابق ص94 وفونتونيل Fontenelle هو ابن اخي كورني ، ولد في روان ١٦٥٧ وامتدّ به الأجل حتى عاصر فولتير ، اذ مات الأول عام ١٧٥٧ ومات الآخر عام ١٧٧٨ . وكان لفونتونيل سلطان ادبي كبير : عن L.U. مادة Fontenelle

بتلك المقاطع الغنائية المرقصة التي لا يصعب علينا موالاتها من اول مرّة ؛ اما القصيدة النثرية ، فهي تلك الانغام العلوية التي لا تحرّك الأرجل ولا يمكن ان تجاريها حركات الراقصين ، لدقة نغماتها وتعدّدها ، لمساوقتها المعاني الانسانية في اغوار النفس وتجاوزها تلك التفاعيل الرتيبة الضيقة . فالصعوبة في النثر انما تعود الى ما نضع نصب اعيننا من مطلب في جليل ، الى ما نبتغي تحقيقه من تعبير صحيح عن هواجس النفس القصيّة ، الى ما ننشده من جمال اصيل . يقول احد النقاد : « ان تكرار التفاعيل والقوافي بهذا الاصرار اصبح اليوم مصدر سأم لنا (١) . » ان الاوزان في وضعها الراهن لهي بنت تلك العقلية المنقرضة التي كانت تعتقد ان الجمال لا يقوم الا على اساس التناظر ، في الموسيقا والشعر والرسم والبناء . فالشعر لم يكن يرضي الاذواق ما لم يتناظر شطراه ، والدار لم تكن تعجب ساكنها ما لم يكن جناحاها متشابهين . يقول مارمونتيل (٢) : « خذ مأساة لراسين ، وانقلها الى النثر ، على ان تحرص على اداء افكاره واساليبه وتعابيره بدقة ، وعلى ألا تغفل إلا زينة الوزن والقافية ، . . فسيبقى لهذه المأساة جمالها وتأثيرها كاملين (٣) . » أفترانا عندما نقلنا اليك « برنيس » و « فيدر » نثراً استطعنا ان نحقق فكرة مارمونتيل هذه ؟ النظم موسيقا ، لا جدال في ذلك ، بيد أنه ليس بالموسيقا الفضلى ، وان خفيت علينا نواقصها بحكم العادة ؛ وليس جريها على نغم واحد هو اهمّ ما يزهدنا فيها ، فهي تحبس كثيراً من تفكيرنا وشعورنا ، وهي لا تستجيب بما فيه الكفاية للتعبير عن وثبات خيالنا ، وهي لا تستطيع ان تلائم ملاءمة صحيحة بين معانينا والفاظنا ، ولا ان تعكس جميع الالحان التي تهزج بها نفوسنا ؛ هذا الى انها تجور بنا عن القصد ، فتحملنا على قبول كثير من المعاني التافهة لا لشيء إلا أن صاحبها استطاع ان ينظمها في ابيات ، كما تحملنا على غضّ النظر عن استعمال كثير من التعابير والألفاظ والصيغ المهجورة التي ما كنا لنسمح لاحد ان يستعملها في النثر ، ولكننا نكتفي معه في النظم بان تكون جارية على قياس او مذكورة في معجم ! تقول مدام دوستال : « انما الشعر حالة صميمية في القلب ، يمكن التعبير عنها بالنثر كما يمكن التعبير عنها بالنظم ، على ان النثر في الواقع كان اجود تعبيراً عنها في أدبنا من النظم (٤) . » وآية ذلك عند مدام دوستال : أن الذين بلغوا

---

(١) عن Van Tieghem 94 (٢) Marmontel « ١٧٢٣ - ١٧٩٩ م »

(٣) P : 95 (٤) Van Tieghem : 167

ذروة المزاج الشعري من بين ادباء فرنسا كانوا ناثرين ، من امثـال بوسيه ، وباسكال ، وفينيلون ، وبيفون ، وروسو (١) .

هذه كلمة نسوقها هنا لأن لها علاقة ماسة بموقف الجمهور في القرن السابع عشر من رواية البخيل ، بل برأي الاتباعيين حين ذاك على العموم ؛ هذا الى اننا نثرنا لك في هذا الكتاب خمس مسرحيات منظومة ، مع شديد حرصنا على مراعاة أسلوب كل شـاعر ، فاحببنا ان نبسط بين يديك الاسباب لئلا تندفع في لومنا على غير علم .

* * *

ومع ذلك فالرواية لا تخلو من المغامز الفنية ، ولكن هذه المغامز ليس من طبعها ان تنفّر الجماهير ، لا بل انها ادعى لغبطتهم واقبالهم . فالفكاهة هنـــا تقوم في الاساس على ما يمكن ان ندعوه « بتضخيم البخل » ، لا على الغوص الى اعماق البخيل وعرض نفسيته بكل ما فيها من تعقيد والتواء . وهـــذا التضخيم من شأنه ان يستدرّ الضحكات ، غير أنه لا يعطينا صورة دقيقة حيّة عن البخيل كما نراه في الحياة . ان بخيل الحياة أعقد وأمعن في التكتم من هارباجون . واذا قابلنا بين هارباجون وطرطوف وألسيست ، رأينا ان موليير لم يكن هذه المرّة دقيقاً ولا عميقاً . فاذا كانت نقائص ألسيست من الخفاء بحيث تدق عن فهم بعض ذوي الفطنة ، واذا كانت مقدرته على الباس عيوبه لباس الفضيلة بحيث تغري بالدفاع عنها كاتبـاً عظيما كروسو ؛ ثم لئن استطاع طرطوف ان يصوّر نفاقه ديناً ويطلي موبقاته بطلاء الحق ، حتى جاز مكره على بعض افراد الاسرة ولم يغيّر رأيهم فيه إلا ما شاهدوا بالعين من فجوره ؛ فبخل هارباغون من العيوب المكشوفة التي تنادي على نفسها ولا يخفف من حدتها تحفظ ولا تمويه . ان فكرة الجاحظ عن البخيل أشبه بالحق والصق بالحياة . فقد يكون بين بخلائه الحَكيمُ الشحيح ، فاذا هو يحاول ان يوهمك بأنه طلق اليدين وهوب ؛ وقد يكون بينهم الداهية ذو اللسن الذي يصرفك بخفة روحه عن ان تستوخم حرصه . وبخلاؤه لا يجاهرون بحرصهم الا عندما يأوون الى بعضهـــم ، او عندما يُغلبون على أمرهم وتتعرض مصالحهم للضياع . وفيما عدا ذلك فهم لا يتحرّجون من التظاهر بنداوة الكف او الزهـد في حطام الدنيـا . وهم اقـــدر على فلسفة بخلهم ودعمـــه بكل ما دعا اليه النقل والعقل من وجوب الاقتصـاد ، حتى ليكـاد

(١) P : 168 من المصدر السابق ، ثم كتاب Idées et doctrines littéraires P : 41—42

بعضهم يخدعونك عن انفسهم ويقنعونك بصدق نظرهم !

• • •

كان مطلع عام ١٦٦٩ عهد يمن للفرقة . ففي الخامس من شباط « فبراير » من هذا العام سمح لها بتقديم « طرطوف » الى الجمهور (١) . وازدحمت صالة المسرح بوفود المتفرجين ازدحاماً عجيباً متصلاً محا ظلمات تلك الساعات الرهيبة وعوّض الفرقة عن اضرارها في تلك المعركة التي كانت تظن بلا نهاية . وهكذا انتصر إمام الملهاة الفرنسية على خصومه ، وسجّل في هذه الرواية العظيمة نقده اللاذع للمنافقين ، وبصورة غير مباشرة لطبقة رجال الدين حين ذاك . ولا نشك في ان الشاعر بعمله هذا كان في طليعة العاملين على نثر بذور النقمة على الاوضاع الاجتماعية في صفوف الشعب ، وقد نمت هذه البذور وتفرّعت حتى اصبحت نقمة شاملة في القرن الثامن عشر ، تتناول في تطرّفها الدين نفسه ، حين عصفت الثورة الفرنسية بالعقائد المقدسة وابطلت سلطة الكنيسة (٢) . يقول ج . ب . شو : « الكنيسة التي لا تجد الأحرار والمفكرون لأنفسهم مكاناً فيها ، بل الكنيسة التي لا تربي م عليها اعتقاداً صادقاً منهـا بان الفكر اذا تحرّر حقاً قاد الى نفس عو الكنيسة اليها ، لهي كنيسة لا يمكن ان يكون لها مستقبل في الثقافة . وهي فوق ذلك كنيسة لا تؤمن بصدق تعاليمها ، وزنديقة بابتداعها وهي أن اللاهوت والعلم شيئان متناقضان يتنازعان ولاء الانسان (٣) . »

وقال : « لن ادع القارئ يستنتج مما قيل أن المرء لا يستطيع ان يجمع بين الاخلاص في الكثلكة ومخاصمة القسس ؛ فكل البابوات المصلحين كانوا من اشدّ خصوم القساوسة ، بل كانوا من النقم الكبرى عليهم . وكل المذاهب الدينية الكبرى انما نشأت بسبب عدم الرضا عن القساوسة فالمذهب الفرنسسكاني نشأ بسبب تعجرف القسس وكبريائهم ، والمذهب الدومينيكي نشأ بسبب كسل القسس وفتورهم في الدين ، ومذهب اليسوعيين نشأ بسبب جهل القسس وجمودهم وضياع النظام فيهم (٤) . »

• • •

غير انه لم ينقض الشهر حتى وفقد موليير اباه . لقد كان برّاً به ، ينفق عليه

(١) ص 7—6 من Le Tartuffe ثم Molière 121—122 ثم 218
(٢) Braunschvig : 3 (٣) مقدمة جان درك ٣٠٦ ـ ٣٠٧
(٤) ص ٣٠٤

بسخاء ، ولكنه كان يتحاماه ، لما يرى من ضيق خلقه كلما أمعن في الشيخوخة . وأقبلت الدنيا على الشاعر ، فالملك يرفعه ويعضده والجمهور يشجعه ، والثروة تزداد عنده يوماً بعد يوم ؛ بيد أنه كان يشعر بانحطاط قواه ، وكان أحياناً يبدو ألماً حزيناً (١) . وفي هـذا العـام اخرج « المسيو دي پورسونياك (٢) » . وفي العام التالي اخرج : « العشـاق الباهرون » و « البورجوازي النبيل » ، وهي ملهـاة نثرية راقصة Comédie-ballet يمتزج فيها الحوار التمثيلي بالموسيقا والرقص (٣) ، كتبها الشاعر استجابة لرغبة الملك في رواية تهريجية يتخللها بعض المشاهد التركية (٤) . ذلك ان لويس الرابع عشر كان استقبل في العام الماضي موفداً تركياً لم يكن فيما يظهر مجاملاً ولا ليّن الجانب، فأثار سخط القوم في فرساي ، حتى جعلوه مدار عبثهم . وكان الادباء الفرنسيون قد اخذوا يولون الحيـاة التركية طرفاً من اهتمامهم ، الى جانب التاريخ الروماني واليوناني والاسبـاني . فكتب « سكيديري Scudéry » عام ١٦٤١ قصه ناجحة بعنـــوان « ابراهيم » : وكتب « روترو (٥) » ملهاة « الأخت (٦) » ادارفيها الحوار على لسان احد اشخاصها بالتركية ؛ وكتب « لولّي (٧) » عام ١٦٦٠ « حكاية تركية (٨) » نالت اعجاب الملك. واهمّ من ذلك كله مأساة : « بيازيد (٩) » لراسين :

قصة هذه الملهاة ، كما هو الحال في اكثر ملاهي موليير ، هي الزواج الذي يعترض طريقه سخف احد الاهلين . وانما يظهر ابداع موليير في تنويـــع الموضوع والفكرة لا في تنويع الحبكة والحوادث . وقد اختار هذه المرة للمهـــاته موضوع : الرجل حديث النعمة ، الطامح الى الوجاهة . فالسيد جوردان ، تاجر القماش ، لا يكتفي بمـا اصاب من غنى ، بل يرغب في الوجاهة ، ويأمل ان يصبح ذات يوم نبيلا . فهو يعنى بلباسه ، ويجهد في تهذيب عاداته وتثقيف نفسه بمختلف العلوم والفنون . استحضر لاجل ذلك استـاذاً يعلمه الموسيقا ، وآخر للرقص ، وثالثاً للفلسفة ، ورابعاً للبراز . . . فقد صمّم الرجل ان يتعلم « كل ما يستطيع تعلمه » . دعاهم جميعاً الى داره ، في وقت واحد ، ودعا معهم الخياط ، فاذا هؤلاء السادة يختلفون فيما بينهم وينتهي بهم الأمر الى القتال ! ولشد ما كانت دهشة

---

(١) Molière 218—225 (٢) Monsieur de Pourceaugnac
(٣) Le Bourgeois Gentilhomme : 5 (٤) L.T. 262 (٥) Rotrou
(٦) La Sœur (٧) Lulli (٨) Récit turqueresque (٩) Bajazet
راجع المصدر السابق في الصفحة نفسها ، والمصدر الاسبق : 7



السيد جوردان : — يا للفتاة الوقاح !

نيكول : — أمَا إنك لمضحك هكذا . هي ، هي !

السيد جوردان حينما عرف ان الكلام اما ان يكون نثراً واما ان يكون شعراً ، وحينما عرف « انه يصنع النثر على غير علم منه ! » وفطن احد النبلاء المفلسين ، ويدعى دورانت، الى سذاجة الرجل ، فأخذ يقترض منه المال ، مؤكداً له انه « يتحدّث عنه في غرفة الملك » وأنه سيستميل اليه المركيزة الحسناء «دوريمين» . على ان المحتال النبيل لم يكن يعمل في الواقع الاّ لنفسه . اما السيدة جوردان التي لم تكن راضية عن حماقات زوجها ، فانها لم ترحّب بالنبيل الماكر في بيتها . ثم ان للسيد جوردان حماقة اخرى : انه يريد ان يزوج ابنته من احـــد النبلاء ، على ألاّ يكون اقلّ من مركيز . ولكن الفتاة لم تكن فارغة القلب ، بل كانت تعشق الفتى « كليونت » ، وما كان « كليونت » اميراً ولا مركيزاً ، ولكن رجلاً من سواد الشعب ؛ فليس في استطاعته ان يصهر الى السيد جوردان الاّ بحيلة ؛ والخادم الذكيّ « كوفيل » هو الذي سيدبر الأمر : اذ تنكّر بزيّ تركيّ وجاء الى السيد جوردان يوهمه بان « ابن التركيّ العظيم » لمح ابنته فأحبها ، وهو في طريقه الى باريز ؛ ولم يلبث « كليونت » ان جاء بنفسه ، متنكّراً في زيّ تركيّ كذلك ، واستطاع هذه المرّة ، بفضل لقبه المزيّف ، ان يحظى بموافقة الأب الساذج، الذي لم يكن لابتهاجه حدّ بانعام صهره ، صاحب السموّ الملكي ، برتبة « المامامُوشي » عليه !

• • •

يرى الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو في المقدمة المشهورة لرواية « كرومويل » Cromwell ان الفن ليس من شأنه ان يعطي الحقيقة المطلقة La réalité absolue ، من دون تهويل وتفخيم ؛ وانما هو « مرآة تجميع ، تجعل من بصيص النور ضياءً ، ومن الضياء لهيباً ،» فالمبالغة هي الدعامة الفنية التي يستطيع بها الروائي ان يبرز صورته ويلفت اليها الانظار ويثبتها في الاذهان . الفن في نظر هيجو لا يكتفي بعرض صورة طبيعية تتناول الشيء نفسه La chose-même بل يتجاوز ذلك الى عرض صورة مكبرة تبرز فيها حركات النفس وسكناتها بشكل يسترعي النظر . ومن عجب ان يلتقي زعيمُ المدرسة الابتداعية في هذه النظرة إمامَ الملهاة الفرنسية وأبا التراجيديا الاتباعية . فقد رأينا كورني يصوّر الناس خيراً مما هم عليه ، وها نحن اولاء نرى موليير يصورهم شراً مما هم عليه . اعني ان الاول يغالي في فضائل ابطاله ليقدّم لنا درساً في الاخلاق ايجابياً ، وان الثاني يجسّم مناقص الانسان ويغالي في تصوير مضاحكه ليقدم لنا درساً في الاخلاق سلبياً . كلا

الرجلين لا يمثلان الطبيعة ، وان شئت قلت انهما يجسّمان الطبيعة ، فهما لا يخرجان عليها ، ولكنهما يدفعان بها الى الامام ليوضحاها ويثبتاهـــا في النفوس . الارادة الخيّرة عند كورني تدفع رودريك الى قتل ابي حبيبته انتقاماً لشرف ابيه ، وتدفـــع بشيمين الى مطاردة عشيقها للاثأر لأبيهـــا . الفضيلة الحق عند كورني ان يتخطّى الرجل مودة القربى فيقتل اخوة زوجه ، او اخوة حبيبته اذا قضت بذلك مصلحة بلاده . أما ان يريق الجندي دمه فقط في سبيل وطنه ، فهذه فضيلة عادية ، آلاف تحلّوا بهـــا وآلاف سوف يتحلّون . والحال عند موليير لا تختلف كثيراً عما عند سلفه ، فهو يعمد كذلك الى المغالاة ويراها شرطاً اساسياً لنجاح مسرحه . هذا الثري المتدين « اورغون » الذي راجت عنده حيل الفلاح المنافق : « طرطوف » حتى فضّله على زوجه وولده ، وتنازل له عن ماله ، ولم يسمع فيه نصح الناصحين ولا لوم اللائمين ؛ وهذا البورجوازي الغني الذي يتنبّل ويريد ان يتعلم في سنّه العالية كلّ شيء ، فيستحضر هـــذا العدد من الاساتذة ويأبى ان يزوج ابنته من غير امير (١) ؛ وهذا البخيل الذي يصدّق ان فتاة في ريّق الصبا تحب شيخاً بخيلاً كزّاً لعَشاوة بصره وتحدّب ظهره وسعاله (٢) ؛ وهتان الصورتان اللتان عرضهما المؤلف للمدعي المتحذلق في دور « فيلامانت (٣) » وللصحيح المتوهم المرض في دور « ارغان » : كل اولئك اشخاص حقيقيون ، بيد أنهم يظهرون لنا مجسّمين وراء مجهر الكوميدي الكبير . فهو يجسّم العيوب الخلقية ، وفن الاضحاك عنده قائم في الاساس على ذلك . غير اننا نتساءل عن الفائدة التي توخاها موليير من هذا التضخيم للطبيعة . أهي العبرة الخلقية ؟ اذا كان ذلك فنحن لا نرى رأيه ، لان اشد المتحذلقين يرضى عن نفسه ولا يرى تحذلقه شيئاً بالنسبة الى « فيلامانت » ؛ ولأنك قد تكون اسبق في البخل من « هارباجون » ولكنك بخيل غير احمق ، تعرف كيف تخفي بخلك ، ولا تسفّ الى درجة بخيل موليير . وكثير من محدثي النعمة يحبون التباهي وينشدون الجاه والرفعة ، ولكنهم اذا قرءوا موليير تطغى عيوب السيد جوردان فتحجب عنهم عيوبهم . انما نستفيد العبرة المثلى اذا عرف الكاتب كيف يزيح الستار عن العيوب المكتمة ، وينبهنا الى تصرّفات البطل الدقيقة . فنقطة الضعف عند موليير ان الضحك في مسرحه يقوم على الغلوّ ، وان بعض الشخصيات الاولى عنده سخفاء حماق ، يضحك عملهم ولكن لا يهذب الاذواق ولا يمتع العقول . ويقيناً ان السيد جوردن هذا مجنون ،

(١) رواية البورجوازي النبيل (٢) رواية البخيل (٣) رواية النساء العالمات

بل هو كذلك بشهادة زوجته ، ثم بشهادة خادمه (١) . ان الذي يمتع العقول هو تلك الفكاهة التي تتساقط الينا من الاجوبة السريعة المفحمة ، ومن الغمز الرقيق من جانب المخاطب ، ومن تناقض الاشخاص الطبيعيين ، ومن هفواتهم ، ومن محاولتهم ستر عيوبهم واطماعهم ومن مغالطاتهم ومماكسة الاقدار لهم وانكشاف خفاياهم مهما جهدوا لسترها . اننا لا ننكر ذلك على موليير ، واننا لنكبر فيه هذه المقدرة الفائقة في تصوير الطبائع الخالدة والعادات السائدة ، وفي الغوص الى اعماق النفوس ونبش دوافعها ووسائلها وغاياتها ، وتجلية عيوبها وآفاتها ، وفي ابراز الأضرار والآلام التي ينكشف عنها انحراف الغرائز ودَخَلُ (٢) النيات وتحكّم السيء من العادات ؛ نكبر هذا كله واشياء كثيرة معه ؛ بيد انه لا يسعنا الا ان نلفت النظر الى ما يخالط مسرحه من بعض التهاويل والمبالغات التي تشوب ملاهيه العظيمة ، والتي قد تهبط ببعضها الى مصاف « التهاريج » العابثة . هذه التهاريج تنفخ صدرك بالضحك ، فليس من كاتب يبرع موليير في الاضحاك ، ولا نظن ان هناك من يساميه فيه او يدانيه ، ولكنها لا تملأ ذرات نفسك ولا تنفذ الى اعماقها ؛ لأنها حين تحيد عن الطبيعة وتهبط عن المستوى المعقول لما قبلها ولما بعدها ، تخرج عن حظيرة تلك المتع العقلية الشائقة التي تهذب الروح وتسمو بالفكر وتوسع نطاق التجارب الانسانية النافعة . يقول باسكال : « يجب ان نقتصر جهد الامكان على الطبيعيّ البسيط ، فلا نكبّر ما هو صغير ، ولا نصغّر ما هو كبير (٣) » .

* * *

كتب بعد ذلك « بسيشه (٤) » بالاشتراك مع كورني ، ثم « خداع سكابان (٥) » و « الكونتيس دوسكاربانيا (٦) » ١٦٧١ . لقد خفتت صوت الاعداء من حوله واصبحت حياته الزوجية نفسها أهدأ وأسعد ، اذ عادت أرماند الى عش الزوجية وقد هذبتها الايام شيئاً وطامنت من غلوائها (٧) . كان ذلك في خريف ١٦٧٠ . ان موليير اليوم أهنأ حالاً وانعم بالاً . غير انه فقد بعد عامين شريكته وصديقته الوفية : « مادلين »

---

(١) Le Bourgeois Gentilhomme : 91, 99 (٢) دَخَل النيات : سوءها وفسادها (٣) Pensées : P : 12 (٤) Psyché (٥) Les fourberies de Scapin (٦) Contesse d'Escarbagnas (٧) Histoire de la Lit. fran. illustrée Tome : ٢ Molière 266—268 (٨) Les Femmes savantes 2 P : 13

١٦٧٢ . وفي هذه السنة نفسها اخرج احدى ملاهيه العظيمة : « النساء العالمات (٨) » ، يهاجم فيها التكلف الذي سبق ان سخر به في « المتأنقات السخيفات » ، كما يهاجم فيها الحذلقة التي صار اليها التكلف الأدبي ، وخصوصاً بين النساء اللواتي جُنّ جنونهن عند اللغة اليونانية وعلوم الفلسفة والفلك والفيزياء ، واخذن يحتقرن امور البيت ويهملنها . لم يكن خصماً لتعليم المرأة ، ولكنه لم يرد لهـا الغرور ، وارادها « ان تعرف كيف تتجاهل الاشياء التي تعرفها . » ان فكرته لتتحقق في « هنريت » الفتاة الذكية ، التي تهتم بزوجها وبيتها اكثر مما تهتم بالنحو والفلسفة . سخر من المتكلفين ومن المتكلفات ، وسخر من المتحذلقين ومن المتحذلقات ، وبخاصة من رجلين آذياه وتعقّباه بهجائهما ، احدهما هـو الواعظ « كوتان (١) » الذي صوره موليير في دور « تريسّوتان » اي : الأحمق المثلّث ، ليسخّف فيه نموذج الشاعر المدعي المختال بذكائه ، الذي يعرف اين يعرض شعره السخيف لينال عليه الاستحسان ؛ والآخر هو الأديب «ميناج (٢) » الذي صوره في دور « فاديس » ليمثل به دور المدعي المحشوّ باليونانيـة واللاتينية ، والذي : المتحذلقة ويُقبّلْنه « حباً باليونانية ! » :

ي بيت البورجوازي « كريزال » انقطعن الى العـلم : الزوجة ، والابنة والاخت . لا يحيد عنهن غـير « هنريت » ، الأبنة الثانية ، فهي على علمها وفطنتها لا تلهج باحاديث العلم ، ولا ترمي الا الى الزواج من حبيبها الطيب « كليتاندر » . غير ان هذا الشاب لم يكن مزوّداً بمـا يرضي الأم : انه لا يأبى على المرأة ان تتعلّم ، ولكنه لا يحب الحذلقة ، خصوصاً عند النساء ؛ ثم هـو لا يكنّ الا احتقاراً لمعبود البيت ، هذا المدعي السخيف « تريسّوتان » . كان يجب على الأب ، كريزال ، ان يفرض ذلك الشاب الذكيّ المحب فرضاً على امرأته المتنطّعة (٣) المستبدة «فيلامانت» ؛ بيد أنها « خفيفة الخُلُق » ، وهـو لا يستطيع في حضرتها إلا ان يذعن ويلزم السكوت . وقد بلغ من سخف الأم واعتدادها برأيها ان قررت ان تعطي صديقها المدعي «تريسّوتان» ابنتهـا الرشيدة الطيبة . على ان هذا الاب على ضعفه كان يحب ابنته حباً جماً ولا يريد لها زوج السوء هذا ، وكان اخوه « آريست » لا يفتأ يشدّ من ازره ويلفت نظره الى ما يصيب ابنته من فاحش الغبن من هذا الزواج البغيض ، ويبين له أن تريسوتان لم يكن طامعاً الا في مال الفتاة ، وان قلبه لم يخفق بحبها ابداً ؛ فـكان الاب المسكين يكرر

(١) Cotin (٢) Ménage (٣) المتحذلقة

الحلف انه سيملي ارادته في اللحظة الحاسمة . وجاءت هذه اللحظة إذ استدعت الزوجة كاتب العدل ، واذا هي تملي عليه اسم تريسوتان واذا الأب يملي اسم كليتاندر ، وصاح الكاتب « أزوجين ! هذا اكثر مما تسمح به العادة ! » لقد كادت الغلبة تكون للزوجة الرعناء لو لم يحضر العم آريست في الوقت المناسب حاملا خبراً لايسر : لقد اصبح كريزال صفر اليدين من كل مال على اثر خسرانه احدى دعاويه واعلان افلاسه . هنالك ازاح تريسوتان الستار عن نفسة الخبيثة وانسحب . غير انهذا الخبر المكدّر لم يكن الا حيلة اعدّها العم الأريب ليدفع المنافق المتحذلق عن رغبته ، وليظهر الملأ حقيقته . لقد ثبت كليتاندر الى جانب الأسرة ، وأصر على ان يقاسمها شقاء حالها الموهوم ، فهو الآن يحظى باحترام الاسرة ، ويفوز بالفتاة الحبيبة ، وسط افراح الجميع (١) .

كان نجاح الرواية باهراً ، فمُثّلت احدى عشرة مرة متتابعة ، وأخزت السيدين اللذين غريا بذم الشاعر وناصباه العداء (٢) ؛ ولكنها دمغت بسخريتها على الخصوص اوساط النساء اللواتي كن يتمدّحن بعلمهن وذكائهن ، وكانت الى جانب « المتأنقات السخيفات » عاملا حاسماً في قطع دابر الحذلقة والأناقة المصطنعة ؛ فأصبح النساء في القصر وفي العاصمة يتحاشَيْنَ ان يُعرَفن بأناقة الحديث ووفرة المعرفة ، كما يتحاشين الخلاعة والفسوق (٣) !

• • •

كانت (مريض الوهم) آخر ما كتب الكوميدي العظيم وآخر ما مثّل . سخر فيها من اوهام المرض ، ولم يعف اصدقاءه الاطباء من عبثه ؛ فكأنه حين احس بقرب الأجل ، اراد ان ينتقم منهم مرّة اخيرة :

تعرض علينا هذه الملهاة جنونَ السيد « أرغان » الذي يعتبر نفسه مريضاً ، على الرغم من دلائل العافية عليه ؛ فهو يقضي ايامه بين الأدوية والاطباء . انه يريد ان يزوج ابنته « آنجيليكا » من طبيب يدعى « توماس ديافوري » ، وهو ابن طبيب آخر ، وابن اخي طبيبه الخاص ، السيد « بيرجون » . بهذه الطريقة سيحصل على « نعمة العلاج الضروري . » ومن جهة أخرى كان يريد ان يحرم هذه الفتاة ، ليجعل الارث كله لامرأته

---

(١) اعتمدنا في تلخيص بعض اجزائها على L.T. 262 (٢) Molière 284
(٣) Les Femmes Savantes : 102

الثانية « بيلين » . ألم يلفت نظرك رأي الكاتب السيء في الآباء ؟ غير ان للفتاة حاميين : خالها وخادمتها . ان الخادمة كثيراً ما تضطلع بمهات خطيرة في مسرح موليير، وتستطيع ان تتصورها على وجه العموم امرأة تصّقا (١) ، صريحة ، جريئة ، مخلصة ؛ مهمتها ان تدفع عن فتاة كل ملهاة ما عسى ان ينالها من أذى الآباء الحمق والأنانيين . ان رأس ما يعنيان به الآن أن يمنعا زواج الفتاة من « توماس » ، هذا الأبله المتحذلق المضحك ، الذي خرّجته المدارس لعهد قريب ، وأن يمهّدا لزواجها من حبيبها « كليانت » . لقد نجحا في ذلك ؛ وبقي عليهما ان يفسدا على الزوجة الماكرة خطتها لحرمان الفتاة الغافلة؛ فهما يبيّنان للزوج ان امرأته لم تؤثره الا لغناه ، والبرهان على ذلك ميسور ، فما عليه الا ان يأذن باعلان موته ، ليرى كيف تخفّ « ارملته » بادية السرور لتسلبه اوراقه ، على حين تصعق (آنجيليكا) وحبيبها لهول المصاب . تأثر الاب بحزن الشابين فوافق على اقترانهما ، على ان يجعل كليانت من نفسه طبيباً . ولكن الخال يقترح على مريض الوهم ان يرتدي هو ثوب الطبيب وقبعته فلن ينقصه شيء ليكون طبيباً !

فأنت ترى ان موضوع هذه الملهاة كارب عابس ؛ ومع ذلك فقد استطاع إمام الملهاة ان يشيع فيه المرح والابتسام ، ماذا اقول ؟ بل الضحكات المدوية التي تهتزّ منها أقطارك وتفحص لها الأرض ! « فأرغان » يراجع مذكرة الصيدلاني ، ودرس الموسيقا يعطيه كليانت متنكراً ، وزيارة الخطيب الطبيب وابيه ، واماديح الاول السخيفة ، وغضب السيد « بيرجون » وانذاره المريض بكل الامراض ، والاستشارة الطبية تقوم بها الخادمة في زيّ طبيب ، واخيراً ذلك الاحتفال الفكه ، باللغة اللاتينية المزورة ، الذي قلدوا فيه « أرغان » لقب دكتور . . . كل اولئك مواقف ضاحكة تتخلل المناظر المؤلمة وتبدّد عبوسها .

مذهبه الفني

اراد موليير ان ينهج في المسرح الاتباعي منهجاً جديداً ليقترب من الطبيعة ويحقق حداً اقصى من الواقعية ، فرأيناه يخرج على طريقة الشعراء في عصره ، وعلى رأسهم كورني ، فيهمل المواضيع التاريخية ، ويوجه اهتمامه الى الحياة الاجتماعية في عصره :

(١) المرأة بين الأربعين والخمسين

« اذا كنت تصوّر نقائص الناس ، فلتصوّرها على ما يوافق الطبيعة . . . ثم انك لا تفعل شيئاً اذا لم تصوّر رجال عصرك (١) . »

ورأيناه يصرف نظره عن مواضيع البطولة والارادة والعظمة التي حفَلَ بها مسرح سلفه كورني ، ابي المأساة الاتباعية ، لأن الملهاة لا تتمشى بطبعها مع امثال هذه المواضيع ، كما يقول الاستاذ فاجيه (٢) كما انه وثب وثبة جريئة في المذهب الواقعي فاستغنى عن الحبكة ، اعني عن قصة ذات بداية وعقدة وتطوّر ونهاية ، ولكنه فضّل ان يعود اليها بعد ذلك ، اذ كان يلمس فائدتها المسرحية في الملاهي ؛ لان الملهاة ، بحكم موضوعها الذي لا يبلغ من الخطر ما يبلغه موضوع المأساة او الدراما ، تستفيد كثيراً من حبكة طبيعية تكون من الملهاة بمنزلة الاساس ، وتحرك اهتمام النظارة وتغريهم بمتابعة العرض بلذة وشوق . غير ان موليير قد لفت الانظار الى ان الحبكة المسرحية ليست ضرورة قصوى ، والى ان بالامكان التنازل عنها احياناً . ومن الجدير بالذكر ان ملاهيه المحبوكة والتي لا حبكة لها كانت تصيب نجاحاً بالغاً كما رأينا ، قال احد الممثلين في عصره : « ان هذا الشيطان موليير يجتذب الجميع اليه (٢) » وقال احد حساده : « انه لعار على الفرنسيين ان ينفضّوا من حول المؤلفات الجيدة ، وان تجتذب هذه الحماقات باريس كلها اليها ! (٢) »

وشيء آخر رأى فيه موليير عوناً على تحقيق مذهبه الداعي الى الطبيعة والتقرّب من الواقع وهو النظر الى ابطاله من اكثر من جهة واحدة ، وهذا ما يمكن ان يدعى بتعقيد شخصياته ؛ فقد كان يرى ان الشخصية البسيطة التي لا تعقيد فيها انما هي فكرة في رأس المؤلف لا انسان ينبض بالحياة ؛ وهو لا ينكر ان في الحياة شخصيات ساذجة لا التواء فيها ، ولكنه يرى انها تافهة لا شأن لها . اما الذين يشغلون المراكز المرموقة ويؤثرون في من حولهم فهم ذوو صفات كثيرة واضحة ، ويقول موليير : « ليس من التناقض في شيء ان يكون المرء سخيفاً في بعض الاشياء ولبيباً في غيرها (٣) »

هذا التعقيد في الصفات يقود الى نتيجة منطقية وهي : خلط الفكاهة بالأسى . فالحياة كالانسان في تعقيدها وتعدّد وجوهها ، فيها مايسر وفيها ما يؤلم ، وهذا معنى قول « موسيه (٤) » : « كان ينبغي لنا ان نبكي من حيث ضحكنا . » وكثيراً ما يكفهر الجوّ وتتعقد المواقف في ملاهي موليير وتنحبس انفاس النظارة اشفاقاً على ثروة تكاد تضيع ،

(١) Faguet 268—275 (٢) المصدر السابق 267—268 (٣) 275
(٤) Musset راجع المصدر السابق 276

او فتاة ترغم على الزواج ، او بيت ينذر بالخراب ؛ ولكن موليير سرعان ما يلقي بفكاهته الرشيقة يبدد بها مخاوف المتفرجين ويرد اليهم صفوهم . اما جوّ الحوادث في الغالب فهو جوّ الأسرة ، او ما يشبه الاسرة ، بكل ما فيه من حركة وحياة وتعقيد : فالمؤلف ينزع لك سقف الدار ويدعوك ان تنظر (١)

على ان تعقيد شخصياته يكون غالباً في حـــدود الموضوع او الفكرة التي يريد عرضها . يريد ان يصور لك بخيلا ، فهو ينسب اليه من الصفات ما يرافق البخل او يفسح المجال لاظهاره . فاذا كان بخيله غنياً فلأن البخل مع الغنى اظهر ، واذا كان محباً، فلان الحب اذا سار في طريق الزواج استدعى بذلاً كثيراً ما يفضح بخل صاحبه ؛ ويريدموليير ان يصوّر كارهاً للبشر ، فهو يصفه بالاستقامة والصدق وقلة الدهاء والانانية وضعف الارادة والنقمة على الناس ، وهو بعد عاشق وجيه مثقف اديب مرهف الذوق ؛ بيد ان هذه الصفات كلها يعرضها المؤلف في سياق الموضوع الذي يعالجه ، وهو النُفور من البشر ، وليس في الرواية كلمة واحدة الا تدور حول الموضوع وتزكّي الفكرة التي يدعو اليها الكاتب . وكذلك طرطوف ، فليس هو بالمنافق وكفى ، ولكنه رجل جافي الطبع ، فاسد الذوق ، محب للسيطرة ، "بطيْني" ، اباحيّ ، حقود ، متضارب الأهواء ؛ بيد أن سيآته كلها لا تكاد تظهر اذا قيست بنفاقه ، او أنها لا تظهر الا لتدعم نفاقه . فالنفاق هو محور رواية طرطوف ، والتشاؤم واحتقار المجتمع هما محور « كاره البشر » والبخل هو محور « البخيل » والخوف من المرض هو محور « مريض الوهم » ، وهكذا قل في سائر ملاهي موليير ؛ ومعنى ذلك ان كل مسرحية تجري في حدود الموضوع الذي اختاره لها الشاعر ؛ وهذا الموضوع هو الذي سمى به موليير روايته ؛ وذلك ان دلّ على شيء فانما يدل على ان الناحيتين الاخلاقية والفكرية هما اللتان تسيطران على حوار الرواية وحوادثها وتدفعان بها الى النهاية . بل ان روايتي دون جوان وطرطوف لا تخرجان كذلك على هذه القاعدة ؛ فدون جوان ، وان كان في الاساس علماً ، فقد شاع استعماله نموذجاً للرجل الوجيـــه الغني الفخور الذي جعل همه ووكده الغواية والفجور . وكذلك قل في طرطوف ، فهي كلمة معناها المنافق ، ثم استعملها المؤلف اسما طابق مسمّاه . كل ابطال موليير تظهر اوصافهم في معرض الفكرة التي نادى بها او الصفة الاساسية التي تصدّى لابرازها . بل ان حوادث الرواية ومناظرها لا تنتقي الالتساق في ركاب هذين العنصرين

---

(١) 279

الاساسيين في مسرحه : الفكرة والموضوع الخلقي : فاذا اضفنا الى ذلك مذهب الشاعر في الاضحاك ، وهو قائم على تضخيم احـــد العيوب والمغالاة فيه ، فضلاً عن تركيز الحوار والحوادث حوله بحيث يطغى على غيره ، علمنا كيف تتزاحم الافكار في ملاهيه وتتصارع وكيف تبرز العيوب في ابطاله وتتجسد . من اجل هذا حفل مسرح موليير بالشخصيات النموذجية Personnages typiques التي عاشت في خيـــال الفرنسيين ودرجت في احاديثهم ، فأصبـــح كل من ارنولف وكريزال وارباجون وفيلانت وتريسوتان وطرطوف وألسيست ... مثلاً شاملاً Type Universel لنوع من الانسان على اختلاف الزمان والمكان . وهكذا استطاع كبير كتاب الملاهي في العـالم ان ينفخ الحياة في شخصياته ويشيع الحركة في اجواء مسرحياته ، كما استطـاع بفنه العجيب ان يتخطى بأبطاله الظروف المحلية والصفات الخصوصية ، ليرسم لنا نماذج انسانية خالدة ، فيها من الفردية والامتياز ما يبث فيها القوة والحياة ، وفيها من العمومية ما يضمن لهـا العالمية والبقاء .

• • •

عقـــد الاستاذان الكبيران مؤلفا « قصة الادب في العالم » بحثاً ضافياً عن فن « موليير » وقارنا بينه وبين امام المسرحية الانجليزية وليم شيكسبير ، فخلصا الى نتيجة يحب ان نتناولها بالبحث :

فهما يريان ان الشاعر الفرنسي كان يحرص حـين يعرض شخصاً من اشخاصه ان يبديه من جانب واحد ، ويأبى ان يحلل الشخصية ويشرحها ليخرج للناس كل ما تحويه من عناصر ؛ « اما الملهـــاة الابتداعيـــة عند شيكسبير فتتناول الاشخـــاص من نواحيهم جميعاً لا تبقي من عناصرهم شيئاً ولا تذر . تتبّع الملهاة لشيكسبير فتطالعك اوجه الشخص المصوّر وجهاً بعد وجه ، وفي اثرها تشرق عليك صفاته واحـــدة تلو اخرى ، يسجّل لك الشاعر ادق ما يجول في نفس من يصوّره فلا تفلت منه الخطوط الخافتة والخواطر القصية التي من شأنها ان تكمّل الصورة ، حتى اذا ما جئت في الرواية الى ختامها استوى امامك الشخص كائناً حياً يدب ويسعى ، ويفكّر ويمكر ، ويخادع ، ويضحك ويبتئس ، ويسخر من غيره ويسخر منه غيره . . . اما امير الملهاة الفرنسية فيختلف عن ذلك في منهاجه اختلافـــاً بيناً ، فبدل ان يوسّع الصورة لتشمل اطراف النفس جميعاً ، يضيّق حدودها لتتقن طرفاً واحداً او طرفين من تلك النفس التي يريد

تصويرها ؛ وهو اذا ما استقرّ اختياره على الخصائص القليلة التي يريدها ، راح يستخدم فنّه كله في ابرازهـا وترسيخها في ذهن القارئ او المشاهد بحيث يصعب نسيانها . . . فموليير يختار من شخصيته مساحة ضيقة يصب عليها ضوء فنه ، لكنه يعمق بك في هذه المساحة الضيقة ثم يعمق ويعمق حتى يصل بك الى ابعد الأغوار ؛ هو يختار ممن يريد تصويره عناصره الجوهرية ثم ما يزال بها حتى يخرجها في ضوء النهار الساطع (١) . »

على أننا نحب ان نصوغ جانباً من ردّنا على الاستاذين الجليلين في هـذا السؤال : اذا كان كاتب التمثيلية مكلّفاً ان يعرض دراسة عميقة شاملة لنفسيات ابطاله جميعاً ، ايا كانت منزلتهم وتأثيرهم في سير الحوادث وظروفهم ، فما هي المهمّة التي يتركها للفلاسفة وعلماء النفس اذاً ؟ الا يرى الاستاذان الكريمان ان كاتب التمثيلية مقيّد حين يسلسل الحوار ويصوّر النفوس بطبيعة المواقف ومقتضياتها ؟ وانه لا يستطيع ان يخلق المناسبات خلقاً ليقول ان بطله على علمه جبان ، وعلى بخله حسن المعشر وعلى حبه للحياة انوف شجاع . . . ؟ كلاّ ، لا يستطيع الاديب الذي يؤمن برسالته الادبية ان يسخّر الفنّ لغير الفنّ ؛ لا يستطيع ان يسخره لكشف اطواء النفس كما لا يستطيع ان يسخره للارشاد والتعليم . ثم ايّ نوع ساذج من الرجال اولئك الذين يتحدثون اليـك بعض الوقت فلا تلبث ان تغوص الى اعمـاق نفوسهم وتهتك الستار بهذه السهولة عن آرائهم واهوائهم وخباياهم ونياتهم ؟ اننا لا نعتقد ان إمام الشعراء وليم شيكسبير كان يرى هذا الرأي ولا انه كان ينهج هذا النهج ؛ وعلى عمق الرجل في فهم الطبيعة الانسانية فهماً لا نظير له فيمن عرفنا من الشعراء ، وعلى براعته في تصوير المواقف والمشاعر والاعمـال بما يعجز دونه البلغاء ، فاننا نشك كثيراً ان يكون قد تصدّى لهذا المطلب البعيد عن غاية الفنّ ؛ لا بل اننا نعتقد ان في ابطاله من تعمّد ان يحيطهم بسياج من الحـذر والكتمان ، وخصوصاً اولئك الذين اختـارهم من الملوك والكرادلة والقوّاد والساسة ، وما اكثرهم عنده ، فانك لو تتبّعت احوالهم ودرست اقوالهم لوقفت حائراً امـام كثير من صفاتهم او لما ازحت النقاب عنها الا بكثير من الجهد . ان إمام الشعراء يمثل في مسرحياته قطعاً كاملة من الحياة ، ولا يضع على لسان ابطاله من احاديث ولا يكشف عما في شخصياتهم من صفـات الا بالقدر الذي تسمح به طبيعة الموضوع ويبعث عليه شاهد الحال . وفي هذه الحدود لا نعتقد ان شيكسبير أجرى قلماً من موليير ، والقارئ ربما

(١) قصة الادب ج ٢ قسم ١ ص ٣٢٣-٣٢٤ للاستاذين احمد امين وزكي نجيب محمود

وافقنا على ذلك بعدما عرضنا له كثيراً من روايات موليير ورسمنا له صور ابطالهـــا ، وخصوصاً في طرطوف وكاره البشر ، وبعد ما بينّا له ان مذهب موليير هـــو تعقيد الشخصية الذي لا حياة لها بدونه ، ولكنه تعقيد لا يتكلفه الكاتب تكلفاً ولا يقحمه إقحاماً . نعم ان موليير يعمد الى المغالاة احياناً ويعمق في ابراز صفة ما في كل ملهاة وتضخيمها ، غير ان هذا لا يعني ان ابطاله يتخلّون عن صفاتهم الاخرى ويكتمونها حين تدعو الحال ان يعلنوها .

• • •

مذهبه الاخلاقي : — يتساءل الاستاذان «لانسون وتيفرو» عما اذا كان بالامكان ان نستخلص من مسرح موليير مذهباً اخلاقياً متلاحم النسج ؟ ثم يجيبان بالايجاب : هذا المذهب الاخلاقي انساني مستقلّ عن المسيحية التي لم يكن موليير يفهمها . وآية ذلك في « طرطوف » حيث جاء بتعريفه الفـاتر للتقوى ؛ وآية ذلك أنه أبْعَدَ عن تآليفه مفهوم المسيحية الاخلاقي : مقاومة الطبيعة ، التجرّد ، الجهد المضني للوصول الى المثل الاعلى.

انه يعتقد باستقامة الفطرة وقوتها . يجب اتبـاع الغريزة او الفطرة ، هذا حق ، ومجاهدتها جنون ، لان لها الغلبة ابداً ؛ وان نحن غالبناها كنا سخفاء تاعسين . من اجـــل ذلك كان موليير ينحاز الى الشبيبة الذين يستوحون القانون الطبيعي في الحب ويخالفون آباءهم والذين يعترضون طريقهم (١) .

كان يمقت كل ما يعوق الطبيعة او يحيد عنهـا ، او يشوّهها ، او يزوّرها . كان يريد الناس ان يكونوا كالنباتات الأمينة على اصولها ، التي تؤتي أُكُلَ نوعها . ان أقل انحراف عن القاعدة العامة يطرف عينه او يبدو له مضحكاً (٢) . لم تكن تعنيه التقاليد المعروفة الضيقة ، لكن الطبيعة الانسانية بقوّتها وصفائها .

على انه لا بد من وضع حدود للغريزة ، فالانسان بغريزته جافٍ أثِرٌ (٣) ؛ هذا الى ان البخل هو غريزة « هارباجون » والنفـاق غريزة « طرطوف » . فموليير يقيّد الغريزة بالعقل . العقل يرتضي أثَرَةَ العاشقَيْنِ ، وينكر اثرة البخيل والمنافق . انه يأذن لنا ان ننمي طبيعتنا ، على ان نراعي حقوق الآخرين . ليس لنـا اذن ان نخضع انساناً حتى نمحو شخصيته . تلك هي خطيئة « أرنولف » الذي كان انانيّ النظرة فقضى

(١) هذا الفصل كله ، عدا المقطع التالي ملخص من L.T. 268—270

(٢) Molière 207 (٣) اناني

على « أنياس » ، ربيبته ، بالجهل والغباوة والحرمان من كل اللذات الطبيعية . ولكن طبيعة « انياس » تمرّدت ؛ وبادَرت هذه البلهاء الصغيرة الى ما فيه سعادتها بشجاعة وعزم ، كما اوحت اليها الغريزة ؛ وهذا ما يقرّه موليير وكذلك تجسده يهاجم بعنف الآباء الذين يريدون ان يسخّروا ابناءهم لينزلوا على آرائهم او ليرضوا شهواتهم ، حينما يبلغ هؤلاء الابناء رشدهم ويكونون اعرف بمصالحهم . لقد كانت سلطة الآباء من القساوة بمكان في القرن السابع عشر ، فموليير يسخر منها ويحطمها . انه ليحلم بسلطة ابوية كلها تسامح وحنان ، تقود الاولاد الى الحياة المتفتحة السعيدة .

هناك فضيلة يدعو المؤلف الى التشبث بأذيالها بقوة : هي احترام الحقيقة المطلق . بيد ان صفاء ذهنه كشف له عن ان الصراحة المطلقة منافية لما تقتضيه حياة الجماعة : ومن هنا هذه الحسرة الأليمة في « كاره البشر » .

ثم خاصّة اخرى تجلب النظر في مذهبه الاخلاقي هي اتجاهه البورجوازي : هذا الكوميدي الذي الف حياة الارتحال مدة طويلة ، والذي انغمس حياته كلها في اسرة التي تحوم حولها الشبهات ، والذي لم ينعم بزواج هادئ سعيد ، كان لا يفتأ تداعب ذهنه احلامُ الحياة البيتية الهنيئة . ومن هنا كان ميله المتصل الى المواضيع التي تمسّ السعادة المنزلية ، وكان يعود دائماً الى نقطتين : الزواج ، وتعليم الفتيات .

ففي الزواج يشترط اموراً اربعة : تكافؤ الظروف ، فهذا ضرورة اجتماعية . ثم تناسب المزاج ، فمن الحمق ان يُزَوّج المدعي البغيض « تريسوتان » بالفتاة البسيطة « هنريت (١) » . ثم تقارب السن ، فقد اعدّت الطبيعة الشبان للاقتران بالصبايا ، ولقد كان هارباجون سخيفاً حين اخذ ينافس ابنه . واخيراً : الحب المتبادل ، فهذا هو الشرط الأهم الذي يطغى على الجميع .

اما تعليم النساء ، فقد كان يكره لهن الترهب كما يكره لهن الجهل ؛ وكان لا يريد لهن التكلف كما لا يريد لهن الحذلقة . انما يسرّه منهن ان يفهمن الحياة الرشيدة ، المتزنة ، العملية ، بذهن واضح وارادة مستقيمة ، وقلب صدوق ، كما هو الحال لدى هنريت في النساء العالمات .

وعلى الجملة فمثله الاعلى عمليّ قبل كل شيء : ما هو بالسامي ولا هو بالقاسي ؛ بل

(١) ملهاة : النساء العالمات

هو قريب المتناول ، يرمي الى سعادة الفرد والمجتمع ، ويقوم على الذوق السليم ، والعقل المتزن ، والمحبة والتسامح .

• • •

اخلاقه وموته : — لا شك ان موليير الانسان يستحق من المحبة والعطف ما يستحقه موليير المؤلف من الاعجاب والاحترام . واذا لم يمنعنا الاعجاب به من التعرض لنواحي الضعف في ادبه ، فكذلك لن يدفعنا العطف عليه والحب له الى ان نغمض عن عيوبه .

كان يعيش في وسط متحرّر شاذ : بين الممثلين الذين كانوا في القرن السابع عشر على جانب كبير من غرابة العادات، وفي أسرة بيجار ، وهي من اسوئهم سلوكاً واغربهم اطواراً . وكان لهذه الحياة اثر بعيد في نفسه ، فأخذمن رجل المسرح تحرره واحياناً لينه وتهاونه . غير انه حافظ على ذوقه السليم ونظره السديد الى الاشياء ، وعلى ميوله الانسانية الطيبة : فلم يكن عقوق « راسين » الذي سلبه أقدر ممثلة في فرقته وسحب منه مآسيه ووضعها بين يدي فرقة منافسة ، ولا طيش « ارماند » ورعونتها ، بقادرين على ان يدفعاه الى ان يناصب العداء صديقه الغادر وامرأته الخئون (١) . ان انفكاكه عن امرأته بمطلق اختياره كان شجاعة منه ونبلا ، لم يحطهما بشيء من الضجة والفخار ، لانه لم يكن يضحّي ليربح عطف الجمهور ، ولكن ليلبي شعور الكرامة في نفسه (٢) . وكان موليير عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، الأمر الذي تفسره تلك الحياة المحمومة التي كان يكابدها ؛ فاعداء اشداء تألبوا عليه من كل جانب ، وفرقة كبيرة يجب ان يلتمس لها المعاش ، وملك يجب ان يسلّيه ؛ كان رئيس فرقة ، وممثلا ، وكاتباً ، يمثل ملاهيه ومسرحيات غيره ، بما فيها من مآسٍ وملاهٍ وتهاريج وروايات راقصة ؛ وبين هذا الاضطراب ، وفي هذه الحياة الصخابة التي تضنيها الهموم ويرهقها العمل ، كتب موليير خلال ثلاث عشرة سنة قرابة ثلاثين تمثيلية ، بعضها يقع في خمسة فصول ، وكثير منها تحف فنية خالدة (٣) . فاذا واتت الظروف ، وخفتت صوت الخصوم ، عاد اليه صفوه ، فكان يطرب لعمل المعروف ويبذل معونته للجميع ، واحبته فرقته فكان هذا فوزاً عظيما ولا ريب . لم يعرف فيه اصدقائه كبراً ولا غيرة ، وأحبهم اليه : بوالو ، شابيل ، لافونتين . بل انه لم يتأخر عن الثناء على راسين ، برغم اجماع المؤرخين على اساءة هذا اليه . وكان موليير

L.T. 255—256 (٣)   Molière 312 (٢)   L.T. 256 (١)

يبدو مفكراً حالماً منطوياً على نفسه . كل الذين عاملوه كانوا يعجبون من هذا الفرق الشاسع بين موليير الرجل في هدوئه وجده ووقاره ، وموليير الممثل الذي كان يهزّ اعطاف النظارة بفكاهته وخفة روحه (١) . وعلى شجاعته ومضاء عزيمته اخذت تخيم عليه في آخر حياته سحابة حزن اثارته آلام المرض وهموم الزوج المعذب . وكان يحب الحياة الفخمة الناعمة ، فاقتنى الثياب الفاخرة ، والأثاث الثمين ، والفضيّات واللوحات المصورة ومنتجات الفنون . اما دأبه ونشاطه فما خبوا ولا فتراً ، وانه ليحسّ بشبح الموت يقترب منه ، وان امرأته لتتشبّث باذياله ان يخلد الى الراحة ، فيجيبها أن « ماذا تريدينني ان اعمل ؟ هناك خمسون عاملاً يعيشون من كسب يومهم ، فماذا عساهم أن يفعلوا إن لم امثّل ؟ اني لا بدّ لآثم نفسي اذا تهاونت في منحهم الخبز يوماً واحداً عامداً غير مضطر (٢) . » وجمع الشاعر العظيم قواه ، وصعد خشبة المسرح ليمثل « مريض الوهم » وكان ذلك في ١٧ شباط «فبراير» عام ١٦٧٣؛ ولقد ابدى بطولة فائقة حين تصنّع الضحك ليغالب رعشة الموت الاولى التي اعترته وهو يقوم بدوره . فلما فرغ من عمله ، ونقل الى منزله ، اشتد عليه النزع ، فأرسلوا في طلب كاهن فرفض ، فارسلوا يطلبون آخر فرفض كذلك ؛ ولما لفظ نفسه الأخير لم تسمح الكنيسة بدفنه مع المؤمنين الاّ بعد ان ارتمت زوجته على قدمي الملك (٣) .

• • •

سأل لويس الرابع عشر الناقد بوالو عن اعظم حمَلة الاقلام في عهده فقال : هو موليير يا مولاي (٤) .



Le malade imaginaire : 6 (٢) Molière 312 (١)
Malet 272 (٤) L.T. : 256 (٣)

طرطوف

او

المنافق

لموليير

اشخاص الرواية

السيدة پرنيل	:	ام اورغون
اورغون	:	زوج إلمير
داميس	:	ابن اورغون
ماريان	:	ابنة اورغون وعشيقة فالير
فالير	:	عشيق ماريان
كليانت	:	صهر اورغون
طرطوف	:	منافق متناسك
دورين	:	خادمة ماريان
السيد لويال	:	مأمور التنفيذ

مفوّض الشرطة

فليبوت	:	خادمة السيدة پرنيل

تجري الحوادث في پاريس

الفصل الاول

المنظر الاول

السيدة برنيل ، فليبوت ، إلمير ، ماريان ، دورين ، داميس ، كليانت

« يظهر ان السيدة برنيل كانت تزور بيت ابنها[1] »

السيدة برنيل — هيّا ، فليبوت ، هيّا ، فلأنجُ منهم بنفسي .

إلمير — انك تمشين مشية لا قبل لأحد باتباعها .

السيدة برنيل — اي كنّتي ، دعك من هذا ، دعك ، لا تذهبي بعيداً : فانا في غنى عن هذه الاساليب .

إلمير — نحن نوفّيك ما يجب لك علينا ، ولكن فيمَ تسرعين الى الخروج يا أماه ؟

السيدة برنيل — ذلك لأني لا اطيق رؤية ما عليه هذا البيت من ادارة سيئة ، واهمال بيّن لشأني . اجل ، أخرج من عندكم وقد بلوت امركم فساءني ؛ اذ خالفتم نصحي وعصيتم امري ، ليس لشيء في هذا البيت حرمة ، كلٌ يرفع صوته عالياً ، فهو حقاً قصر بيتو ، ملك الصعاليك[2] .

دورين — اذا . . .

السيدة برنيل — انت يا صديقتي خادم وقاح طويلة اللسان : فما من امر الا تدخلت فيه وادليت برأيك عنه .

داميس — ولكن . . .

السيدة برنيل — انت أبله ، بأربعة احرف[3] يا ولدي ؛ انا ، جدّتك ، اقوله لك ؛ وقد أنبأت اباك مئة مرة انك تتخذ هيئة الوغد الخليع بنصّها وفصّها ، وانك لن تجرّ عليه غير العذاب .

ماريان — اظن . . .

---

(١) المترجم (٢) اشارة الى رجل ولاه السؤال « الشحاذون » امرهم في فرنسا ذات يوم ولكنهم لم يطيعوه في شيء . (٣) صورة لتوكيد الكلمة ، بتعداد أحرفها

السيدة برنيل — عجبا ، يا اخته ، تتكلفين من الرزانة والهــــدوء مالا يتفق وخفتك وظرفك ، شد ما بعدت عنها . على انه كما يقولون ، ما من شيء أخبث من المــــاء الراقد ، وأنت تسيرين في الخفاء سيرة أنفر منها وأبغضها .

المــــسيو — ولكن ، يا اماه . . .

السيدة برنيل — أرجو الا يسوءك قولي ، يا كنتي ، إنك لا تحسنين التصرف في شيء ابداً . كان عليك ان تكوني قدوة حسنة لهذين الولدين ، ولقد كانت امها رحمها الله أقوم منك سلوكاً وأمثل . انت مسرفة ، واني لأنكر زي الاميرة هــــذا الذي تتبرجين فيه . وان امرأة لا تأبه لغير سرور زوجها ورضاه ماهي في حاجة الى كثير من الزينة .

كليــانت — ولكن ، يا سيدتي ، بعد كل . . .

السيدة برنيل — اما انت يا سيدي ، فانا اجلك واحبك ؛ ولكنني لو كنت محل ابني لرجوتك الرجاء كله الا تدخل علينا ابداً . فانت لا تفتأ تعظنا بحكم لا ينبغي لكرام الناس أن يأخذوا بها . أصارحك الكلام قليلا ، ولكن هذا هو طبعي لا حيلة لي فيه ، فانا لا اراعي أمراً حين اتحدث بما في صدري .

داميس — لا شك ان صفيك السيد طرطوف سعيد جداً .

السيدة برنيل — انه رجل خير وصلاح يجب ان يستمع له ، ويشق علي كثيراً ان يشغب به ويغاضبه محمق مجنون مثلك من دون ان يملكني الغضب .

داميس — كيف ؛ اأسمح انا لمنافق لوام ان يختلس هنا سلطة جائرة ، فلا نملك تسلية نستروح بها الا اذا افضل هذا السيد الظريف فأذن لنا ؟

دورين — اذا سمعنا له وركنا الى حكمه فما نفعل من شيء الا كنا آثمين ، لأن هذا العيابة (١) الغيور ينهى عن كل شيء .

السيدة برنيل — ما منعكم عن امر الا احسن منعكم . فهــــو الى طريق الله يقودكم ، وعليك يا بني ان تحث الناس جميعاً على محبته .

داميس — كلا ، يا جدتي ، ما باستطاعة ابي ولا باستطاعة غيره ان يكرهني على ان اريد له الخير : وانا ا كذب نفسي واخدعها اذا تكلمت على نحو آخر ؛ انا ساليه

العيابة : الكثير العيب للناس

ابداً تثيرني؛ وانا اتوقع لها توابع وذيولا ، وارى ألا محيد لي ذات مرة عن غضبة عاصفة مع هذا القروي الجافي .

دورين — حقاً إن مما يغيظ النفس ان ترى رجلا مجهولاً يتأمّر في هـذا البيت ويتحكم ، صعلوكاً لا شأن له ، جاءنا حافي القدمين في ثياب ثمنها ستة أفلس ، يبلغ به الامر ان ينسى حاله وان يخالفَ الجميع ويعاندهم ويأمرهم وينهاهم .

السيدة برنيل — وقاني الله ! أما انه لو انقـــاد الجميع لأوامره الصالحـة لتحسنت الأمور كثيراً .

دورين — تتوهّمينه قديساً : صدقيني ، كل عمله نفاق في نفاق .

السيدة برنيل — انظروا الى هذا اللسان !

دورين — انا لا اثق به ولا بخادمه لوران الا على كفيل أمين .

السيدة برنيل — لا اعرف حقيقة الخادم ، اما السيد فانا على يقين من انه رجلٌ تقي وخير . وما اردتم به الشرّ ولا جفوتموه الا لأنه يخبركم بحقائقكم جميعاً . وان يثُر فغضباً على الخطيئة ، وغيرةً على الدين .

دورين — نعم ؛ ولكن لماذا نراه ، ولا سيما منذ بعض الوقت ، لا يحتمل ان يتردّد احد الى هذا المنزل . ماذا تنكر السماء في زيارة بريئة حتى يهشم رؤوسنا بلفطه وضجيجه ؟ اتريدون ان اعبرّ فيما بيننا عما في نفسي ؟ اذاً فانا اعتقد أنه هائم بسيدتي غيور عليها (١) .

السيدة برنيل — اسكتي ، وروّي فيما تقولين . فما هو بالوحيـــد الذي يلوم على تلك الزيارات : كل هذه الحركة واللبكة اللتين تتبعان العُشراء ، والعجلات التي لا تنفك مغروسة امام الباب ، وهؤلاء الخدم بجموعهم الصاخبة ، كل أولئك يحدثون ضجة سيئة حولنا . اريد ان اعتقد ان ليس في حقيقة الامر شيء ، ولكن الناس على كل حال يلغُون في ذلك ، وهو امر غير مستحسن .

كليانت — ماذا ! أتحرّمين عليهم يا سيدتي ان يتكلموا ؟ اذا توجب على المرء ان يتخلى عن احبّ اصدقائه اليه ليتفادى من هذر الناس وارجافهم تنغّص عيشه ورنق صفوه . وهل تظنين انك تكرهين الناس على السكوت حتى حين تفعلين ذلك ؟

(١) اشارة بارعة يهيء بها المؤلف المنظر الثالث من الفصل الثالث

ما من وقاء لنا من طعنهم واغتيابهم؛ فلنجعل هذيانهم دبْرَ آذاننا؛ لنبذل وسعنا لنحيا حياة شريفة طاهرة، ولنرخّص للثرثارين في قول ما يشاءون .

دورين — ألن يتحدث عنا جارتنا « دافني » وزوجها القمي[1] بالسوء ؟ ان الذين يثيرون بتصرفاتهم هزأنا هم دائماً اول من يلوكون اعراض الناس ويسلقونهم بالسنتهم الحداد[2] ؛ لا يفلت منهم شيء عن ايسر الملاقات ، فهم يذيعون به فرحين ويعطونه الصورة التي يريدون ان تنصرف اليها الأذهان. وانه ليخيل اليهم أنهم يسوّغون اعمالهم باعمال الآخرين بعد ان يلوّنوها بألوانهم ويطبعوها بطابعهم، وأنهم يلبسون مكائدهم ثوب النقاوة وراء امل كاذب في بعض المشابهة ، اوانهم يحوّلون الى غيرهم بعض ما يهدّ اركانهم من نبال اللوم .

السيدة برنيل — هذه الحجج كلها لا شأن لها البتة في الموضوع ؛ ان زوجها يحيا حياة مثلى، وهو يصرف كل عنايته الى الله؛ اما هي ، فقد علمت من بعضهم انها تستنكر كثيراً ما يجري هنا .

دورين — ما أروع المثال[3] ، وما أصلح السيدة ! حقاً انها تعيش في زهد وورع ؛ ولكنه التقدم في العمر ليس غير. تتنسك ولا تسمح لأحد ان يمس جسمها! لقد تمتعت بمحاسنها ما استطاعت ان تجذب القلوب وتغريها ؛ ولكنها اذ رأت ذبول عينيها وأفول بهجتها زهدت في الدنيا التي اعرضت عنها وأسرّت جمالها الذاوي وراء نقاب الحكمة الجليل . هذا هو منقلب ذوات الغنج في عصرنا هذا : يكبر عليهن هجر الظرفاء فلا يجدن معاذاً في ظلام همومهن الا باحتراف التقى ؛ انهن يحظرن بتصعبهن كل شيء ولا يتجاوزن عن شيء . ينددن جهاراً بكل انسان ، لا عن تقوى وصلاح ولكن بدافع من الحسد الذي ينفّس[4] على الآخرين لذات فطمهن الهرم عنها .

السيدة برنيل — تلك هي احاديث الخرافة التي ترضيكم . اي كنتي ، انا مضطرة عندك الى السكوت لأن السيدة[5] تهذر نهارها كله ولا تني تبدىء فيه وتعيد . على انني اخيراً أصر بدوري على الكلام : اقول لكم إن ابني لم يتحرّ الصواب في امر تحريته

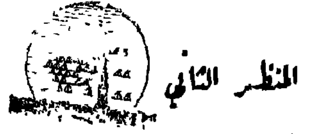
---

(١) الصغير الحقير (٢) الأصل : هم اول من يغتابون غيرهم (٣) رداً على قول برنيل: ان زوجها يحيا حياة مثلى (٤) نفس عليه شيئاً : لم يره اهلا له . (٥) دورين

في عطفه على هذا العابد الورع وضمّه اليه ، وإنّ السماء قد ارسلته اليكم وانتم احوج ما تكونون الى من يهدي عقولكم الضالة ، وإنه لا يؤنبّكم على امر لا ينبغي فيه التأنيب ، ويجب عليكم ان تسمعوا له لتنالوا السعادة وتفوزوا بالخلاص الأبدي . هذه الزيارات ، هذه الأحاديث ، هذه الحفلات الراقصة ، إنْ هي الاّ بدع الشيطان . هناك لا تطرق الأسماع الفاظ التقوى ابداً ، بل لغوٌ واحاديث ملفّقة وأباطيل . وللقريب من هـــذا نصيب وافر ، فانهم لا يرحمون من طعنهم وسبابهم احداً . واخيراً فقد أهمّت هذه المجالسُ العقلاءَ كثيراً ؛ آلاف القيل والقال في اتفـــه الامور ؛ وكما قال ذلك اليوم احد الوعّاظ بحق : هذا برج بابل على التمام، تتبلبل (١) فيه الألسن وتخوض في كل شيء ؛ وقبل ان يحدثنا بقصة تتعلق بهذا الموضوع ...

(تشير الى كليانت)

الا ترون هذا السيد الذي يضحك بي ! هلاّ طلبت الضحك عند اصحابك الحُمُق. ومن غـــير ان . . . وداعاً يا كنتي : لا اريد ان أزيد شيئاً ابداً . اعلموا أني اختصرت نصف الحديث وأني لن اعود اليكم الا بعد زمن طويل . «تلطم فليبوت» هيّا ، تحلمين وتحدّقين في الهواء . والله لأعركنّ اذنيك . هيا ، يا قذرة ، هيا.



المنظر الثاني

كليانت ، دورين

كليانت — لا اريد ان اذهب الى هناك ابداً ، مخـافةَ أنْ تأتي مرة اخرى وتخاصمني ؛ وان هذه العجوز . . .

دورين — آه ! خسارة ولا شك الاّ تسمعك تتحدث بهذا ؛ اذاً لقالت لك انها تراك انت عجوزاً ، وإنها ليست في سنٍّ تنال معه هذه الصفة .

كليانت — كم احتدَّت لغير ما سبب علينا ! وكم تتعصّب لطرطوفها وتتشبّث به !

دورين — أوه ! الحقيقة أن هـــذا كلّه لا شأن له في جانب ابنها ؛ ولو رأيته لقلت : « هذا شرٌّ منها ! » لقد قوّمنا بشغَبْنا وثورتنا من اعوجاجه ورددناه الى صوابه،

(١) تبلبلت الألسن : اختلطت

فأبدى شجاعة في خدمة اميره (١) ؛ غير انه اصبح منذ تمسّكه بطرطوف اشبه بالبليد ؛ فهو يدعوه اخاه ، ويكنّ له في اعماق قلبه من الحبّ اكثر مما يكن لأمه وولديه وزوجه . انه امين اسراره الوحيد ، وقائد اعماله الرشيد ؛ يلاطفه ويعانقه ؛ ويخيّل اليّ ان الانسان لا يملك لحبيبته قدراً اوفى من هـــذا الحنان . على المائدة يريده ان يحتل اوجه مكان ؛ ويسرّه ان يراه يأكل ما يأكل ستة رجال ؛ وهو يأمرنا ان نترك له عن اطايب الاشياء ؛ واذا راح يتثاءب قال له : « كان الله في عونك »

(لاحظ ان المتكلمة خادم (٢))

واخيراً فهو مفتون به ، هو بطله وهو كل ما لديه ؛ لا يملّ الاعجاب به ، ولا يفتُر عن ذكره ؛ يرى أيسر اعماله اعاجيب وكل كلماته الوحي والالهـــام . اما طرطوف ، ذاك الذي يعرف خدعتَه (٣) ويريد ان ينتفع به ، فهو يملك بحيلته مئة مظهر مزوّق يجذبه به ويفتنه . لا يفتأ يجرّ بكاذب ورعه المغانم ، ويستجيز أن يعيبنا ويخطّئنا ما عشنا . لقد بلغ الأمر ان تدخّل ذلك الأبله الذي اتخذ منه خادمــــاً في تلقيننا الدروس . يعنّفنا بعينين تقدحان شرراً ، ويرمي بريشاتنا وأحمرنا ومناديلنا . لقد مزّق لنا الخائن بيديه ذلك اليوم منديلاً رآه في كتاب « زهر القديسين » وقال اننا نجمع بجريمة هائلة زينة الشيطان الى دين الرحمن .

المنظر الثالث

إلمير ، ماريان ، داميس ، كليانت ، دورين

إلمير — انت سعيد اذ لم تسمع ما تحدّثت (٤) به الينا على الباب . غـــير أني رأيت زوجي ، وبما انه لم يرني فسأنتظر في الأعلى مجيئه .

كليانت — انا سأنتظره هنا حرصاً على الوقت ، ولن ازيد شيئاً على تحيته .

داميس — بل أذكر له شيئاً عن زواج اختي . تحدثني نفسي بأن طرطوف يعترض

---

(١) يهيئ موليير هنا حلاً لحبكة الرواية بتدخل الملك . ويلمح هنا الى ان اورغون ظل اميناً للويس الرابع عشر في الحرب الاهلية التي نشبت في فرنسا بين انصاره وخصومه وهو بعد قاصر .

(٢) يبين لنا موليير هنا السبب في ابتذال الكلام (٣) الخدعة : من يخدعه الناس (٤) اي السيدة برنيل .

سبيله ، وانه يحثّ ابي على اتخاذ إجراآت هامة جداً ؛ انت لا تجهل اهتمامي بذلك.
اذا كان يُلهب اختي وفالير شوق واحد ، فأنت تعلم ان اخت هذا الصديق عزيزة عليّ ؛ واذا وجب . . .

دورين — لقد دخل .

المنظر الرابع

اورغون ، كليانت ، دورين

اورغون — آه ! صباح الخير يا اخي .

كليانت — كنتُ ذاهباً في نزهةٍ (١) ، ويسرني أن اراك تعود . فالحقول لم تزدهر كثيراً في هذا الوقت .

اورغون — دورين . . . انتظر يا صهري ، ارجوك . هل تأذن لي ان استطلع قليلاً اخبار البيت ؟

(يخاطب دورين)

هل جرى كل شيء بخير هذين اليومين ؟ ماذا يعملون هنا ؟ كيف صحتهم ؟

دورين — لقد لزمت الحمّى سيدتي اولَ امسِ حتى المساء وكانت تعاني صداعاً غريباً لا يدرَك .

اورغون — وطرطوف ؟

دورين — طرطوف ؟ حسن جداً ، جسيم لحيم ، وجه نضير ، وفم عقيق .

اورغون — يا للمسكين !

دورين — لقد عافت (٢) نفسُها الطعام عند المساء فلم تتناول من عشائها شيئاً ، كان الألم شديداً في رأسها .

اورغون — وطرطوف ؟

دورين — تناول العشاء وحده امامها ؛ واصاب بورعٍ كبير (٣) حجلتين ونصف فخذٍ من خذيعة (٤) .

اورغون — يا للمسكين !

---

(١) في نزهة : ليست في الأصل (٢) كرهت الطعام (٣) تلفت دورين هنا نظر سيدها الى اسلوب طرطوف الغريب في التقى (٤) طعام من لحم .

دورين — ومضى الليل كله فلم يغمض لها جفن ، اذ حالت الحرارة دون اغفائها ، ووجب علينا ان نسهر الى جانبها حتى الصباح .
اورغون — وطرطوف ؟
دورين — الحّ عليه نوم لذيذ فمضى الى غرفته حالما فارق المائدة ، وقد اندسّ بغتة في فراشه الدافئ حيث نام هادئاً الى الغد .
اورغون — يا للمسكين !
دورين — وفي الأخير ، اقنعناها بفائدة الفصْد ؛ وفازت في الحال بالرّاحة .
اورغون — وطرطوف ؟
دورين — لقد استعاد شجاعته كما يجب وحصّن نفسه امام الآلام فشرب على الفطور اربع عبّات كبيرة ليعوّض ما فقدت السيدة من دم .
اورغون — يا للمسكين !
دورين — واخيراً فصحة الاثنين جيدة ؛ وسأبلغ سيدتي درجة اهتمامك بشفائها .

المنظر الخامس

اورغون ، كليانت

كليانت — انها تهزأ بك يا اخي في وجهك ؛ واقول لك بصراحة من غير ان اقصد الى اسخاطك : إنها على حقّ . هل تحدّث الناس يوماً بمثل هذه الأهواء؟ وهل يكون لرجل من السحر ما ينسيك في سبيله كل شيء ، وما يصل بك ، بعد ان اصلح من شأنه عندك وتلافى فقره ، الى درجة انك . . . ؟
اورغون — بحسبك هذا يا اخي : انت لا تعرف الذي تتكلّم عنه .
كليانت — لا اعرفه ، اذا اردتَ ؛ ولكن لنعلمَ على كل حال اي رجل يمكن ان يكونه . . .
اورغون — لو عرفته يا اخي للملك عليك لبّك ولما انتهى منه اعجابك . انه رجل . . . رجل . . . ها ! . . . رجل في النهاية . من يأخذ بارشاده ينعم بسلام عميق ، وتهون في عينه الدنيا هوان الدمنة (١) الحقيرة . اجل ، لقد تركتني احاديثه رجلاً

(١) الدمنة : آثار الناس وما سوّدوا

آخر ؛ علمني الا آتي بالمودّة الى احد ، وصرفني عن اقتناء الاصدقاء ؛ حتى لاري المنيّة تستأثر بالأخ والأولاد والأم والزوجة من دون ان تهتزّ احدى جوارحي.

كليانت — يا لهذه العواطف الانسانية يا اخي !

اورغون — ها ! لو كنت رأيت كيف قابلته لاظهرت له من صادق الود ما اظهر . في كل يوم كان يأتي الكنيسة في دماثة ولطف ويجلس على ركبتيه امامي . كان يجذب انظار المحفل اجمع بحرارة صلواته ؛ كان ينتحب ويملكه الوجد فيقبّل الأرض خاشعاً في كل اللحظات ؛ فاذا خرجتُ سبقني مبادراً ليقدّم اليّ الماء المقدّس على الباب . وإذ أعلمني غلامه الذي يحذو في كل شيء حذوه بفقره وبحاله التي كان عليها ، رحت اقدّم له العطايا ؛ ولكنه كان يردّ اليّ بعضها دائماً بحياء وأدب وهو يقول « هذا كثير ، نصفه يكفي ويزيد ؛ انا لا استحق رحمتك . » فاذا رفضت ان استردّ شيئاً ، جعل يوزّعه امام عيني على الفقراء . واخيراً اجتذبته لي السماء الى بيتي ، فبدا كل شيء منذ ذلك الوقت في يمن واقبال . ارى انه لا يخلي احداً من لومه ، وانه يُعنى عناية فائقة بزوجتي حفظاً لشرفي ؛ فهو يحذّرني الرجال الذين يصانعونها بأعينهم ، ويغار عليها اضعاف ما اغار . على انك ربما لم تصدّق الى اين ترقى غيرته الدينية : انه يخطّىء نفسه لاتفه الأسباب ، ويرى العار والفضيحة في أيسر الأمور ، حتى لقد بلغت به الحال أن رأيناه ذلك النهار يوسع نفسه لوماً وتبكيتاً على انه التقط برغوثاً وهو يصلي وعلى انه قتله بحدّة وغضب.

كليانت — يقيناً يا اخي ، انت مجنون . هل تسخر مني بمثل هذه الأحاديث ؟ وماذا تريد من وراء هذا المزاح كله . . .

اورغون — اني لأجد ريح الفسوق والضلال في كلامك يا اخي . اراك مولعاً بهما في نفسك قليلاً ؛ ولا بد ان يجرّا عليك حادثاً سيئاً كما انذرتك مراراً .

كليانت — هذا هو حديث امثالك المعروف . يريدون ان تعمى قلوب الناس مثلهم . فاسق من له عينان مبصرتان ، ولا حرمة ولا ايمان لمن لا يعبد زورهم ورياءهم . كلا ، ما كان لاحاديثك جميعها ان تخيفني قط . انا اعرف ما اقول والله يرى ما في قلبي . وما نحن لأصحابك المرائين بعبيد .
في الدنيا من يتكلف التقى كما فيها من يتكلف الشجاعة ؛ وكما ان الابطال المناوير

ليسوا اولئك الذين يملئون الدنيا جلبة وفخاراً ، فكذلك الاتقياء الصالحون الذين علينا ان نهتدي هديهم ونسير على آثارهم ليسوا اولئك الذين يملئون الأرض رياء ونفاقاً . واعجباً ! الا تلمس الفارق بين التقوى والنفاق ؟ هل تريد ان تتحدث عنها بلهجة واحدة ، فتكرّم الوجه المستعار تكريمك الوجه الأصيل ، وتعدل الأخلاص بالمكر وتخلط بين المنظر والمخبر ، وتقدّر الطيف قدرك الشخص ، وتسوّي بين الدرهم الصحيح والدرهم الزائف ؟ الحق ان اكثر الناس غريبون ! ابداً لا تراهم يماشون الطبع السليم ، وحدود العقل عندهم ضيّقة حرجة ؛ في كل صفة يتعدّون حدوده ؛ يبسطون ايديهم بالسوء الى انبل الأشياء ليتجاوزوها ويدفعوها امامهم .

اورغون — اجل ، لا شك انك يا اخي علامة محترم ، تجمّع فيك علم الأولين والآخرين ؛ انت الحكيم الأوحد والعالم المفرد ، انت فيلسوف العصر (١) ، ينطق بالقول الفصل . اما سائر الناس فجهلة اغبياء بالقياس اليك . .

كليانت — لست يا اخي علامّة محترماً ، وليست المعرفة وقفاً عليّ ولا حبيسة لأجلي . وغاية ما اعرفه هو بموجز القول : ان اميّز الحق من الباطل والخبيث من الطيب . واذا كنت لا ارى ارفع قدراً من الاتقياء الكاملين ، ولا انبل ولا اجمل في هذا العالم من الحماسة الدينية الصحيحة ، فانا كذلك لا ارى ابغض ولا احقر من ظاهر مداهن لورع كاذب ، من هؤلاء الدجّالين اتقياء الأسواق ، الذين ينتهكون بنفاقهم اقدس واشرف ما عند الأحياء ويسخرون به كما يشاءون ، لا وازع لهم ولا رقيب عليهم ؛ هؤلاء الذين انقادت نفوسهم للمنفعة فاتخذوا من التقوى حرفة واتّجروا بها ، وارادوا ان يشتروا الحظوة والدرجة العليّة بلمحات اعين كاذبة وتواجد مزوّر مصطنع ؛ اقول من هؤلاء الذين يهرعون بحماسة غريبة الى المال عن طريق الدين ، الذين يتحرّقون ويتوسّلون بالصلوات ويعظون الناس ويطلبون منهم وسط البلاط ان يعتزلوا الحياة ، الذين يعرفون كيف يوفّقون بين ورعهم ونقائصهم ، فهم غضاب حاقدون لا ايمان لهم قد أشربوا في قلوبهم المكرَ والخديعة ؛ تراهم اذا ارادوا سوءاً بانسان أخفوا موجدتهم ووحشيتهم سفاهةً وراء مصلحة الدين ؛ فيزداد خطرهم حين يعنف غضبهم بازدياد ما يتخذونه من اسلحة نكبرها

---

(١) الاصل : انت كاتون زمانك ، وكاتون هذا حكيم روماني

ونقدّسها ، وبقدر ما نميل شهواتهم التي اعتدنا ان نجلّها ونرتضيها الى الفتك بنا بالسنان المقدس . وانا لنرى كثيراً مثل هذا الخُلُق الذميم منهم . بيد أن اتقياء القلوب لسهل معرفتهم . ان عصرنا ليعرض عليك منهم يا اخي نماذج رائعة : انظر الى بريايندر ، الى اوورنت ، الى ألسيدام ، الى پوليدور ، الى كليتاندر ؛ ما من احد ينازعهم هذه الصفة ؛ ما منهم احد دعيٌّ بالفضيلة ولا حميل عليها . لا يلوح عليهم هذا الزّهو البغيض ؛ وورعهم شريف كريم وطيء(١) . لا يوجّهون الى أعمالنا لاذع اللوم : لأنهم يرون في هذا اللوم ادعاءً وعتوّاً كبيرين ؛ بل يتركون التفصّح والتشدّق لغيرهم ؛ فان يلوموا ويعظونا فبأعمالهم قبل اقوالهم . لا يبالون ظاهر الشرّ ، فقد ألهمتْ نفوسُهم ان تحسن الحكم على الآخرين . لا يعرفون ما المكيدة ولا يبيّتون المكر ؛ ترى كل همهم وعنايتهم في ان يعيشوا سعداء؛ ابداً لا يتعصّبون على الخاطيء ولكن على الخطيئة فحسب . يأبون ان يغالوا في الغيرة فينتصروا للسماء اكثر مما تريد هي منهم . هؤلاء حزبي ، وهذا ما يجب على المرء ان يفعله ، وهذه هي القدوة التي يجب ان نأتسي بها . اما صاحبك ، فالحق انه ليس على هذا المثال : وانما اطريتَ زهده ونسكه عن عقيدة نبيلة طيبة منك ، ولكنه قد سحرك على ما اعتقد ببهرج قوله وزائف نوره .

اورغون — سيدي الصهر العزيز ، هل قلت كل شيء ؟

كليانت — نعم .

اورغون — « يريد الذهاب » : استأذنك .

كليانت — لي كلمة ، من فضلك ، يا اخي . دعنا من هذا . انت تعلم انك اعطيت فالير كلمتك في ابنتك .

اورغون — نعم .

كليانت — ولقد ضربتم موعداً لزواج سعيد .

اورغون — صحيح .

كليانت — لماذا تؤجل الأحتفال اذن ؟

اورغون — لا اعلم .

كليانت — اتكون في رأسك فكرة اخرى ؟

---

(١) وطيء : سهل

اورغون — ممكن .

كليانت — أتريد ان تخلف وعدك ؟

اورغون — لم أقل هذا .

كليانت — ما من شيء يمنعك فيما اظن ان تفي بما وعدت .

اورغون — سنرى .

كليانت — هل تقتضيك كلمة تفوه بها هذا التدقيق كله ؟ لقد رغب الي فالير ان ازورك لهذا الأمر .

اورغون — الحمد لله على هذا !

كليانت — ولكن بماذا اخبره ؟

اورغون . بكل ما يرضيك .

كليانت — لكن من الضروري ان نعرف مقاصدك ، فما هي اذن ؟

اورغون — هي ارادة السماء .

كليانت — ولكن لنتكلم جادين . لقد وعدت فالير ، فهل تفي بوعدك ام لا ؟

اورغون — وداعاً .

كليانت — « وحده » - اني لأخاف على حبه(١) الشر . ويجب علي ان اطلعه على كل ما جرى .



(١) حب فالير

الفصل الثاني

المنظر الاول

اورغون ، ماريان

اورغون — ماريان .

ماريان — ابي .

اورغون — اقتربي ، عندي ما أسرّه اليك .

ماريان — عمّ تبحث ؟

اورغون « ينظر في غرفة صغيرة » — أنظرُ هل هناك مَن قد يسمعنا ؛ لأن هذا المكان الصغير عرضة للمفاجأة . حسن ، ها نحن في امان . لقد عرفت فيك دائماً يا ماريان روحاً وديعة ، وكنت عليّ دائماً عزيزة كذلك .

ماريان — انا مدينة لحبّك بالكثير يا ابي .

اورغون — لقد احسنت قولاً يا ابنتي . ومن اجل ان تكوني جديرة بهذا الحب يجب عليك الاّ تمنّيَ بغير رضاي .

ماريان — وهذا ما اضع فيه اسمى ما اطمح اليه من مجد كذلك .

اورغون — حسن جداً . ماذا تقولين في ضيفنا طرطوف ؟

ماريان — من ، انا ؟

اورغون — انت . فكري جيداً كيف تجيبين .

ماريان — وا اسفاه ! سأقول عنه ، انا ، كلّ ما تريد .

اورغون — هذا هو التكلم بعقل . قولي اذن يا بنيّتي إن الكفاية والفضل يتلألأان في شخصه كله ، وانه يقع من قلبك موقعاً حسناً ، وانه يسرّك ان تريْه باختياري زوجاً لك . ماذا ؟ « ماريان تتراجع مدهوشةً »

ماريان — ماذا ؟

اورغون — اي شيء ؟

ماريان — ماذا تقول ؟

اورغون — ماذا ؟

ماريان — هل اخطأت فهمك ؟

اورغون — كيف ؟

ماريان — عمن تريد يا أبي ان اقول إنه يقع من قلبي موقعاً حسناً ، وانه يسرني ان اراه باختيارك زوجاً لي ؟

اورغون — عن طرطوف .

ماريان — لا شيء من هذا يا ابت ، واقسم لك . لماذا تنطقني بمثل هذا المهجر ؟

اورغون — لكنني اريد ان يكون ذلك حقيقة واقعة ؛ ويحسبك أني رسمته وعقدت النية عليه .

ماريان — كيف ؟ اتريد يا ابي ؟ . . .

اورغون — نعم يا ابنتي، احب ان اصل بزواجك اسرتي بطرطوف . سيكون قرينك، لقد جزمت هذا الأمر ، وبما اني ، كما ترغبين ، أ . . . (١)

المنظر الثاني

دورين ، اورغون ، ماريان

اورغون — ماذا تصنعين هناك ؟ ان الفضول الذي يلح عليك لقوي ياصديقتي حتى جئت تتسمعين علينا على هذه الصورة .

دورين — في الحقيقة ، لا اعلم ، هل هو خبر يصدر عن ظن ام عن مصادفة . غيرانهم اخبروني بهذا الزواج فتلقيت الأمر على انه عبث محض .

اورغون — كيف ؟ هل الأمر مما لا يصدق ؟

دورين — الى درجة أني يا سيدي لا اصدقك فيه انت نفسك .

اورغون — اعرف جيداً كيف احملك على تصديقه .

دورين — نعم ، نعم ، انك تقص علينا حكاية مسلية .

اورغون — لا اقص عليكما الا ما سترياته بعد قليل .

---

(١) يلمح دورين تسترق السمع

دورين — خرافات !

اورغون — ليس ما اقوله لعباً يا ابنتي.

دورين — هيّا ، لا تصدقي اباك ابداً ، فهو يهزل .

اورغون — اقول لك . . .

دورين — كلا ، لن نصدقك مهما قلت .

اورغون — ان غيظي اخيراً . . .

دورين — خير ! نصدقك اذاً . وهو شرٌّ لك . ماذا ؟ هل من الممكن يا سيدي ، مع ما يبدو عليك من عقل ومالك من لحية عريضة في منتصف وجهك ، ان يبلغ بك الجنون أن تريد . . . ؟

اورغون — اسمعي . لقد تجاوزت حدّك في هذا البيت واصبح لك عليه بعض الدالّة التي لا ترضيني . أبيّن لك يا صديقتي ذلك .

دورين — لنتكلم غير غاضبين ، يا سيدي ، ارجوك . هل تسخر من الناس بمؤامرتك هذه ؟ مالابنتك والعابد الناسك ؟ إن له مشاغل اخرى فليفكر فيها . ذلك ، وما يجدي عليك مثل هـــذا الزواج ؟ لأي سبب تختار ، مع كل ما عندك من مال ، صهراً صعلوكا . . . ؟

اورغون — صه . اذا لم يكن معه شيء ، فاعلمي انه من هنا يجب ان يحترم . ان فقره ولا ريب هو فقر شريف لا يغضّ منه بل يرفعه فوق اعلى المراتب ؛ ذلك بأنه انما حرم ثروته لأهماله شئون الحياة الدنيا وتعلقه الوثيق بالامور الأبدية . غير انه قد يجد في معونتي وسائل تخرجه من حيرته وتعيده الى ثروته : ان له اقطاعاً وممتلكات كما يدعونها في البلد بحق ؛ وهو ، كما نراه ، نبيل ولا شك .

دورين — نعم ، ذلك ما يقوله هو ؛ وهذا الزّهو يا سيدي لا يلائم التقوى كثيراً . لا ينبغي لمن يستمسك بالحياة المقدسة ان يفاخر بلقبه ونسبه . ان اسلوب التقوي المتواضع لا يسمح بهرج هذا التسامي والطمع في الرفعة . ما نفع هذه الخيلاء ؟ .. لكن هذا الكلام يؤذيك : لنتكلم عن شخصه ولنترك وجاهته ونبله . أتُملّك رجلاً مثله فتاة مثلها من غير ان تُرهقها عذابا ؟ أليس ينبغي لك ان تفكر فيما يناسب وتنظر الى ما وراء هذا الاتحاد من عواقب ؟ هلا علمت أننا نخاطر بفضيلة فتاتنا حين تقاوم ذوقها في زواجها ، وأن انتواءها ان تحيا حياة شريفة منوط بصفات

الزوج الذي تمنحها اياه ، وأن الذين يلفتون نحوهم الانظار ويشار اليهم في كل مكان بالبنان يجعلون نساءهم في الغالب على ما نراهن عليه من سوء الحال . انه لمن الصعوبة بمكان ان تكون النساء وفيات لبعض الأزواج على مثال ما ؛ ومن يهب لفتاته رجلاً تبغضه يُسأل امام الله عما تقترفـــه من خطيئات . انظر الى اي المهالك يسلمك هذا العزم .

اورغون — اقول لكم ان علي ان اتعلم منها كيف اعيش .

دورين — ليس اقوم من ان تعمل بارشادي .

اورغون — لا ينبغي لنا ان نلهو يا ابنتي بهذا الهذر : اعلم ما يجب لك ، وانا ابوك . كنت اعطيت فالير كلمتي فيك ، ولكن ، فضلاً عما يشاع عن ميله الى المقامرة ، يخيل الي كذلك انه على شيء من الفسق لأني لم اره قط يتردد الى الكنائس .

دورين — اتريد ان يبادر اليها في اوقاتك المعينة ، مثل اولئك الذين لا يذهبون اليها الا ليراهم الناس ؟

اورغون — لا اطلب رأيك في ذلك . وأخيراً فالثاني خير الناس صلة بالسماء . وهو غني لا مثيل له . هذا الزواج سيغمر أمانيكما بالخيرات ، ستنهلان فيه من مسرات الحيـــاة وستملان . معاً ستعيشان ، في اشواقكما الوفية ، كطفلين حقيقيين ، كقماريين ؛ الى نزاع مكدر ابداً لا تصيران ، وستجعلين منه كل ما تريدين .

دورين — هي ؟ لن تجعل منه غير بليد احمق ، بالتأكيد .

اورغون — هاه ! اي كلام !

دورين — اقول ان له تصرف الاحمق وهيئته ، وان تأثـــيره على ابنتك يا سيدي سيتغلب على كل ما لها من فضيلة .

اورغون — أقصري عن مقاطعتي ، وفكري بالصمت ، ولا تضعي انفك فيما لا شأن لك به .

دورين — ما أردتُ فيما اقول الا خيرك يا سيدي .

« تقاطعه دائماً حين يلتفت ليكلم ابنته »

اورغون — هذا افراط في العناية وتجاوز ؛ أسكتي ، من فضلك .

دورين — لو لم أحبك . . .

اورغون — لا اريد حب احد .

دورين — اريد ان احبك ، يا سيدي ، بالرغم منك .
اورغون — آه !
دورين — شرفك عزيز علي ، ولا اطيق ان تتعرّض للذعات كل انسان ولمزاته .
اورغون — الن تسكتي ابداً ؟
دورين — وجداني لا يطاوعني فاتركك تقوم بمثل هذه المصاهرة .
اورغون — السكتين يا حية ؟ يا خبّاث . . . ؟
دورين — آه ! أتقي" وغضوب ؟
اورغون — اجل ؛ ان صبري ليرفض" امام هذااللغو الكثير ، واريد جازماً ان تخرسي.
دورين — ليكن . غير اني اذا لم اقل شيئاً فلست اقل تفكيراً في ذلك .
اورغون — فكري اذا شئت ؛ لكن اصرفي همك الى ألا تتحدّثي عما في ذهنك ابداً ؛ او... يكني . . . «يتجه الى ابنته» وإذ رُزقتُ الحكمةَ فقد نظرت في كل الأشياء واشبعتها تفكيراً .
دورين — اكاد أجن من اني لا استطيع الكلام « تسكت حين يدير رأسه اليها »
اورغون — ليس طرطوف بالشاب الأنيق ؛ ولكنه قد فُطر على صورة . . .
« يتحوّل اورغون الى امامها ، وينظر اليها وذراعاه مشبوكتان »
دورين — اما إنها لمحظوظة ! لو كنت في مكانها لما تزوجني رجل مرغمة من غير ان ينال جزاءه ؛ ولأريته عقب الاحتفال ان للمرأة نقمة حاضرة في كل" آن .
اورغون — « يخاطب دورين » ـ واذاً فانت لا تعبئين بقولي ؟
دورين — ما تشتكي ؟ انا لا اكلمك .
اورغون — ما تفعلين اذاً ؟
دورين — اكلّم نفسي .
اورغون « الى جانب » — عال . يجب ان ألطمها بيدي جزاء سفهها وتطاولها .
« يتهيأ للطمها ؛ ودورين قد انتصبت واقفة لا تتكلم حين يوجه اليها نظره »
يجب ان تستحسني عزمي يا ابنتي وان تعتقدي ان الزوج . . . الذي عرفت ان اختاره لك . . .
« يخاطب دورين » لماذا لا تحدثين نفسك ؟
دورين — ليس عندي ما اقوله .

اورغون — كلمة صغيرة كذلك .

دورين — لا احب ، انا .

اورغون — حقاً ، كنت اترصدك .

دورين — انها حمقاء في اعتقادي !

اورغون — واخيراً ، يجب عليك يا ابنتي ان توفّيني حقي من الطاعة ، وان تظهري امام اختياري هذا كل امتثال .

دورين — « هاربةً » — اهزأ كلّ الهزء بنفسي إن انا رضيت بمثل هذا الزوج .

اورغون (يريد ان يلكمها فتفوته) — ان معك هنا يا ابنتي وباءً يأثم من يعيش معه . احسّ اني لست الآن في حالة استطيع معها ان اتابع : لقد ألهبتْ بخبيث كلامها نفسي . سأخرج الى الهواء لأستشعر الراحة قليلا .

المنظر الثالث

دورين ، ماريان

دورين — خبريني ، هل نسيت الكلام ، وهل عليّ ان امثّل في هذا دورك ؟ اتسمحين لهم ان يعرضوا عليك نوايام الحمقاء ولا تدفعينها عنك ولو بكلمة صغيرة ! ؟

ماريان — ماذا تريدينني ان افعل امام اب مستبدّ ؟

دورين — ما يجب لتدفعي مثل هذا الاذى عن نفسك .

ماريان — كيف ؟

دورين — ان تقولي له إن القلب لا يحب قط عن طريق الآخرين ، وإنك تتزوجين لاجلك لا لأجله ، وان هذا الامر يعنيك انت ، فاياك يجب ان يعجب الزوج لا اياه ؛ فاذا كان طرطوف عزيزاً عليه فبمقدوره ان يتزوجه ولن يحول بينهما شيء .

ماريان — اعترف ان للاب علينا سلطاناً عظيما حتى اني لم آنس قط في نفسي القوة على التفوّه بشيء .

دورين — لكن لننعم النظر في الأمر . لقد تقدّم اليك فالير ، فارجو ان تخبريني أتحبينه ام لا ؟

ماريان — آه ! ما اشدّ ما تظلمين حبي ، يا دورين ! أيجوز لك ان توجهي اليّ مثل

هذا السؤال ؟ ألم افتح لك قلبي مئة مرة في هذا الموضوع ؟ الا تعلمين الى اين يبلغ هيامي به ؟

دورين — من اين لي ان اعلم ان لسانك ينطق بما في قلبك ، وان هذا الحب قد ملك منك القلب حقاً ؟

ماريان — تؤذينني كثيراً انتيا دورين بشكك ، فقد عرفت عواطفي الصحيحة كيف تبدو للعيان بقوة .

دورين — وفي الأخير ، فانت تحبينه اذن ؟

ماريان — حباً عظيما .

دورين — وهل يبدو لك أنه يحبك الحب نفسه ؟

ماريان — اعتقد هذا .

دورين — وهل تتحرقان كلا كما شوقاً الي ان يقترن احدكما بالآخر كذلك ؟

ماريان — بلا شك .

دورين — واذاً ، فما هو أملك في ذلك الزواج الآخر ؟

ماريان — ان انتحر اذا هم اقسروني عليه .

دورين — عال ! تستجيرين بما لم اكن افكر به ؛ ليس لديك مخرج من هذا المأزق غير الموت ؛ الدواء مدهش ولا شك . اختنق غيظاً حينما اسمع امثال هذه الألفاظ .

ماريان — يا آلهي ! في اي مزاج سوء ترتدين ! انك لا ترثين لآلام الناس .

دورين — لا ارثي ابداً لمن يفوه بالترهات فاذا جد الجد خارت قواه كما تفعلين .

ماريان — ولكن ماذا تريدين ؟ اذا كنت أخجل . . .

دورين — الحب يتطلب الحزم وثبات الجنان .

ماريان — ألم اظهر حزماً وثباتاً من اجل فالير وحبه ؟ أليس من واجبه هو ان يحصل عليّ من ابي ؟

دورين — كيف ؟ اذا كان ابوك شكساً جافياً ، يلعب به طرطوفه ويركبه ، وهو ينقض ما أبرم من امر زواجك ، فهل يجوز ان يعزى الذنب الى عشيقك ؟

ماريان — ولكن ، اأكشف في اختياري عن قلب واله هائم برفض جريء واحتقار شديد ؟ اأخرج من اجله ، مها برعت مناقبه ، عن خفر المرأة وعن واجب الفتاة ؟ وهل تريدين ان يشهر الناس حبي . . . ؟

دورين — لا ، لا ، لا اريد شيئاً . اري انــك تريدين ان تكوني للسيد طرطوف ؟ وعندما افكر في الأمر ارى أني اخطيء حين احاول ان اصرفك عن مثل هــذا الزواج . اي حق لي في مقاومة رغباتك ؟ الصفقة من اساسهـــا رابحة . السيد طرطوف ! أوه ! أوه ! اليس هذا الذي يعرضونه من الاهمية بمكان ؟ الحق ان السيد طرطوف ، اذا احسنا النظر في الأمر ، رجل رزين لا يعرف الخاليـــة ولا يفهم الشعوذة ، ولأن تكوني زوجه حظ غـــير ضئيل . ها هم الناس يتوجونه بالعز والفخار . نبيـل في بلده ، كريم في ذاته ؛ اذناه حمراوان ووجهه لامع نضير : ستعيشين مع مثل هذا الزوج في سرور وحبور .

ماريان — يا آلهي ! . . .

دورين — ما اشد فرحتك عندما ترين نفسك امرأة لهذا الزوج الرائع !

ماريان — أتصري ، ارجوك ، عن مثل هذا الكلام ، أمدّيني بعونك على مدافعة هذا الزواج . انتهى الأمر ، خضعت ، وانا على استعداد لأفعل كل شيء .

دورين — كلا ، على الفتاة ان تطيع أباها ولو اراد ان يمنحها القرد زوجاً . حظك جميل جداً : ما يشكيك ؟ ستذهبين في العجلة الى بلدته الصغيرة وسترينها حافلة بالأعمـام وابناء العم وستمتعين كثيــراً بمحادثتهم . سيزورونك الطبقة الراقية اولاً ، ستزورين (١) بمناسبة قدومك المدين زوجة الحاكم وزوجة القاضي ، وستشرفانك بأريكة تجلسين عليها . هناك ، في عيد المرفع الك ان ترجّي حفلات الرقص مع الفرقة الكبيرة ، اعني المزمارين والقردتاحوتين ، والشعب احياناً ، وذلك اذا كان زوجك...

ماريان — آه ! انك تميتيني ؛ احرى بك ان تفكري في اغاثتي بنصائحك .

دورين — انا خادمتك .

ماريان — ايه ! دورين ، رحمة . . .

دورين — يجب ان يقع هذا الأمر ، جزاءً لك .

ماريان — يا عزيزتي !

دورين — كلا .

ماريان — اذا كان ما اعلنته من رغبات . . .

(١) لاحظ السخرية في قولها : ستزورين . بدل سيزورك

دورين — ابداً : طرطوف زوجك ، وستستمتعين به .
ماريان — تعلمين اني افزع اليك دائماً ؛ فاجعليني . . .
دورين — كلا ، ستكونين ، في الحقيقة ، طرطوفيّة .
ماريان — خير ! اذا كان حالي لا يؤثر فيك ، فدعيني بعد الآن استسلم ليأسي : منه التمس العون وانا اعرف الدواء الناجع لآلامي « تريد ان تذهب »
دورين — هو لا لا ! عودي . عدلت عن حنقي . يجب ان ارحمك ، مهما يكن .
ماريان — ارأيت ، اذا هم عرّضوني لهذا العذاب العظيم ، فانا اقول لك يا دورين إنه يجب ان اموت .
دورين — لا عليك . من الممكن ان نمنع بلباقة . . . لكن ها هو فالير عشيقك .

المنظر الرابع

فالير ، ماريان ، دورين

دورين — أشيعَ يا سيدتي خبر لم اكن اعلمه ، وهو ولا شك خبر جميل .
ماريان — ما هو ؟
فالير — أنك تتزوجين طرطوف .
ماريان — صحيح أن والدي قد وضع في رأسه هذه النية .
فالير — ابوك ، يا سيدتي . . .
ماريان — قد غيّر رأيه : فانه عرّض علي هذا الأمر منذ هنيهة .
فالير — ماذا ! اتجدّين ؟
ماريان — نعم ، أجدّ . لقد كشف عن رأيه بصراحة في هذا الزواج .
فالير — وما هي النية التي عقدتِها ؟
ماريان — لا اعلم (١) .
فالير — الجواب مناسب . الا تعلمين ؟
ماريان — لا .
فالير — لا ؟

---

(١) احتدّت ماريان من سؤال فالير ، فنشأ سوء التفاهم وتفاقم من جواب الى آخر .

ماريان — بم تنصح لي ؟
فالير — انصح لك ان تأخذي هذا الزوج .
ماريان — بهذا تشير عليّ ؟
فالير — نعم .
ماريان — حقيقة ؟
فالير — لا شك . الاختيار عظيم ويستحق ان نعيره اذناً صاغية .
ماريان — حسن ! اتقبّلُ يا سيدي مشورتك .
فالير — لن تجدي مشقة ، على ما اعتقد ، في اتباعها .
ماريان — ليس اكثر مما عانيتَ في الادلاء بها .
فالير — انما ادليت اليك بها لأدخل السرور الى قلبك ، يا سيدتي .
ماريان — وانا سأتبعها رغبةً في ارضائك .
مورين — لنر ما يكون وراء هذا .
فالير — أهكذا يحبّ الناس ؟ وهل كنت تخدعينني اذاً حين . . .
ماريان — لا تتكلمّ عن هذا ، ارجوك . لقد قلت لي بصراحة إن عليّ ان اقبل ذاك الذي يريدون ان يقدّموه اليّ زوجاً ؛ وانا اعلن عن رغبتي في القبـــول ، لأنك كرُمت علي بهذه النصيحة النافعة .
فالير — لا تتذرّعي بنصائحي . لقد سبق ان عقدتِ نيّتك، وانت تتشبثين بحجّةٍ واهية لتسمحي لنفسك بنكث العهد .
ماريان — صحيح ، لقد عبّرتَ جيداً .
فالير — لا شك ؛ وان قلبك لم يشعر قط نحوي بحب اكيد .
ماريان — يا اسفِ ! التحرّ في تفكيرك .
فالير — نعم ، نعم ، انا حرّ ؛ ولكن نفسي التي آذيتِها ربما سبقتك في مثـــل هذا العزم ؛ وانا اعرف الى من أمد يدي واحمل رغباتي .
ماريان — آه ! لا اشك في ذلك ؛ ثم ان الحب الذي يثيره ما فيك من فضل وكفاية...
فالير — يا آلهي ! لندع الفضل والكفاية : لا شك ان حظي منها ضئيـل ، وانت على ذلك شاهدة . انا اعرف من تتفتح نفســها لتضمّني اليهـــا ولن تجد معابة في تعويض خسارتي .

ماريان = ليست الخسارة فادحة ؛ وستتعزّى عن هذا التحوّل بسهولة .

فالير = سأبذل جهدي ؛ لك ان تثق بذلك . ان القلب الذي بنسانا ليحرك فينا نخوة الكرامة فيجب ان نبذل كل جهدنا لنسيانه كذلك . واذا لم نصل في ذلك الى الغاية ، فيجب ان نتظاهر بالوصول اليها على الاقل . وانها لخسّة لا تغتفر ان نظهر الحب لمن يهجرنا .

ماريان = هذه العاطفة ولا شك ، نبيلة سامية .

فالير = سامية جداً ؛ وينبغي على كل انسان ان يقرّها . واعجبا ! اتريدين ان احتفظ لك بحرارة حبي الى الأبد ، وان اراك تصيرين امام عينيّ الى ذراعين آخرين ولا اضع في مكان آخر قلباً ترفضينه ؟

ماريان = على العكس : من جهتي ، هذا هو الذي اتمناه . وكنت اريد لو ان الأمر قد انتهى .

فالير = اتريدينه ؟

ماريان = نعم .

فالير = كفاني اهانة ، يا سيدتي ، وسأرضيك الآن « يخطو خطوة ليذهب ولكنه يعود دائماً »

ماريان = عال .

فالير = تذكري على الاقل انك انت التي اكرهتني على هذا المسعى الأخير .

ماريان = نعم .

فالير = وأن ما انتويته ما هو الا على غرارك .

ماريان = على غراري ، ليكن .

فالير = يكفي : سيكون ما اردت في الوقت المعيّن .

ماريان = حسن جداً .

فالير = انت ترينني ، هذا آخر العهد بيني وبينك .

ماريان = يا حبذا .

فالير = ماذا (١) ؟

---

(١) يتظاهر بسماع شيء

ماريان = ماذا ؟

فالير = الست تناديني ؟

ماريان = انا ؟ انت تحلم .

فالير = حسن ! اتابع اذاً خطاي . وداعاً يا سيدتي .

ماريان = وداعاً يا سيدي .

دورين = اما انا ، فارى انكما قد اضعتما وشدكما بهذا الهذيان . وانما تركتكما تختصمان كما تشاءان لأرى الى اين يصل هذا كله اخيراً . هولاً ! يا سيد فالير .

« تمسك بذراعه لتستبقيه وتتظاهر له بمقاومة شديدة »

فالير = ويحك ؟ ماذا تريدين يادورين ؟ دورين = تعال الى هنا .

فالير = كلا ، كلا ، لقد ملكني الغضب . لا ينبغي ان تصرفيني أبداً عن عمل ما اردته .

دورين = قف .

فالير = كلا ، هذا امر قد بت فيه

دورين = آه !

ماريان = رؤيتي تؤلمه وحضوري يطرده ، من الخير ان اترك له المكان .

دورين = « تترك فالير وتسرع الى ماريان » الى الأخرى ! الى اين تركضين ؟

ماريان = دعيني دورين = يجب ان تعودي .

ماريان = كلا ، كلا يادورين ؛ عبثاً تستبقينني .

فالير = ارى جيداً ان منظري عذاب لها يحسن ولا شك ان انقذها منه .

دورين « تترك ماريان وتبادر الى فالير » = كذلك ؟ ليأخذكما الشيطان ان انا تركتكما ! أتركا هذا المزاح وتعاليا الي هنا . « تجرهما »

فالير = ولكن ما قصدك ؟

ماريان = مادا تريدين ان تعملي ؟

دروين = ان اوفق بينكما وان التمس لكما مخرجا . امجنونان انتما فتعمدا الى هذا النزاع ؟

فالير = الم تسمعي كيف خاطبتني ؟

دورين = امجنونة انت حتى احتددت ؟

ماريان = الم تشهدي الأمر ، الم تري كيف عاملني !

دورين = غباوة من الطرفين . انها لا تعنى بغير ان تصون نفسها لك ، شهادة مني .

وهو لا يحب غيرك ، وأمنيته الوحيدة ان يصبح لك زوجاً ، اؤكد لك ذلك بحياتي.

ماريان = لِمَ يعطيني اذاً مثل هذه النصيحة ؟

فالير = ولم تطلبين نصيحتي في موضوع كهذا ؟

دورين = كلاكما مجنون . هات ، ليعطني كل منكما يده . هيا انتَ .

فالير « وهو يعطي دورين يده » = ما تفيد يدي ؟

دورين = آه ! انتِ ، يدك.

ماريان « وهي تعطي يدها ايضاً » = ما نفع هذا كله ؟

دورين — يا آلهي ! أسرعا ، تقدّما . انكما تحبّان بعضكما بعضاً اكثر مما تفكران .

فالير = لكن لا تُصّعي (١) كثيراً وانظري الى الناس قليلا من غير بغضاء .

« ماريان تدير طرفها الى فالير في ابتسامة خفيفة »

دورين = اقول لكما الحقيقة ، فالعشاق مجانين !

فالير = يا الله ! اليس من حقي ان اشكّي منك ؟ أصدقيني ، الم تتخابثي في سرورك بما قلت لي من امر محزن مؤلم ؟

ماريان = الم تكن ، انت ، اكثر الرجال عقوقاً . . . ؟

دورين = لنترك هذه المجادلة الى وقت آخر ، ولنفكر في ردّ هذا الزواج البغيض .

ماريان = خبرينا اذاً الى اي الوسائل نرجع؟

دورين = سنرجع الى كل الوسائل . ابوك يهزل وينطق بالأباطيل . ولكن يحسن بك انتِ ان تتظاهري بقبول لطيفٍ لحمقه ، ليسهل عليك في حالة الخطر ان تمطّلي (٢) هذا الزواج المعروض . اذا وجدنا الوقت الكافي فقد نتدارك كل شيء . فادّعي تارة ان مرضاً ما قد فاجأك فهو يقتضي فسحة من الوقت ؛ وادعي اخرى بتطيّرك بمصادفة ميتٍ او كسر مرآة او رؤية ماء وحيلٍ في المنام . وفي الغاية، ان احسن ما في الأمر انهم لا يستطيعون ان يزوجوك بغير فالير الا اذا وافقت وقلت : نعم . ولكن يلوح لي انه يُستحسن ليكون النجاح أضمن الا يراكما احد تتحدثان معاً ابداً . « تخاطب فالير » اخرج ، ووسّط اصحابك لتحظى بما وُعدت به ؛ سنوقظ جهود اخيه (٣) وسندفع الخالة (٤) الى جانبنا . وداعاً .

---

(١) لاتكوني صعبة (٢) تسوّفي (٣) اخي اورغون (٤) الير

فالير « يخاطب ماريان » = مهما تكن جهودنا جميعاً ، فان املي الاكبر في الواقع ، معقود بك .

ماريان « تخاطب فالير » = لا اضمن لك ارادة ابي ؛ غير اني لن اكون لأحد غير فالير .

فالير = كم تغمرينني بالسرور ! ومهما يجرؤ . . .

دورين = آه ! ابداً لا يمل العشاق هذرهم . اخرج، اقول لك .

فالير « يخطو خطوة ويعود » = اخيراً . . .

دورين = يا لكما من ثرثارين ! اذهبي من هذه الجهة ، وانت ، اذهب من تلك .

« تدفع كلاً منهما من كتفه »



الفصل الثالث

المنظر الاول

داميس ، دورين

داميس = لأسحق في الحال ، ولأعامل معاملة الوغل الدنيء في كل مكان ، اذا صدّني وقار او سلطان عن قصدي ، واذا لم اقم بأمر راعب جريء !

دورين = اتوسّل اليك ، بعض هذا الاحتداد : لم يزد ابوك على ان تحدّث بذلك تحدثاً. الانسان لا ينجز كلّ ما يدور في رأسه ، والطريق طويل بين النيّة وتحقيقها .

داميس = يجب ان اضع حدّاً لهذا التآمر ، وان القي في اذنه كلمتين في الأقل .

دورين = رويدك ، تمهل ! دع امره (١) لعناية خالتك ، كما نفعل فيما يختص بأبيك . ان لها بعض النفوذ عليه وهو يجاريها في كل ما تقول ، ويمكن جداً انه يشعر بميل اليها . ان شاء الله ان يكون هذا صحيحاً ! فسيكون شيئاً جميلاً . واخيراً فمصلحتك تقتضيها ان تستدعيه : وهي تريد ان تسبر غوره عن هذا الزواج الذي يقلقك وان تعرف ما يحيك في صدره ، ثم تعلمه بما قد يولّد من خصومات ضارّة اذا هو وصل بهذا العزم املاً . خادمه يقول انه يصلي ، ولم اتمكن من رؤيته ؛ غير ان هذا الخادم قال لي انه نازل . اذهب اذاً وارجوك ان تتركني انتظره .

داميس = استطيع ان اشهد هذه المحادثة .

دورين = ابداً . يجب ان يكونا وحيدين .

داميس = لن اقول له شيئاً .

دورين = انت تسخر ؛ نعرف هياجك المعتاد . هذه اصح طريقة لافساد الأمور ، اذهب .

داميس = كلا : اريد ان ارى من دون غضب .

دورين = ما اشدّ غيظك ! لقد جاء . انسحب .

---

(١) امر طرطوف

المنظر الثاني

طرطوف ، لوران ، دورين

طرطوف « وقد ابصر دورين » = لوران ، أشدد بالسوط قميصي واسأل الله الهداية على الدوام . اذا اتوا لسيروني ، فاني ذاهب اقسّم مال الصدقات على السجناء .

دورين = اي تصنّع واي صلف !

طرطوف = ما تريدين ؟

دورين = ان اقول لك . . .

طرطوف « يسحب منديلا من جيبه » = آه ! يا آلهي . ارجوك ، قبل ان تتكلمي خذي هذا المنديل .

دورين = كيف ؟

طرطوف = استري هذا الصدر الذي لا يمكنني ان اراه : بمثل هذه الاشياء تؤذى النفوس ، ان هذا ليثير الخواطر الآثمة .

دورين = انت اذن سهل على الغواية وللشحم على حواسك تأثير كبير ؟ لا اعرف حقيقةً اي حرارة تثيرك : غير اني لست سريعة الشهوة ، انا ، ولقد اراك عريان من الاعلى الى الأسفل من غير ان يغريني جلدك .

طرطوف = ليكن في كلامك شيء من الحشمة ، والا فاني منسحب في الحال .

دورين = لا ، لا ، انا التي سأتركك مرتاحاً ، وليس لي غير كلمتين اقولها لك . السيدة نازلة الى هذه الغرفة ، وهي ترجوك السماح لها ان تتحدّث اليك بكلمة .

طرطوف = وا اسفاه ! بكل رضى وسرور .

دورين « لنفسها » = كم يرقّ ! الحقيقة ، أنني دوماً على رأيي فيه .

طرطوف = أعن قريب تأتي ؟

دورين = اظن انني اسمعها . نعم ، هي بنفسها . اتركما معاً .

المنظر الثالث

المـــير ، طرطوف

طرطوف = لتمنحك رحمة السماء صحة الروح والجسم الى الأبد ، ولتبارك ايامك بقدر ما يتمنى لك اوضع اولئك الذين يلهمهم حبها .

المير = انا مدينة كثيراً لهذا الدعاء الشريف . ولكن لنأخذ كرسياً نستريح عليه .

طرطوف = كيف تجديتك الآن ؟

المير « وهي جالسة » = بخير ، لقد انصرفت الحمى منذ قليل .

طرطوف = ليست صلواتي اهلا لتستنزل هذا الفضل ؛ غير انني ما ابتهلت الى السماء ابتهالاً الا وهو يرمي الى شفائك .

المير = لقد اكثرت اهتماماً بي .

طرطوف = لا يمكن ان اكثر اعزاز صحتك الغاليـــة ، وبودّي لو اعيدهـا اليك ببذل صحتي .

المير = انك بذلك تدفع الخير المسيحي الى الأمام ، وانا مدينة لك بالكثير على كل هذا المعروف وحسن الالتفات .

طرطوف = ما افعله من اجلك اقلّ مما تستحقين بكثير .

المير = اردت ان اسارّك امراً ، ويسرني كثيراً ان لا احد هنا يترقّبنا .

طرطوف = وانا كذلك مسرور جداً ؛ ولا شك انه يا سيدتي يروقني ان اراني وحيداً معك ؛ تلك فرصة سألت الله ان يتيحها لي ، فلم يمنحها الى هذه الساعة .

المير = اما انا ، فما اريده هو حديث كلمة ، تفتح لي فيها قلبك ولا تكتمني شيئاً (١) .

طرطوف = وانا كذلك لا اريد من فضلك الذي لا مثيل له الا ان اكشف لك عن كل نفسي ، وان اقسم لك على ان الضجة التي احدثتهـــا عن الزيارات التي تتلقاهـا محاسنك (٢) ما هي نتيجـــة بغضاء لك ، بل هي من فرط الوداد الذي يدفعني ، ومن محض شعور . . .

---

(١) داميس يفتح خلسة باب الغرفة التي انسحب اليها فتحة صغيرة ليسمع المحادثة .

(٢) يتعمد المؤلف هذا الاسلوب المتكلف في حديث طرطوف .

الميز = انا ايضاً افسرها تفسيراً حسناً ، واعتـــقد ان سعادتي الابدية هي التي تثير اهتمامك هذا .

طرطوف « يضغط على طرف اصابعها » = اجل ، يا سيدتي ، من دون شك ، وان رعايتي الى درجة . . .

الميز = اوف ، لقد آلمت يدي بضغطك .

طرطوف = هذا فرط الود . لم ارد قط ايلامــك ، وكنت بالأحرى . . . « يضع يده على ركبتهــا »

الميز = ما تفعل يدك ؟

طرطوف = اتبيّن ثوبك ، نسيجه ناعم .

الميز = أه ! من فضلك ، دع ، الدغدغة تؤثر فيَّ كثيراً . « تبعد كرسيهــا وطرطوف يقرّب كرسيه»

طرطوف = يا آلهي ! ما اروع الصناعة من هذه الناحية ! انهم يعملون في ايــامنــا بصورة عجيبة ؛ ابداً لم نرهم من قبل يمهرون في كل شيء الى هذه الدرجة .

الميز = صحيح . ولكن لنتكلم قليلاً في قضيتنا . يقال ان زوجي يريد ان ينقض عهده ويعطيك ابنته . قل لي ، اصحيح هذا ؟

طرطوف = لقد حدثني بكلمتين عنه ، ولكنــه يا سيدتي ، اذا اردت الصدق ، ليس هذا بالسعادة التي احنّ اليهــــا ، واري في مكان آخر جواذب الهنــــاءة الرائعة التي اهفو اليهــا .

الميز = ذلك انك لا تحب شيئاً مما في هذه الحياة الدنيا .

طرطوف = ليس في صدري قلب من حجر .

الميز = اما انا ، فاعتقد ان زفراتك الى السماء تتوجّه ، وأنه ما من شيء في هذه الدنيا يستوقف رغبــاتك .

طرطوف = الحب الذي يربطنا بالمحاسن الخالدة لا يميت فينا الميول الفانية ، وحواسنــا سرعان ما تسحرها صنائع الله الــكاملة . ان جماله لينعكس في امثالك ، ولــكنه قــد استودعك اندر عجائبه : لقد افاض على وجهك بهاءً يبهر العيون ويأسر الألبــاب ؛ ولم استطع ان اصوّب نظري اليك ، ايتها المخلوقة الــكاملة من غير ان اعجب فيك رب العالمين ومن غير ان اشعر بقلبي يخفق بحب لاهب امــام اجمل التصاوير التي

يتجلّى فيها . لقد خفت اول بدء ان تكون هذه الرغبة الخفية مكراً ماهراً من الشيطان ؛ حتى لقد عزمت على ان اهرب من عينيك ، حين خيل الي انك عثرة في سبيل نجاتي . بيد أنني عرفت اخيراً ، ايتها المليحة الحبيبة ، ان هـذا الهوى يمكن الا يكون من الاثم في شيء ، وانني استطيع ان اوفّق بينـه وبين العفة والحشمة ، وهذا الذي يبعثني على ان اسلم قلبي اليه . اعترف ان جرأتي على تقديم قلبي اليك هي جرأة عظيمة . غير انني انتظر في رغباتي كل شيء من لطفك ومعروفك ، ولا شيء من جهود ضعفي ونقصي الباطلة ؛ فيك املي ، وفلاحي ، وراحة بالي ، عليك يتوقف عذابي او نعيمي ، واخيراً فسأكون بقرارك وحده سعيداً اذا شئت وشقياً اذا احببت .

المير = التصريح ظريف تماماً ، ولكنه ، في الحق ، مدهش . كان يجب ، فيما يظهر لي ، ان تسلّح قلبك على نحو احسن ، وان تتعقل قليلا في مثل هذا القصد . ان ناسكاً مثلك ، يذكرونه في كل مكان . . .

طرطوف = آه ! ان نسكي لا يغضّ من شعور الرجل في نفسي ؛ وحين تقع العين على مفاتنك السماوية يستسلم القلب ولا يبحث في شيء . اعلم ان مثل هذا الخطاب يبـدو مني غريباً ؛ ولكنني يا سيدتي ، بعد كل شيء ، لست ملاكاً ؛ واذا نكرتِ اقراري الذي لفظته ، فلتلومي محاسنك الجميلة فيه . فمنذ تلألأت امامي انوارهـــا العلوية اصبحت سيدة آمرة على نفسي ؛ ان عذوبة نظراتك السماوية التي لا توصف تغلبت على مقاومة قلبي العنيدة ؛ لقد انتصرتِ على كل شيء : على صيامي ، على صلواتي وعلى دموعي ، ولفتّ رغباتي كلها الى ناحية محاسنك . لقد حدثتك عينـاي وزفراتي بذلك الف مرة ، وأعمد الآن للساني زيادة في الايضاح . اذا انت تأملت بنفس حليمة شدائد عبدك الذليل ، اذا وجب ان تتفضل الطافك بتـخفيف آلامي وان تتنازل فتتضع الى وجودي الحقير ، فسيكون لي من اجلك دائماً ، يأيتها الأعجوبة الحلوة ، نسك منقطع النظير . لن يُضارّ شرفك معي أبداً ، وليس ثمة ما تخشـاه من طرفي . ان كل هؤلاء الظرفاء في البلاط الذين تجنّ بهم النساء هم صاخبون في اعمالهم ، عابثون في اقوالهم ، نراهم لا يفترون عن التباهي بما اصابوه من نجـاح ؛ وما نالوا خيراً الا نشروه ، فيدنسون بلسان طائش يأتمنه النساء المذبحَ الذي يضحي فيه قلبهم . ولكن الناس الذين من امثالنا يتحرقون بنار كامنـــة ، وانتن معهم مطمئنات دائماً على اسراركن . ان مراعاتنا لسمعتنا يضمن للحبيبة كل شيء ؛ فينـا



طرطوف : — وأخيراً فسأكون بقرارك وحده سعيداً
اذا شئت وشقياً اذا أحببت .

نحن انما نجد حين تتقبّل قلبنا الحب الذي لا تشوبه الفضيـــحة والسرور الذي لا ينغّصه الخوف .

الميز = اصغيت الى حديثك ، وقد اوضحت فصاحتك بعبارات قوية عما في نفسك .الا تخشى ان انقل لزوجي هذه الرغبة الملاطفة ، وان يكون اطلاعه السريع على حب في هذه الصورة سبباً لافساد الصداقة التي يحملها لك ؟

طرطوف = اعلم عظيم حلمك ، وانك ستغفرين لي تهـــوري ، وستلتمسين في ضعف الانسان لي عذراً على انفعالات حب لا يقع منك موقعاً حسناً ، وانك ستأخذين بعين الاعتبار حين تنظرين الى هيئتك ، أني لست اعمى ، وان الرجل من لحم ودم .

الميز = غيري قد يتلقى هذا الأمر على شكل آخـر ؛ ولكني اريد ان اكشف عن رصانتي . لن اتحدث بالأمر الى زوجي ؛ ولكنني اريد ، بالمقابل ، شيئاً منك : وهو ان تحث بصراحة ومن غير مماحكة زواج فالير من ماريان ، وان تعدل انت نفسك عن استغلال سلطة جائرة تريد ان تنعش املك على حساب رجل آخر ، و . . .

المنظر الرابع

داميس ، الميز ، طرطوف

داميس « وقد خرج من غرفة صغيرة كان قد توارى فيهـا » : = كلا يا سيدتي ، كلا ، هذا يجب ان يشيع . كنت في هذا المكان حيث استطعت ان اسمـــع كل شيء ؛ ويظهر لي ان رحمه السماء قادتني اليه لتخزي كبرياء خائن يضر بي ، لتفتح لي طريقاً للانتقام من نفاقه ومن وقاحته ، ولتزيل ضلال ابي ولتضع له في وضح النهـار نفس فاجر يحدثك عن الحب .

الميز = كلا ، داميس : يكفي ان يصير عاقلا ، وان يبذل جهده ليستحق العفـو الذي تعهدت به . لا تناقضني في هذا الأمر فقد وعدتُ به . وليس من طبـــعي اثارة الضوضاء : المرأة تهزأ بامثال هذه الحماقات . ولا تزعج بها اذني زوجها ابداً .

داميس = لك اسباب لتتصرفي على هذه الصورة ، ولي اسباب للعمل على صورة اخرى . في تجنيبه المكروه فكاهته ودعابة ؛ ولقد طال انتصار ما لورعه الكاذب من سفه الكبرياء على غيظي الحق ، واقام بيتنا واقعده . لقد افرط الخداع في توجيه ابي ،

وافسد علي وعلى فالير حبنا . يجب ان اصحح له رأيه في الخائن ، وقد قيّض لي الله طريقاً سهلة لذلك . فاشكره على هذه الفرصة السانحة ، وهي أنفس من ان افرّط فيها : والا فهو جدير ان يسلبنيها ، اذا هي حصلت في يدي ولم انتفع بها .

الميز = داميس . . .

داميس = كلا ، ارجوك ، يجب ان أفعل مايدور برأسي . ان روحي الآن في فيض من سرورها . عبثاً ترجو كلماتك ان تحملني على ترك لذة الانتقام لنفسي . اريد ان أنهي الأمر وهذا هو بالدقة ما يرضيني .

المنظر الخامس

اورغون ، داميس ، طرطوف ، الميز

داميس = سنزعج قدومك يا ابي بحادث جديد اذهلنا وحيّرنا . لقد كوفئتَ جيداً على ملاطفاتك الكثيرة ، وهـذا السيد يعترف بعطفك وحنانـك ويجزيك بها أوفى جزاء . لقد كشف عن حبه لك وغيرته عليك : اقل ما في الأمر انه يهتك حرمتك ويلوّث شرفك ؛ فاجأته وهو يبوح للسيدة بحبّه الاثيم . انها رقيقة الطبع ، يحملها الافراط في الرصانة على ان تحتفظ دونك بالسر ؛ ولكنني لااستطيع الا اترفق بمثل هذه الوقاحة ، واعتقد ان في كتمانك اياها اساءة اليك .

الميز = نعم ، اعتقد انه لا يجوز للمرأة ابداً ان تعكر صفو زوجها بباطل هـذه الأحاديث ، وأنه ليس على هذا يتوقف الشرف ، وانه يكفينا ان نعرف كيف ندافع عـن انفسنا : هـذا رأيي . ولو كان لي عندك يا داميس كلمـة مسموعة لما تفوهت بشيء .

المنظر السادس

اورغون ، داميس ، طرطوف

اورغون = هل يُصدَّق ، يأيتها السماء ، ماسمعته ؟

طرطوف = اجل ، يا اخي ، فانا شرير ، مجرم ، مذنب شقي ملآن بالخطايا ؛ بل اكبر

فاجر وجد على الزمان ؛ كل لحظة من حياتي مثقلة بالدنس والاوزار ؛ ماهي الا ركام من ذنوب وارجاس ؛ واری ان الله يريد ان يخزيني في هذه المناسبة جزاء ما كسبت يداي . ومها عظمت الجريمة التي قد ألام فيهـــا ، فانا لا اريد ان يكون لي كبرياء الدفاع عن نفسي منها . صدّق ما يقال لك ، إغضب ، أطردني كالمجرم من بيتك : فما ينزل بي من عار الا وانا استحق منه الزيادة .

اورغون « لابنه » — آه ! يا خائن ، أتتجاسر وتشين فضيلته العفّة بهذا الزور والبهتان؟

داميس — كيف ؟ هـــل يحملك ما تصطنعه هـــذه النفس المرائية من وداعة على تكذيب . . . ؟

اورغون — اسكت ، ايها الطاعون البغيض .

طرطوف — آه ! دعه يتكلم : انت تخطىء اذ تؤنّبه ، واولى بك ان تصدّق ما يقول . لماذا تكون معي على كل هذه السماحة في عمل كهذا ؟ هل تعلم ، بعد كل شيء ، ما انا به خليق ؟ هل تركن يا اخي الى ظاهري ؟ وهل تحسن الظنّ بي لما تراه من هيئتي ؟ كلا ، كلا : انك تنخدع بالمظهر ، وما انا بأقل مما يُعتقد بي ، مع الأسف ؛ كل الناس يحسبون اني رجل صالح ، ولكن الحقيقة الخالصة هي اني لا اساوي شيئاً . « يخاطب داميس » :

نعم يا ولدي العزيز ، تكلم : صفني بالخداع وبالفضيحة ، لقّبني بالضالّ ، باللص ، بالقاتل ، أثقلني بأكره من هذه الأسماء : فلن اناقضك في شيء ، لقد استأهلتها ؛ وأريد ان احتمل عارها راكعاً ، عاراً انزلته بي خطايا حياتي .

اورغون « لطرطوف » : — لقد افرطتَ يا اخي « لابنه » الا يخشع قلبك يا خائن ؟

داميس — كيف ؟ هل تفتنك كلماته الى درجة . . . ؟

اورغون — أسكت يا وغـــد « لطرطوف » : ايه ! يا اخي ، انهض ، ارجوك ! « يخاطب ابنه » يا دنس !

داميس — يمكنه . . .

اورغون — اسكت .

داميس — اكاد اختنق ! كيف ؟ تظنني . . .

اورغون — لئن نبَسْتَ بكلمة واحدة لأحطمنّ دراعيك .

طرطوف — سألتك بالله يا اخي ألاّ تحتدّ . أفضّل ان اقاسي العذاب على ان

يصيبه بسببي خدش بسيط .

اورغون « لابنه » — : يا لك من عاق !

طرطوف — دعه في سلام . اذا وجب ان اجثو على ركبتيّ لألتمس منك العفو له . . .

اورغون «لطرطوف» — يا أسف ! اانت تسخر ؟ «لابنه» : سوءة لك ! انظر طيب قلبه !

داميس — اذن . . .

اورغون — صه !

داميس — كيف ؟ انا . . .

اورغون — سكوت ، اقول ؛ انا لا يخفى عليّ السبب الذي يبعثك على مهاجمته : كلكم تبغضونه ؛ واری اليوم امرأتي وولديّ وخدّامي كلهم يتميزون غيظاً منـــه ؛ انكم لا تتورعون من استعمال كل شيء ضده بدون حياء لتنحّوا هذا الرجل العابد عن بيتي . ولكنني سأبذل الجهود لاستبقائه كلما بذلتموها لاستبعاده . سأسرع في منحه ابنتي إرغاماً لكبرياء أسرتي جميعاً .

داميس — اتظن انك تحسن اليه اذا قبلتَ يده [1] ؟

اورغون — نعم ، يا خائن ، وسيكون ذلك منذ هـــذا المساء اغاظةً لكم . آه ! انني أقتحمكم جميعاً ، وسأريكم أنني يجب ان اطاع وأنني السيد النافذ الكلمة . هيّــا ، اسحب كلامك ، ايها المحتال ، وألق نفسك بالحال على قدميه تترضّاه .

داميس — من ، انا ؟ هذا اللص ، الذي بخداعه . . .

اورغون — آه ! أترادد يا صعلوك ، وتوجه اليه الشتائم ؟ إبغوني عصاً إبغوني عصاً ! « لطرطوف » لا تحجزني . « لأبنه » هيـــا ، فلتخرج من بيتي لساعتك ، ولا تجسُرَنّ على العودة اليه .

داميس — نعم ، سأخرج ، ولكن . . .

اورغون — اعجل واترك المكان . احرمك يا وغد ارثي ، وأتبعك فوق ذلك لعنتي .

المنظر السابع

اورغون ، طرطوف

اورغون — يهين بهذه الصورة قديساً طاهراً !

---

(١) اشارة الى ان هوى طرطوف في الزوجة لا في الفتاة « المترجم »

طرطوف — يا آلهي ! تجاوز عنه فيما احدثه لي من الألم « لأرغون » لو علمت بأي حزن
اراهم يجتهدون أن يسوّدوا صفحتي عند اخي . . .

اورغون — واحسرتاه !

طرطوف — ان مجرّد التفكير بهذا الجحود يؤلم نفسي اشدّ الألم. مايعتريني من كراهة
له ونفور منه . . . ان قلبي من الانقباض بحيث اعجز عن الكلام ، ويلوح لي انني
سأقضي نحبي بسببه .

اورغون «يسارع باكياً الى الباب الذي طرد منه ولده» — يا نذل! يؤسفني ان يدي اشفقت
عليك ، ولم تصرعك من اول الأمر . استعد هدوءك يا اخي ولا تغضب .

طرطوف — لنضرب صفحاً عن هذا النزاع المكدّر . ارى ما اثيره في هـذا البيت من
بلبلة واضطراب ، واعتقد انه من الضروري يا اخي ، ان افارقه .

اورغون — كيف ؟ اتمزح ؟

طرطوف — انني مبغوض فيـــه ، وارى انهم يحاولون ان يهيجوا شكوكك في
صدقي واخلاصي .

اورغون — ماذا يهمّ ؟ هل ترى قلبي مصغياً اليهم ؟

طرطوف — لن يقصّروا في متابعة جهودهم ولا شك ؛ ولعل هذه الوشايات نفسها التي
انت الآن ترفضها تعود في مرة اخرى فتصغي اليها .

اورغون — كلا يا اخي ، ابداً .

طرطوف — آه ! ان المرأة يا اخي تستطيع ان تخدع زوجها بسهولة .

اورغون — لا . لا .

طرطوف — أسرع واتركني انتزع منهـم ، بابتعـادي عن هذا المكان ،
كلّ سبب للحملة عليّ .

اورغون — كلا ، ستبقى : فالأمر يتعلّق بحياتي .

طرطوف — خير ! واذن يجب ان اقهر نفسي . ومع ذلك ، اذا كنت تريد . . .

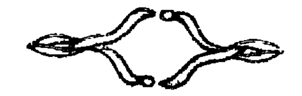
اورغون — آه !

طرطوف — ليكن ما تريد : لندع حديث هذا الأمر . ولكنني اعرف كيف يجب ان
اتصرّف بعد هذا . ان الشرف خطر وسريع التأثر ، والصداقة تقتضيني ان اتلافى
الضوضاء وابتعد عن مواضع التهمة . سأتجنّب امرأتك ، ولن تراني . . .

اورغون — كلا ، ستعاشرهــا وانف الجميع راغم . ختنقُ الناس غيظاً هو اكبر لذاتي ، واريد ان يروك معها في كل آن . وليس هــــذا فحسب : أريد ان اتحدّام جميعاً فلا ادع لي وريثاً سواك . وسأنزل لك لساعتي هذه ، وفق الأصول المرعية تماماً ، عن كلّ ما املك . ان صديقاً طيبـــاً مخلص الود اتخذه صهراً لهـــو اكرم عليّ واحب اليّ من الولد والزوجـة والأهل . الا تقبـــل ما اعرض عليك ؟

طرطوف — لتكن ارادة الله في كل شيء .

اورغون — يا للمسكين ! لنسرع في تحرير صك بهذا . وليهلك الحساد مكرهين صاغرين !



الفصل الرابع

المنظر الاول

كليانت ، طرطوف

كليانت — نعم ، كل الناس يلغطون بهذا الامر ، ولك ان تثق بما اقول . ليست فضيحة هذا الخبر بما يشرّفك، لقد رأيتك ايها السيد في الوقت المناسب لاصارحك رأيي بكلمتين . انا لا ابالي كلّ ما يعرضون ؛ بل اتخطاه واحمل الأمر على العكس. فلنفرض انّ داميس لم يحسن التصرّف ، وأنه أخطأ في اتهامك : أليس من شيمة المسيحيّ ان يتجاوز عن الخطيئة ، وان يكبت شهوة الانتقام في نفسه ؟ وهل ترضى ان يُطرد الولد في مخاصمتك من بيت ابيه ؟ اعيد عليك مرة اخرى واقول في صراحة : إنه ما من صغير ولا كبير الاّ تعاظمه الأمر وشقّ عليه ؛ واذا ركنت اليّ هدّأتَ الأمور ولم تزدها سوءاً . ضحّ لله بغضبك وأصلح ما بين الولد وابيه .

طرطوف — واأسفاه ! اما انا ، فأتمنّى من كل قلبي هذا الصلح : انا لا اكنّ له يا سيدي نفوراً ؛ اسامحه في كل شيء ، ولا اعتب عليه شيئاً ؛ وكنت احبّ من صميم فؤادي ان اسعفه ، لو لا انّ السماء لا يمكن ان ترتضي ذلك ؛ فاذا عاد الى هنا ، عليّ انا ان اخرج . ان الائتلاف فيما بيننا ، بعد عمله الذي لم يكن له من مثيل ، قد يجرّ الفضيحة : الله يعلم ماذا سيظنّ الناس في هـــذا الوفاق ! لعلّهم يعزونه الى محض المكر والدّهاء ، وسيقولون في كلّ مكان إنني أحسست بجريمتي فرحت اصطنع الحب واتكلّف الرضى على الذي يتّهمني ، وإنّ قـــلبي يخشاه ويحابيه املاً في حمله على السكوت .

كليانت — انك تنتحل لنا اعذاراً مختلقة ، وتتنطّع في حججك يا سيدي وتتكلّف. ما لك ومصلحة السماء ؟ هل هي في حاجة الينا لتجازي المجرمين ؟ دع لها ما يجب لانتقامها ؛ لا تفكّر بغير ما فرضته من العفو عن الاساءة ؛ ولا تلتفت ابداً الى احكام الناس اذا انت اتّبعت اوامرها السامية . واعجبا ! ايحول التفاتنا

السخيف الى ظنون الناس دون روعة العمل الطيّب ؟ كلاّ ، كلاّ ، لنعمل دائماً بما يأمر الله ولا نشغل بالنا بأيما شاغل آخر .

طرطوف — لقد ذكرت لك ان قلبي يصفح عنه ، وهذا يا سيدي هو العمل بما توصي به السماء ؛ ولكنها لا توصي ان اعيش معه بعد فضيحة هذا اليوم وعاره .

كليانت — وهل تأمرك يا سيدي ان تفتح أذنك لما يشير به على ابيه محض هوى عابر ، وان تقبل العطيّة التي يقدمونها اليك من مال يقتضيك الحق الاّ تطمع منه في شيء ؟

طرطوف — الذين يعرفونني لن يفكروا في انّ هذا هو عمل نفس طامعة . ان كل ما في هذه الدنيا من عَرَض لا يُغريني ، وبريقه الخلوب لا يَزهيني ؛ واذا انا عزمت على ان اقبل من الاب هــــذا العطية الـــتي اراد ان يقدّمها اليّ ، فذلك لأنني والحق يقال اخاف ان يقع هذا المال كله في ايد شريرة ، ان يصير الى اناس يستغلونه في العالم استغلالاً اثيماً ، ولا ينفقونه ، كما انوي انا ، لمجد السماء وخير الاقرباء .

كليانت — رويدك ، يا سيدي ، لا تكنْ لك هذه المخاوف الدقيقة التي تثير شكاوى وارث حقّ . لا تتضايق في شيء واسمح له ان يملك ثروته على مسئوليته ؛ إعلم ان تصرّفه فيها على غير وجهها افضل من ان يلومك الناس على ان زويت المال عن صاحبه . وإن أعجب فمن انك قبلت من غير حشمة ولا ربكة عرضه عليك ؛ ذلك بأنني السائل اخيراً : هل في احكام التقى الصحيح ان تبزّ الوارث الشرعي ماله ؟ واذا كانت السماء قد وضعت في قلبك عوائق لا تغلب في مساكنة داميس، فاليس الاولى بك وانت الرزين الاريب ، ان تنسحب بشرف من هذا المكان ، والا ترضى منهم هكـــذا ان يحيدوا عن كل صواب ويطردوا منه ابن البيت ؟ صدّقني ، انك بذلك تعطي عن اخلاصك يا سيدي ...

طرطوف — الساعة الثالثة والنصف يا سيدي ؛ ان فرضاً دينياً يطلبني في الاعلى ؛ اعذرني على تركك في الحال .

كليانت — آه !

المنظر الثاني

إلمير ، ماريان ، دورين ، كليانت

دورين — رحماك ، ابذل جهدك معنا لأجلها ، يا سيدي : ان نفسها تكابد عذاباً مميتاً ؛ ان الاتفاق الذي عقده ابوها لهذا المساء يشعرها باليأس في كل آن . انه آت . لنوحّد جهودنا ، ارجوكم ، ولنحاول ان نصرفه بالقوّة او بالحيلة عن هذه النيّة البغيضة التي اقامتنا جميعاً واقعدتنا .

المنظر الثالث

اورغون ، إلمير ، ماريان ، كليانت ، دورين

اورغون — ها ! ينشرح صدري بان اراكم مجتمعين . « لماريان » انني احمل في هذا الصك شيئاً يثير ضحكك ، وانت تعلمين ما يعني هذا .

ماريان — « على ركبتيها » يا ابي سألتك بالله الذي يعلم المي وبكل ما عساه ان يحرّك قلبك ، لمّا تخلّيت قليلاً عن حقوقك الأبوية ولما أعفيتني من هــذه الطاعة ؛ لا تُكرهني بهذه الشرعة القاسية على ان يبلغ بي الحال ان اشكو الى الله ما انا مدينة به اليك ؛ وهذه الحياة ، وا اسف ، التي منحتنيها لا تجعلها يا ابي منكودة تاعسة . اذا عاكستَ املاً حلواً كنتُ أثمّرهُ ، ومنعتني ان اكون لمن احب ، فأنقذني على الأقل بحلمك وكرمك اللذين اتضرّع اليهما على ركبتيك ، من عذاب أن اكون لمن أنفر منه وأمقته ، ولا تحملني على اليأس باستعمالك مطلق سلطتك عليّ .

اورغون «وقد احسّ بالحنان والعطف» : — ايها القلب كن حازماً ثبْتاً ، اياك وضعفَ الانسان .

ماريان — : ان تعلّقك به وحدّبك عليه لا يؤلمانني ابداً ؛ إجهر بهما ، امنحه مالك ، واذا لم يكفِ هذا فضمّ اليه مالي (١) كله : اوافق على ذلك راضية مختارة وأتركه لك ؛ ولكن لا تصل ، في الاقلّ ، الى شخصي ، وأذن ان يُبلي الزّهد في الدير ما قسمه الله لي من ايام تاعسة .

---

(١) اي مالها الذي ورثته عن امها

اورغون — آه ! هؤلاء تماماً عاداتي ، حين يحارب الاب لهاب غرامهن ! انتصبي ! كلما تكرّهت قبوله زدت جدارة به : اكبحي جماح عواطفك بهذا الزّواج ولا تقلقي رأسي اكثر مما فعلت .

دورين — لكن ماذا . . . ؟

اورغون — اسكتي ، انت ؛ خاطي من في زمرتك : أمنعك جازماً ان تنبسي بكلمة واحدة .

كليانت — اذا اذنت ان نجيبك ببعض النصح . . .

اورغون — ان لك اطيب ما في الدنيا من نصائح يا اخي ، انها معقولة جداً وانا أجلّها غاية الاجلال ؛ ولكن استأذنك الا اعمل بها .

إلمير — « لزوجها » عندما ارى هذا لا اعرف ماذا اقول ، وان عماك ليثير اعجابي : تكذيبنا في حادث اليوم معناه انك متأثر به كل التأثر ، وأنه يديرك كيف يريد .

اورغون — معذرةً ، انني احكم بالظاهر : اعرف مجاراتك ابني الخبيث ؛ خفت ان تستنكري منه الشّرك الذي ينصبه لهذا الرجل المسكين ؛ واخيراً فقد كنت أهدأ من ان تصدّقي ، ولو كان الأمر صحيحاً لظهر اضطرابك على نحو آخر .

إلمير — هل يستدعي اعتراف بسيط من حب هائج ان يثور شرفنا ويصخب ؟ الا نستطيع ان نجيب على كل ما يمسّه الا والنار في اعيننا والشتائم في افواهنا ؟ اما انا ، فانني اسخر بكل بساطة من امثال هذه الاحاديث ، ولا ترضيني الضجّة عليها بحال ؛ احب ان نظهر حكمتنا بلطف وحسن تأن ، ولست في شيء من هؤلاء الجفاة الذين يصطنعون الحشمة والذين يذودون عن شرفهم بالمخالب والأنياب ويريدون ان يشوّهوا لأتفه كلمة وجوه الناس : وقاني الله من حكمة كهذه ! اريد فضيلة غير شيطانية ، واعتقد ان برود رفض رزين لا يقلّ شأناً في رد القلوب .

اورغون — اخيراً ، انا اعرف الأمر ولا سبيل الى ان اغيّر شيئاً .

إلمير — اعجبُ ، مرة اخرى لهذا الضعف الغريب . ولكن ما تقول إن انا اريتك اننا انما ننهي اليك الحقيقة ؟

اورغون — تريني ؟

إلمير — نعم .

اورغون — كلام .

المير = كيف ؟ اذا انا وجدت وسيلة فاريتك عياناً ؟

اورغون = قصص في الهواء .

المير = يا لك من رجل ! أجبني في الأقل . لا أكلك في تصديقنا ؛ ولكن لنفرض الآن اننا اريناك من مكان ما كل شيء واسمعناكه بوضوح ، فماذا تقول حينئذ عن رجلك الصالح ؟

اورغون = في هذه الحالة ، اقول إن . . . لا اقول شيئاً ، لأن هذا غير ممكن .

المير = لقد اشتط بك الضلال اكثر مما ينبغي ، وانت بذلك تغالي في اتهام فمي بالخداع . يجب ان أشهدك كل ما يقال لك ، من قبيل التسلية ليس غير .

اورغون = ليكن : اوافق على اقتراحك . سنرى مهارتك . وكيف تستطيعين الخروج مما تضمنته .

المير = « لدورين » أحضريني طرطوف .

دورين = « للألمير » انه مكار خبيث ، قد يصعب خدعه .

المير = كلا : الانسان يخدع بمن يحب بسهولة ، والزهو والصلف يجران الى غش المرء نفسه . انزليه لي . « لكليانت وماريان » وانتما ، انسحبا .

المنظر الرابع

المير ، اورغون

المير — قدم هذه المنضدة ، واجلس تحتها .

اورغون — كيف ؟

المير — اختفاؤك جداً مسألة ضرورية .

اورغون — لماذا تحت هذه المنضدة ؟

المير — آه ، يا آلهي ! دعني اعمل . في رأسي قصد ، وستحكم عليه . اجلس هناك ، اقول : فاذا جلست فاحذر ان يراك وان يسمعك .

اورغون — الحق ان مسايرتي هنا كبيرة ؛ ولكن يجب ان نراك تخرجين من مشروعك .

المير — اظن انك لن تراجعني في امر . « تخاطب زوجها تحت المنضدة » :

سأمس موضوعاً غريباً على الأقل : لا تتنغص أبداً . يجب ان تسمح لي بقول كل

ما يمكن ان اقوله ، وذلك لاقنعك كما وعدتُ . سأحذّر اللثام عن هـــذا المنافق باللطف وحسن التأني ، فانا مضطرّة الى ذلك ؛ سأعلل رغبات حبـــه الداعر ، وسأفسح مجالاً رحباً لتهوّره . وبما انني انما اتظاهر بموافقة رغباته من اجلك انت وحدك ومن اجل ان اخزيه ، فسأكف حالمـا تقتنع ، ولن تصل الأمور الا الى حيث تريد . عليك انت ان تقف حبّه الطائش وتصون زوجتك وألا تعرّضها إلا لما يجب لتتبين خطأك : هـذا شأنك ، ستتصرف فيه كما تريد ، و . . . لقـد جاء . تهيأ ، وحاذر ان تظهر .

المنظر الخامس

طرطوف ، المير ، اورغون

طرطوف — أبلغوني أنك تريدين ان تكاميني في هذا المكان .

الميرــ نعم . لديّ اسرار ابوح لك بها ، ولكن جرّ هذا الباب قبل ان اقولها لك ، وانظر في كل مكان لئلا يفاجئنا احد . « طرطوف يغلق الباب ويعود » ان حادثاً شبيهاً بذاك الذي جرى منذ هنيهة ما هو بالتأكيد ما يجب لنا هنـــا . مثل تلك المفاجأة ما رُئي قط ؛ لقد اثار بي داميس اشد الخوف ، ولقدرأيتَ جيداً أنني بذلت وسعي لأفسد عليه خطته واهدّئ من ثورته . صحيح ان الأضطراب ملكني الى درجـة انه لم يخطر لي قطّ فكرةُ تكذيبه ؛ ولكن من هنا كان كل شيء بفضـل الله على احسن ما يرام وكانت الامور بذلك اكثر اماناً . ان الأحترام الذي يضمرونه لك قد بدّد العاصفة . لا يمكن ان تحوم حولك شبهة من زوجي . وهو يريد ان نكون معاً في كل آن (١) مبالغة منه في ازدراء المزاعم السيئة وضوضائها : بسبب هذا استطيع غير خائفة لوماً ان اختلي بك هنا ، وهـــو الذي يسمح لي ان افتح لك قلباً لعله عجل قليلا في تقبّل حبك .

طرطوف — هذا القول صعب على الفهم يا سيدتي ، فلقد كنت تتحدثين منذ هنيهـة بلهجة اخرى .

---

(١) في المنظر الاخير من الفصل الثالث يقول طرطوف : سأتجنب زوجتك . فيردّ عليه اورغون بقوله : « كلا ستعاشرها وأنف الجميع راغم . . . واريد ان يروك معها في كل ساعة » .

الميرـــ آه ! اذا كنت مغيظاً من مثل هذا الرفض ، فما اجهلك بقلب المرأة ! وما اقل علمك بما يريد افهامه حين يدفع عن نفسه بهذا الفتور الشديد ! في هذه اللحظات دائماً يكافح خفرنا ما يقدم الينا من لطيف العواطف . ومها يكن عذرنا فيما يسيطر علينا من حب فاننا لا بد واجدات دائماً في الاعتراف به بعض الخجل ؛ نأبى اولاً ونتمنع ؛ ولكننا نشعر بالهيئة التي نتخذها باستجابة قلبنا واذعانه ، وبأن فمنا يدفعه الشرف فيعترض امانينا ولكن من مثل هذه الصدود يرجى كل شيء . لا شك انني بهذا اقدم بين يديك اعترافا جريئاً ولا اراعي مقتضيات عفتنا الا قليلا ؛ وبما ان الكلمة في هذا قد افلتت مني اخيراً ، فأرجوك ان تخبرني : هل كنت أصر على منع داميس ، وهل كنت اصغي بكل رفق الى اسهابك في تقديم قلبك ، وهل كنت اتلقى الأمر على نحو ما رأوني افعل ، اذا لم يكن في تقدمة هذا القلب ما يسرني ؟ وحين اردت انا نفسي ان أجبرك على رفض الزواج (١) الذي اعلن منذ قليل ، فماذا عسى ان يفهمك هذا الالحاح اذا انت لم تفهم منه أنني وضعتك نصب عيني ، ولم تفهم ما يجره علي من شقاء هذا العقد الذي سيقسم في الأقل فؤاداً اريده لي جميعاً ؟

طرطوف ـــ ان سماع هذه الكلمات يا سيدتي من فم حبيب لهو لذة فائقة : وشهدها يسيل في جميع حواسي جرعات كبيرة من عذوبة لا عهد للناس بها . لسعادة رضاك غاية ما ابذل من جهد ، وفؤادي يلتمس غبطته الكبرى في اجابة رغباتك . غير ان قلبي يسألك الآن ان تعطيه الحرية في الأقدام على التشكك قليلا في سعادته . فلقد احسب هذه الكلمات حيلة شريفة لتضطرني الى نقض ما يتهيأ لي من زواج ؛ واذا وجب ان اعبر لك بصراحة عما في نفسي ، فانا لن اركن الى معسول الأحاديث مالم يؤكد لي جميع ما ذكرته شيء مما احن اليه من نعمك ، ويزرع في نفسي ثقة راسخة بما تضمرين لي من ساحر العطف والوداد .

المير «تسعل لتنبه زوجها» ـــ كيف ؟ أتريد ان تمضي بهذه السرعة وتنزح من اول مرة غرام قلبي ؟ اما إنني لأركب الصعب واكلف نفسي العناء لاقدم اليك اعترافاً سائغاً عذباً ؛ فهلا يكفيك هذا ايضاً ؛ الا يمكن ان نتوصل الى مرضاتك

---

(١) زواج طرطوف من ماريان ،

الا اذا بذلنا لك اقصى معروفنا ؟

طرطوف — كلما كان الانسان غير اهل لمعروف ضعف امله فيه . من الصعب ان تطمئن امانينا الى اقوال . وان الشكوك اتعرونا بسهولة في الحظ المجيد ، فلا تركن اليه الا بعد ان نستمتع به . اما انا الذي لا اعتقد الا قليلا بجدارتي بان انال عطفك ، فانني ارتاب بسعادة جرأتي (١) ؛ ولن اصدّق شيئاً يا سيدتي ان لم ترضي سعير حبي بالحقائق .

المير — يا آلهي ! كم يطغى حبك ويتحكم ، وفي اي همّ غريب يلقي بنفسي ! كم يتخذ على القلوب من شديد السلطان ، وكم يعنّف في الوصول الى ما يبتغيه ! واعجبا ! الا يمكن ان ندفع عن نفسنا مطاردتك ؟ الا تفسح لنا وقتاً لنتنفس ؟ هل يليق ان تأخذ بالقساوة البالغة ، وان تريد ما تريد بلا إجمال ولا احسان ، وان تسيء هكذا بجهدك الملحاح اغتنامَ الضعف الذي تراه في نفوس الناس من اجلك ؟

طرطوف — ولكن اذا كنت تنظرين الى طاعتي وتحياتي بعين سمحة عطوف ، فلم تأبين ان تقيمي لي الدلائل ؟

المير — ولكن كيف اوافق على ما تريد من دون ان ابوء بغضب السماء التي طالما لهجتَ بذكرها ؟

طرطوف — اذا لم يكن مانع لتحقيق رغباتي غير السماء ، فان ازاحة مثل هذا المانع يسيرٌ عليّ ، ولا ينبغي لهذا ان يحتبس قلبك ابداً .

المير — ولكنهم قد اخافونا كثيراً باحكام السماء !

طرطوف — في امكاني ان ابدّد لك هذه المخاوف المضحكة ، وانا عليم بفنّ ينزع الوساوس . حقاً ان السماء تحرّم علينا بعض المسرّات ، « فاسق داعر هذا الذي يتكلم (٢) » غير اننا نجد ما يؤمّن الوفاق معها ؛ فهناك علم يرخي من قيود وجداننا ، حسب مختلف الحاجات ، ويقوّم خطأ العمل بخلوص نيتنا ونقائها . على هذه الأسرار يا سيدتي يمكن ان اطلعك ، وما عليك الا ان تسلسي لي قيادك . أجيبي رغبتي ولا يداخلنّك الفزع ابداً : اضمن لك كل شيء ، واحمل الضرر على عاتقي . « المير تسعل بقوة » تسعلين بشدة يا سيدتي ؟

---

(١) يتعمد المؤلف في حديث طرطوف هذا الاسلوب (٢) المؤلف

المير — نعم ، انا في عذاب .
طرطوف «يقدم الى المير لفافة من ورق» — : هل لك في قطعة من رُب (١) السوس ؟
المير — انه زكام مستعص ، ولا شك ، وارى ان كل عصير العالم لا يغني هنا شيئاً .
طرطوف — في الحق ان هذا مؤسف .
المير — نعم ، اكثر مما تعبّر الكلمات .
طرطوف — وفي النهاية ، ان وسواسك تهون ابادته : لك ان توقني هنا بالكتمان التام ، وما الشر الا بضوضائه ؛ وشيوع الفضيحة في الناس هو الخطيئة ، ولا معصية في معصية السر .
المير «وقد سعلت مرة اخرى» :- واخيراً ارى أنه يجب ان أجمع على القبول، يجب ان اوافق على اجابة كل ما تريد ، وارى انه ليس لي في اقل من هذا ان ازعم انك (٢) راض ، وأنك قنعت وسلّمت . لا شك انه يسوءني ان اصل من الامر الى ذلك ، واذا انا تجاوزته فمضطرة كارهة ؛ ولكنك باصرارك على اكراهي عليه ، وبامتناعك من الركون الى كل ما يقال ، وبما تريد من بيّنات اضمن واوثق ، تشعرني ان لا محيد لي عن ان اوطّن نفسي على القبول وعلى إطابة خواطر الناس. اذا كان في هذا القبول خطيئة ما ، فالخسران والتثريب على الذي دفعني الى هذه المعصية ؛ ولا يجوز ان يقع الذنب ولا شك عليّ .
طرطوف — اجل يا سيدتي ، احتمله انا ؛ والأمر في ذاته . . .
المير — افتح الباب قليلاً ، وارجوك ان تتحسّس من زوجي في هذا المشى .
طرطوف — ما حاجتك الى التحفظ منه ؟ فيما بيننا ، هذا رجل نقوده من انفه الى كل ما نريد . انه ليفخر باحاديثنا كلها ، وقد وصلت به الى درجة انه يرى كل شيء من غير ان يصدّق شيئاً (٣) .
المير — وان يكن : اخرج لحظة ، ارجوك ، وانظر بدقة في كل مكان في ظاهر الغرفة .

---

(١) الرُّب : خثارة العصير (٢) ظاهر الخطاب الى طرطوف وحقيقته الى اورغون الذي بقي ساكناً في مخبئه (٣) اثنى احد النقاد على موليير لأنه لم يغفل السخرية من سذاجة اورغون بلسان « أخيه المقدس » سخرية قد تؤثر في نفسه اكثر من تعرض طرطوف لزوجته .

المنظر السادس

اورغون ، إلمير

اورغون «يخرج من تحت المنضدة» — : اعترف لك ، هذا رجل قبيح ! لا تنقطع حيرتي وذهولي ، وكل هذا يوسعني ألماً .

إلمير — عجباً لك ! اتخرج بهذه السرعة ؟ اتهزأ بالناس ؟ عُدْ تحت البساط ، لم يَحِن الوقت بعد ؛ انتظر الى الأخير لتتثبت في الأمر ، لا تركن الى سانج الظنون .

اورغون — كلا ، ما خرج من الجحيم شرٌ من هذا .

إلمير — يا آلهي ! لا ينبغي للانسان ان يصدق بخفة وطيش . دعك تقتنع جيداً قبل ان تسلّم ، ولا تعجل ابداً فتنخدع . «تضع زوجها وراءها»

المنظر السابع

طرطوف ، المير ، اورغون

طرطوف «وهو لا يرى اورغون» — كل شيء يا سيدتي يشارك بنصيب في ارضائي : لقد جلت بنظري كل هذه الشقة ؛ لا احد فيها ؛ وان نفسي الجذلى . . .

اورغون — مهلا ! اسرفت في مطاوعة هواك ، وما كان ينبغي لك ان ترخي لغرامك العنان . آه ! آه ! يا رجل التقى والصلاح ، تريد ان تغدر بي وتخدعني ! كم تستنيم نفسك الى الشهوات ! كنت تتزوج ابنتي وتطمع في امرأتي ! لقد طالما ارتبت بصحة هذا ، وكنت اظن دائماً انك ستغيّر لهجتك (١) . ولكن الدلائل قد اندفعت الى الامام بصورة كافية : حسبي هذا ، لا اريد ، انا ، زيادة على ذلك .

المير «لطرطوف» — : انما قمتُ بهذا كلّه خلافا لطبيعتي ومزاجي : ولكنهم ارادوني على معاملتك هكذا .

---

(١) يبين اورغون هنا مادعاه الى طول الانتظار . فقد بلغت ثقته بطرطوف أن خيل اليه أنّ الأمر لا يعدو أن يكون نوعاً من اللعب والمزاح ، وأن طرطوف سيعود فينطق بالجدّ .

طرطوف — عجباً لك ! اتصدّق . . . (١) ؟

اورغون — هيّا ، من دون ضوضاء ، ارجوك . ارحل عن هذا البيت ، ومن غير إحفال ولا اكرام .

طرطوف — قصدي . . .

اورغون — هذه الأحاديث ليست في وقتها ؛ يجب ان تغادر البيت عاجلاً في الحال .

طرطوف — عليك انت ان تغادره (٢) ، انت الذي تتحكم وتتأمّر . البيت يخصّني ؛ سأعلن الأمر ، ولأريّنّك ان لا طائل في الالتجاء الى هذا الروّغان الدنيء لتبحث عن نزاع معي ، وأنك لست حيث تفكر اذ تسعى الي بالأهانة ، وأن لدي ما أخزي به الخداع وأؤدّبه، (٣) ما انتقم به للسماء التي تغضبها ، وما يحمل الندامة الى اولئك الذين يتكلمون هنا باخراجي .

المنظر الثامن

المير ، اورغون

المير — ما هذا الكلام اذن ؟ وماذا يعني به ؟

اورغون — الحقيقة ، انا في حيرة وارتباك ، وليس في الأمر ما يضحكني .

المير — كيف ؟

اورغون — ارى خطئي فيما يقوله لي ، ان نزولي له عن اموالي يهوّش فكري .

المير — عن اموالك . . .

اورغون — نعم . هذا امر انتهى . ولكنّ هناك امر آخر كذلك يقلقني .

المير — وما ذاك ؟

اورغون — ستعلمين كل شيء . ولكن لننظر بالمعجل اذا كان في الاعلى صندوقة باقية .

---

(١) طرطوف يبذل جهداً اخيراً لستفيد من سذاجة اورغون . (٢) قبل ان يلفظ طرطوف هذه الجملة نراه يلازم الصمت اولا ، ثم يأخذ معطفه ويعتمر قمته ويسير نحو الباب . هناك ، يلتفت ويُحدّ النظر الى اورغون ، ثم يقذف بصوت لاذع بهذه الكلمات : عليك انت ان تغادره . . (٣) اشارة الى الصندوقة التي سيجيء ذكرها في الفصل التالي .

الفصل الخامس

المنظر الاول

اورغون ، كليانت

كليانت — الى اين تسرع ؟

اورغون — يا ويلي ! ما يدريني ؟

كليانت — يلوح لي انه يجب ان نبدأ فنتشاور فيما يمكن عمله في هذا الحادث .

اورغون — تلك الصندوقة توسعني هماً ، بل انها لتحمل اليأس الى قلبي اكثر من سائر الأمر .

كليانت — هذه الصندوقة اذن سر خطير ؟

اورغون — هي امانة استودعنيها في تكتم عظيم ارغاسُ بنفسه ، ذلك الصديق الذي ارثي لحاله (١) . لهذا فقد وقع اختياره عليّ عند هربه . انها اوراق ترتبط بها حياته واملاكه ، على ما قاله لي .

كليانت — ولمَ اذن تركتها ليدين أخريَين ؟

اورغون — كان ذلك بسبب مشكل وجداني : ولقد ساررت به خائني رأساً بلا ابطاء ؛ فأقنعني ان الافضل ان اعهد بها اليه ، ليكون لي من الانكار مخرج معين فيما اذا تُحرى البيت ، وبذلك يكون ضميري آمناً مطمئناً اذا انا انكرت الحقيقة وأقسمت لهم انها ليست في حوزتي .

كليانت — هأنتذا في حالة سيئة ، اذا انا اخذت بظاهر الأمر ، في الأقل . وان نزولك له عن مالك وثقتك هذه به ، اذا صارحتك بشعوري ، هما تصرفان طائشان . قد يكلفك عسيراً مع هذه الرهون ؛ ثم ان اثارتك اياه ، مع ما يملك من امرك، حمق آخر منك . وكان عليك ان تلتمس وسيلة أوطأ من هذه .

اورغون — كيف ؟ تحت ظاهر جميل من الحماسة الدينية المؤثرة ، يخفي قلباً ماكراً ونفساً خبيثة ! وانا الذي آويته في كنفي سائلا صعلوكاً لا يملك من

(١) لانه محكوم عليه

شيء ....! انتهى الأمر ، انني لأزهد في جميع الاخيار : وسأحمل لهم بعد الآن مقتاً راعباً شنيعاً ، ولأكونن لهم شراً من شيطان .

كليانت — حسن ! هذه غضباتك ! ما من شيء تحتفظ فيه بمزاج لطيف رضي ؟ في جادة الصواب ابداً لا يسير عقلك ، فما تنفك متنقلا من تفريط الى افراط . انت ترى خطأك ، ولقد عرفت انك كنت خدعة تقي مفتعل ؛ ولكن ما الذي يدعوك في اصلاح نفسك الى ان تتهافت في سقطة اكبر ، والى ان تلبس (١) قلوب الأتقياء الصالحين جميعاً بقلب خوان اثيم ؟ واعجبا أفان مكر بك خبيث مذق اللسان (٢) بجرأة وراء بهرج فخم من ملامح عابسة كاذبة ، أفأنت تزعم ان الناس في كل مكان على شاكلته ، وان ليس في الدنيا دين صادق ؟ اترك للفاسقين هذا الاستنتاج السخيف ، ميز بين الفضيلة وظواهرها الكاذبة ، لا تجازف ابداً بحكمك ولا تتسرع ، واتخذ بين ذلك مكاناً وسطاً : حاذر اذا استطعت ان توقر الخداع والنفاق ، ولكن اياك ان تنتقص الورع الصحيح كذلك ؛ فان كان ولا بد من شطط وافراط ، فاحرى بك ان تخطىء من تلك الجهة الاخرى (٣) .

المنظر الثاني

داميس ، اورغون ، كليانت

داميس — ماذا ؟ احق أن هذا اللص يتوعدك يا ابي ؟ وأنه ما من فضل الا محاه من قلبه ، وان كبرياءه اللئيمة التي تستحق كل مقت وسخط تتخذ من فواضلك سلاحاً عليك ؟

اورغون — اجل ياولدي ، واني لاشعر من ذلك بآلام لا مثيل لها .

داميس — دعني ، اريد ان اجدع له اذنيه الاثنتين . لا ينبغي لنا ان نلين امام سفهه وتطاوله ؛ علي انا ان أريحك منه بضربة واحدة ، يجب ان أقضي عليه لنتخلص من الأمر .

كليانت — هذا كلام اليافع الغرير بالضبط . هدىء من فضلك هذا الهيجان الصاخب :

(١) تخلط (٢) مذق اللسان : كذوب (٣) لاحظ كيف يجامل المؤلف الاتقاء هنا لتجنب نقمتهم «المترجم»

نحن نعيش في ظل مملكة وفي زمن يعود فيه استعمال الشدة على مصالحنا بالأذى.

المنظر الثالث

السيدة پرنيل ، ماريان ، إلمير ، دورين ، داميس ، اورغون ، كليانت

السيدة پرنيل = ماذا ؟ لقد بلغتني اسرار مخيفة !

اورغون = تلك طرائف شهدتها عيناي ، وأنت ترين بم كوفئت على عظيم خدماتي. لقد ضممت الي باخلاص رجلاً بائساً ، آويته واتخذته لي أخاً ، وكنت اثقله كل يوم بأياديّ البيضاء : اعطيته ابنتي وكتبت له جميع ما املك ؛ وفي الوقت نفسه ، كان هذا الخائن يحاول العزم الآثم ، يحاول ان يغوي زوجتي ، ولم يكتف كذلك بمحاولته الدنيئة ، فهو يجترئ على ان يتهددني بما احسنت به اليه ، ويريد لهلاكي ان يستعين بميزة له علي قلدته اياهــا ايادي الطائشة ، ان يطردني من ارزاقي التي آويته فيها ، وأن يردّني الى الحالة التي انتزعته منها .

دورين = يا للمسكين !

السيدة پرنيل = لا استطيع ابداً يا ولدي ان اصدّق انه اراد ان يرتكب جريمة بهذه الفظاعة .

اورغون = كيف ؟

السيدة پرنيل = ما زال رجال الخير محسَّدين .

اورغون = ماذا تعنين اذن بكلامك ، يا امي ؟

السيدة پرنيل = أن من في بيتك يحيون حياة غريبة ، وانا اعرف جيداً ما يحملون له من بغضاء .

اورغون = ما صلة هذه البغضاء بما يقال لك ؟

السيدة پرنيل = قلت لك مئــة مرة حينما كنت صغيراً : ان الفضيلة في الدنيا معذّبة دائماً :

ولقد يموت الحاسدون وليس ينقطع الحسد

اورغون = ولكن ما صلة هذا المقال بامور اليوم ؟

السيدة پرنيل = انهم يخلقون لك مئة حكاية سخيفة عنه .

اورغون = قلت لك إنني رأيت كل شيء بعيني .
السيدة پرنيل = ان خبث النمامين لعظيم .
اورغون = ستهلكينني يا اماه . اقول لك إنني رأيت بأم عيني جريمة شنعاء .
السيدة پرنيل = للألسن دائماً سموم تنفثها ، وما من شيء في هذه الدنيـا يستطيع ان يدفعها عن نفسه .
اورغون = انت تتناولين حديثاً لا روية فيه ولا تفكير . اقول لك رأيته ، رأيت ، بأم عيني رأيت ، أعني رأيت : امن الواجب ان اعيده على مسامعك مئة مرة ، وان أصيح صياح اربعة رجال ؟
السيدة پرنيل = ان الطبيعة عرضة للظنون الخاطئة ، وانما يفسّر الخير بالشر على الأكثر .
اورغون = يجب ان افسّر بالخير الرغبة في معانقة زوجتي ؟
السيدة پرنيل = لهتك الناس وفضيحتهم ، ينبغي ان يكون بين يديك اسباب حق ، وكان عليك ان تنتظر ريثما تتوثّق في الأمور .
اورغون = يا للشيطان ! والسبيل الى ان اتوثّق فيها اكثر من ذلك ؟ كان يجب اذن يا أم ان انتظر ان اراه امامي . . . ستحمليني على ان افوه بالخطل .
السيدة پرنيل = واخيراً فنحن نرى له نفساً هائمة صادقة في ورعها . وانا لا استطيع ان أمرّ في فكري ابداً أنه اراد ان يحاول ما تذكرون .
اورغون = كفى ، لو لم تكوني أمي لمـا عرفت ما كنت اقوله لك ، لقد ملكني الغضب .
دورين — « لأورغون » تحوّلٌ عدلٌ يا سيدي في امور هذه الدنيا : كنت تأبى ان تُصدّق ، وهي بدورها لا تصدّقك .
كليانت = نضيع في الترّهات اوقاتاً يجب ان نبذلها في اتخاذ الحيطة وحسن التدبّر . ينبغي الاّ نغفل ابداً عن وعيد هذا الوغد اللئيم .
داميس = كيف ؟ اتبلغ وقاحته هذا الحد ؟
إلمير = اما انا ، فلا اعتقد ان هذه الدعوى ممكنة ، فليس فوق هذا الجحود جحود .
كليانت = لا تطمئنّي الى هذا ، ستكون له وسائل يجوّز بها جهوده عليكم . أن وطأة الدسائس لتقلق النـاس بأقل من هذا وتربكهم في وعر المشاكل . واعود فأقول : ما كان ينبغي لكَ ان تثيره الى هذا الحد ، وفي يده هذا السلاح .

اورغون = صحيح ، ولكن ما اصنع ؟ امام غرور هذا الخائن لم املك شعوري .
كليانت = لَوَدِدْتُ من صميم فؤادي لو انهم استطاعوا ان يصلحوا ما بينكما بظلّ من الوفاق .
إلمير = لو علمتُ ان بين يديه مثل هذه الاسلحة لما اوسعت مجالاً لكل هذه المخاوف ، و...
اورغون «لدورين» = ما خطب ذلك الرجل ؟ أسرعي واعلمي خبره . انا تماماً في حالة أزار فيها !

المنظر الرابع

السيد لويال ، السيدة برنيل ، اورغون ، داميس ، ماريان ، دورين ، المير ، كليانت .

السيد لويال — نهارك سعيد يا اختي (١) العزيزة ؛ أتأذني لي ارجوك ، في مخاطبة السيد .
دورين — هو في اجتماع ، واشك في انه يستطيع الآن رؤية احد .
السيد لويال — لا اريد ان أثقل عليكم هنا . لن يكون في مجيئي ما يسوءه ، على ما اعتقد . وانما جئت في امر يسرّه .
دورين — اسمك ؟
السيد لويال — قولي له إنني قد أتيت لخيره من قبل السيد طرطوف فقط .
دورين «لأورغون» — هذا رجل جاء في لطف وايناس ، وقد اوفده السيد طرطوف ، في امر يقول إنه يسرك .
كليانت — يجب ان ترى ما شأن هذا الرجل وما عساه ان يريد .
اورغون — لعله جاء يصلح ما بيننا . اي شعور اظهر له ؟
كليانت = لا ينبغي ان يَظهر له شيء من نفورك وانقباضك ؛ واذا تكلم عن الوفاق فيجب ان تصغي اليه .
السيد لويال = السلام يا سيدي . اهلك الله عداك ، وبلّغك مناك ، بقدر ما اتمنى لك .
اورغون = هذا المدخل اللطيف يلائم حكمي ، ويبشّر من الآن بالوفاق .
السيد لويال = لقد كانت اسرتك دائماً عزيزة علي ، وكنت خادماً للسيد ابيك .

(١) كان طرطوف يدعو اورغون اخاه وداميس ابنه ، وهذا مندوبه يدعو دورين أخته !

اورغون = سيدي ، يخجلني كثيراً الا اعرفك والا اعرف اسمك ، ارجو عفوك.

السيد لويال = اسمي لويال ، « ومعناه : شريف» [1] ، من ابناء نورمانديا ، واقوم بوظيفة «مباشر ذي عصا» [2] برغم انف الحسود . ويسرني أني امارس اعباءها بكثير من الشرف منذ اربعين عاماً بفضل الله . اتيتك يا سيدي ابلّغك اذا اذنت ، دعوى من قرار ما .

اورغون = كيف ؟ انت هنا . . . ؟

السيد لويال = كفكف غضبك يا سيدي ! ما هـو الا انذار رسمي ، امر باخلاء المكان ، منك وممن يليك وبأن اضع متاعكم خارجاً ، واوسع مكاناً لآخرين ، من غير مطل ولا ابطاء ، كما تقضي به الحاجة ...

اورغون ـــ انا ، اخرج من هنا ؟

السيد لويال ـــ نعم ياسيدي ، اذا احببت . البيت الآن ، كما تعـلم ، يخص السيد الطيب طرطوف بلا جدال . هو السيد الحاكم من الآن وصاعداً على اموالك ، بموجب صك انا حامله : وهو مستوفي الشروط ، لا مجال لأحد ان يعترض عليه .

داميس ـــ في الحق ان هذه الوقاحة عظيمة وانا بها معجب .

السيد لويال ـــ ايها السيد ، ليس لي اقل علاقة بك : إن شغلي مع ابيك : انه عاقـــل ووديع ، وهو اعلم بواجب الرجل الطيب من ان يريد بحال مقاومة العدالة .

اورغون ـــ ولكن . . .

السيد لويال ـــ اجل يا سيدي ، انا اعلم أن مليوناً لا يغريك بالعصيان ، وأنك ستسمح لي كما يفعل الرجل الشريف ، أن انفّذ هنا الأوامر التي تلقيتها .

داميس ـــ لا يبعد يا سيدي المباشر ان تجرّ العصا هنا على ثوبك الأسود .

السيد لويال ـــ مر ابنك ان يسكت او ينسحب يا سيدي . والا فانا آسف لاضطراري ان اكتب ، ولأن اراك مسجلا في صورة الدعوى .

دورين ـــ هذا السيد شريف ظاهره غير شريف !

السيد لويال ـــ اني اعطف على رجال الخير والصلاح كثيراً ، ولم أحبب ان آخـذ على عاتقي تبليغ هذه الأوامر يا سيدي الا لأسرّك ولأسدي اليك معروفا ، الا لاحـول

---

(١) « ومعناه : شريف » ليست في الاصل ، وفيما يأتي من كلام الخادمة دورين سبب هذه الزيادة.

(٢) مأمور التنفيذ تقريباً

دون انتدابهم لهذه المهمة رجلا لا ينطوي على مثل ما يدفعني من عوامل المودة لك فيذهب معك مذهباً غير لطيف

اورغون — وهل هناك اسوأ من ان يؤمر الناس بالخروج من ديارهم ؟

السيد لويال — لديك مهلة ، فأنا اؤجلك الى الغد ، لانجاز الأوامر يا سيدي . غير أني سآتي الى هنا فأقضي الليل مع عشرة من رجالي بلا فضيحة ولا ضوضاء . يجب ان تأتيني حسب الاصول المرعية بمفاتيح بابك قبل النوم من فضلك . سأبذل وسعي لئلا أكدّر راحتكم ولن اسمح بشيء غير مناسب . ولكن عليكم في الغد ، منذ الصباح الباكر ، ان تظهروا رشاقة وخفـــة في إخلاء البيت حتى من اصغر متاع . سيساعدكم رجالي ، وقد اخترتهم اقوياء لينهضوا بخدمتكم ويضعوا كل شيء خارجاً . ليس في المستطاع افضلُ من معاملتي هذه على ما ارى ؛ ثم انني ارجوكم ان تبادلوني ما في معاملتي من مسامحة عظيمة وألا تزعجوني في القيام بما تقضي به وظيفتي .

اورغون — «الى جانب» ان نفسي لتطيب عن مئة من اجمل ما بقي معي من الريالات في الحال، لو انني استطيع ان اضرب هذا الخائن بجمع الكف اقوى ضربات ممكنة .

كليانت — دعه ، لا تفسد الأمور .

داميس — امام هذه الجرأة الغريبة يصعب عليّ ان املك نفسي ، وان يدي لتحكّني .

دورين — مع ظهر حسن جداً كهذا ، في اعتقادي يا سيد لويال ، لا بأس عليك من بضعة عُصيّ .

السيد لويال — لا نعجز عن مجازاة هذه البذاءة يا صديقتي ، وليست النســاء بمفازة من العقاب .

كليانت — لننه هذا كله ياسيدي : كفى ؛ هات هذه الورقة بالعجل، من فضلك واتركنا.

السيد لويال — الى الملتقى . اسبغ الله عليكم الهناء والسرور جميعاً .

اورغون — اخزاك الله واخزى من ارسلك !

المنظر الخامس

اورغون ، كليانت ، ماريان ، الميرْ ، السيدة برنيل ، دورين ، داميس

اورغون — حسن ، أنت ترين يا امّ اذا كنت محقاً ، ويسعك ان تحكمي مع ذلك

من هذه الدعوى : فهل عرفت اخيراً غدره وخيانته ؟

السيدة برنيل — لقد اعتقل لساني دهشاً ، ولكأني اخرّ من السحاب !

دوورن « لاورغون » — تخطىء اذ تتشكى ، وبغير الحق توبخه ، فهذا ما يتفق ومراميه الدينية . ان فضيلته لتبلغ كمالها في حب القريب. انه يعلم ان المال طالما افسد الانسان فهو يريد ان ينتزع منك ، بدافع من الاحسان الخالص ، كل ما عسى ان يقف عثرة في سبيل نجاتك .

اورغون — اخرسي : هذه هي الكلمة التي يجب ان توجه اليك دائماً .

كليانت — « لاورغون » هيا ننظر بأي نصيحة يجب ان تأخذ .

الميرِ — اذهب وافضح جرأة هذا الناكر للجميل . هذه الوسيلة تبطل مفعول الصك . ستبدو خيانته اخسّ من ان يؤذن له بان يصيب ما يؤمل من نجاح .

المنظر الخامس

فالير ، اورغون ، كليانت ، الميرِ ، ماريان ، السيدة برنيل ، داميس ، دورين

فالير — يؤسفني ياسيدي أن جئت بما يحزنك ؛ ولكن اراني مكرهاً بخطر دام . ان رجلا من اخص اصدقائي يعرف اهتمامي بكم فأفشى لي بلباقة سراً رسمياً ، وقد بث اليّ إعلاماً من شأنه ان يحملك على الهرب من فورك . الخبيث الذي استطاع ان يبسط نفوذه عليك زمناً طويلا قد شكاك منذ ساعة الى الأمير ، ووضع بين يديه،في جملة ما رماك به من نبال ، صندوقة هامة تخص مجرماً تطارده الحكومة ، وقال انك احتفظت بسرها الآثم غير عابىء بواجب الرجل نحـــو سيده . لا علم لي بتفاصيل الجريمة التي يعزونها اليك، ولكن امراً صدر ضدك، وقد كُلّف هو بنفسه ان يرافق الموكل بالقبض عليك ، لضمان المجازه على الوجه الأكمل .

كليانت — هاهي حقوقه تمدها القوة ؛ من هنا يحاول الخائن الذي يدّعي بحقـــه في ارزاقك ان يستولي عليها .

اورغون — اعترف ان الرجل حيوان رذيل !

فالير — ان ايسر ابطاء قد يضرّ بك اضراراً عظيما . عربتي على الباب لتذهب بك ، وقد جئتك معها بالف ريال . لا نضيع وقتا ابداً : ان سهمه لنافذ ، وهو من النـــوع

الذي انما نتقيه بالفرار . اقدّم لك نفسي لاقودك الى مكان امين ، واريد ان ارافقك في هربك حتى النهاية .

اورغون — كم انا مدين لأياديك البيضاء ! وسأردّها لك شاكراً في وقت آخر ؛ وارجو الله ان يوفقني لأ كافئــك ذات يوم على جميلك هـــذا . الوداع . لتعنوا انتم الآخرون . . .

كليانت — اسرع : سنفكر يا اخي بعمل ما يجب .

المنظر السابع

مفوّض الشرطة ، طرطوف ، فالير ، اورغون ، المير ، ماريان
السيدة برنيل ، دورين ، كليانت

طرطوف — مهلاً قليلاً يا سيدي ، مهلاً ، لا تسرع : لن تذهب بعيــداً في التماس مأواك ، فانت سجين الأمير .

اورغون — يا خائن ، كنت تدّخر لي هذا السهم للاخير : هذه هي الطعنة التي تقضي بها عليّ ايها الفاجر الأثيم ، وهأنت تتوّج بها كل خياناتك .

طرطوف — ليس في سبابك ما يستطيع ان يثيرني ، وقد تعلمت ان اتحمــل كل شيء في سبيل الله .

كليانت — الاتزان عظيم ، اعترف .

داميس — في اي سفه يتلاعب الخبيث بالدين !

طرطوف — لن يكون لثــوراتكم كلهــا ان تهيجني ، ولا افكر في غـــير القيام بواجبي .

ماريان — ان لك ان ترجو من هـــذا مجداً عظيما ، فالقيام بهـــذه المهمة شرف كبير لك .

طرطوف — لا يمكن لهذه المهمة الا ان تكون شريفــة حين تصدر عن السلطة التي بعثتني الى هذه الأماكن .

اورغون — ولكن هل تذكّرت ان يدي قــد احسنت اليك ايهــا النا كر الفضل ، وانتزعتك من البؤس والشقاء ؟

طرطوف — نعم ، اعرف ما تلقيت منها من معونات ؛ ولكن مصلحة الامير هي واجبي الأول ؛ ان شدّة هذا الواجب المقدّس العادلة لتخنق في قلبي كل شكران ، وانا اضحي لمثل هذه الروابط القوية بالصديق والزوجة والاهل وبنفسي معهم .

المير — يا للمنافق !

دورين — ما امكر اساليبه وما اعلمه بالاستخفاء وراء الحجج الجميلة يتخذهـا من كل مقدّس كريم !

كليانت — ولكن اذا كان ما تتباهى به من الغيرة على اميرك من الكمال بحيث تدّعي ، فما الذي اوجب ألا تظهر هذه الغيرة إلا بعد ان باغتك اورغون وانت تحاول الوصول الى امرأته ، وألا تفكر بالوشاية به إلا بعد ان اضطرّه شرفه الى طردك ؟ ما كنت لأذكر منحه اياك كل ما في يده لألفتك عن الوشاية ؛ ولكنك اذ تريد ان يُعامـل هذا اليوم معاملة المجرم فلماذا رضيت ان تأخذ منه شيئاً ؟

طرطوف « للمفوّض » : خلصني يا سيدي من هـذا الصخب ، وتفضل بتنفيـذ امرك ، ارجوك .

المفوّض — نعم ، لقد تأخرتُ كثيراً عن تنفيذه ولا شك : لقد دعوتني للقيـام به في الوقت المناسب ؛ إتبعني لذلك بالحـال الى السجن الذي أعطيتـه مأوىً لك .

طرطوف — من ؟ انا يا سيدي ؟

المفوّض — نعم انت .

طرطوف — لماذا السجن اذاً ؟

المفوّض — لستُ اريد ان ابيّن لك الأسباب . « يخاطب اورغون » : هـدّئْ يا سيدي روعك من هذا الخوف العظيم . نحن نعيش في رعاية امير يكره الخداع، امير تُفهم ينفذ بعينيه الى اعمـاق القلوب فلا يؤخذ بشيء مما للمخادعين من مكر ودهاء . وقد حباه الله بصيرة وقادة تلقي على الامـور دائماً نظرات سديدةً اريبةً . فمـا من شيء يُزيفها ، ولا يتورّط عقله الحصيف في ظلم ابداً . يولي رجال الخير براً باقياً ، ولكنه لا يظهر هذه الحماسة لهم من غير هدى وتمييز ، فحبه لرجال الخير الحقيقيين لا يصدّه عن علم ما يقترفه الادعيـاء الكاذبون . وما

كان لهذا (١) ان يغرّر به وهو الذي امتنع على فخاخ ادقّ وامكر . لقد خلص الأمير ببارع فهمه من اول الأمر الى مافي طوية هذا الرجل من نذالة ولؤم . لقد اختال نفسه من حيث جاء يلصق بك التهمة ، وكشف للامير ، بنبل من نبال العدالة الألهية ، أنّ في برديه خائنة (٢) مشهوراً ، وكان قد خبّر عنه بغير هذه الصفة ؛ وهذا بيان مفصّل من فظائع يمكن ان تؤرّخ في مجلدات . لقد استقبح المليك بوجز القول عقوقه الدنيء وبغيه عليك . واضاف هذا العمل الى سلسلة فظائعه ، ولم يأمرني بطاعته الى هذا الحد الا ليرى كيف تنحط الوقاحة الى اسفل دركاتها ، ثم ليحملك بواسطته على خطّة فتجزم امرك وتنهي ما بينك وبينه . اجل ، اجل ، لقد امرني ان اجرّد الخائن بين يديك من كل اوراقك التي يزعم انه صاحب الحق فيها . ثم انه ابطل بما له من سلطة مطلقة قيودَ ذلك الصك الذي علّكه جميع ارزاقك ؛ واغتفر لك اخيراً هذه الخطيئة المكتتمة التي أزلّتك فيها نفيُ صديقك ؛ ذلك ما يكافئُ به على سابقتك في دعم حقوقه بولائك وغيرتك (٣) ، ليُعلَمَ أنه يعرف كيف يُجزل الثواب حتى حين لا يخطر لنا على بال ، وأنه ما كان ليبخس الجدارة والفضل حقها ابداً ، وأنه أذكرُ للخير منه للشر .

دورن — الحمد لله !

السيدة برنيل — الآن اردّد انفاسي .

المير — نتيجة طيبة !

ماريان — من كان يجرؤ على التحدّث بهذا !

اورغون «لطرطوف» — جميل! هأنتذا يا خائن . . .

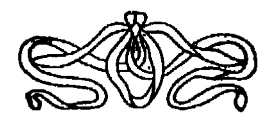
كليانت — على رسْلك (٤) يا اخي ، توقّف ، ولا تنحدر الى امور لا تليق بالحرّ الكريم ؛ دع الشقيّ وحظّ العاثر . حسبه وخزات ضميره تُرهقه وتُضنيه ، فلا تكن لها عوناً فتزيدَه غماً على غمّ ؛ وأحرى بك ان تتمنّى له أن يتخذ قلبُه في هذا النهار سبيله السعيد الى احضان الفضيلة ، وأن يقوّم سيرته

---

(١) يشير الى طرطوف (٢) صيغة مبالغة من خائن (٣) راجع المنظر الثاني من الفصل الأوّل (٤) مهلا ، اتئد

بتكرّه رذيلته ، ولعلّك تستطيع ان تخفّف وطأة عدالة الأمير حين تتوجّه اليه وتجثو بين يديه شاكراً رحمته ولطف معاملته .

اورغون — نعم ، لقد أحسنتَ قولاً : هيا نبتهج ونظهر على قدميه رضانا وشكرنا على ما حبانا به من جميل الأحسان . وبعد ان نوفيّ بعض ما لهذا الواجب الأول علينا ، فلنقم بما يقضي به واجب آخر ، ولنكافئ بزواج سعيد أوار حب كريم صادق في فالير .



النساء العالمات

لموليير

اشخاص الرواية

كريزال : — ربّ اسرة شعبية حسن الحال .
فيلامنت : — زوجة كريزال .
أرماند :
— ابنتا كريزال وفيلامنت .
هنريت :
آريست : — اخو كريزال .
بيليز : — اخت كريزال .
كليتاندر : — عشيق هنريت .
تريسوتان : — احد المتحذلقين .
فاديوس : — عالم .
مارتين : — خادمة .
ليبين : — خادم .
جوليان : — خادم فاديوس .
كاتب عدل .
الحوادث تجري في باريس

الفصل الاول

المنظر الاول

ارماند ، هنريت

ارماند — عجباً لك ! أترغبين يا أختاه عن جميل اسم «الفتاة» وما فيه من حلاوة وظرف ، وتجرئين على الاغتباط بزواجك ؟ أيكون لهذه الامنية الوضيعة ان تدور في رأسك ؟

هنريت — نعم يا أخت .

ارماند — هذه النعم هل تطاق ؟ أيمكن ان يُصغى اليها من غير ألم ؟

هنريت — أيّ شيء في الزواج يحملك يا اختاه على ... ؟

ارماند — أه ! يا آلهي ! أفٍّ لكِ !

هنريت — كيف ؟

ارماند — أه ! اقول افٍّ لك ! ألا تدركين اي شيء كريه يسوقه الى الذهن لفظ كهذا حالما يجري به اللسان ، وبأي صورة غريبة عساه ان يؤذي النفس ، والى اي منظر دنس يجرّ الفكر ؟ ألا ترتعدين لذلك ابداً ؟ أتستطيعين ان توطّني النفس على نتائج هذه الكلمة ؟

هنريت — نتائج هذه الكلمة عندما اتصوّرها تريني زوجاً واولاداً وبيتاً ؛ واذا جاز لي ان ابحث في الأمر فاني لا ارى شيئاً يؤذي النفس وتُرعد له الاوصال.

ارماند — يالله ! ايكون لهذه العلاقات ان ترضيك ؟

هنريت — وماذا تصنع الفتاة في سنّي خيراً من ان تربط اليها في صفة الزوج رجلاً يحبها وتحبه ، وان تتذوّق بهذا الاتحاد المشفوع بالمودّة والحنان لذادات حياة بريئة ؟ أليس لهذا الرباط الموفّق طلاوة وجاذب ؟

ارماند — يا آلهي ! ما احط مستوى فكرك ! ما أحقر الدور الذي تلعبينه على مسرح هذا العالم اذ تحبسين النفس على شئون البيت ، واذ تقصرين النظر على زوج كالصنم

وأولاد كاللعب ! فهلا تركت الى اجلاف الناس ودهمائهم شواغل منحطة من هذا القبيل . الى اغراض اعلى فلتسمُ همتك ؛ فكري في تذوق لذات انبل ، احقري الحواس والمادة ، واستسلمي للفكر مثلنا استسلاما . ان لك من امنا قدوة حسنة يشرّفها الناس باسم العالمة في كل مكان . حاولي مثلي ان تكوني ابنتها بحق ، وكوني ميالة الى تلك الوداعة اللطيفة التي يسكبها في القلوب الشغفُ بالمطالعة . لا تكوني أمَة يستعبدها الرجل بقوانينه ويستذلها ، وتزوجي يا اختاه الفلسفة التي ترفعنا على الناس وتمنح العقل السلطان الاكبر ، بما تُخضع لقوانينها الجانب الحيواني الذي تحطّنا منه الشهوة الرعناء الى مقام البهائم . ذلك هو الغرام الجميل ، تلك هي العلاقات الحلوة التي يجب ان تشغل ايام الحياة . ان ما يشغل به كثير من النساء انفسهن ليبدو لي من الضعة بمكان .

هنريت — الله الذي قدّر الأمور وأحكمها انما خلقنا لوظائف مختلفات ؛ وليس كل ذهن مركّباً من مادة صالحة للفلسفة . فان يكن عقلك مخلوقاً للتحليق حيث ترتفع نظرات العلماء ، فان عقلي مخلوق يا اخت ليسير أرضاً ارضاً وليقتصر في ضعفه على الشئون الصغيرة . لا ينبغي لنا ابداً ان نحيد عمــا رسمته لنا السماء بحق ، وليتبع كل منــا ما توحي به غريزته . اقيمي ، بوثبة عبقريتك العظيمة الرائعة ، في اماكن الفلسفة العالية ، على حين يلازم فكري هذه الفانية وينعم بمباهج الزواج الأرضية . فان اختلفت اغراضنا هكذا فسيكون باستطاعتنا معاً ان نحتذي مثال امّنــا : اما انت فمن ناحية الروح والرغبات النبيلة ، واما انا فمن ناحية الحواس واللذات الوضيعة ؛ انت من ناحية الانتاج الفكري والمعرفة ، وانا من ناحية الانتاج المادي يا اختاه .

ارماند — اذا اردنا ان نسير على خطة انسان ما فيجب ان نحتذيه في جميل سجاياه ؛ ليس من القدوة بها في شيء ان نسعل مثلها ونبصق .

هنريت — على انه ما كنت لتصبحي حيث تفاخرين لو لم يكن لامي غير هذه السجايا الحسان ؛ ومن حسن حظك يا اختاه ان عبقريتها السامية لم تشغل نفسها على المدى بالفلسفة . ألا فلتتفضلي وتسمحي لي بامور حقيرة انت مدينة بحياتك لها ، وحذار ان تريديني على ان احذو حذوك فتحولي بذلك بين عالم صغير والحياة .

ارماند -- أرى ان عقلك لن يشفى من جنون إصراره على الزواج؛ ولكن هلا اعلمتني من فضلك بمن تفكرين فيه . فهل عسيت ان تطمحي ببصرك الى كليتاندر؟

هنريت — وما لي ألا اطمح اليه؟ أتعوزه الكفاية والفضل؟ أيكون اختياراً وضيعاً؟

ارماند — كلا؛ بيد أنه من هجر القصد وفحشه ان تريد فتاة انتزاع الغنيمة من اختها؛ وما كان مجهولاً بين الناس ان كليتاندر حفيٌّ بي محبٌّ لي .

هنريت - نعم؛ ولكن حفاوته بك ذهبت ادراج الرياح ، فأنت لا تهبطين أبداً الى حقارة الانسان: لقد عدلت عن الزواج الى غير رجعة ، واستأثرت الفلسفة بحبك غير منقوص . فماذا يضيرك ان اطمح ببصري الى كليتاندر بعد اذ لم يهجس لك به خاطر؟

ارماند — ما كان لسلطان العقل على الحواس ان يعدل بنا عن التذاذ الحفاوة والملق؛ ولربما رددنا الفاضل الكفيّ زوجاً وقبلناه محباً عابداً في معيّتنا .

هنريت — لا مانع عندي ان يوالي حبه واعجابه لكمالك؛ ولا أزيد على ان آخذ ما قدّمه اليّ غرامه من عطف ورعاية سبق ان نبذتها .

ارماند — ولكن هل انت كلّ مطمئنة الى ما يقدّمه اليك عاشق مغضب؟ ام حسبت ان حبه لعينيك راسخ وثيق ، وان سعير حبه لي قد خبا واندثر؟

هنريت — هذا ما قاله لي ، وانا اثق به .

ارماند — لا تكوني يا اختاه مسرفة في ظنك الجميل، وثقي انه إذ يدّعي تركي اليك، لا يفكر في الموضوع جيداً ويخادع نفسه .

هنريت — لا علم لي بهذا؛ ولكن من اليسير علينا ، اذا أحببت ، ان نستوضحه الأمرَ . أراه آتياً؛ في استطاعته ان يجعلنا على بيّنة من هذه القضية .

المنظر الثاني

كليتاندر ، ارماند ، هنريت

هنريت — لتخرجَنّي من شك القتني فيه اختي ارجوك يا كليتندر ان تشرح ما في قلبك عني وعنها؛ اكشف لنا خفاياه وتفضّل باعلامنا ايّ الاثنتين على حق في التطاول اليه .

ارماند = لا ، لا ، لا اريد ابداً ان افرض على هواك قساوة الافصاح عن نفسه : انا أرعى على الناس حرمتهم وأعلم ما اشد ما يربكهم تكلّفهم الاعتراف وجاهاً .

كليتاندر «يخاطب ارماند» = كلا يا سيدتي ، فان قلبي الذي قلما اخفى شيئاً لا يرى حرجاً في صراحة الاعتراف ؛ مثل هذه الخطوة لا تلقي بي في مأزق قط . وسأعترف بجلاء وصراحة بان العلائق الحلوة التي اقف عندها وبان حبي ورغباتي هي في هذه الجهة، «يشير الى هنريت» . لا ينبغي لك (١) ان تغضبي لهذا الاعتراف لانك انت التي أردت ان تسير الأمور في هذا الاتجاه . لقد جذبتني محاسنك ، وأقمتُ لك الدليل الكافي بلطيف زفراتي على حرارة حبي ، اذ نذر لك قلبي غراماً خالداً ؛ بيد أن عينيك لم ترضيا بغنيمتهما . فعانيتُ تحت نيرهما اهانات واهانات ، وتسلّطتا على قلبي باغيتين مزهوتين؛ فلما بهظتني المتاعب وبرحت بي الهموم جعلتُ أبحث عن آسر أرحم وغلّ الين ؛ فوجدتهما يا سيدتي في هاتين العينين ، « يشير الى هنريت» ، ولأغلين قدرهما الى الأبد . برحيم نظراتها جفّفتا دموعي ، ولم تأنفا ان تتقبلا ما اعرضت محاسنك عنه . لقد أثر في نفسي طيبهـا واخلاصهـا النادرين فلن تستطيع قوة ان تنتزعني من اغلال حبي ؛ واني أجرؤ الآن فاناشدك يا سيدتي ألا تحاولي التأثير على حبي ابداً ، وألا تجهدي في استعادة قلب عازم على ان يموت في هذا الغرام الحبيب .

ارماند = واعجباً ! من قال لك يا سيدي ان لدينا هذه الرغبة واننا أخيراً جدُّ مهتمّين بك ؟ اراك اذ تتصور ذلك من الفكاهة بمكان ، واذ تصرح لي به على جانب كبير السفه .

هنريت = على رسلك يا اختاه ، اين هو إذن علم الأخلاق الذي يسيطر على الجانب الحيواني منا ويلوي عنان غضبنا ؟

ارماند = وانت التي تحدثينني عنه أنّى لك ان تعملي به ، حينما تستجيبين لما يظهرون لك من حب ، من دون ان تستأذني اولئك الذين انعموا عليك بالوجود ؟ الا فاعلمي بان الواجب يخضعك لأحكامهم، وانه لا يسمح لك ان تحبي الا من يختارونه لك ، وأن لهم السلطة المطلقة على قلبك ، وان من الاجرام ان تتصرفي به بنفسك.

هنريت = اشكر طيبك واخلاصك اللذين اظهرتهما لي اذ احسنت ارشادي الى ما

(١) هنا يعود الخطاب الى ارماند

يقضي به الواجب . ان قلبي سيعمل في سلوكه وفق ارشادك . ولأريك يا اختاه انني أفيد منه ، هأنذا اطلب الى كليتاندر ان يسعى لدعم حبه بموافقة أبويّ .
فعليك يا كليتاندر ان تجعل سلطتك على شرعية وأن تبيح لي ان احبك من غير إثم.

كليتاندر = لن ادخر وسعاً في العمل بقوة على تحقيق ذلك ، وانما كنت انتظر منك هذه الاستجابة اللطيفة .

ارماند = تختالين يا اخت ويبدو من وجهك انك تتصورين ذلك يحزنني .

هنريت = انا يا اخت ؟ ليس شيء من ذاك . أعلم ان صوت العقل هو المسيطر على حواسك دائماً ، وانك ، بما اخذت من دروس في الحكمة ، فوق امثال هذا الضعف . ما أبعدني عن اتهامك بالحزن ، وانا اعتقد انك في هذا المقام ستتفضلين بالسعي لي للفوز بأمنيتي ، فتؤيدين مطلبي وتستعجلين ساعة زواجنا السعيد . التمس منك ذلك ؛ والعمل به ...

ارماند = عقلك الصغير يريد أن يأخذ من الهزل بنصيب ، واراك جدّ مزهوة بقلب طرحته لك .

هنريت = انت مع اطراحك اياه لا شك لاتأبينه ؛ ولو كان في ميسور عينيك ان تجتذباه لسعيت راضية اليه .

ارماند = انا لا اتنازل للاجابة على هذا ، انها احاديث سخيفة لا ينبغي سماعها .

هنريت = حسناً تصنعين ؛ انك تظهرين من الوقار ما لا يستطاع ادراكه .

المنظر الثالث

كليتاندر ، هنريت

هنريت = لشدّ ما دهشتُ لاعترافك الصريح .

كليتاندر = ما اجدرها ان تعامل بمثل هذه الصراحة ؛ ان اقل ما يليق بجنون تعاليها وخيلائها هو هذه الصراحة . ولكني متوجه الى ابيك يا سيدتي بعد اذ سمحت لي . . .

هنريت = الأضمن ان تستميل امي : من طبع ابي ان يوافق على كل شيء ، ولكنه لا يدعم بالقوة ما يبتّ فيه . لقد منحته السماء نفساً طيبة جعلته يخضع لارادة زوجته من

غير ابطال ؛ هي التي تحكم ، وهي تملي ارادتها بلهجة حاسمة فتكون كالقانون . كنت أحب ان تبدي لماولعمتي شيئاً من المجاملة ، وعقلاً يداري أوهامها ، فتحظى بحرارة احترامها .

كليتاندر — خلقتُ صريحاً ، ابداً لم استطع ، حتى من اجل اختك ، ان احابي طباعها ؛ فالنساء العليمات لسن من ذوقي . اوافق على ان تأخذ المرأة بنصيب من كل علم ، غير اني لا اريد لها ابداً ذلك الحرص الكريه على ان تجعل نفسها عالمة لا لشيء الا ان تكون عالمة ؛ وأحب منها إذا طرح موضوع ما ان تعرف كيف تتجاهل في الغالب الاشياء التي تعرفها ؛ وأخيراً فانني اريد ان تكتم علمها ، وان تكون مثقفة ولكن غير راغبة ان يعرف الناس ذلك عنها ، غير معدِّدة اسماء المؤلفين ، او متشدِّقة بالكلمات الكبيرة ؛ او ملوِّحة بذكائها في احاديثها الصغيرة (١) . انني أُكنُّ اكبر الاحترام لأمك ، ولكنني لا استطيع بحال ان استحسن اوهامها ، ولا ان اكون صدى لما تقول من اشياء ، وللاماديح التي تكيلها لذلك الرجل الذي جعلته بطلاً للفكر . ان صديقها « السيد تريسوتان » ليثيرني ويضجرني ، واكاد اخرج عن هدوئي اذ اراها توقّر رجلاً كهذا ، وتضع في مصاف جبابرة العقول رجلاً احمق يهزأ الناس في كل مكان بما يكتب ، متحذلقاً تغدق ريشته الولود اوراقاً انما تنفع الباعة في الأسواق .

هنريت — كل ما في كتاباته وأحاديثه يبدو لي مضجراً ؛ أرى لي ذوقاً كذوقك ونظراً شبيهاً الى حدٍّ بعيد بنظرك . بيد ان له على والدتي تأثيراً كبيراً فعليك ان تكره النفس على مجاملته شيئاً من مجاملة . العاشق يحاسن حيث يميل قلبه ، ويريد ان يتودّد الناسَ جميعاً ؛ انه لا يترك مخلوقاً يحادُّه (٢) ، بما في ذلك كلب البيت ، فهو يلاطفه ويوادُّه .

كليتاندر — نعم ، انت على حق ؛ غير ان السيد تريسوتان يثير في اعماق نفسي غيظاً طاغياً . لا استطيع ان اوافق ، لكسب تأييده ، على تلويث نفسي بالثناء على مؤلفاته ؛ بها تمثّلَ لعيني اولَ الأمر ، فكنت اعرفه من دون ان اراه . رأيت في فوضى كتاباته التافهة التي يعطينا اياها ما يعرضه شخصه المدّعي اينما كان ، ورأيت تعاليه المستمرّ وزهوه واعتداده برأيه ، ثم هذا الارتياح بالثقة البالغة التي تجعله

(١) كليتاندر هو الشخصية المثلى في الرواية ، وهو الذي يعبر عن آراء موليير (٢) يخالفه ويعاديه

دوماً راضياً عن نفسه ، ابداً باشاً لكفايته ، شاكراً قريحته على ما تجود به ، غير راض ان يستبدل امجاد قائد عظيم بشهرته .

هنريت — أما انك لحديد البصر اذ ترى كل هذا .

كليتاندر — الى سحنته يصل الأمر ، قد رأيتُ ، من الشعر الذي يرمي به رءوسنا ، ما عسى ان تكون هيئة الشاعر ؛ حتى لقد بلغ حزري لسيماء وجهه أنني صادفت ذات يوم رجلاً في القصر ، فراهنت على انه تريسوتان نفسه ، ثم تبينت ان صفقة الرهان كانت في الواقع رابحة .

هنريت — يا للحكاية العجيبة !

كليتاندر — ليست بحكاية : انما ذكرت لك الحادث كما جرى . لكن أرى عمتك . إئذني من فضلك ، ان اصارحها بسرّنا ، لأكسب عطفها وتأييدها عند والدتك.

المنظر الرابع

كليتاندر ، بيليز

كليتاندر — اسمحي يا سيدتي لعاشق ان يغتنم فرصة هـذه اللحظة السعيدة ليحدثك وليكاشفك بالغرام البريء الذي . . .

بيليز — أه ! على هينتك يا سيدي ! حذار ان تسرف في كشف دخيلتك لي . فان كنتُ قد نظمتك في صفّ عشاقي فعليك ان تكتفي بعينيك ترجماناً ، فلا تشرح لي ابداً بلغة اخرى رغائب ليست في نظري الا اهـانة . أحبّني ، أنفث الزفرات ، تحرّقْ شوقاً الى جمالي ؛ على ان يُسمَح لي ألاّ أعلم من ذلك شيئاً . في يدي ان أغض النظر عن لهيب غرامك المكتوم ما دمتَ لا تتجاوز التعبير الصامت ؛ ولكن اذا اراد الفم ان يتدخل في الأمر فعليّ ان أنفيك بعيداً عن ناظري الى الأبد .

كليتاندر — لا تتوجّسي خيفة من نياتي . هنريت هي الفتاة التي ملكت قلبي وأسرتني يا سيدتي . ولقد جئت اتوسّل بحرارة الى مكارم اخلاقك ان تدعم الحب الذي ينطوي عليه قلبي لمحاسنها .

بيليز — أه ! حقاً ان في هذه اللفتة ذكاءً ، اعترف بذلك . ان حسن تخلّصك يستحق الثناء ؛ في كل ما قرأت من روايات لم اجد ابرع من هذا .

كليتاندر — ليست هذه لفتة ذكاء ابداً يا سيدتي ، ما هي إلا محض اعتراف بما في نفسي.

لقد أوثقت السماء قلبي الى محاسن هنريت باغلال حب لا انفصام لهـا . لقد بسطت هنريت عليّ سلطانها الحبيب ، والزواج من هنريت هو الخير الذي اتطاول اليه . في ميسورك ان تصنعي الكثير لأجلي ، وكل ما اريده منك هـــو ان تتكرّمي فتعضدي آمالي .

بيليز — اوى الى أين ترمي برفيق طلبك ، واعرف ماذا يجب ان افهم من اسم هنريت . الايماءة بارعة ، وسأتابعك عليها (١) فأقول في جملة الأشياء التي يقدّمها لي القلب لاجيبك بها : ان هنريت (٢) عصيّة على الزواج ، وان عليـــك ان تكتوي بسعير هواها من دون ان تؤمل شيئاً .

كليتاندر — هيه يا سيدتي، ما نفع هذا التعقيد ؟ لِمَ تريدين ان تفكّري فيما لا وجود له ؟

بيليز — يا إلهي ! دع التكلف جانباً : لا تدفع عن نفسك ما باحت لي به نظراتك مرّات ومرّات . بحسبك انّا أنسنا بهذه اللفتة البارعة التي خطرت لحبّك ، والتي نحب ان نوطّن النفس على تقبل ما فيها من خضوع وتكريم ، بما ألقيتَ عليهـا من طابع الاحترام ، ولكن على ان ينير سبيلهـا الشرف فـــلا تقدّم الى مذبحي إلا مهذب الأماني (٣) .

كليتاندر — لكن . . .

بيليز — الوداع . يكفي ما قلناه لهذه المرّة ، فانني قلت لك اكثر مما ينبغي لي ان اقول .

كليتاندر — لكن ضلالك . . .

بيليز — أقصر . بدأت اخجل ، لقد بذلتُ عفّتي جهداً مدهشاً .

كليتاندر — أتمنى ان أشنق ان أحببتك ؛ وعاقل . . .

بيليز — كلا ، كلا ، لا اريد ان اصغي الى شيء آخر . « تخرج »

كليتاندر — ليذهب الشيطان بهذه المجنونة واوهامها ! هل رأى الناس ضرباً لهـا في الجري مع الاوهام ؟ لأذهب ولأفوّضْ شخصاً آخر بالمهمة التي ألقيتْ اليّ ، ولآخذ المعونة هذه المرة من رجل عاقل .

(١) اي سأفعل مثل ما فعلت ، فأذكر هنريت وأعني نفسي . (٢) تريد نفسها . (٣ لاحظ لغة المتأنقات المتكلفات في ذلك العصر .

الفصل الثاني

المنظر الاول

آريست (١)

اجل ، سأغدو عليك وشيكاً بالجواب . لأسعفنّ ولأوكّدنّ ولافعلنّ كل ما يجب . ما اكثر ما يجد العاشق ما يقـــول ، وما اقل اصطباره على تحقيـق ما يريد ! أبداً . . .

المنظر الثاني

كريزال (٢) ، آريست

آريست — آه ! حرسك الله يا اخي .
كريزال — وايّاك ، يا اخي .
آريست — أتعلم ماجاء بي الى هذا المكان ؟
كريزال — كلا ؛ ولكني مستعد ، اذا شئتَ ، ان أعلم .
آريست — أتعرف كليتاندر من زمن بعيد ؟
كريزال — بدون شك ، وأراه يتردّد علينا .
آريست — ما رأيك فيه يا اخي ؟
كريزال — رجلٌ شرفٍ وذكاء وقلب وحكمة ؛ قليل هم امثاله .
آريست — ان له رغبة قادت خطاي الى هذا المكان ، ويسرني ان تعيرها التفاتاً .
كريزال — عرفتُ المرحوم اباه في رحلتي الى روما .
آريست — حسناً جداً .

(١) آريست يوجه وعوده الى كليتاندر ، بعد مقابلة جرت بينهما وراء الحاجز ، ثم اخذ طريقه الى خشبة المسرح ، بينما لا يزال كليتاندر حيث كان (٢) موليرنفسه قام بدور كريزال .

كريزال = كان يا اخي احد الوجهاء الطيبين .

آريست = كذلك يقال .

كريزال = لم نكن حين ذاك قد تجاوزنا الثامنة والعشرين ، كنا على اعتقادي ، في ريعان الشباب .

آريست = اعتقد ذلك .

كريزال = كنا نميل الى السيدات الرومانيات ، وكان الناس جميعهم يتحدثون هناك عن مجوننا كنا نثير الحسد (١) .

آريست = عظيم جداً . ولكن لندخل في الحديث الذي قدمتُ هذا المكان لأجله .

المنظر الثالث

بيليز ، كريزال ، آريست

آريست = لقد اتخذ مني كليتاندر ترجماناً عن نفسه عندك ، فان قلبه متيّم بجمال هنريت.

كريزال = كيف ! ابنتي ؟

آريست = نعم ، لقد شغفتْ كليتاندر حباً ؛ ابداً لم ار عاشقاً اكثر ضراماً .

بيليز = كلا ، كلا ، فهمت ما تعني . انت تجهل الحكاية ، فالأمر ليس كما تظن .

آريست = كيف يا اختي ؟

بيليز = لقد موّه كليتاندر عليك ، انما أغرم قلبه بفتاة اخرى .

آريست = تسخرين . أليست هنريت بالتي يحبها ؟

بيليز = كلا ، انا على يقين من ذلك .

آريست = لقد حدثني هو نفسه بالأمر .

بيليز = آه ! نعم .

آريست = ترين يا اختي انه عهد الي ان أخطبها على ابيها هذا اليوم .

بيليز = حسن جداً .

آريست بل انه الحّ عليّ ان استعجل ميعاد هذا العقد .

بيليز = هذا احسن . لا يستطيع احد ان يخادع بالطف من هذه الطريقة . فيما بيننا ،

---

(١) لاحظ هذر كريزال ، فهذه احدى صفاته « المعرّب »

ان اسم هنريت هو فـكاهة ، هو نقاب ذكي ، هو يا اختي وسيلة لستر حب آخر انا بأسرار، عليمة ، واريد من كل قلبي ان اصحح لكما ، انما الاثنين ، خطأكما .

آريست = ولكن مادمت يا اختاه تعلمين اشياء كثيرة ، فاذكري لنا ، من فضلك ، هذا المخلوق الآخر الذي يحبه .

بيليز = أتريد ان تعرفه ؟

آريست = نعم . من هو ؟

بيليز = انا .

آريست = انت ؟

بيليز = انا نفسي .

آريست = هيه ، يا اخت !

بيليز = ماذا تعني بهذه « الهيه » ؟ ومـــاذا في كلامي من عجيب ؟ خلقتُ على نحو استطيع معه ان اقول فيما ارى انها ليست المرة الوحيدة ابسط فيها سلطاني على قلب رجل ؛ وإن دورانت ، وداميس ، وكليونت ، وليسيداس ليستطيعون ان يروكم اني لا أخلو من ملاحة .

آريست = أهؤلاء يحبونك ؟

بيليز = نعم ، بكل قوام .

آريست = هل صارحوك بذلك ؟

بيليز = ما من أحد أعطي هذه الحرية : لقد بلغ من إجلالهم لي أنهم لم يحدثوني الى اليوم عن حبهم ابداً . تعابيرهم الصامتة تنوب عنهم في تقديم قلوبهم وعرض خدماتهم .

آريست = تكاد العين لا تقع على داميس ههنا ابداً .

بيليز = تلك مبالغة في احترامه وخضوعه .

آريست = ودورونت يؤذيك بالفاظ قارصة اينما سار .

بيليز = تلك لاحتداده وغيظه وحسده .

آريست = اما كليونت وليسيداس فقد تزوجا .

بيليز = ذلك لليأس الذي رددت اليه غرامها .

آريست = اعتقادي يا اخت ان هذا وهم صراح .

كريزال = عليك ان تتخلى عن اوهامك هذه .

بيليز = آه ! اوهام ؟ اتقولون انها اوهام ؟ اوهام ، انا ؟ حقاً إن اوهام كلمة موفّقة ! اغتبط لهذه الاوهام كل الاغتباط يا اخويّ ، ولم اكن ادري ان لدي اوهاماً .

المنظر الرابع

كريزال ، آريست

كريزال = اختنا مجنونة ، نعم .

آريست = جنونها ينمو يوماً فيوماً . ولكن لنعاود الحديث مرة أخرى . ان كليتاندر يطلب منك هنريت زوجاً له : انظر اي جواب نردّ به على هواه .

كريزال = هل من داعٍ للسؤال ؟ اوافق من صميم قلبي واعتبر الاصهار اليه شرفاً فريداً .

آريست = انت تعلم انه ليس بالغني وان . . .

كريزال = هذا امر لا شأن له : انه غني بفضيلته ، ذلك كنز ثمين (١) ؛ ثم انني وأباه لم نكن إلا واحداً في جسمين .

آريست = لنتحدث الى امرأتك ولنعمل على ان نستميلها الى . . .

كريزال = يكفي ، لقد قبلته صهراً (٢) .

آريست = نعم ، ولكن لدعم موافقتك لا بأس ان نحصل على رضاها . هيّا . . .

كريزال = أتراك تسخر ؟ لا داعي لذلك . انا اجيب عن زوجتي وآخذ القضية على عاتقي (٣) .

آريست = لكن . . .

كريزال = اقول دعني اعمل ولا تخش شيئاً . سأمهّدها لتقبّل الأمر .

آريست = ليكن ذلك . سأذهب في الحال لأتبين موقف هنريت ، وسأعود لأعرف . . .

---

(١) كريزال ليس بالشخصية الفضلى في نظر المؤلف ، ولكنه مع ذلك لا يخلو من فضائل . « المعرّب »

(٢) كريزال ، على جبنه لا يخلو من اعتداد ، وهذا من طريف صفاته . « المعرّب »

(٣) في اصرار كريزال على تجاهلها في غيابها ، ثم في شدّة خوفه منها في حضرتها ، كما سترى ، فكاهة حلوة « المعرّب »

كريزال = هذا امر قضي . سأتحدث بذلك الى زوجتي من دون إبطاء .

المنظر الخامس

مارتين ، كريزال

مارتين = أما انني لسعيدة ! وا اسفاه ! ما اصدق قولهم : من يرد اغراق كلبه يتهمه بالكلب ، وخدمة الغير ليست بالمال الموروث (١) .

كريزال = ماهذا ؟ مابك يا مارتين ؟

مارتين = ما بي ؟

كريزال = نعم .

مارتين = بي . أني سُرّحت هذا اليوم يا سيدي .

كريزال = سرّحت ؟

مارتين = نعم ؛ سيدتي طردتني .

كريزال = لا افهم هذا . كيف ؟

مارتين = توعدتني ، اذا لم اخرج من هنا ، بان تصفعني مئة عصا .

كريزال = بل تبقين ؛ انا راض عنك . زوجتي كثيراً ما تحمى : فانا لا اريد . . .

المنظر السادس

فيلامنت ، بيليز ، كريزال ، مارتين

فيلامنت = يا للعجب ! أإني اراك يا خبيثة ؟ اخرجي سريعاً يا امرأة السوء ، هيا ، غادري هذه الاماكن ، واياك ان تظهري يوماً امام عيني .

كريزال = ترفقي قليلا !

فيلامنت = كلا ، قضي الأمر .

كريزال = ايه !

فيلامنت = اريد ان تخرج .

---

(٤) لاحظ ان الحكمة الشعبية تعتمد على الامثال

كريزال — ولكن اي ذنب جنت لتخرج هكذا . . .
فيلامنت — كيف ! ألشد ازرها ؟
كريزال — كلا ، ابداً (١) .
فيلامنت — أتظاهرها علي ؟
كريزال — يا آلهي ، لا ، مازدت على ان سألت ما ذنبها .
فيلامنت — هل انا ممن يطردونها بغير سبب مشروع ؟
كريزال — لا اقول هذا ؛ ولكن علينا حين نعامل ذوينا ان . . .
فيلامنت — كلا ، ستخرج من هنا ، اقول لك .
كريزال — خير ، نعم . هل قلنا لك شيئاً آخر ؟
فيلامنت — لا اريد اية معارضة لما ابدي من رغبات .
كريزال — موافق
فيلامنت — وعليك ان تكون زوجاً عاقلا فتنحاز الي وتغضب لغضبي .
كريزال — هكذا اصنع . نعم ، ان زوجتي تطردك بحق يا خبيثة ، وجريمتك لا تستحق العفو .
مارتين — وماذا صنعت اذن ؟
كريزال « بصوت منخفض » — في الحق أني لا ادري .
فيلامنت — بلغ من سوء خلقها ألا تلقي الى ذلك (٢) بالاً .
كريزال — هل أثارت سخطك بكسرها مرآة او بعض الآنية الصينية ؟
فيلامنت — ا كنتُ لذلك اطردها ؟ وهل تتصور اني اثور لأمر تافه كهذا ؟
كريزال « يخاطب مارتين » — ما معنى هذا ؟ « يخاطب فيلامنت » فالأمر من الخطر بمكان ؟
فيلامنت — من غير شك . أأ كون امرأة طائشة ؟
كريزال — ام تراها اضاعت بتها ونها ابريقاً او صحيفة من فضة ؟
فيلامنت — ليس هذا بشيء .
كريزال — اوه ! اوه ! عليها اللعنة ! ماذا ؟ ام تراك باغتتها وهي تخون الامانة ؟
فيلامنت — الامر ادهى من كل ذلك .

---

(١) كريزال يختلف مع زوجته في كل شيء ، ولكنه يخافها « المعرّب » (٢) كلمـة غامضة سيشرحها المؤلف بحواره الفكه « المعرب »

كرزال — ادهى من كل ذلك ؟

فيلامنت — ادهى .

كرزال — كيف ، يا للشيطان ، اينها اللعينة ! أوه ! فهل عساها ان . . .

فيلامنت — لقد بلغت من الوقاحة حداً لا مثيل له ، فجرحت سمعي ، بعد ثلاثين درساً، بتورطها بكلمة جافية منحطة سبق لـ « فوجولا [1] » أن جزم بخطئها .

كرزال — أهذا هو . . .

فيلامنت — كيف ! اتظل الدهر لا تبالي تحذيرنا ، فتخرج على اساس العلوم جميعاً ، على النحو الذي يبسط سلطانه على الملوك انفسهم ويخضعهم بدون كلفة لقواعده !

كرزال — اراها قد اقترفت افظع الجرائم .

فيلامنت — واعجبا ! الا ترى هذا الذنب مما يجاوز العفو ؟

كرزال — بلى ، بلى .

فيلامنت — كنت اتمنى ان تلتمس لها عذراً [2] !

كرزال — اعوذ بالله !

بيليز — الحق انها امور مؤسفة : ان مارتين تهدم كل بناء ، بعدما لقنت قواعد اللغة مئة مرة .

مارتين — كل ماتمطون به جيد ، على ما اعتقد ؛ ولكني لا استطيع ان اتكلم طمطانيتكم.

فيلامنت — يا قصيرة النظر ! تدعين طمطانية اللغة المبنيه على العقل وحسن الاستعمال !

مارتين — اذا استطعنا ان نتفاهم فكل لغة نعبّر بها جيدة ، ولا يبقى لاحاديثكم الجميلة ولا فائدة [3] .

فيلامنت — حسناً ، الا ترون الى اسلوبها مرة اخرى ! « ولا فائدة ! »

بيليز — يا للدماغ العنيد ! اينبغي لك ، على ما بذل معك من عناية متصلة ، ان تضيعي جهودنا في تعليمك الكلام صحيحاً ! هذه الـ « ولا » تعود بك الى الخطأ ، وهي كما قلنا لك زائدة ، لا لزوم لها .

---

(١) نحوي شهير ١٥٨٥ ـ ١٦٥٠ (٢) تريد التهديد « المعرّب » (٣) تذكر جهود ماليرب والمجمع اللغوي في وضع قواعد اللغة آن ذاك ، « المعرّب » . جرى هنا فيما يتعلق بصحة هذه العبارة بعض التصرّف اللفظي لصالح الفكرة

مارتين — يا ربي ! أنا مادرسنا مثلكم ، وانا بتكلم صحيح مثل ما يتكلموا عندنا [1] .

فيلامنت — آه ! كيف السبيل الى تحمّل هذا ؟

بيليز — اي إخلال فاحش بقواعد اللغة !

فيلامنت — الاخلال الكافي لقتل اذن حساسة !

بيليز — الحق ان عقلك مادي صرف . « أنا » ماهي الا مفردة ؛ اما « درسنا » فقد أسندتها الى الجمع ، أتريدين ان تمتهني القاعدة طول عمرك ؟

مارتين — من قال انه يمتهن القاعدة او القائمة ؟

فيلامنت — ياللسماء !

بيليز — لقد فهمت «القاعدة» بغير معناها ؛ سبق ان حدثتك من اين جاءت هذه الكلمة

مارتين — لتأت من « شايو » او من « أوتوي » او من « بونتواز » ، هـذا امر لا يعنيني .

بيليز — يا للروح القروية ! ان قواعـد الفعل والفاعل والصفة والموصوف ، تعلمنا أحكام الكلام .

مارتين — اريد ان اقول لك يا سيدتي اني لا اعرف هؤلاء الناس ابداً .

فيلامنت — اي استشهاد ، اي موت !

بيليز — هذه اسماء الفاظ ، وعلينا ان نعرف كيف نوفق بينها معاً .

مارتين — فلتتفق فيما بينها او لتتضارب ، ماذا يهم ؟

فيلامنت « لأختها [2] » — ايه ! يا آلهي ! ضعوا حداً لحديث كهذا . « ثم لزوجها : » ألا تريد ، انت ، ان تخرجها ؟

كريزال « الى جانب » — بلى . عـلي ان اوافق على عبثها . اذهبي يامارتين ؛ لا تغضبيها ، انسحبي .

فيلامنت — كيف ! اتخشى ان تجرح احساس اللعينة ؟ اراك تتحدث اليها بلهجة محاسنة ملاطفة !

كريزال « بصوت عال » — انا ؟ ابداً . هيـا ، اخرجي . « بصوت منخفض : » اذهبي يابنتي المسكينة .

---

(١) عندما تحاول مارتين الكلام الفصيح تتورط في اخطاء اكبر « المعرب »

(٢) يريد اخت زوجها « المعرّب »

المنظر السابع

فيلامنت ، كريزال ، بيليز

كريزال — انت راضية ، فهاهي ذي قد خرجت ؛ لكني لا أقرّ هـذه الطريقة في الاخراج ابداً : انها بغت تليق بالأشياء التي تقوم بها ، وقد طردتها لسبب تافه .

فيلامنت — اتريد ان احتفظ بها دائماً في خدمتي لأجعل اذني في عـذاب لا ينقضي ، لأنقض كل قانون للعادة وللعقل ، بركام وحشيّ من عيوب الكلام ، بالفاظ مهلهلة مرتّقة ، بأمثال تجيء بها من مجاري الأسواق ؟

بيليز — الحق ان جبيننا يندى لاحاديثها . انها لا تنفك تعمل في «فوجولا (١) » تهشيماً وتحطيماً ؛ وأيسر مغالطهذهالطبيعة الجافيةهو كثرة الحشو أوتوالى الحروفالمتنافرة.

كريزال — وماذا إن أخلّت بقواعد فوجولا ، ما دامت تقوم بواجبها في المطبخ ؟ أما انا فافضّل ان تعالج مالديها من بقول على ان تحسن ربط الأسماء بالافعال ؛ لتقل بعدئذ كلمة رذلة نابية ولتكرّرها مئة مرّة ، على ألا تحرق لحم طعامي او تكثر ملحه . انا أحيا بالحساء الطيب لا بالكلام الجيد . أبداً لا يعلّم فوجولا كيف تجيد إعداد الحساء ؛ وماليرب وبلزاك ، على علمها بالكلم الجميل ، قد يكونان غبيّين بشئون الطبخ (٢)

فيلامنت — لكم يمضّ النفس هذا الحديث الغليظ! وايّ حقارة لمن تسمّىبالانسان ان ينحطّ ابداً لشئون المـادة وألا يسمو الى قضايا الروح ! هل الجسم ، هذا العرَض التافه ، من الاهميّة ، من نفاسة القدر بحيث نقصر عليه كل تفكيرنا ؟ أليس اجدر بنا ان نطرح ذلك بعيداً جداً .

كريزال — نعم ، ان جسمي هو أنا ، واريد أن أعنى به . هو عرض تافه اذا اردت ولكنهعزيز عليّ .

بيليز — الجسم والعقل يا اخي يظهران جنباً الى جنب ؛ بيد أنك لو أصغيت الى ما

---

(١) النحوي الشهير (٢) هنا تظهر صفه أخرى لكريزال ، انه لا يهتم بغير بطنه . لو انقلب الحـال ، فعنيت الزوجة شيئاً بامور البيت ، وعني الزوج شيئاً بامور العلم ، لاستقام الأمر . « المعرب »

يقول العلماء لعرفت ان للعقل قدم صدق (١) على الجسم ! وان رأس ما ينبغي ان نعني به ونبذل الجهد من اجله هو ان نغذي عقولنا بلبان العلم .

كريزال — اذا كنت تفكرين في تغذية عقلك ، فعليك باللحم الشهي ، كما يقول الناس ؛ (٢) اراك لا تعيرين اهمية ابداً لـ . . .

فيلامنت — آه ! «اهمية» هذه شديدة على اذني ؛ انها تزخم على نحو غريب .

بيليز — حقاً ان الكلمة هرمة جاسية .

كريزال — أتريدين ان اتكلم ؟ آن لي اخيراً ان انفجر ، ان ارفع القناع وأفرغ غيظي . الناس ينعتونكن بالجنون ، وانه ليثقل على قلبي . . .

فيلامنت — كيف اذن ؟

كريزال — انما اوجه الخطاب اليك يا اخت (٣) . فأتفه الأخطاء في الحديث يهيجكن ؛ مع انكن تقترفن في تصرفكن خطيآت افظع . كتبكن التي لا تنتهي لا تسرني ؛ واذا استثنينا كتاب «بلوتارك» الكبير الذي اطوي فيه ياقاتي ، فان عليكن ان تحرقن هذه الاشياء التي لا فائدة لها كلها ، وان تتركن العلم لعلماء المدينة ؛ من الحسن ان ينحى عن مخزن الحبوب في البيت هذا المنظار الطويل الذي يخيف الناس ، ومئة حطامة ذات منظر بغيض ؛ لا ينبغي لكن ان تنقبن عما يجري في القمر ، حتى تستطعن ان تلتفتن قليلا الى ما يجري في الدار التي نجد كل شيء فيها في هرج ومرج . ليس من المعقول ان تدرس المرأة كل الاشياء وتحيط علماً بها ؛ ولأن تحمل اولادها على العادات الحسنة ، وان تدبر امور البيت ، وان تكون منتبهة الى خدمها ، ثم ان تنظم النفقات باقتصاد : تلك هي الأمور التي على المرأة ان تتوفر على دراستها وتجعلها محور فلسفتها . آباؤنا في هذا الخصوص كانوا قوماً راشدين ؛ كانوا يقولون: بحسب المرأة ان يرقى ذكاؤها الى حيث تعرف الصدارة من السروال . لم يكن نساؤهم يقرأن ابداً ، ولكن كن يعشن جيداً . امور البيت هي كل ما يدور بينهن من احاديث المعرفة ؛ اما كتبهن فكشتبان وخيط وابرة يصنعن بها البسة بناتهن . نساء اليوم بعيدات من هذه العادات : يردن ان يكتبن ويصرن مؤلفات ؛ مامن علم يرينه جد

(١) اي ان له على الجسم سابقة وفضلا . والتعبير العربي قريب جداً من الفرنسي « المعرب »

(٢) لعل كريزال يتعمد التطرف في ماديته ليقف على طرف نقيض من اخته وزوجته « المعرب »

(٣) كريزال أجرأ مع اخته منه مع زوجه « المعرب »

عميق، ولا سيما نساء هذا البيت فقد لا يبرعن نساء بيت في العالم . اغمض الأسرار ينكشف لهن ويطوع (١)؛ انهن يعرفن كل شيء في بيتي ماخلا ما يجب ان يعرف ، يعرفن كيف يجري القمر ونجم القطب وزهرة وزحل والمريخ ، مما لا علاقة لي به ابداً ؛ وفي عبث هذا العلم الذي يلحفن في طلبه أراهن لا يدرين ما حال قـــدر الطعام الذي انا في حاجة اليه. ان خدمي (٢) ليتوقون الى العلم ليحظوا برضا كن، فلا شيء يتهاونون به تهاونهم بواجباتهم ؛ الجدل هو عمل من في بيتي جميعاً ، وهو لا يدع لهم مسكة من عقل . هذا يحرق شوائي وهو مستغرق في قراءة قصة ، وذاك يحلم بابيات من الشعر عندما اطلب ماءً ؛ وعلى الجملة فانني اراهم يقتدون بكن واراني آتي بالخدم ولا أخدَم . بقيت لي على الاقل خادم مسكينة لم تُبتَلَ بهـــذه الآفة الوخيمة ، فها هي ذي تطرد شر طردة لما انها لم تتكلم كما يريد فوجولا . اقول لك يا اخت ان هذا السلوك يؤذيني ، لانني ، كما ذكرتُ ، اليك اتوجه بالكلام (٣) . لا احب ابداً كل هؤلاء الذين يلهجون باللاتينية في هـــذا البيت ، ولا سيما السيد تريسّوتان هذا . فهو الذي اذاع اسمكِ باشعاره ؛ وما يتحدث بغير الهراء والاباطيل. انهم يتحرّون ما يقول بعد اذ يقول ؛ اما انا فأرى له دماغاً مصدّعاً مخلّماً .

فيلامنت = يا للسماء ! اي حقارة في النفس واللسان !

بيليز = هل اجتمعت الاجسام الصغيرة اتقل مما اجتمعت لتكوينه ؟ أفي الدنيا عقل أتفه وأغبى تؤلفه الذرات (٤) ؟ أيمكن ان اكون من هـــذا الدم نفسه ؟ لترهقني آلام الموت لاني من جنسك ؛ انه لا يسعني إلا ان اغادر من الخزي مكاني .

المنظر التاسع

فيلامنت ، كريزال

فيلامنت = ألديك سهم آخر تطلقه ؟

---

(١) ينقاد ، من طاع ، يطوع . (٢) لقد اغتنى كثير من طبقة البورجوازية حتى بذّوا بثرائهم بعض النبلاء ، وكان لهم خدم وحشم « المعرب » . (٣) يؤكد ذلك خوفاً من ان تتصدّى له روجه . (٤) انها تتحدث بلغة العلم في عصرها . فقد أعلن الفيلسوف جاسندي حين ذاك ان الذرات تتجمع فتؤلف الاجسام والعقول .

كريزال = انا ؟ كلا . دعينا من حديث الخصام ؛ انتهى الأمر . لنأخذ في حديث آخر .
ابنتك الكبيرة تبدي نفوراً من روابط الزواج ؛ الخلاصة أنها فيلسوفة ، لا أقول عنها شيئاً ؛ لقد احسنت تربيتها أيّما إحسان . بيد أن اختها تختلف عنها مزاجاً ؛ فاري اننا نحسن صنعاً اذا مهّدنا لهنريت ان تختار لنفسها زوجاً . . .

فيلامنت = هذا ما فكرت فيه ؛ أريد ان اكاشفك بالنيّة التي عقدتها . هـذا السيد تريسوتان الذي تتجنّون علينا ذنب عشرته ، والذي لم يتشرف باعجابكم ، هو الرجل الذي اتخذه لها زوجاً ، وانا اعلم منك في الحكم بنفاسة قيمته . المحاجّة هنا لا جدوى فيها ، وقد جزمت في الأمر من جميع جهاته . على الأقل لا تنبس بكلمة عن اختيار هذا الزوج ، فانا اريد ان أسبقك في التحدث عنـه الى ابنتك . لديّ الاسباب الجديرة بحملها على اقرار خطتي ، ولا شك اني سأعلم انك حدثتها بشيء إن فعلتَ .

المنظر التاسع

آريست ، كريزال

آريست = ماوراءك يا آخي ؟ لقد خرجت زوجتك ، وارى جيداً ان حديثاً دار بينكما .

كريزال = اجل .

آريست = ماذا كانت النتيجة ؟ أنفوز بهنريت ؟ هل وافقتْ ؟ هل انهيت القضية ؟

كريزال = لم تتم بعد .

آريست = أتراها ترفض ؟

كريزال = كلا .

آريست = ام تراها تتردد ؟

كريزال = أبداً .

آريست = ماذا اذن ؟

كريزال = ذلك انها تعرض رجلا آخر ايكون لي صهراً .

آريست = رجل آخر يكون صهرك ؟

كريزال = رجل آخر .

آريست — ما اسمه ؟

كريزال — السيد تريسوتان .

آريست — عجباً ! هذا السيد تريسوتان . . .

كريزال — نعم ، هذا الذي يُفيض في حديث الشعر واللاتينية .

آريست — او افقتَ عليه ؟

كريزال — انا ؟ ابداً ، لا سمح الله .

آريست — بماذا اجبت ؟

كريزال — لم اقل شيئاً ؛ وانا مرتاح لسكوتي ، لئلا ارتبط بشيء .

آريست — السبب وجيه جداً ، لقد خطوتَ بذلك خطوة كبيرة [1] . هل استطعت على الاقل ان تعرض عليها كليتاندر ؟

كريزال — كلا : لانني عندما رأيتها تتحدّث عن صهر آخر ظننت الخير في ألا اتقدّم ابداً .

آريست — حقاً ان حكمتك نادرة الى آخر حدّ ! الا تخجل من رخاوتك ؟ أفي الدنيا رجل يتدلّى به الضعف الى ان يترك لزوجه مطلق السلطان والى ان يخشى إبطال ما ارمت ؟

كريزال — يا آلهي ؛ انت يا اخي تتحدّث في الموضوع بنفس مطمئنة ، غير عالم كم تثقل الضوضاء عليّ . احب الراحة والسلام والوداعة كثيراً ، وزوجتي رهيبة بسوء مزاجها . انها تصابحنا وتماسينا باسم الفيلسوفة ، بيد أن ذلك لا ينقص شيئاً من بدوات غضبها . ان ادبها الذي لا يقيم للمادة وزناً ليس له من تأثير على عنيف غيظها . مهما يكن الامر الذي تخالفها فيه تافهاً فانك لا تأمن عواصفها العاتية ثمانية ايام . انها لا تكاد تتكلّم حتى ترتعد لها فرائصي . لا أعرف الى اين اذهب ، فهي تنّين حقيقي . ومع ذلك ، عليّ ان ادعوها بيا قلبي ويا حبيبتي ، على خبثها وفظاعتها .

آريست — كفى ، انت تسخر . فيما بيننا ، اصبحت امرأتك بفضل جبنك سيدة عليك . لم توطّد سلطانها إلا على ضعفك ؛ منك انما اخذت لقب السيدة ؛ انك تستسلم طائعاً لزهوها وصلفها ، فتتركها تقودك كالبهيمة صاغراً . واعجبا ! أتعجز بعد اذ رأيت معاملة الناس اياك عن ان تحزم امرك ذات مرّة على ان تكون رجلاً ،

---

(١) يسخر « المعرب »

وانْ تنزل امرأتك على رأيك ، وانْ تتشجع وتقول : اريد ذلك ؟ أتتركهم من غير خجل يضحكون بابنتك للاوهام السخيفة التي تستحوذ على الاسرة، ويقلّدون رجلا احمق ثروتك كلها لست كلمات من اللاتينية يبدئ فيها ويعيد ، ذلك المتحذلق الذي لاتني امرأتك تسبغ عليه لقب الذكي الأريب والفيلسوف النجيب ، الذي لا يعدله انسان في نظم الاشعار الرقيقة ، وهو ، كما تعلم ، اقلّ من هذا كله ؟ كفى ، مرة اخرى ، انها لسخافة ، وان نذالتك لجديرة بالضحك .

كريزال — نعم ، انت على حق ، وانا ارى اني على باطل . هيّا، يجب ان اظهر اخيراً قلباً اشجع يا اخي .

آريست — احسنت قولاً .

كريزال — انه لمن الخسّة بمكان ان يذعن الرجل لسلطان امرأة .

آريست — حسن جداً .

كريزال — لقد استغلّت رفقي اكثر مما ينبغي .

آريست — صحيح .

كريزال — واستمتعت بسماحة طبعي اكثر مما يجب .

آريست — لا شك في ذلك .

كريزال — اريد ان ابيّن لها هذا اليوم ان ابنتي هي ابنتي، واني انا وليّ امرها . لاني اريد ان اختار لها زوجاً يوافقني .

آريست — هأنتذا عاقل كما اريدك ان تكون .

كريزال — انت من جانب كليتاندر ، وتعرف مسكنه : جئني به يا اخي في الحال .

آريست — اني مبادر اليه من ساعتي هذه .

كريزال — لقد طالما تحمّلت ؛ اريد ان اكون رجلاً وأنف الجميع راغم [1] .



(١) ليته يفعل ما يقول ! « المعرب »

الفصل الثالث

المنظر الاول

فيلامنت ، ارماند ، بيليز ، تريسوتان ، ليبين

فيلامنت — لنجلس هنا حتى نصغي في يسر الى هذه الابيـات ، فمن الضروري ان نزنهـا كلمة كلمة .

ارماند — اتحرّق شوقاً لرؤيتها .

بيليز — وانا اموت شوقاً اليها .

فيلامنت — « تخاطب تريسّوتان » : ان ما يخرج منك ليجذبني ويفتنني .

ارماند — انني اشعر بلذة لسماعك لا مثيل لها .

بيليز — ان ما تتحف سمعي به لهو غذاء نفيس .

فيلامنت — لا تتركْ رغباتنا الملحّة تذوي بطول الانتظار .

ارماند — اسرع .

بيليز — بادر ، عجّل لنا لذّاتنا .

فيلامنت — قدّم مقطّعاتك الى صبرنا النافد .

تريسوتان « الى فيلامنت » — وا اسفاه ! انه طفل وليد (١) يا سيدتي . لا شك ان من حظه ان يثير عطفكم ، فانا انما ولدته في رحابكم .

فيلامنت — يكفيه انك ابوه ليكون حبيباً اليّ .

تريسوتان — ان استحسانك بمثابة امّ له .

بيليز — يا له من ذكيّ !

---

(١) يعني ابيات الشعر .

المنظر الثاني

هنريت ، فيلامنت ، ارماند ، بيليز ، تريسوتان ليبين

فيلامنت « الى هنريت التي تريد الانسحاب [1] » = لماذا تريدين اذن ان تهربي ؟

هنريت = خشية ان اعكّر حديثكم الممتع .

فيلامنت = اقتربي ، تعالي خذي حظك بكلتا اذنيك من لذة الاستماع لهذه الاعاجيب.

هنريت = لا افهم كثيراً جمال ما يُكتَب ، وان قضايا الذكاء ليست عملي .

فيلامنت = لا اهمية لهذا . ثم ان لدي سرّاً يجب ان اكاشفك بعدئذٍ به .

تريسوتان « الى هنريت» = ليس في المعارف ما يشوقك ، فأنت لا تلتفتين الا الى ان تكوني موضع الفتنة والاعجاب .

هنريت = لا هذا ولا ذاك ؛ ليس لدي من رغبة . . .

بيليز = آه ! لنفكّر بالطفل الوليد ، ارجوك .

فيلامنت « الى ليبين » = هنا ، ايها الغلام الصغير . الينا بمقاعد .

« يقع الخادم بكرسيه »

انظروا الغبي ! اينبغي لك ان تقع بعدما تعلمت كيف تتوازن الاشياء ؟

بيليز = الا ترى ياجاهل اسباب سقوطك ، وأنه يعود الى انك أبعدت عن النقطة الثابتة ما ندعوه بمركز الثقل ؟

ليبين = انتبهت الى ذلك يا سيدتي وانا طريح الارض .

فيلامنت = ياللبليد !

تريسوتان = من حسن حظه انه ليس بزجاجة .

ارماند = آه ! في كل ما تقول ذكاء !

بيليز = نبع لا ينضب .

فيلامنت = قدّم لنا عاجلاً طعامك [2] اللذّ .

تريسوتان = يلوح لي ان صحناً واحداً من ثمانية ابيات شيء قليل بالاضافه الى هذا الجوع المظيم الذي تعرضونه امامي ؛ واري انني لا اكون مخطئاً هنا باضافتي على

---

(١) هنريت ليست متعالمة كأمها واختها وعمتها (٢) شعرك

المقطّعة (١) والنتفة (٢) ابياتاً مقبّلة كانت احدى الاميرات استعذبتها . انها فكاهة حلوة يلتمع الذكاء في كل كلمة منها ، واظن انكم ستستملحونها كثيراً .

ارماند = لا اشك في ذلك .

فيلامنت = لنصغ جيداً في الحال .

بيليز « تقاطعه كلما اراد ان يقرأ » = اشعر بقلبي يخفق من الآن سروراً . احب الشعر حباً جما ، ولا سيما حين يكون في ابياته لفتات انيقة .

فيلامنت = اذا لم نكفّ عن الكلام فلن يستطيع القراءة .

تريسوتان = سو . . .

بيليز « الى هنريت » = السكوت يا ابنة اخي (٣) .

ارماند = واعجبا ! دعيه يقرأ .

تريسوتان = ابيات الى الاميرة « اوراني » عن مرضها بالحمّى :

لقــد غفا رشدك
حين عاملت بالحسنى
اقسى اعدائــك
وآويتهـا خير مأوى (٤) .

بيليز = آه ! يا للمطلع الجميل !

ارماند = وللّفتة الانيقة !

فيلامنت = هو وحده يملك الموهبة في نظم السهل من الاشعار .

ارماند = يجب ان نلقي سلاحنا عند قوله : « لقد غفا رشدك »

بيليز = قوله « آويتها خير مأوى » من السحر بمكان .

فيلامنت = احب « بالحسنى » و « مأوى » ، ما اجمل ما يسجع هذان اللفظان !

بيليز = لنُصغِ سمعنا ما تبقّى .

تريسوتان : =

لقــد غفا رشدك
حين عاملت بالحسنى

---

(١) شعر لا يتجاوز سبعة ابيات (٢) الشعر لا يعدو بيتين (٣) ما احراها هي ان تسكت فان هنريت لم تنبس بحرف ! « المعرب » (٤) تصرّفنا قليلا في التعريب

اقسى اعدائـــك
وآويتهـا خير مأوى .

ارماند — « غفا رشدك ! »

بيليز — « آويتها خير مأوى ! »

فيلامنت — « بالحسنى » و « خير مأوى ! »

تريسوتان : —

ألا فاطرديهـا مها يقـال ،
من مسكنك الفخيم
حيث تهـاجم هـــذه الجاحدة
حيـاة جميـــلة بغير حيـاء .

بيليز — آه ! على هينتك ، دعني من فضلك اتنفس .

ارماند — امنحنا اذا تحب فرصة لاظهار اعجابنا .

فيلامنت — أشعر تلقاء هذه الابيات بشيء لا أعرف ما هو يجـري في اعمـاق النفس ويحمل على الاغماء .

ارماند — « الا فاطرديهـــا مها يقـال ،
من مسكنك الفخيم . »
ما أجمل قوله « من مسكنك الفخيم » ! كم استعملت الاستعارة بذكاء !

فيلامنت — « أطرديها مها يقال . » آه ! ما اروع الذوق في قوله : « مها يقال ! » هـذا على ما ارى موضع لا يقدّر بثمن .

أرماند — ان قلبي كذلك ليعشق قوله « مها يقال »

بيليز — انا على رأيك ، « فمها يقال » موفقة .

ارماند — احب لو كنتُ نظمتها .

بيليز — هي بوزان قطعة كاملة .

فيلامنت — ولكن هل تفهمون جيداً موضع الدقة فيها مثلي ؟

ارماند وبيليز — اوه ! اوه !

فيلامنت — « اطرديها مها يقال . » يجب ان نأخذ الحمّى هنا بعين الاعتــبار ؛ ثم : لا تكترثي لشيء ، إهزئي بالاقاويل والاباطيل ، هذا هو معنى قوله : « اطرديها مها

يقال . » « مهما يقال ، مهما يقال ! » هذه الـ « مهما يقال » تقول أكثر مما يخيّل الينا بكثير . اما انا فلا اعلم ما اذا كنتم تشبهونني ، غير اني اسمع تحت هـذه الكلمة مليون كلمة .

بيليز — الحق انها تعني اشياء اضخم من لفظها .

فيلامنت « لتريسوتان » — ولكن ، عندما نظمتَ هذه الـ « مهما يقال» اللطيفة هل عرفت انت كل ما فيها من حياة وقوة ؟ هل كنت تفكّر جيداً في كل ما تدل عليه ، وهل كنت تفكر حين ذاك في شحنها بالذكاء ؟

تريسوتان — عجباً لك !

ارماند — ان هذه « الجاحدة » لتدوّي في رأسي ، هذه الحمّى الجاحدة ، الظالمـة ، الرذيلة ، التي تسيء الى الذين يجعلون لها مأوى من انفسهم .

فيلامنت — واخيراً ، ان كلتا هاتين الرباعيتين رائعتان . لننتقل مسرعـين الى القطعة التالية ، ارجوك .

ارماند — آه ! اذا شئتم ، مرةً اخرى : « مهما يقال . »

تريسوتان — « اطرديها مهما يقال »

فيلامنت ، ارماند ، بيليز — « مهما يقال ! »

تريسوتان — « من مسكنك الفخيم »

فيلامنت ، ارماند ، بيليز — « مسكنك الفخيم ! »

تريسوتان = « حيث تهاجم هذه الجاحدة »

فيلامنت ، ارماند ، بيليز = يا للحمى من « جاحدة ! »

تريسوتان = « حياة جميلة بغير حياء . »

فيلامنت = « حياة جميلة ! »

ارماند وبيليز = آه !

تريسوتان = عجباً لها ! الا توقّر المنزلة التي انت فيها ،
فتتطاول على دمـك الزكيّ ،

فيلامنت ، ارماند ، بيليز = آه !

تريسوتان : = وتسيء اليك الليل والنهـار !
فهلاّ توجّهت بهـا الي الحمّـام

وكففت عن مراعاتها ومحاباتها
وأغرقتها انت بيديك .

فيلامنت = لقد وهنت عزائمنا.

بيليز = وأغمي علينا.

ارماند = فنحن نموت من فرط السرور .

فيلامنت = الف رعشة حلوة تعترينا .

ارماند = فهلا توجهت بها الى الحمام

بيليز = وكففت عن مراعاتها ومحاباتها

فيلامنت = واغرقتها انت بيديك .

بيديك انت ، هناك ، اغرقيها في الحمام .

ارماند = كل خطوة في اشعارك تطالعنا لفتة حلوة .

بيليز = أنزه الطرف فيها مأخوذة اللب اينما يممت .

فيلامنت = لن استطيع السير فيها الا على اشياء جميلة .

ارماند = انها مسالك دقيقة ملأى بالرياحين .

تريسوتان = تبدو لكم القطعة اذن . . .

فيلامنت = رائعة ، مبتكرة ، لم ينظم احد شيئاً جميلاً مثلها .

بيليز « الى هنريت » = كيف ! الا تهيج عاطفتك لدى هذه القراءة ! اما انك يا ابنة اخي لغريبة الاطوار .

هنريت = كل انسان في هذه الدنيا يكون في المظهر الذي يستطيعه يا عمتي ، وما كل من توخى الذكاء بذكي .

تريسوتان = لعل اشعاري ازعجت الآنسة .

هنريت = ابداً : لم اكن استمع .

فيلامنت = آه ! لنر القطعة الأخرى .

تريسوتان = في عربة بلون القطيفة مهداة الى سيدة من صديقاتي (١) .

فيلامنت = هذه العناوين لا تخلو ابداً من شيء طريف .

---

(١) هذه القطعة والتي قبلها مقتبستان من ديوان « الآثار الانيقة » لشاعر مغمور اسمه كوتان Cotin كان بينه وبين موليير خصومة ، وقد دعاه ، بتريسوتان ومعناه : الرجل المثلث الحماقات.

ارماند = ان جدتها لتمهد الاذهان لمثة لمحة ذكية .

تريسوتان : لقد باعني الحب أغلاله بباهظ الثمن

فيلامنت ، ارماند ، بيليز = آه !

تريسوتان : حتى انه كلفني الى الآن نصف ثروتي ؛
فاذا ما رأيت هذه العربة الجميلة ،
حيث يرتفع الذهب الكثير كتلاً كتلا
فيدهش البلاد كلها
ويزهي بالنصر سيدتي (١) . . .

فيلامنت = « يزهي ! » هذا من العلم .

بيليز = الصيغة جميلة تقدر بمليون .

تريسوتان : فاذا ما رأيت هـــذه العربة الجميلة ،
حيث يرتفع الذهب الكثير كتلا كتلا
فيدهش البلادَ كلها
ويزهي بالنصر سيدتي ،
فلا تذكري نوعها المخملي ابدا ،
ولكن اذكري انها من مالي انا .

ارماند = اوه ! اوه ! اوه ! هذا لم يكن منتظراً ابداً .

فيلامنت = هو وحده يستطيع ان يكتب بهذا الذوق .

بيليز = فلا تذكري نوعها المخملي ابداً
ولكن اذكري انها من مالي انا .

هذه كلمة تتصرف : « مالي ، من مالي ، الى مالي »

فيلامنت = لا اعرف اذا كنتُ مهيئة الخاطر لموضوعك منذ الساعة التي عرفتك فيها ، ولكنني شديدة الاعجاب بشعرك ونثرك .

تريسوتان «الى فيلامنت» = لو كنتِ اردت ان ترينا شيئاً من عنـــدك لاظهرنا نحن كذلك بدورنا اعجابنا .

---

(١) تصرف بسيط

فيلامنت = لم اصنع شيئاً من الشعر ، غير ان لي ان أؤمـــل التمكن عن قريب من اطلاعك، كصديق، على ثمانية مقاطع من مخطط مجمعنا (١) . لقد اقتصر افلاطون على الفكرة وحدها عندما عالج موضوع « جمهوريته » ؛ ولكنني اريد ان ادفـــع الى التحقيق الفكرة التي سطرتها على الورق : ذلك لانني احس بكره غريب لما يعزى الينا من نقص في عقولنا ؛ واريد ان انتقم لنا جميعاً مادمنا على قيد الحياة من هـذه المنزلة الوضيعة التي يجعلنا الرجال فيها اذ يقصرن مواهبنا على صغائر الامور ويوصدون في وجوهنا باب المعارف العظيمة (٢) .

ارماند = انها لاهانة كبرى لبنات جنسنا ألا يوسّعوا جهود ذكائنا إلا الى الحكم على ثوب او معطف ، او على جمال العمل في ابرة او جمال قطعة مطرّزة .

بيليز = يجب ان ننضو عنا عار هذه القسمة وان نحرر فكرنا بقوة من كل عبودية .

تريسوتان = يعلمون في كل مكان شديد حرمتي للسيدات ؛ فان كنت ذا حفلة ببريق اعينهن ، فانا أعظم انوار عقولهن كذلك .

فيلامنت = ان بنات جنسنا لينصفنك ايضاً في هذه الامور ؛ بيد أننا نريد ان نبيّن لبعض الاذهان التي يعاملنا علمها المختال باحتقار : أن النساء مزوّدات كذلك بالعلم وأن في ميسورهن ان يؤلفن مجتمعات ثقافية تجري في ذلك على انظمـة احسن ؛ وأننا نريد ان نجمع الشمل في مجمعنا على حين انهم يفترقون (٣) ، فنمزج اللغة الجميلة بالعلوم الرفيعه ، ونكتشف الطبيعة في الف تجربة ، ونأخذ بعين الاعتبار ، في كل قضية تعرض علينا ، اتجاه كل مذهب ، من دون ان نضيع فيه .

تريسوتان = انا مرتبط من جهة النظام بمذهب « البير يباتيسم (٤) . »

فيلامنت — من ناحية المجرّدات انا احب الافلاطونية .

ارماند = يعجبني « ابيقور » بعقائده القوية .

بيليز = اما انا فارائي انسجم مع مذهب الاجسام الصغيرة(٥) ، لكن تقبّـــل فكرة

---

(١) كانت الحلقات والمجامع العلمية الخاصة رائجة السوق في ذلك الزمن وقـــد سخر بها مولـــير في « المتحذلقات السخيفات » ثم هنا في « النساء العالمات » (٢) ربما ظهر لنا هذا الاحتجاج معقولا ، لولا اننا نفهم ما تعنيه فيلامنت من المعارف العظيمة ، وهي لاتعدو في الحقيقة الاباطيل والحماقات . (٣) تنتقد انفصال المجمع اللغوي الذي انشأه ريشليو عن مجمع العلوم الذي انشأه كولبير . (٤) نظرية لارسطو . (٥) التي تتألف منهـــا على رأي ابيـــقور الاجسام والارواح .

الفراغ يصعب علي ، وافضّل القول بوجود الجسم اللطيف .

تريسوتان — ان ديكارت ، فيما يتعلق بالجاذبية ، يميل الى اتجاهي كثيراً .

ارماند — يعجبني حديثه عن الزوابع .

فيلامنت — وانا حديثه عن العوالم المتساقطة .

ارماند — انتظر بفارغ الصبر افتتاح مجمعنا واشتهارنا باختراع ما .

تريسوتان — انا لنرجو كثيراً من واسع معرفتك ، فالطبيعة قلما استغلقت عليك .

فيلامنت — اما انا فقد توصلت ، ولا فخر ، الى اكتشاف ، اذ رأيت بجـــلاء رجالاً في القمر .

بيليز — انا لم ار رجالاً على ما اعتقد ، ولكني رأيت اجراساً كما اراكم .

ارماند — سنتبحّر ، الى جانب العلوم الطبيعية ، في النحو والتاريخ والشعر والاخلاق والسياسة .

فيلامنت — في علم الاخلاق امور تستهويني ، وقد كان فيما مضى رغيبة العقول الكبيرة ؛ بيد اني افضل الرواقيين ، ولا اجد شيئاً يضارع جمال حكمتهم .

ارماند — عما قليل يرى الناس ما سنضع للغة من قواعد ؛ وإنا لنأمل ان نحـدث في هذا الباب ثورة . ان لدينا كراهية عقلية او غريزية تدفع كلاً منا لان يبغض اشنع البغض عدداً من الكلمات ، ما بين افعال واسماء تبادلنا الرغبـة في هجرها . سنُعدّ أحكاماً قاضية عليها ، اذ يجب ان نستهلّ محادثاتنا العلمية بالقضاء على مختلف هــذه الالفاظ التي نريد ان نطهّر النثر والشعر منها .

فيلامنت — لكن اجمل نوايا مجمعنا ، لكن المشروع النبيل الذي يملأ جوانحي غبطة ، الهدف الجيد الذي ستثني عليه العقول الذكية من الاجيال القادمة جميعاً : انما هو الغاء هذه المقاطع الكلامية القذرة التي تُنزل الفضائح في اجمل الكلمات ، هــــذه الألاعيب الدائمة لحمقى العصور كلها ، هذه التوافه الباردة يتندّر بها اشرار الناس ، هذه الموارد تُراكِمُ علينا الفاظاً متجاذبة المعاني منحطة تُمتهن بها كرامة النساء .

تريسوتان — تلك هي على التحقيق مقاصد تدعو الى الاعجاب !

بيليز — سترى نظامنا الاساسي بعد ان نفرغ منه .

تريسوتان — لن يعوزه الجمال والحكمة .

ارماند — سنكون بقوانيننا الحاكمين على كل التآليف . لقواعـدنا سيخضع النـــثر

والشعر جميعاً : لن يتمتع بالذكاء احد غيرنا وغير أحبائنا . سنبحث في كل مكان عن شيء نعيبه ، ولن نرى احداً سوانا يعرف الكتابة .

المنظر الثالث

ليبين ، تريسوتان ، فيلامنت ، بيليز
ارماند ، هنريت ، فاديوس

ليبين « الى تريسوتان » سيدي ، هنالك رجل يريد التحدث اليك . انه يرتدي السواد ويتكلم بصوت عذب .

تريسوتان — انه ذلك الصديق العالم الذي الحّ عليّ ان امنحه شرف معرفتكن .

فيلامنت — انت مفوّض في استقدامة . « الى ارماند وبيليز » : لنظهر ذكاءنا جيداً على الاقل . « لهنريت الذاهبة » : — مكانك ! قلت لك بكلمات واضحة إن لي حاجة اليك.

هنريت — ولكن ما هي ؟

فيلامنت — تعالي ، ستحاطي علماً بذلك بعد هنيهة .

تريسوتان — هذا هو الرجل الذي يموت شوقاً اليكن . انا اذ اظهره لكنّ لا اخشى الذمّ على اني قبلت في بيتكن رجلا غريباً عن جماعتنا : فانه يستطيع ان يأخذ محله بين العقول النيّرة .

فيلامنت — اليد التي تقدّمه تذكر عظيم قدره .

تريسوتان — انه يفهم المؤلفين القدماء فهماً جيداً ، ويعرف اليونانية كما يعرف الفرنسية

فيلامنت — اليونانية ! يا للسماء ! اليونانية ! انه يعرف اليونانية يا اختي !

بيليز = آه ! اليونانية يا ابنة اخي !

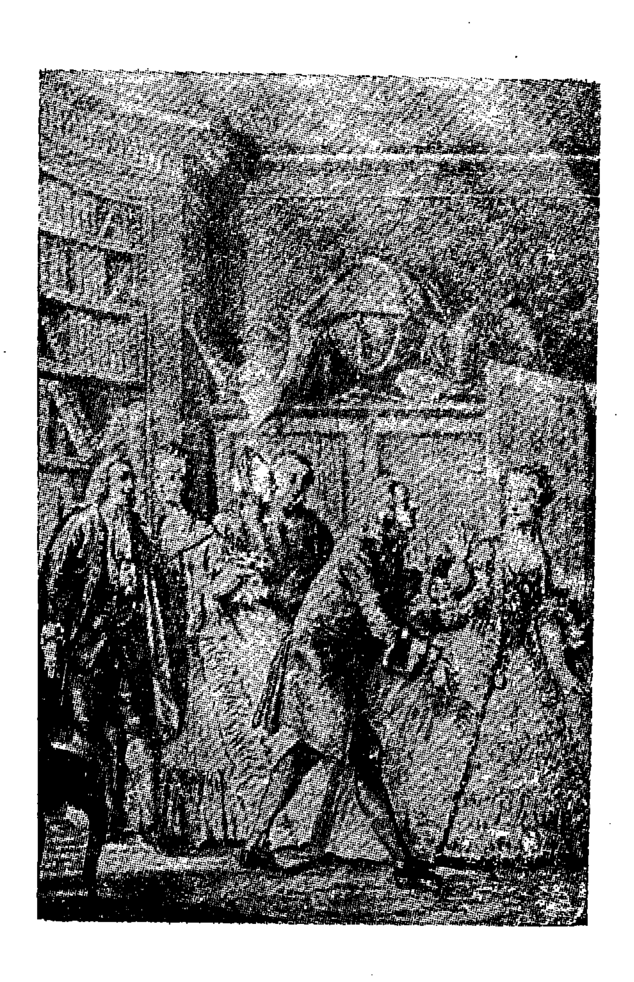
ارماند = اليونانية ! أعذبْ بها !

فيلامنت = ماذا ! السيد يعرف اليونانية ! آه ! تلطّف وأذن لنا يا سيدي ان نعانقك حباً باليونانية .

« يقبلهن جميعاً ، حتى هنريت التي ترفضه »

هنريت = اعذرني يا سيدي ، فانا لا أفهم اليونانية .

فيلامنت = للكتب اليونانية حرمة عجيبة عندي .



هنريت ترفض تقبيل فاديوس وتقول له :
اعذرني يا سيدي ، فانا لا أفهم اليونانية .

فادبوس — اخشى ان اثقل عليكن يا سيدتي بتقديم احترامي اليكن هذا النهار بدافع من رغبتي الشديدة ، فلعلي كدّرت حديثاً علمياً .

فيلامنت — مع اليونانية يا سيدي لن يُضار احد .

تريسوتان — وعلى الجملة فانه ينظم روائع الشعر كما يؤلف نفائس النثر ، وهو يستطيع اذا اراد أن يطلعكن على شيء ما .

فاديوس — نقيصة المؤلفين هي انهم يفرضون الحديث عن انتاجهم فرضاً ، أنهم لا يكلّون ولا يملّون من قراءة اشعارهم المتعبة ، في القصر(١) والبلاط ، في المخادع وعلى الموائد . اما انا ، فلا اجد ، حسبما اشعر ، احمق من مؤلف يستجدي الثنــاء أنى سار ، ويستوقف آذان اول القادمين ويجعلهم قرابين في الغالب لاشعاره . انا ابداً لا أبدي هذه الرغبة العنيدة الحمقاء ، بل أقتدي في ذلك برأي احد اليونان ، إذ منــع بصريح العبارة جميع الحكماء من الحاحهم الزري في قراءة آثارهم . هــاكم بعض الاشعار القصيرة لأجل المحبين الشباب أريد ان اعرف رأيكم فيها .

تريسوتان — لشعرك روعة ليست للآخرين .

فاديوس — ان فينوس وآلهات الجمال لتسود اشعارك .

تريسوتان — لديك اللفتة البارعة وحسن اختيار الألفاظ .

فاديوس — نرى في كل ما تكتب تصويراً للعادات والأهواء .

تريسوتان — لقد رأينا عندك اسلوبا في نظم قصائد الرعاة يفوق بملاحته ثيــوكريت وفرجيل (٢) .

فاديوس — لمقطّعاتك الغنائية معرض نبيل انيق لطيف أين منه الشاعر هوراس .

تريسوتان — هل هناك ما يجاري غنائياتك في الحب ؟

فاديوس — أفي الامكان ان نرى ما يساوي ما تصنع من قصيد ؟

تريسوتان — هل هناك شيء في جمال مزدوجاتك الصغيرة ؟

فاديوس — ام ما يعدل نتفك ذكاءً وخفّةَ روح .

تريسوتان — لا سيما في الثلاثيات فأنت موضع الاعجاب .

فاديوس — لقد بلغتَ حدّ الروعة في سجعك وتجنيسك .

---

(١) قصر العدالة . (٢) الشاعر اليوناني تيوكريت (٣٠٠ ـ ٢٢٠) ق م والشاعر اللاتيني فرجيل (٧٠ ـ ١٩) ق م أجادا نظم قصائد الرعاة .

تريسوتان — لو استطاعت فرنسا ان تعرف مقامك . . .

فاديوس — لو انصف العصر اصحاب العقول النيّرة . . .

تريسوتان — لطّفتَ الشوارع في عربة مذهبة .

فاديوس — ولنصب لك الجمهور التماثيل . (يتابع خطابه لتريسوتان) : هذه ثلاثية ، وأريد ان تذكر في صراحة . . .

تريسوتان — هل رأيت قطعة شعرية صغيرة عن الحمّى التي تعتري الاميرة أورانيا ؟

فاديوس — نعم ، قُرئت علي البارحة في ثلة من الاصحاب .

تريسوتان — أتعرف مؤلفها ؟

فاديوس — كلا ؛ غير أني اعرف جيداً ان قطعته غثّة تافهة ، اذا اردنا ان نتكلم من غير محاباة .

تريسوتان — كثيرون مع ذلك وجدوها مثار الاعجاب .

فاديوس — هذا لا يدفع انها حقيرة ؛ ولو قرأتها لرأيت فيها رأيي .

تريسوتان — أعلم اني لست من ذوقك ابداً ، وان قليلاً من الناس يستطيعون ان ينظموا امثالها .

فاديوس — اعوذ بالله ان انظم مثلها !

تريسوتان — أوكّد ان احداً لا يستطيع ان يبذّها؛ وحجتي الكبرى هي انني صاحبها.

فاديوس — انت ؟

تريسوتان — انا .

فاديوس — لم اكن على علم بالأمر اذن .

تريسوتان — ذلك اننا لم نحظ برضاك لسوء حظنا .

فاديوس — يظهر انني حينما أصغيت اليها كنت شارد الفكر ، او أن الذي قرأها عليّ قد شوّهها . ولكن دعنا من هذا الحديث ، وانزَ ثلاثيتي .

تريسوتان — الثلاثيات في ذوقي شيء لا ماء فيه ولا حياة . انها لا تجاري الذوق الحديث انها تزخم بروائح القدم .

فاديوس — الثلاثيات مع ذلك تسحر اناساً كثيرين .

تريسوتان — هذا لا يمنع انها لا تروقني .

فاديوس — ما كانت لتسوء من اجل ذلك .

تريسوتان = المتحذلقون يعجبون بها ويهللون لها .

فاديوس = ومع ذلك [1] لا نراك بها من المعجبين .

تريسوتان = انك لتعزو في غباوة صفاتك الى الآخرين .

فاديوس = بمنتهى الخبث ترمي بعيوبك الناس .

تريستون = هيا ايها الشويعر ، يا مسوّد الاوراق .

فاديوس = اخرج يا حائك الثلاثيات ، يا خزي المهنة .

تريسوتان = اخرج يا بائع العتقيات ، يا سارق القدامى السفيه .

فاديوس = اخرج يا آذن المدارس . . .

فيلامنت = على رسلكما ايها السيدان ، ماذا تريدان أن تصنعا ؟

تريسوتان = اذهب ، اذهب فأرجع المسروقات المخزية جميعها ، تلك التي يتقاضاك اياها اليونان والرومان .

فاديوس = اذهب واعترف امام الاشهاد على جبل البرناس [2] بانك قد شوّهت اشعار هوراس في سبيل اشعارك .

تريسوتان = تذكّر كتابك وقلة احتفال الجمهور به .

فاديوس = تذكر كتيبك وقد آل امره الى المستشفى .

تريسوتان = مجدي وطيد الاركان ، عبثاً تريد تمزيقه .

فاديوس = اجل ، اجل ، سأبعث بك الى ناظم الاهاجي [3] .

تريسوتان = وسأبعث بك انا كذلك .

فاديوس = يسرّني انه يعاملني بصورة مشرّفة . لقد مسّني بنقد خفيف عابر ، من بين عديد من المؤلفين [4] الذين يحترمهم القصر [5] ؛ ولكنه ابداً لا يدعك في شعره بسلام ، وكيف التفتنا وجدناك عرضة لوخزاته .

تريسوتان = من هنا انما اصبحتُ في منزلة مشرّفة . انه يضعك بين الجمهور كرجل لا شأن له ، ويعتقد انه يكفي لاخزائك ضربة واحـــدة ، فلا يشرّفك ابداً بموالاة الضرب عليك ؛ اما انا فيهاجمني على انفراد كخصم نبيـل يبدو له انه في حاجـة الى

---

(١) مع حذلقتك « المعرب » . (٢) جبل الوحي الشعري عند اليونان . (٣) بوالو ، وقد حمل بشدة على كوتان الذي يسميه موليير هنا تريسوتان ، اي الرجل المثلث الحماقات .

(٤) امثال : شابلان ، سكيديري ، كينو . (٥) قصر العدالة ، وهو يومئذ مألف الشعراء .

قواه جميعاً لملاقاته . ان طعناته التي لا ينى يواليها عليّ لتبيّن انه لا يؤمن بنصره عليّ ابداً .

فاديوس = لتُعلمنّك ريشتي اي رجل استطيع ان اكون .

تريسوتان = ولتريَنك ريشتي استاذاً لك .

فاديوس = أتحدّاك في الشعر والنثر واليونانية واللاتينية .

تريسوتان = حسناً ! سنلتقي على انفراد في حانوت « باراباں (١) »

المنظر الرابع

تريسوتان ، فيلامنت ، ارماند ، بيليز ، هنريت

تريسوتان = لا تؤاخذيني يا سيدتي بما غضبت ، فأنا انما ادافع عن رأيك في المقطوعة التي تجرّأ على مهاجمتها .

فيلامنت = اريد اعادتك الى صفوك . لكن لنتحدّث في شأن آخر . اقتربي ياهنريت . ان نفسي لفي قلق منذ وقت طويل من انك لا تكشفين عن بادرة ذكاء ؛ بيد اني وقعت على طريقة لتحصلي منه على شيء .

هنريت = انك بذلك تمنّين نفسك من اجلي بما لا ضرورة له . ليست احاديث العلم مني في شيء . احب ان اعيش في حرية ويسر ، ولا بدّ في كل ما تقولون من بذل جهد كبير للتوصل الى الذكاء . ذلك مطمع لم يدُر في خلدي ابداً . اناسعيدة كل السعادة يا امي من اني غبية لا افقه شيئاً . ولأحبُّ اليّ ألا اخوض الا في احاديث مألوفة من ان ارهق النفس للتفوه بالفاظ حسان .

فيلامنت — نعم ؛ ولكن ذلك يؤذيني ، وليس من مصلحتي ان اتحمّل في ولدي عاراً كهذا . ان جمال الوجه زينة تافهة او زهرة عابرة او بهجة هنيهة ، ليس منوطاً الا بالبشرة البسيطة . لكن جمال الذهن دائم ثابت . لقد بحثت اذن طويلا عن وسيلة لمنحك الجمال الذي لا تعفّي عليه السنون ، لبثّ الرغبة في العلوم في نفسك ، لادخال المعارف الجميلة الى ذهنك ؛ واخيراً فان الفكرة التي حازت حسن قبولي هي ان أصلك

---

(١) طابع آثار موليير وبوالو .

برجل ثاقب الذكاء ؛ وهذا الرجل هو السيد تريسوتان الذي أفرض عليك ان تعتبريه الزوج الذي اختاره لك .

هنريت = انا يا امي ؟

فيلامنت = اجل ، انت . تباطي قليلاً .

بيليز «الى تريسوتان» = افهم ما ترمى اليه. عيناك تطلبان موافقتي لتضع في مكان آخر قلباً املكه . لا بأس ، انا اريد ذلك . اني متخلية عنك لهذه الرابطة : انه زواج يأخذ بيدك الى الاستقرار .

تريسوتان « لهنريت » = لا اعرف ماذا اقول لك وانا في نشوة سروري ؛ ان هذا الزواج الذي اراهم يشرفونني به يا سيدتي ليجعلني . . .

هنريت = مهلاً يا سيدي ! فانه لم يتمّ بعد ؛ لا تسرع كثيراً .

فيلامنت = يا له من جواب ! اتعلمين جيداً انه اذا . . . ؟ يكفي ، فانت تفهمينني . « الى تريسوتان » ستكون عاقلة . هيا ، لندعها وشأنها .

المنظر الخامس

هنريت ، ارماند

ارماند = نرى عناية امنا بك في ازدياد ؛ ليس في مكنتها ان تختار احسن من هذا الزوج الفذّ.

هنريت = اذا اعجبك اختياره فلم لا تأخذينه ؟

ارماند = أنت التي مُنحت يده لا انا .

هنريت = اتنازل لك عنه ، على اعتبار انك اختي الكبرى .

ارماند = لو ان الزواج يستهويني مثلك لتقبلت تقدمتك بمنتهى السرور .

هنريت = لو ان في رأسي مثلك محلا للمتحذلقين لرأيته جدّ لائق بي .

ارماند = مع ذلك ، على اختلاف اذواقنا في هذا الأمر ، فان علينا يا اختاه ان نطيع والدينا ؛ لأمنا علينا كامل السلطة ؛ وعبثاً تظنين انك بتمنّعك . . .

المنظر السادس

كريزال ، آريست ، كليتاندر ، هنريت ارماند

كريزال « يخاطب هنريت ويقدّم اليها كليتاندر » = هيا يا ابنتي ، يجب ان تقرّي خطتي.

اخلعي هذا القفاز . صافحي هذا السيد واعتبريه في نفسك منذ الآن ذلك الرجـل الذي اريد ان تكوني زوجه .

ارماند = ميلك الى هذه الناحية من القوة بمكان يا اختي .

هنريت = علينا يا اختاه ان نطيع والدينا ؛ فللاب كامل السلطة علينا .

ارماند = للام نصيب من طاعتنا .

كريزال = ما معنى هذا ؟

ارماند = اقول انني اخشى كثيراً ألا تكون على وفاق مع والدتي في هذا الأمر ، وان زوجاً آخر . . .

كريزال = اخرسي يا ثرثارة . اذهبي وتفلسفي معها ما شئت ، ولا تـدخلي في شيء من اعمالي . أنبئيها بفكرتي وحذّريها جيداً ان تأتي وتلهب باقوالها أذني . هيا ، أسرعي .

آريست = حسن جداً : لقد صنعتَ العجائب .

كليتاندر = يا لها فورة ! ما اشدّ غبطتي ! ما ألطف حظي .

كريزال « الى كليتاندر » : = هيّا ، خذ بيدها واخطر امامنا . « الى آريست » : خذها الى غرفتها . آه ! يا لحلو الدلال ! يهيج فؤادي لمظاهر الحنان هذه ؛ ان هذا ليبهج ايام شيخوختي ، واني لأذكر صبواتي وايام غرامي الأول .



الفصل الرابع

المنظر الاول

ارماند ، فيلامنت

ارماند — اجل ، ما من شيء استطاع ان يحملها (١) على التردّد. انها تفاخر بطاعتها. كاد قلبها لا ينتظر الاذن ليلقي بنفسه بين ذراعي كليتاندر ؛ فلكأنها أحرص على التهاون بأوامر أمها منها على الاحتفال بارادة أبيها .

فيلامنت — لأرينّها لأوامر من منا يأمر العقل ان تخضع ، لأعرفنّها أينا يجب ان يحكم : أمّها ام ابوها ، العقل ام الجسم ، الروح (٢) ام المادة .

ارماند — لستحقين على ذلك التهنئة في الأقلّ ؛ ان هذا السيد الصغير غريب التصرّف اذ يريد ان يصبح صهراً لك بالرغم منك .

فيلامنت — لم يبلغ بعد حيث يطمح قلبه. كنت استحسنه، وكنت ارتاح لحبكما ؛ (٣) لكنه في تصرّفاته كان لا يرضيني ابداً . انه يعرف أني بحمد الله آخذ من الكتابة بنصيب ، ومع ذلك فانه لم يطلب اليّ يوماً ان أقرأ عليه شيئاً .

المنظر الثاني

كليتاندر «داخلاً برفق ومحاذراً ان يُرى» . أرماند . فيلامنت .

ارماند — ما كنت لأسمح لو كنت مكانك ان يصبح زوجاً لهنريت أبداً . لقد يمنون في الاساءة اليّ إن دارت في اذهانهم فكرةُ أني اتناول الموضوع بلهجة فتاة مغرضة ، وان الدور الدنيء الذي رأوه يمثله معي يجعل في صدري غلا خفياً له . أما إن النفس لتتحصّن من امثال هذه الآفات بالعون القوي الذي تمدّنا به الفلسفة، فبها لنستطيع ان نسمو على كل شيء ؛ بيد أن معاملتها إياك على هذا النحو معناها اكراهك على ما تريد إكراها . فمعارضة رغباتها يتعلّق بكرامتك ؛ وجملة

(١) الضمير يعود الى هنريت (٢) تصرّفنا عند هذه الكلمة قليلا . (٣) كان كليتاندر يخطب ودّ أرماند ثم عدل عنها الى اختها .

القول أن هذا رجل يجب الا يفوز ابداً برضاك . ابداً لم ألمس عنده ، عندما كنت اناقله الحديث ، أثارةً من احترام لك في اعماق قلبه (١) .

فيلامنت — يا للغبي الحقير !

ارماند — مهما يدوّي في الآفاق مجدك فانه يقف من الثناء عليك موقف الجامد البارد.

فيلامنت — يا للجافي المتوحّش !

ارماند — عشرين مرة قرأت عليه من آثارك المتجددة شعراً فلم يُسِغه ولم يلتفت اليه.

فيلامنت — يا له من بليد !

ارماند — ما اكثر ما كنا نتخاصم في ذلك ؛ وقد لا تصدقين بكم من السخائف . . .

كليتاندر — زه ! على هينتك يا سيدتي ، أجملي . قليلا من المعروف ، او على الاقل، قليلا من المروءة والصدق . بأي سوء أردتك ؟ ما هي اساءتي حتى تعدّي كل ما أوتيتِ من فصاحة لمقاومتي ؟ حتى تريدي التنكيل بي، وتبذلي غاية الجهد لتبغّضيني الى الذين احتاج اليهم ؟ تكلمي ، قولي ، أنّى هذا الحقد المخيف ؟ اريد ان تكون السيدة في ذلك قاضية عدلا .

ارماند — لو كان في صدري الحقد الذي به أتّهم لوجدت ما اجوّزه به. لأنت اهل له، إذ ان للحب الاول حقوقاً من القداسة بحيث يجب ان نضحّي له بمستقبلنا ونزهد بحياتنا ، فذاك احرى بنا من ان نكتوي بنار حب جديد (٢) . ما من قباحة كفاء للعدول عمن نحب ، وكل قلب خالس بعهده هو في عرف الاخلاق قلب بغيض وضيع .

كليتاندر — أتسمّين ياسيدتي نقضاً للعهود العمل الذي اضطرني اليه زهوك وعتوك ؟ ما زدت على ان اطعت الأمر الذي فرضاه علي ، فاذا انا اجترحت سيئة نحوك فهما وحدهما السبب . لقد امتلك جمالك باديء الأمر قلبي ؛ فاكتوى بسعير هواك عامين اثنين ، ولم يعرض له شاغل ملح او واجب او حرمة او خدمة إلا قدمها على مذبح الحب . هذا الغرام المستعر كله ، هذه العناية البالغة جميعها لم يستطيعا ان يعطفاك شيئاً علي ؛ رأيتك حرباً على أماني العذاب : هذا الذي رفضته عرضته

---

(١) كثيراً ما تجتمع صفة الخبث والدناءة في ابطال موليير الى صفة الحمق والبلاهة «المعرب» .

(٢) كانت ارماند تصد كليتاندر وتتعالى عليها ، فلما اجتواها ورغب عنها الى اختها هربت . وجدت عليه وحاولت أذاه «المعرب» .

على غيرك . أنظري يا سيدتي ، أعلي إثم هذا الأمر ام عليك؟ أقلبي هو الذي بادر الى التغيير ام انت دفعته اليه؟ اانا الذي تركتك ام انت التي طردتني؟

ارماند — اتدعو حرباً على امانيك انتزاع ما فيها من وضاعة والرغبة في العدول بها الى تلك الطهارة التي يقوم عليها جمال الحب؟ الا تستطيع ان تصرف تفكيرك في خالصاً نقياً من علاقات الحواس؟ الا تستطيب اتحاد القلبين هذا في لطيف لذته حيث لا دخل للجسدين البتة؟ اما انك عاجز عن ان تحب إلا حباً غليظاً تدعمه روابط المادة جميعاً؛ فاذا اردتُ ان أبقي على حب انشأته فيك فلا بد من الزواج ومن كل ما يتبعه . آه! ياله من حب عجيب! وما ابعد النفوس الراقية عن التحرق بهذا اللهيب الأرضي! ابداً لا يكون للحواس نصيب من اشواقهم، وجميل غرامهم لا يبتغي سوى تزاوج القلوب؛ فهو يزهد فيما خلا ذلك زهده في شيء قبيح . انها لنارٌ صافية جلواء كنار السماء؛ معه لا ينفث المرء الا زفرات شريفة، ولا يتشهّى قط دنس الرغائب . ما من رجس يشوب اهدافهم . يحبّون للحب، لا لشيء سواه . الى العقل وحده تتجه عواطفهم، وما كانوا ليلتفتوا ابداً الى ان لهم اجساماً .

كليتاندر — اما انا فمن اسف اني ارى يا سيدتي ان لي جسماً، كما ان لي روحاً؛ احس انه اكبر شأناً من ان اصرف عنه النظر . هذا الزهد والتجرد لم اتصنّعهما قط؛ لقد ابت علي السماء هذه الفلسفة، فروحي وجسمي يسيران جنباً الى جنب . وكما قلتِ، فانه ما من شيء اجمل من هذه الاماني المهذبة التي لا تتوجه لغير العقل، من اتحاد القلوب، من هذه الافكار الرقيقة المجردة من علاقات الحواس؛ بيد ان هذه المودّات هي اصفى وارقى من ان اتطاول اليها : انا على جانب من جفاء الطبع، كما تتهمينني؛ أحب بجماع نفسي، واعترف ان حبي يتناول المحبوب كله . ان ذلك لا يستدعي شديد العقاب، وانا وان كنت لاالومك على جميل عواطفك، أرى الناس في هذا العالم ينهجون نهجي، والزواجَ متعارفاً دارجاً، يعتبره الجميع رابطة من العذوبة والشرف بحيث تسمح لي ان اشتهي الزواج بك، من دون ان يفسح لك ما في هذه الفكرة من حرية مجالا للاستياء .

ارماند — حسناً يا سيدي حسناً، ما دامت عواطفك الجافية لا تصغي اليّ وتريد ان تقضي لبانتها . فبما اني اردت ان اعيدك الى حرارتك ووفائك فيجب ان التمس

روابط اللحم وقيود الجسم ، فانا سأحمل النفس على تقبّل ما يجب لاجلك اذا كانت امي توافق عليه (١) .

كليتاندر — لقد فات الوقت يا سيدتي : فتاة اخرى اخذت المكان ؛ بمثل هذا المنقلب سأكون مدخول النيّة فاسد المروءة إن انا اسأت الى الفتاة التي لذّتْ بلطفها من غرورك واختيالك .

فيلامنت — ولكن هل تعتمد يا سيدي على تأييدي ، عندما تمنّي النفس بذلك الزواج الآخر (٢) ؟ ألا خبرني ، أتعلم وانت سادر في اوهامك ان لديّ زوجاً آخر حاضراً لهنريت ؟

كليتاندر — هيه يا سيدتي ! أنعمي النظر فيمن تختارين ، أرجوك ؛ عرّضيني ، من فضلك ، لعار اقلّ وطأة ؛ لا تردّيني الى ذلك المصير الزريّ بان اراني منافساً للسيد تريسوتان . ان حبك للأذكياء الذي لا أتفق معك فيه لعاجز عن ان يضع في طريقي خصماً اقل منه نبلا . كثيرون هم الذين خيّل الى الناس ذوي الاذواق الرديئة انهم اهل فطنة وحذق فأعجبوا بهم وقدّموهم ؛ غير ان السيد تريسوتان لم يستطع ان يغرّ احداً ، فالكلّ يوفّون كتاباته حقها . في كل مكان ما خلا هذا نرى الناس يقدّرونه قدره الحق . وان ما اثار بالغ دهشتي عشرين مرة هو أنكنّ ترفعن الى السماء ترّهاته التي قد تستوخمنها لو انكن نظمتنّها .

فيلامنت — اذا كنت تقضي فيه قضاء يختلف عنا فلأننا ننظر اليه بغير العينين اللتين تنظر بهما اليه .

المنظر الثالث

تريسوتان ، ارماند ، فيلامنت ، كليتاندر

تريسوتان — جئتكم بخبر عظيم . لقد نجونا لحسن الحظ يا سيدتي (٣) من خطر اذ كنا نائمين . دنيا بالقرب منا مرت على نطاق واسع ، وسقطت خلال منظومتنا ؛

(١) ارماند . على اعجابها بتريسوتان تفضل ان تتزوج كليتاندر ! انها هنا تسير ولا شك بوحي الغريزة السليمة . «المعرب» . (٢) زواجه من هنريت . (٣) يخص فيلامنت بين حين وآخر بخطابه ، لأن في يدها دفة الامور . ان تريسوتان ، الى ادعائه ، منافق يعرف من اين تؤكل الكتف «المعرب» (٤) كليتاندر .

ولو انها صادفت في طريقها ارضنا لتحطمت إرباً إرباً كقطعة من زجاج .

فيلامنت — لنؤجّل هذا الحديث الى وقت آخر ، فلن يجد فيه السيد ذوقاً ولا معنى ؛ انه يستطيل بحبّ الجهالة ، وببغض الذكاء والعلم .

كليتاندر — هذه الحقيقة تتطلّب بعض التلطيف . اني شارح قصدي يا سيدتي : فانا انما اكره العلم والذكاء اللذين يفسدان الناس فقط . هذه اشياء جميلة نافعة في حقيقتها ؛ بيد أني افضل ان اكون في صف الجهلاء على ان اكون عالماً كبعض الناس .

تريسوتان — اما انا فلست ارى ان العلم قد يفسد الاشياء مها يكن تأثيره .

كليتاندر — واليك رأيي انا : ان العلم قد يخلق الحمقى الكبار في الاعمال والأقوال .

تريسوتان — انه لزعم خطير .

كليتاندر — برهان ذلك عليّ ما اعتقد من السهولة بمكان، فهو لا يستدعي ذكاء ولا حذقاً. ولئن اعوزتني الأسباب اردّ اليها هذا الأمر فانا لا تعوزني الامثلة المشهورة.

تريسوتان — تستطيع ان تذكر من هذه الامثلة من لا يدلّ ذكرهم على شيء .

كليتاندر — لن اذهب بعيداً لألتمس المثل .

تريسوتان — اما انا فلا اجد هذه الامثلة الذائعة الصيت .

كليتاندر — انا أراها وأراها حتى تكاد تفقأ عينيّ .

تريسوتان — كنت اعتقد الي اليوم ان الجهالة هي التي تخلق الحمقى ، لا المعرفة.

كليتاندر — اخطأ ظنّك كلّ الخطأ ، وانا لك زعيم ان الاحمق العالم هو اشد حماقة من الأحمق الجهول .

تريسوتان — الرأي المتعارف بين الناس يناقض اقوالك ، لأن الجاهل والأحمق لفظان مترادفان .

كليتاندر — اذا انت اردت ان تنقل المناقشة الى استعمال الكلمة فالعلاقة اقوى بين : متحذلق وأحمق .

تريسوتان — الغباوة في احد اللفظين اصرح واوضح .

كليتاندر — والدراسة في اللفظ الآخر تزيد طبيعة الغباء تعقيداً .

تريسوتان — المعرفة تحتفظ في نفسها بقيمتها السامية .

كليتاندر — المعرفة في الغبيّ تصبح امراً في غير محله المناسب.

تريسوتان = يبدو ان للجهالة في نظرك جمالا عظيماً ، فما اكثر ما تدافع عنها.
كليتاندر = اذا كان للجهل ما يزينه في قلبي ويحببه الي فذلك منذ وقعت عيناي على بعض العلماء (١) .
تريسوتان = هؤلاء العلماء لو عرفتهم لرأيتهم في منزلة بعض الأفراد المتبينين .
كليتاندر = نعم ، ولكن اذا وثقنا بأقوالهم هم . بيد أننا لا نركن الى ما يدّعون.
فيلامنت والى كليتاندر» = يلوح لي يا سيدي...
كليتاندر = رحماك يا سيدتي ، ان السيد لمن القوة بمكان من غير ان تنهضي لمؤازرته:
لقد عانيت الكثير من هذا المهاجم القاسي ؛ واذا كنت ادافع عن نفسي فمتراجعاً .
ارماند = لكن القساوة الجارحة في كل جواب ترد به...
كليتاندر = مؤازرة اخرى ؛ تنازلت عن موضوعي .
فيلامنت = امثال هذه الخصومات محتمل في المحادثات ، على ألا تتناول الاشخاص.
كليتاندر = زه يا آلهي ! ليس في كل هذا ما ينتقص من قدره ؛ انه يفهم التهكم كما يفهم الفرنسية ، ولقد أحس بسهام اخرى كثيرة تحزه فلم يبال بها وسخر منها.
تريسوتان = ما كنت لأدهش ، في المعركة التي اخوضها ، لرؤية السيد يناصر هذه القضية . لشد ما انغمس في البلاط ، هذا يكفي ؛ من مصلحة البلاط ان يناصر الجهالة ، فالسيد يدافع عنها بحكم انتسابه اليه .
كليتاندر = اما انك لشديد الموجدة (٢) على هذا البلاط المسكين ، وان شقاءه لعظيم اذ يراكم كل يوم ايها المتذاكون تنحون باللائمة عليه، واذ تخاصمونه ساخطين ناقمين ، واذ تحملون على ذوقه الرديء ولا تتهمون احداً سواه في إخفاقكم . الا فلتسمح لي يا سيد تريسوتان ان اقول لك ، على جزيل الاحترام الذي يوحي به اسمك الي ، إنكم تحسنون صنعاً ، انت وزملاؤك ، اذا تحدثتم عن البلاط على نحو الطف ؛ وإنه اذا عرفنا كيف نتفهمه ليس من الغباوة ، في حقيقته ، كما يدور في خلدكم ايها السادة ؛ وإن لديه ما لدى الناس من رشد يتصدّى به للحكم على الاشياء؛ وان من فيه لا يخلون من ذوق سليم ؛ وان الذكاء الاجتماعي يفضل عنده ، ولا محاباة ، علم الحذلقة المظلم كله (٣) .

---

(١) امثالك ، الذين هم على شاكلتك . (٢) الحقد . (٣) كان المنافقون والمتحذلقون اعداء موليير ، فكان في حاجة الى تأييد القصر كحاجته الى تأييد النظارة .

تريسوتان = ترى يا سيدي نتائج ذوقه الحسن .

كليتاندر = في اي ناحية ترى هذه النتائج سيئة يا سيدي ؟

تريسوتان = الذي اراه يا سيدي هو ان «راسيوس» و «بالدوس» هما فخر فرنسا في العلم ، وان عظيم فضلهما الظاهر في وضح النهار لم يجذب اليهما قط انظار القصر وهباته (١) .

كليتاندر = ارى الشيء الذي يثير المك وسخطك ، وارى انك تحتشم يا سيدي ان ان تنظم نفسك مع الجماعة . واجاريك فلا اضعك في الحديث ، ثم اسألك : ماذا صنع الدولة بطلاك الابيبان هذان ؟ ماذا اجدت عليها كتاباتها فيكون من حقها ان يتهماها بعدم الانصاف ويضجا بشكواهما حيثما كانا من انها لا توالي عطفها وهباتها على القابها العلمية ؟ اما ان معرفتها ضرورة لازبة لفرنسا ! والقصر ما احوجه لكتبهما ! يلوح لثلاثة صعاليك(٢) في دماغهم الصغيرانهم اذا طبعوا وجلدوا فقد أصبحوا اشخاصاً ذوي مكانة في الدولة ؛ يخيل اليهم انهم بأقلامهم يرسمون مصائر التيجان ؛ وأن لهم ان يروا الرواتب تطير اليهم لأقل ضجة يثيرونها بانتاجهم وان عيون الناس شاخصة اليهم ؛ وان مجد اسمهم يتدفق في كل مكان ؛ وأنهم في العلم آيات بينات لانهم يعلمون ما قال الآخرون قبلهم ، لأن كان لهم مدى ثلاثين عاماً عيون وآذان ، لانهم أمضوا تسعة آلاف سهرة او عشرة يخلطون في اليونانية واللاتينية ، ويحملون الذهن باسلاب قائمة من اشياء عتيقة تحتويها الكتب؛ قوم لا ينفكون سكارى بما عرفوا ؛ كل فضلهم أنهم اغنياء بزعج الهذر ، قاصرون في كل شيء ، يعوزهم الشعور الطبيعي ، ويجمعون في انفسهم المضحك والخبيث بحيث يكرهون الى الناس الذكاء والعلم .

فيلامنت = أما إن حماستك لشديدة ، وهذا الاحتداد يشير الى اتجاه طبيعتك ؛ انه اسم المنافس الذي يثير في نفسك . . .

المنظر الرابع

جوليان ، تريسوتان ، فيلامنت ، كليتاندر ، ارماند

جوليان = العالم الذي كان في زيارتكم منذ قليل ، والذي لي الشرف ان اكون خادمه ،

(٣) لا تنس ان الوزير كولبير كان يوزع الهبات والرواتب حين ذاك على العلماء والكتاب الفرنسيين والاجانب ، بأمر لويس الرابع عشر وارشاد الاديب شابلان . (٢) راسيوس ، بالدوس ، تريسوتان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحثك يا سيدتي على قراءة هذه البطاقة .

فيلامنت = مهما يكن الذي تريد ان اقرأه هاماً ، فاعلم يا صديقي ان من الحماقة ان تأتي فتلقي بنفسك وسط حديث ما ، وان عليك ان تقابل الخدم حتى يتسنّى لك ان تدخل كخادم يعرف كيف يعيش .

جوليان = سأدوّن هذا يا سيدتي في كتابي .

فيلامنت «تقرأ» = «تفاخَرَ تريسوتان ياسيدتي بان سيتزوّج ابنتك. أعلمك بان فلسفته لا تطمح الى غير أموالكم ، وبانك تحسنين صنعاً إن لم تبتّي في هذا الزواج ما لم تري القصيدة التي أؤلفها ضده . بانتظار هذه الصورة التي اريد ان أجلوه فيها عليك بجميع الوانه ، فانا ابعث اليك بمؤلفات هوراس وفرجيل وتيرانس وكاتيل ، حيث ترين في الهوامش اشارات الى جميع المواضع التي سرقها . »

فيلامنت «تتابع» = هأنتم ترون ، في هذا الزواج الذى أمنّي النفس به ، رجلا فاضلا كفيئاً ينوشه الاعداء من كل جانب ؛ هذه النقمة البالغة تدعوني اليوم الى القيام بعمل يخزي الحسادَ ويريهم ان جهودهم لتحطيم المشروع سوف تعجّل انجازه . أنقل هذا كله الى سيدك في الحال ، وقل له إنني اريد ان اريه كبير احترامي لآرائه النبيلة وأنها جديرة بالاتباع ، ومن اجل ذلك فسأزوّج ابنتي ليلتي هذه من السيد تريسوتان . وانت يا سيد كليتاندر ، تستطيع ان تشهد توقيع العقد صديقاً للأسرة ، فأنا ادعوك اليه . وانت يا ارماند وجّهي في طلب الكاتب العدل وامضي الى اختك فأخبريها بالأمر .

ارماند = لا حاجة الى اخبار اختي ، وسيأخذ السيد كليتاندر على عاتقه ان يسرع نحوها ليحمل اليها بعد هنيهة الخبر ، وليهيّئها لعصيانك .

فيلامنت = سنرى أيّنا اكبر سلطاناً عليها ، وما اذا كان في امكاني ان ألزمها الواجب . «تخرج»

ارماند = اسفي كبير يا سيدي من ان الأمور لا تجري تماماً وفق خططك .

كليتاندر = سأعمل بقوة يا سيدتي على الا اترك في قلبك هذا الاسف العظيم .

ارماند = أخشى الا يؤدي جهدك الى نتيجة مرضية .

كليتاندر = عسى ان تخيب خشيتك .

ارماند = اتمنى ان يكون الأمر كذلك .

كليتاندر = انا متأكد من ذلك ، ومن انك ستعينيني عليه .
ارماند = اجل ، سأخدمك بكل قواي .
كليتاندر = انا شاكر لك خدمتك هذه جزيل الشكر .

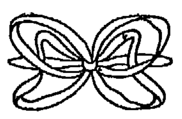
المنظر الخامس

كريزال ، آريست ، هنريت ، كليتاندر .

كليتاندر = انا إن لم تكن في عوني لأكوننّ من الخاسرين : لقد رفضت السيدة زوجتك رغباتي ، انها تريد تريسوتان صهراً لها .
كريزال = ولكن اية رغبة عابثة امتلكتها ؟ لماذا تريد هذا السيد تريسوتان ؟
آريست = انما تغلّب على منافسه (١) بما له من شرف النظم باللاتينية .
كليتاندر = انها تريد ان تعقد الزواج ليلتها هذه .
كريزال = ليلتها هذه ؟
كليتاندر = ليلتها هذه .
كريزال = وهذه الليلة اريد ان اخالفها فأعقد قرانكما (٢) .
كليتاندر = بعثتْ تطلب الكاتب العدل لتحرير الصك .
كريزال = وسأبعث في طلبه ليحرّر ما يجب .
كليتاندر = وعلى السيدة ارماند ان تنبىء اختها بالزواج الذى يراد ان تهيّىء قلبها له .
كريزال = وانا آمرها بقوة ان تهيّىء يدها للزواج الآخر . لأرينّهم هل مَن سيّد غيري يأمر في بيتي وينهى . سنعود ، انتظرنا يا هنريت . هيا ، اتبعني يا اخي ، وانت كذلك يا صهري .
هنريت «لأريست» = وا اسفاه ! ثبّت قلبه دوماً على هذه الحال .
آريست = لن ادّخر وسعا في خدمة حبكما .
كليتاندر = مهما يعيدوا حبي بقويّ المعونة فان املي الوطيد معقود على قلبك يا سيدتي .
هنريت = اما قلبي فلك ان تتأكّد منه .
كليتاندر = لا يسعني إلا ان اكون ناعم البال اذ يخفّ لنجدتي .

(١) يريد : كليتاندر . (٢) لاحظ شجاعة كريزال في غياب زوجه «المعرب»

هنريت = الت ترى على أيّ رابطة يرغبون ان يُكرهوه .
كليتاندر = ما دام هو لي ، فلست اجد ما اخشاه .
هنريت = سأحاول كل شيء لتحقيق امانينا العذاب ؛ فاذا لم أحظَ بك فهنالك معتزَل تأوي اليه (١) وسيعصمني إن اكون لغيرك .
كليتاندر = فلتحفظني السماء العادلة من ان أتلقّى منك على الحب هذا البرهان .



(١) تريد : الدير

الفصل الخامس

المنظر الاول

هنريت ، تريسوتان

هنريت — عن الزواج الذي تستعد له أمي انما اردت يا سيدي ان أسر اليك حديثاً ؛ فقد أحسب ، والبيت في القلق الذي اراه عليه ، أن في استطاعتي ان اردك الى الصواب . أعلم أنه يخيل اليك انني قادرة على ان احمل اليك مع رغباتي مالاً وفيراً على سبيل المهر ؛ غير أن المال الذي يقيم الناس له وزناً كبيراً لا شأن له في نظر الفيلسوف الحق ، ولا ينبغي لك ان تقتصر في احتقار المال والامجاد الباطلة على الكلام دون العمل .

تريسوتان — من اجل هذا فليس المال بالذي يسحرني فيك ؛ جاذبيتك ، عيناك النافذتان الوديعتان ، ملاحتك ، هيئتك : تلك هي الارزاق التي جذبت نحوك اماني ورقيق عواطفي ؛ لهذه الكنوز وحدها انما انا عاشق .

هنريت — انا جد مدينة لكريم عاطفتك . في هذا الحب وإحسانه ما يخجلني ، اذ يؤسفني يا سيدي ألا استجيب له . انا اقدرك حق قدرك ، غير أني أجد ما يمنع من حبك . لا يستطيع القلب ، كما تعلم ، أن يكون لاثنين ، وانا اشعر بان كليتاندر هو سيد قلبي . أعلم أنه دونك في المزايا ، وأن عيني لم تحسنا اختيار زوجي ، وانك كنت حرياً ان تنال اعجابي بمئة منقبة ؛ واری جيداً انني على خطأ ، بيد أنه ليس في يدي ان اصنع غير هذا ؛ وكل ما يستطيعه العقل من التأثير علي هو أن يحملني على ان أبغض النفس لهذا العمى .

تريسوتان — إن منحهم اياي يدك التي جعلوني اتطاول اليها سيسلمني هذا القلب الذي يملكه كليتاندر ؛ ان لي ان اثق كل الثقة بأني استطيع بموالاة عنايتي بك ان اجد الفن الضروري للتحبب اليك .

---

(١) تريد : الدير

هنريت — كلا ؛ لقد ارتبطت نفسي بحبها الأول ، ولن يكون لهـــا ان تتأثر يا سيدي بكبير عنايتك . في ميسوري ان أوضح هنا عن نفسي معك ، وليس في اعـترافي ما يسوءك . ليست حرارة الحب المنبعث في القلوب بنتيجة للفضل والألمعيّة ، كما تعلم ان للهوى في ذلك دخلا ، فاذا ما اعجبنا انسان صعب علينا في الغالب ان نذكر لذلك من سبب. لو كان الحب يا سيدي بالاختيار والحكمة لحظيت بقلبي وبجماع عاطفتي؛ بيد اننا نرى الحب يسير على نحو آخر . دعني ، ارجوك ، لعماي ، ولا تعمد الى هذه الشدّة التي يريدون بها حملي على طاعتك . عندما يكون الرجل شريفاً يأبى ان يكون مديناً لشيء مما لآبائنا من السلطة علينا؛ انه ليكره ان يضحّي لنفسه بمن يحب ، ولا يريد ان يحصل على قلب إلا من نفسه . لا تدفع والدتي الى ان تمارس على رغباتي حقوقها الصارمة بهذا الاختيار . أزِح حبك عني ، واحمل الى فتاة اخرى تكريم قلب نفيس كقلبك .

تريسوتان — السبيل الى ان يفوز هذا القلب برضاك ؟ افرضي عليـــه أحكاماً يطيق تنفيذها . أفي يده ألا يحبك ؟ الا اذا فارقت يا سيدتي ملاحتك ورغبت عن عرض جمالك السماوي على العيون . . .

هنريت — بحسبك يا سيدي ! لندع هذا الحديث الشائك . لديك الكثيرات من «ايريس» و « فيليس » و « امارانت [1] » ، اللواتي تصوّر جمالهنّ في شعرك اينما كنت ، واللواتي طالما اقسمت لهن على حرارة حبك . . .

تريسوتان — عقلي هو الذي يتكلم ، لا قلبي. في الشعر انما أُرى عاشقاً لهنّ ؛ غير أني أحب في الحقيقة هنريت المعبودة .

هنريت — ايه ! رحماك يا سيدي . . .

تريسوتان — اذا كان في هذا ما يسوءك ، فاني غير مستعد ان انهي عن اساءتي . هذه الحرارة التي تجهلينها الى اليوم لتنذرُ لك خالد المنى؛ لاشيء يستطيع ان يقف اندفاعها الرغيب ؛ ومع ان محاسنك تثبّط جهودي [2] فانه ليس في ميسوري ان ارفض نجدة امّك التي ترغب في مكافأة غرام جســدٌ أثـير ؛ واني اذا فزت بلطيف السعادة

(١) بطلات القصائد الريفية ، كان كوتان يمجد ، تحت هذه الاسماء ، المعجبات بشعره من النساء . وكوتان هذا هو الذي يتهكم به موليير تحت اسم : تريسوتان .

(٢) لا تنس ان المتكلم احد المتحذلقين .

فامتلكتك فلا اهمية عندي للطريق التي اتوصل بها الى ذلك .

هنريت — ولكن هل تعلم أننا نخاطر اكثر مما يخيل الينا اذا اردنا ان نعمد الى الشدة للتأثير على القلب ، وانه ليس من المستحسن ، اذا اردنا الصراحة ، ان تقترن بفتاة على الرغم منها ، وأن في مكنتها حين تكرَه على امر كهذا ان تبلغ في النقمة حداً يخشاه الزوج ؟

تريسوتان — ليس في هذا الحديث ما يقلقني ، فالعاقل يستعدّ لكل حادث . لقد شفي بالعقل من اعراض الضعف العامة ، فهو يترفع عن امثال هذه الأمور ، ولا يعتريه غمّ لما ليس في يده ردّه .

هنريت — في الحقّ يا سيدي اني جد معجبة بك ؛ ولم اكن اظن ان الفلسفة على هذا الجمال الرائع ، اذ تعلّم الناس هكذا ان يستمسكوا بامثال هـذه الحوادث . هذه الصلابة التي انفردتَ بها جديرة ان يُوسّع لها المجال ، جديرة ان تجد من تحبها وتولي أمرَ اظهارها للوجود عنايةً خاصة ؛ ولما كنت لا اجرؤ في الحقيقة على الاعتقاد باني أهل لأن اعطيها كل مالها من روعة وبهاء ، فانا اتركها لأخرى غيري وأقسم لك فيما بيننا على انني أصرف النظر عن سعادة الاقتران بك .

تريسوتان — عما قليل نرى كيف ستسير الأمور ، فقد جاءوا بالكاتب العدل .

المنظر الثاني

كريزال ، كليتاندر ، مارتين ، هنريت

كريزال — آه ! بنيّتي ، انا مسرور لرؤيتك . هيّا ، تعالي قومي بواجبك وأنزلي رغباتك على ارادة ابيك . اريد ، اريد ان أعلّم امك كيف تعيش ؛ ولأمعنَ في احتقارها ، هأنذا قد جئت رغم أنفها بمارتين ولتقيمنّ في هذا الدار .

هنريت — عزيمتك تستحق الثناء . إعمل على ألا تتغيّر هذا المزاج . كن حازماً في ارادة ما تتمناه ؛ ولا ينبغي لك أن تتْوَتَى من طيب قلبك. لا تلن قناتك ، واجتهد ألا تكون الغلبة لأمي عليك .

كريزال — عجباً لك ! أتظنينني أبله ؟

هنريت — أعوذ بالله من ذلك !

كريزال = أأنا احمق ، من فضلك ؟
هنريت = لم اقل هذا .
كريزال = ام يظنون اني عاجز عن اتخاذ موقف حازم كما ينبغي للرجل العاقل ؟
هنريت = كلا يا ابي .
كريزال = أيكون معنى ذلك أنني في سني هذه ليس لديّ الذكاء الكافي لأكون سيداً في بيتي ؟
هنريت = على العكس .
كريزال = ام ان عندي هذا الضعف في النفس بحيث اترك زوجتي تقودني صاغراً ؟
هنريت = ايه ! كلا يا ابي .
كريزال = ماذا اذاً ؟ اراك سخيفة بالتحدث هكذا اليّ .
هنريت = إن كنت ازعجتك فما تلك برغبتي .
كريزال = ارادتي يجب ان تُتبّع في كل شيء هنا .
هنريت = حسن جداً يا ابي .
كريزال = ليس لأحد سواي الحق ان يحكم في هذه الدار .
هنريت = نعم ، انت على حق .
كريزال = انا الذي أشغل رئاسة الأسرة .
هنريت = متفقان .
كريزال = انا الذي يجب ان اتصرّف بابنتي .
هنريت = نعم .
كريزال = اعطتني السماء مطلق السلطة عليك .
هنريت = من يقول لك العكس .
كريزال = وسأريك انك اذا اردت زوجاً فعليك ان تنقادي لابيك لا لأمك .
هنريت = وا اسفاه ! أما انك لتداعب بهذا أعذب آمالي ؛ تقبّل طاعتي ، هذا كل ما اريد .
كريزال = سنرى اذا كانت زوجتي المخالفة لرغباتي . . .
كليتاندر = ها هي ذي تقود الكاتب العدل .
كريزال = كونوا جميعاً في عوني (١) .

(١) ما اشجعه حين تغيب زوجه وما اجبنه حين تحضر ! « المعرب »

مارتين — دعني ، سأعنى بتشجيعك ، اذا اقتضى الأمر .

المنظر الثالث

فيلامنت ، بيليز ، ارماند ، تريسوتان
الكاتب العدل ، كريزال ، كليتاندر ، هنريت ، مارتين

فيلامنت « الى الكاتب » — الا تستطيع ان تغيّر اسلوبك الجافي وان تكتب لنا عقداً بلغة جميلة ؟

الكاتب — اسلوبنا جيد جداً ، وسأكون أحمق يا سيدتي إن اردت ان أغيّر فيه كلمة واحدة .

بيليز — آه ! يا لها بربرية وسط فرنسا ! تفضّل يا سيدي على الاقل في سبيل العلم فعبّر عن المهر بالعملة اليونانية ، وأرّخ بالألفاظ الرومانية.

الكاتب — انا ؟ إن رحت استجيب يا سيداتي لطلبكن ، فسأجعل نفسي سخرية بين رفاقي جميعاً .

فيلامنت — عبثاً تتشكّى من هذه الغثاثة . هيا يا سيدي . تقدّم من الطاولة للكتابة .
« ثم تلمح مارتين فتقول : » زه ! زه ؟ هذه السفيهة ما زالت تجرؤ على الدخول ؟ لماذا ، من فضلكَ ، أعدتها اذن الى بيتي ؟

كريزال — بعد هنيهة ، حين نفرغ ، سأقول لك السبب . لدينا الآن امر آخر لننجزه.

الكاتب — لنشرع بالعقد . اين هي اذن العروس ؟

فيلامنت — التي ازوجها هي الصغرى .

الكاتب — جيد .

كريزال — نعم . ها هي ذي يا سيدي ؛ اسمها هنريت .

الكاتب — حسن جداً . وأين هو العروس ؟

فيلامنت — « مشيرةً الى تريسوتان » — الزوج الذي امنحها هو السيد .

كريزال « مشيراً الى كليتاندر » : — والذي اريد انا شخصياً ان تقترن به هو السيد .

الكاتب — أزوجان ؟ هذا اكثر مما تسمح به العادة .

فيلامنت — لماذا تتوقف ؟ ضع تريسوتان صهراً لي يا سيدي ، ضمه (١) .

كريزال — ضع كليتاندر ، يا سيدي ، ضمه صهراً لي .

الكاتب — تفاهما اذن ، وبحكم ناضج فلتتفقا فيما بينكما على الزوج .

فيلامنت — إتبع ، اتبع يا سيدي ما اختاره .

كريزال — أعمل ، اعمل ياسيدي حسبما اري .

الكاتب — ألا خبروني اي الاثنين اذن اطيع .

فيلامنت «الى كريزال» — ماذا اذن ! أتقاوم الاشياء التي أريدها ؟

كريزال — لا اطيق ألا يسعوا الى ابنتي إلا حباً للمال الذي يرون في اسرتي .

فيلامنت — حقّ ، انه يفكر في مالك جيداً ، وههنا شاغل لا تليق جداً برجل الحكمة !

كريزال — على كل حال لقد اخترت كليتاندر زوجا لها .

فيلامنت «مشيرة الى تريسوتان» — وانا هذا هو الذي أريده زوجاً لها : اختياري سيتّبع ، هذه قضية محتومة .

كريزال — ماذا ؟ تتناولين الأمر بصورة جازمة حاسمة !

مارتين — ليس للمرأة ابداً ان تأمر ، ونحنا (٢) يجب ان نترك الكلمة العليا للرجال .

كريزال — أحسنت القول .

مارتين — لسريحي وإن تحقق مئة مرة فسأقول : لا ينبغي للدجاجة ابداً ان تتغنى قبل الديك (٣) .

كريزال — من دون شك .

مارتين — ونرى ان الرجل يصبح سخرية الناس اذا لبست امرأته لباس الرجال في بيته (٤) .

كريزال — صحيح .

مارتين — سأقول هذا : لو كان لي زوج لأردت ان يكون سيد البيت . ما كنت لاحبه ابداً إن ذلّ وخضع ؛ فاذا بدا لي ان أجادله ذات يوم ، اذا رفعت صوتي في حديث ،

---

(١) ما أشقّ هذه الساعة على هنريت وكليتاندر ، لاسيما وأن ظهيرهما « آريست » مايزال غائباً . حقاً ان الجدّ القاسي يمتزج في مسرح موليير بالهزل الصاخب « المعرب » . (٢) تريد : ونحن لا تنسَ مشكلة مارتين الكبرى ، أعني جهلها النحو « المعرب » . (٣) لا تنس ان المتكلمة خادم . « المعرب » (٤) الأصل : اذا لبست امرأته السراويل في بيته .

فاني أجد من المستحسن كثيراً ان يخفض صوتي ببعض صفعاته .

كريزال — هذا هو التكلم كما ينبغي .

مارتين — سيدي عاقل اذ يريد لابنته زوجاً مناسباً .

كريزال — نعم .

مارتين — لماذا ترفضون لها كليتاندر ، وهو ما هو من الشباب وحسن الهيئة . لماذا ، من فضلكم ، تعطونها عالماً لا ينقطع عن الانتقاد والتصحيح ؟ هي في حاجة الى زوج، لا الى مربّي ؛ انها لا تريد ان تعرف اليوناني ولا اللاتيني ، فلا حاجة بها الى السيد تريسوتان .

كريزال — حسن جداً .

فيلامنت — يجب ان نتحملها تهذر كما تشتهي .

مارتين — لا يصلح العلماء إلا للوعظ على المنابر ؛ وبخصوص زوجي ، انا ، فقد قلت الف مرّة : لا أريد ان اقترن برجل ابداً . ليس العلم ابداً بالذي ينبغي لشئون البيت؛ الكتب لا تليق بالزواج ؛ اريد ، اذا طلبوا ذات يوم يدي ، زوجاً ليس له كتاب سواي ، زوجاً لا يعرف الفاً ولا باء ، زوجاً ، ولتفكر سيدتي كما تشاء ، لا يكون دكتوراً الا من اجل امرأته .

فيلامنت « الى كريزال » — هل انتهى هذا ؟ وهل يكفي ما استمعتُ بهدوء الى مترجمتك الفاضلة !

كريزال — بالحق نطقت .

فيلامنت — وانا ، لأوجزَ هذه المحاجّة، يجب ان تُنفّذ رغبتي بصورة جازمة . هنريت وتريسوتان سيقترنان في الحال ؛ قلت ذلك ، اريده ، لا تجاوبني ؛ واذا كنتَ قد اعطيت كليتاندر كلمتك ، فاعرض عليه ان يتزوّج الكبرى .

كريزال — هذا تدبير حسن في هذه القضية . انظري : هل توافقين على ذلك ؟

هنريت — هيه ! يا أبت !

كليتاندر — هيه ! يا سيدي !

بيليز — كان في المستطاع ولا شك ان تقدّم له عروضاً يكون عنها أرضى وبها أسعد(۱)

---

(۱) ما زالت بيليز المسكينة تهذي بحبها الأفلاطوني ! « المعرب » .

بيد أننا أقمنا فيما بيننا ضربا من الحب الذي يجب ان يكون نقياً مثل كوكب النهار؛ فيه يُقبل الجوهر العاقل ، ولكننا نطرد عنه المادة ذات الطول والعرض .

المنظر الرابع

آريست ، كريزال ، فيلامنت ، بيليز
هنريت ، ارماند ، تريسوتان ، الكاتب
كليتاندر ، مارتين

آريست — يؤسفني ان أعكر احتفالاً بهيجاً بالحزن الذي علي" ان احمله الى هذا المكان. في هتين الرسالتين احمل خبرين اشعر بقساوة وقعها عليكم . « يخاطب فيلامنت » : احداهما لك ، جاءني بها وكيلك . « يخاطب كريزال » : والأخرى لك ، جاءتني من « ليون » .

فيلامنت — أي شقاء جدير بتكديرنا عساهم ان يكتبوا الينا ؟

آريست — في هذه الرسالة شيء منه فاقرئيها .

فيلامنت « تقرأ » :

« سيدتي ؛ رجوت السيد أخاك (١) ان يسلمك هذه الرسالة ، وفيها ما لم أجرؤ على مخاطبتك فيه . ان اهمالك الكبير لأعمالك كان سبباً لئلا يخبرني كاتب محاميك للقيام بما يجب ، فخسرتِ دعواك إطلاقا ، وكان يجب ان تربحيها . »

كريزال « الى فيلامنت » — دعواكِ قد خسرت !

فيلامنت — لشدّ ما تضطرب ! لم يهتز" قلبي لهذه الضربة البتة . ألا فلتظهر نفساً ارقى من نفوس الدهماء باهوانك سهام القدر مثلي . « تتابع القراءة » :

« لقد كلفك اهمالك أربعين ألف دينار ؛ فقضت المحكمة عليك بدفع هذا المبلغ مع النفقات . »

قضت علي" ! آه ! هذه الكلمة جارحة ، لم توضع لغير المجرمين .

آريست — انه على خطأ ، حقاً ، وإن لك ان ترفعي صوتك بالدهشة . كان عليه ان

---

(١) آريست

يكتب انك مرجوّة بقرار المحكمة ان تدفعي عاجلا اربعين الف ديناراً مع النفقات .

فيلامنت — اقرأ الأخرى .

كريزال « يقرأ » :

« سيدي ؛ الصداقة التي تربطني بالسيد أخيك تجعلني أهتمّ بكل ما يخصك . أعلم انك وضعت ثروتك بين أيدي « ارجانت » و « دامون » . وأحيطك علماً أنهما اعلنا افلاسهما في اليوم نفسه . »

يا للسماء ! أأفقد دفعة واحدة هكذا ثروتي كلها !

فيلامنت — عجباً ! يا للانفعال المخزي ! كل هذا ليس بشيء . ليس ثمّة مصيبة فاجعة في نظر الحكيم الحق ، فانه اذا خسر كل شيء فلن يخسر نفسه . لنُنهِ عملنا ، ولنترك حزنك : « تشير الى تريسوتان » : مالُه يكفينا ويكفيه .

تريسوتان — كلا يا سيدتي ، دعي عنك استعجال هذا الأمر . اري الناس كلهم يعترضون سبيل هذا الزواج ، وليس في نيتي اكراههم على امر لا يحبونه .

فيلامنت — هذه فكرة طرأت عليك في وقت قصير ! لقد جاءت إثر محنتنا يا سيدي !

تريسوتان — ضجرت أخيراً من هذه المعارضة كلها ؛ أفضّل ان أعدل عن هذه القضية الشائكة ، ولا أريد بحال قلباً لا يهب نفسه .

فيلامنت — ارى ، ارى منك ما رفضتُ ان اصدقه الى الآن عنك ، وهو مالا يشرّفك.

تريسوتان — تستطيعين ان تري فيّ كل ما تريدين ، فأنا لا اهتم بالطريقة التي ستفسرين بها الأمر ؛ على اني لست بالرجل الذي يتحمل عار الرفض الذي عليّ ان اتحمله هنا مرّة إثر أخرى : أستحقّ ولا شك ان أحظى منكم باحترام اوفر ، وأنا اودّع الذين لا يرغبون فيّ . « يخرج »

فيلامنت — ما أوضح ما كشف نفسه النفعية الجشعة ! ما أبعد ما فعله عن الفلسفة !

كليتاندر — انا لا اتمدّح بالفلسفة ؛ ولكنني على كل حال اربط مصيري بمصيركم على الملأ يا سيدتي ؛ وأجرؤ فأقدّم لكم شخصي والمال الذي تعلمون ان الحظ قد جاءني به .

فيلامنت — بهرتني يا سيدي بهذه الخلال الكريمة، وأريد أن اتوّج بالخير حبك. أجل، اوافق ان يحظى غرامك اللاعج بهنريت ، و . . .

هنريت — كلا يا اماه ، غيرت الآن فكري . اسمحي لي ألا ألبي طلبك .

كليتاندر — عجباً لك ! أتحولين بيني وبين السعادة حين أرى الجميع يستجيبون لحبي ؟

هنريت — أعرف المال القليل الذي في حوزتك ياكليتاندر ، وقد تمنيت دوماً انتكون زوجاً لي عندما رأيت ان هذا الزواج يحقق أعذب آمالي ويصلح من أمرك ؛ ولكني وقد نزلت بنا المصائب ، احبك حباً لا يسمح لي ، ونحن في هذا الضيق ، ان أحمّلك اثقاله .

كليتاندر — كل حظ يحلو معك لي ؛ كل حظ بدونك لا يطاق .

هنريت — هكذا يتكلم الحب في سورته دائماً. لنتجنب الامور التي تعقبنا ندماً وحسرة. ما من شيء يبلي جدّة هذا الحب الذي يشدّ بعضنا الى بعض الا الحاجات المنغصة الى أشياء الحياة ؛ فكثيراً ما يؤدي الأمر الى ان يتبادل الطرفان التهم في الهموم والمصاعب التي تلي غرامها .

آريست « الى هنريت » — أليس ثمة ما يدعوك لمدافعة الزواج من كليتاندر غير السبب الذي ذكرت ؟

هنريت — لولا ذلك لوجدتم قلبي يسرع اليه ؛ وما أترك يده إلا حباً له .

اريست — لتقترنا اذن بجميل الروابط . لم احمل اليكم إلا اخباراً باطلة ؛ تلك حيلة ، نجدة لم تكن منتظرة ، قمت بها لخدمة حبكما ، ولأوضح لأختي خطأها ولأبيّن لها ماذا عسى ان يكون فيلسوفها عند التجربة .

كريزال — الحمد لله على ذلك !

فيلامنت — قلبي يطفح سروراً للغمّ الذي سيعتري هذا الهارب النذل ؛ ذلك هو جزاء طمعه الدنيء ، اذ يرى هذا الزواج يتمّ في روعة وبهاء .

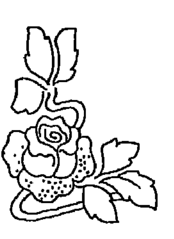
كريزال « الى آريست » — انا كنت اعرف جيداً انك ستزوجها .

ارماند « الى فيلامنت » — وعلى هذا فأنت تضحّي بي لأجلها .

فيلامنت — أبداً ان تكوني انت الضحية ، فالفلسفة تخفّ لنجدتك لتري بعين قريرة حبها يكلل بالنجاح .

بيليز ــ خــذوا بعين الاعتبار أني في قلبه . طالما دفع اليأسُ الغضوبُ المفاجئُ الى الزواج ، ثم تكون الندامة مدى الحياة .

كريزال « الى الـكاتب » ــ هيا يا سيدي ، اتبع الأمر الذي أصدرته ، وسجل العقد على النحو الذي ذكرته (١) .



(١) هذا الامر الحازم من كريزال بعدما تراجع امام زوجته يحمل على الابتسام . وهنا موضع الفكاهة في شخصية هذا الرجل « المعرب »

فهرس الجزء الثاني









